

www.kotobarabia.com
رواية
العين ذات الجفن المعدنى
www.kotobarabia.com
د.شريف حتاته

الدكتور شريف حتاتة

العين ذات الجفن المعدني

رواية

مقدمة

هذه القصة لا أعرف إن كانت حلمًا أو حقيقة. فأحياناً أحس أنها مجرد حلم، أو ربما أكثر من الحلم. وأحياناً أشعر أنها حقيقة، بل أكثر من الحقيقة. ظلت تطاردني وتلح على سنين طويلة. حاولت أن أسجلها عدة مرات، ولكنها كانت تهرب مني في كل مرة بعد ساعات قليلة.

ولكن في ليلة من ليالي الصيف. جلست بجوار النافذة، وسمعت صوتًا مألوفًا ومحبوبًا يقول: فيم تفكر؟ فقلت " في القصة ".

قالت: " يجب أن تكتبها ".

سكت التليفزيون في الحجرة المجاورة، ونام الأطفال، وأطفئت الأنوار في الشقة. وبقيت هي جالسة أمام المكتب تنظر إليَّ بين الحين والحين بعينين واسعتين، فيهما أشياء كثيرة تتحدث، رسالة دون كلمات، رسالة غامضة ومفهومة في آن واحد.

* * *

استيقظ على وقع أقدام كثيرة صامتة تقترب من النوافذ العريضة المطلة على الشرفة. وانتقل فجأة بكل حواسه من النوم العميق إلى اليقظة التامة. نظر إلى معصمه ليبحث عن نقطة محددة في الظلام الحالك، في بحر من الزمن الممتد اللانهائي. كانت العقارب الفوسفورية تشير إلى الرابعة.

ارتدى ملابسه في هدوء بحركات سريعة مجربة، ثم جلس على السرير ينتظر الشيء الذي أحس أنه سيقع.

فتح الباب بحذر وفجأة غمر النور الحجرة. رأى الرجل واقفًا، طويل القامة، شاحب الوجه، وعلى جبينه قطرات عرق قليلة. صوب إليه شيئًا مدببًا ثم قال:

" كيف حالك يا عزيز "؟

" لا بأس ".

" لماذا أنت بملابس الخروج "؟

" كنت أنتظرك ".

ارتفع صوته بعصبية، وأشاح نحو عزيز بشيء أسود لامع.

" لا تحاول أي شيء. أنا أبحث عنك منذ زمن. والجولة انتهت ".

" لنا جولة ثانية ".

جاءوا بها من الحجرة المجاورة. وتقابلت عيونهما في صمت. لا يوجد ما يقال، فكل شيء مفهوم دون كلمات. إنه يعرفها، وهي تعرفه، وسيبقيان كما هما. ولكن هناك بعض من الحزن في القلب، ومسحة من الحزن على الوجه. إنهما يدركان أين هما ذاهبان، فليست هذه أول مرة يأتي إليهما فيها هذا الرجل، في ظلام الليل، ومعه رجال آخرون لينتزعوهما من قلب المدينة.

أحاطوا بهما حتى السيارة المنتظرة عند قمة الشارع. كان الجو صافيًا والأشجار تهتز كالأشباح الفضية في ضوء القمر. ملأ رئتيه بأنفاس عميقة، وكأنه يختزن الهواء النقي لرحلة طويلة. مزق صوت أجش سكون الليل الجميل، وتبعته أصوات أخرى. هكذا هم دائمًا، يمزقون سكون الليل الجميل.

جلس بين رجلين. الوجه الحليق، والشارب المنسدل، والسترة الطويلة الأنيقة، ورائحة الكولونيا. كل هذا يعرفه جيدًا. والرجل طويل القامة بجوار السائق يتلفت إليه من وقت إلى آخر ليطمئن على وجوده، وينظر إليه بطرف عينيه، فقد قالوا له " في مثل هذه الأوقات ادرسه جيدًا".

السيارة تسرع عبر الشوارع الخالية من كل شيء سوى أضواء المصابيح. شعوره كالراحل الذي يترك أرضًا عزيزة لا يعلم إذا كان سيعود إليها. ومع ذلك أحس بالراحة بعد عناء. لا داعي بعد الآن للتفكير الكثير، والتنقل، والجهد، واليقظة الدائمة. فالآن هو محمول على ظهر سفينة لا يملك دفتها. كم كان يشعر بالتعب أحيانًا!.

" أتعرف أين أنت ذاهب؟ ".

" أعرف ".

" أنت لا تعرف بالضبط ".

" لا يهم، فالأماكن سواء ".

" إنها ليست سواء. خذ سيجارة ".

" شكرًا لا أريد أن أدخن ".

" ألست تدخن "؟

" نعم، ولكنني لا أرغب في سيجارة الآن ".

وصلت السيارة أمام بوابة ضخمة مفتوحة وكأنهم كانوا ينتظرونهم. انتصبت أربعة رجال على الجانبين لا يتحركون. رأى البوابة من طرف عينه وهي تغلق خلف السيارات، وأحس أن حياته أصبحت وراءه.

أنزلوهما في أرض خلاء واسعة مغطاة بالرمل. رأى وجهها الشاحب من بعيد، ورأى عينيها الواسعتين لآخر مرة. أوقفوها وسط الحوش، وساروا به حتى باب صغير في جدار عال. فتحوا الباب ليدخل منه، فتلفت إلى الوراء، ولوح لها بيده. انتظر حتى رأى يدها تلوح في الهواء، ثم دخل.

* * *

حجرة صغيرة مضاءة بلمبة كهربائية ضعيفة، ومكتب بني داكن تشققت ألواحه، ورجل بدين عيناه منتخفتان يجلس وراء المكتب، ودكة خشبية بجوار الحائط، وما عدا هذا ... لا شيء. وقف على أرض من الأسمنت الخشن في الضوء الخافت البارد الذي يتسرب من نافذة صغيرة بجوار السقف، ومن اللمبة الصفراء المغطاة بطبقة من الذباب الأسود يصعد في خيط ممتد حول السلك الكهربائي. لم يعد يشعر تمامًا بما يدور حوله. جسمه يتحرك وحده، والأصوات تأتي وكأنها تمر عبر مسافة طويلة، وكتلة سوداء تنمو في داخله مع كل لحظة تمر، مثل غاز ثقيل يملأ الفراغ، ويتسرب إلى كل ركن.

وقف وسط الرجال طويلي القامة، حليقي الذقن، يتحركون في الحجرة الصغيرة بألفة، وعلى وجوههم بسمة خفيفة، واختفت رائحة الكولونيا المنبعثة منهم لتحل محلها رائحة مألوفة من العرق الحامض، والأقدام القذرة، والعطن، رائحة تبدد معها فجأة ذلك الشعور الغريب بالتبلد وعدم الاكتراث، فأحس بالعقل يقاوم الحلم القاتم، مثل ذبابة في نسيج العنكبوت.

فتح الرجل البدين درج المكتب وأخرج منه دفترًا وقلمًا جافًا، وبلل أصابعه، ثم أخذ يقلب الصفحات.

" اسمك "؟

" عزيز ".

" سنك "؟

" ٢٥ سنة ".

" سكنك "؟

" ليس لي سكن ".

نظرت إليه العينان المنتفختان تفحصانه في برود، وحملقت معهما عيون الآخرين من أركان الحجرة المختلفة. ثم استطرد:

" متزوج "؟

" نعم ".

" اسم زوجتك "؟

" اسمها؟ زوجتي ".

توقف عن الكتابة لحظة دون أن يرفع رأسه.

" أين هي "؟

" لا أدري ".

" أمعك نقود "؟

" نعم ثلاثة جنيهات ".

تناول منه المحفظة. أخرج ما فيها من أوراق وسجلها في الدفتر. " اخلع الحزام ورباط الحذاء، والساعة، والنظارة ".

خلع الحزام وانحنى حتى يفك رباط الحذاء. " يا ترى لماذا رباط الحذاء "؟ وضعهما أمامه على المكتب، ثم أضاف إليهما النظارة، والساعة.

اقتاده اثنان من الرجال خارج الحجرة من باب في الجدار كالشق لم يكن قد لاحظه. أحس بالملمس الخشن للرمل وصوت الزلط الصغير تحت قدميه، وبنسيم منعش يداعب وجهه. في الأفق كان خيط رفيع أحمر يظهر فوق الأرض. مشوا مسافة قصيرة ثم دخلوا في حوش مربع يتوسطه مبنى صغير، منخفض، وحوله أربعة صفوف طويلة من الأبواب. فتحا أحد الأبواب، وأدخلاه إلى الحجرة ثم أغلقا الباب قبل أن يلتفت إليهما.

خلع حذاءه، وجوربه، واستلقى على سرير وضع في الناحية اليسرى من الحجرة.

* * *

إنه غارق في بئر عميق كالح الظلام يحاول الصعود. قدماه عاريتان والسلالم مثل الصخور المدببة المغطاة بالطحالب المائية. في كل خطوة مؤلمة يكاد ينزلق حتى القاع. مد يده يبحث عن شيء يتعلق به، وفجأة أحس بقبضة قوية تسحبه منها، وبالظلام يتبدد تدريجيًا كلما ارتفع جسده إلى أعلى. فتح عينيه فجأة ليجد أشعة شمس طويلة تسقط من النافذة الصغيرة المفتوحة بجوار السقف لتصل إلى قدميه العاريتين الممدودتين فوق بطانية خشنة بنية اللون، وذبابة بطيئة تدور حولهما.

نظر إلى معصمه بحركة الاستيقاظ اليومية المعتادة، فلم يجد الساعة، وتلفت حوله يبحث عنها في الحجرة. لا شيء سوى منضدة مربعة من الخشب الأبيض، ودكة ذات قرص مستدير مثبت على ثلاثة أرجل سميكة. أحس بيده اليمنى مطبقة على جسم دائري صلب. فتح أصابعه الواحدة بعد الأخرى ليجد دبلة ذهبية صغيرة تبرق في أشعة الشمس فوق كفه الممدودة. غمرته سعادة ساذجة عندما تذكر أنه بالأمس بحث الرجل ذو العينين المنتفختين طويلاً في ملابسه وفي كل أجزاء جسمه عن الدبلة دون أن يعثر عليها.

قفز واقفًا على قدميه العاريتين فوق الأرض الأسفلتية السوداء، الباردة، وكأنه تذكر فجأة موعدًا عاجلاً طواه نسيان النوم بعد ليل من السهر.

أصابه ذلك الدوار العنيف الذي يعرفه جيدًا. كان سيد يسميه " رقصة الجوع ". أسند يديه على حافة السرير إلى أن عادت الجدران

المتحركة داخل رأسه إلى وضعها الطبيعي، ثم جلس فوق البطانية الخشنة، دون حركة، يحملق في أشعة الشمس التي أخذت تتقلص بالتدريج إلى أن أصبحت نقطة دائرية بيضاء فوق الأسود فلت الأسود. زحفت الدقائق، بل ربما الساعات، لا تتخللها حركة أو صوت سوى الإحساس بنبض القلب، وطنين الذبابة المتقطع، ولا يملأها شيء سوى الترقب الهادئ للقاء الذي كان لابد أن يقع.

* * *

خطوات تقترب، ورجال يتحدثون، وصوت يقول " افتح الباب "، ورنين السلاسل الحديدية تحتك حلقاتها، وحركة المزلاج الحديدي يدفع بعنف فيصطدم بآخر المجرى. انفتح الباب، ومضت لحظات لا يستطيع فيها تمييز أي شيء من شدة الضوء الذي تسرب فجأة إلى الحجرة نصف المظلمة. ثم بالتدريج أخذت الأشياء تتضح أمام عينيه.

وقف الرجال الثلاثة بعيدًا عن فتحة الباب يتأملونه في صمت، وهو يجلس على حافة السرير، فنهض ببطء وسار بضعة خطوات مقتربًا منهم إلى أن أصبح قادرًا على رؤيتهم جيدًا، ثم توقف. كان أكبرهم سنًا ورتبة على ما يبدو، رجل قصير القامة، أصلع الرأس إلا من بضعة شعيرات نبتت بجوار أذنيه. كان يقف وراءه شاب في الثلاثينيات من عمره، عريض الجسم، مربع الكتفين تبدو عليه علامات القوة البدنية، يتابع ما يجري بنوع من اللامبالاة المصطنعة التي تكذبها نظرة عينيه الزرقاوتين الفاحصة، وحركة يديه العصبيتين اللتين تنتقلان دون توقف من حافة السترة، إلى الحزام، إلى جيب السروال، لتبدأ الدورة من جديد. شيء ما في وقفته، أو في ملابسه، أو في تقاطيع وجهه الوسيمة تدل على أنه تعود

الحياة الرغدة. وشيء آخر في عينيه الزرقاوتين البـ اردتين المصـ وبتين إليه، وفي أصابع يديه الطويلة العنيفة يوحي بقسوة مستترة.

أما الرجل الثالث فكان يقف بعيدًا عن الآخرين بجوار ضلفة الباب المفتوحة، منتصبًا في وضع يشبه الانتباه، ممسكًا في يده اليسرى بـ بعض المفاتيح.

أشار الرجل قصير القامة إليه بيده وقال " كبريـ ـت يـ ـا عـ ـويس " وأخرج من جيبه علبة " فيليب موريس " رمادية، فتحها بعنايـ ـة وسـ ـحب منها سيجارة. أشعلها من يد عويس الممدوة مثل خف الدب الأسـ ـود، ثـ ـم التفت إلى عزيز وقال في صوت هادئ ممطوط الكلمات:

" الدكتور عزيز أظن "؟

" نعم هو أنا ".

" من الغربية أظن "؟

" نعم من مركز قطور ".

" أولدت هناك؟ "

" لا ولدت في لندن ".

" آه هكذا ... في لندن "؟

" نعم في لندن "؟

" متزوج "؟

" نعم متزوج ".

" وأين زوجتك "؟

" لا أدري ".

أحس بالعينين الزرقاوتين تصوب إليه نظرات كالرمـ ـاح البـ ـاردة الحادة.

التفت عزيز إليهما وأخذ يحملق فيهما قليلاً. ولكن الرجل القصير استطرد في الحديث.

" أنت طبيب بشري "؟

" نعم ".

" حسناً ... إذن سيمكننا استشارتك عندما نمرض "، وضحك ضحكة قصيرة دون أن تبدو على وجهه علامات الضحك.

" لعلك تكون مستريحًا "؟

" الحمد لله ".

" ألا ينقصك شيء "؟

" نعم تنقصني بعض الملابس، وفوطة، وصابون. كما أرجو أن تعيدوا إليَّ نظارتي، وأن يخصص لي وقت للتريض ".

" الملابس، والفوطة، والصابون ممكن. التريض لم يحن وقته بعد. أما النظارة، فقد سحبناها خوفاً من أن تستخدمها للإضرار بنفسك ".

" أضر بنفسي "؟ لم يدرك ما قصد إليه لأول وهلة، ثم ابتسم لفكرة بدت بلهاء، وقال: " أنا أريد النظارة ".

" سنرى فيما بعد. يا حجازي " ملتفتا إلى الشاب ذي العينين الزرقاوتين، " خذ عنوانه ". أشار بيده " أغلق يا عويس ".

وضع عويس يده على المزلاج الأسود الطويل، فتراجع عزيز قليلاً داخل الحجرة. سمع صوت الحديد يدخل في الحديد بعنف، ورنين حلقات السلسلة وهي تصطدم بالباب. اختفى نور النهار الساطع في غمضة عين، وكأنما سقطت الشمس فجأة، تاركة وراءها ذلك الضوء النصف في الذي يوصل النهار بالليل. استلقى على السرير يستعيد دقائق الحديث الذي جرى منذ لحظات ويبحث في معانيه الظاهرة والمستترة. فهنا كل شيء

ينبغي أن يخضع للفحص، وكل نظرة ينبغي أن تحلل، خصوصًا نظرة هذين العينين الزرقاوتين التي كان يصوبهما إليه اليوزباشي حجازي.

الرجل القصير ... يبدو أنه المسئول هنا. ومع ذلك فلا داعي للتفكير في أمره كثيرًا. سينفذ الأوامر برفق. فعندما التقت نظراتهما قرأ في عينيه شيئًا ما ربما كان الألم، أو العطف، أو نوعًا من التشجيع الخفي.

" من الغربية إذن "؟

" نعم من مركز قطور ".

" أولدت هناك "؟

" لا ولدت في لندن ".

طفل صغير أحمر الوجنتين، أسود العينين، يرتدي بنطلونًا قصيرًا كحلي اللون مصنوع من القطيفة، وقميصًا من الحرير الأبيض الشفاف الموشى بالدانتيلا، وببعض الأزرار المزركشة، وحذاءً بناتيًّا لميعًا وجرابًا أبيض يصل تحت الركبة بقليل، انطلق من الباب الأمامي لمنزل صغير في أحد ضواحي لندن، مثل قنبلة تنطلق من فوهة مدفع، وأخذ يجري بأقصى سرعته على رصيف الشارع الطويل المغطى بالثلج الأبيض.

فاليوم، يوم الأحد، والساعة قد قاربت على العاشرة – وما زال أمام خطواته الصغيرة اللاهثة طريق طويل ممتد. فالمسافة بين المنزل والكنيسة تستغرق أكثر من عشر دقائق إذا جرى الإنسان بأقصى سرعته. لم يتمكن من الخروج قبل ذلك لأنه لا يريد أن يخبر أحدًا أين هو ذاهب، لا خشية الاعتراض أو العقاب، فأمه قد غادرت المنزل منذ الصباح الباكر، وجدته العجوز لم تعد ترى الكثير بعينها الباهتة الوحيدة. لكن المسألة هي تلك الرغبة في الاستقلال بنفسه التي تتملكه دائمًا عندما يسأله أحد عن تحركاته، وذلك العالم الصغير الخاص الذي أقامه بعيدًا عن حياة

البيت، عالم يختلط فيه الخيال الواسع بالواقع المحدود، وتختلط فيه البهجة، والسعادة وروعة الاكتشاف بلحظات قليلة من الكآبة التي تستولي على قلبه في بعض الأيام.

السماء رمادية اللون، تغطيها السحب الكثيفة التي تبـ دو وكأنهـ ـا لا نهائية، والبيوت على الجانبين تقف في صفين طـ ويلين، نمـ وذج واحـ ـد متكرر يبعث على الملل: السقف المدبب، الأحمر، المغطى بالثلج الأبيض، والجدران من المصيص الخشن الذي يصعب تحديد لونه، وإن كان أقرب إلى الأصفر الغامق. والأركان الأربعة مزدانة بالطوب الأحمر، وتحـ ـت السقف المدبب نافذة واحدة تبدو كالعين الساهرة في جبهة حيوان غريب، وتحت النافذة الواحدة أربعة نوافذ أخرى موزعـ ـة فـ ـي سـ يمترية علـ ـى مسافات متساوية بحيث تشكل زوايا المربع، وباب واحد يتوسط واجهـ ـة كل بيت تنحدر منه درجتان متآكلتان، وحديقة مربعة أمام كل بيت تغطيها طبقة سميكة من الثلج الأبيض فيما عدا الممشى الممتد كثعبان أسود مـ ـن الباب الخارجي في السور إلى مدخل البيت، وجذوع الشجر ترتفع فروعها العارية كالأصابع المعروقة نحو السماء.

الطفل يجري وحده على الطريق الخالي إلا مـ ـن بعـ ـض المـ ـارة القليلين، وعيناه تتطلعان في إصرار إلى الأمام، لا يلتفت يميناً أو يسـ ـارًا، ولا يتوقف لحظة عن السير، كان شيئًا ما يجذبه إلى هدف مجهول. وفجأة دون أن يشعر بالمسافة التي اجتازها بخطواته الصغيرة اللاهثـ ـة، وجـ ـد نفسه أمام الكنيسة البيضاء بنوافذها الملونة، والصليب فوق قمتها العاليـ ـة، وحشد كبير من الناس يتدفقون من فجوة الباب الكبيرة، والورد الأحمر في عروة السترة السوداء الطويلة، وزهور البنفسج بـ ـين الأصـ ـابع، وفـ ـوق الصدور البارزة، والملابس البيضاء الرقيقة تتحرك فوق الثلج، والموسيقى

وأصوات الغناء تنبعث من الداخل، والضحكات الناعمة تنبض بجاذبية مجهولة، وأطفال بملابسهم الجديدة يضعون أيديهم في أيدي الكبار، ويتأملون بعيون مفتوحة هادئة ذلك الحشد الذي لا يكف عن الحركة والكلام.

وقف الطفل هكذا ينتظر، كأنه جزء مما يجري ومنفصل عنه في نفس الوقت.

توقفت الموسيقى وأصوات الغناء. وساد الصمت مدة بدت طويلة، انتهت بهمهمة غامضة انبعثت من الفجوة المظلمة داخل المبنى الأبيض، ثم زاد تدفق الحشد من الداخل كأن قوة ما تدفعهم إلى الخارج، وظهرت صفوف من الأطفال تحمل الزهور، ورجل طويل، وفتاة في ثوب كالسماء أزرق، وتبعثرت فجأة حفنات من الأرز من القبضات المغلقة، وسحب من الورق الملون في دوائر صغيرة مثل فقاعات الصابون في ضوء الشمس، غطت الملابس والوجوه والأرض. اقترب الموكب منه بخطى بطيئة إلى أن أصبحت الفتاة على بعد خطوتين منه، والتقت عيناها الزرقاوتين بعيني الطفل السوداوتين كالفحم، وتوقفت عن السير لحظة، وتوقفت الدنيا عن الحركة لحظة، كأن العالم الخارجي والناس لم يعد لهم وجود، وأحس بها تنحني بشفتيها الساخنتين تتوقفان على خده لحظة أخرى. لم يشعر بعد ذلك إلا بالرجل والفتاة يختفيان داخل سيارة داكنة مربعة، انطلقت مبتعدة بين صفين من الأشجار والبيوت إلى أن أصبحت نقطة سوداء صغيرة على البساط الأبيض.

انطلق يجري وانحنى إلى اليسار في الشارع العريض عند التقاطع، ثم اجتاز صفًّا قصيرًا من الحوانيت الملونة، وتابع سيره حتى وصل إلى كوبري عال معلق في الهواء مثل حيوان ضخم، ظهره مقوس، وأطرافه

مغروسة على كل ناحية في صف من التلال المشجرة. وقف على الظهر المقوس ينظر إلى أسفل. تحت قدميه، على مسافة مخيفة منه، في الوادي الممتد بين صفوف التلال، كانت تجري عشرات، بل ربما مئات من القضبان الحديدية العارية، تتقابل، وتتباعد، وتتفرع، ثم تلتقي من جديد. هنا تقف حدود العالم الذي يعرفه، ليبدأ عالم الخيال، هنا عند السكة الحديد، حيث تتحرك القطارات مسرعة نحو الأفق، تطلق دخانها الأسود، وتصرخ صفاراتها كسكين يقطع الصمت، يوجه مسارها ذلك الرجل الذي يقبض بيديه القويتين على صف من الأذرع الطويلة المائلة أمامه. ومن فوق الكوبري أخذ يتابع الرجل وهو أمام النافذة العريضة المنخفضة، يكشف عن جذعه العريض، ويدخن غليونه في جو الشتاء، ويتأمل الديدان المسرعة على القضبان الحديدية. إنه لا شك رجل غير عادي، بل ربما يكون هو الله الذي يتحدثون عنه في البيت، وإلا لما استطاع أن يوجه القطارات هكذا، ويوزعها على أركان الدنيا الأربعة، بما فيها من رجال ونساء، وأطفال يصعدون إليها في المحطة الكبيرة القائمة بجوار الكوبري، وبما فيها من أكياس الرسائل التي سمع عنها، والتي تنتقل عبر البحار إلى بلاد بعيدة.

أمه ... تذكر فجأة أنه تأخر، ورأى أمامه عينيها الزرقاوتين تغطيهما فجأة سحابة الغضب الرمادية، فأخذ يعدو بكل قواه مبتعدًا من الكوبري. وقف برهة عند كشك صغير ليبتاع بعض الحلوى المصنوعة في شكل عرائس ملونة من العجوز ذي الشارب الأبيض الكثيف. ثم استأنف سيره نحو البيت.

لم يحمل معه ذكريات كثيرة عن طفولته الأولى، ولا يستطيع أن يقول هل كانت طفولة سعيدة أو حزينة. ولكنه موقن بشيء واحد، وهي

أنها كانت خالية إلى حد كبير من البهجة، كما أنها كانت خالية من الألم العميق. وربما لهذا السبب لم تبق له سوى صورة غامضة، قليلة التفاصيل، عن هذه الفترة من حياته. وربما لهذا السبب أيضًا لم يشعر بأن كانت له طفولة مثل الآخرين. وهذا الإحساس الغامض الدفين برتابة الحياة وكآبتها، بالنمط الواحد الذي لا يتغير، بالوجوه والأشياء المكررة العادية، بالعالم الصغير مثل القفص الذي لا تدخله ومضة ضوء جديد، أو نغمة لحن جديد تهتز له أوتار القلب جعله يبحث عن عالم آخر، وأشياء أخرى غير تلك التي تعود عليها.

فالبيت الصغير الذي تسكنه عائلته لا يختلف في شيء عن البيوت الممتدة في صفين طويلين على جانبي الطريق الذي يسيرون عليه إلى الكنيسة ثم إلى الكوبري العالي فوق السكة الحديد، وتستمر في الاتجاه الآخر في صفين طويلين صاعدة فوق الربوة إلى الميدان الذي تتوسطه السينما الوحيدة في الحي، ثم تهبط مرة أخرى لتنتهي عند جدول صغير، تحيطه في الربيع ظلال الأشجار الضخمة، والأزهار الراقصة في الرياح، والعصافير التي تنطلق بجناحيها نحو السماء، ذلك الجدول الذي يشد كل الحدود الأخرى لعالمه الصغير.

هكذا منذ الصغر عاش في عالمين، عالم البيت الذي صنعه الآخرون، وعالمه الذي يتحرك فيه بين الجدول الصافي الذي يختفي خلف الربوة البعيدة، وبين الكنيسة البيضاء ذات النوافذ الملونة وخطوط السكة الحديد التي تجري فوقها عربات القطار لتختفي عند الأفق البعيد.

عالم البيت، حجراته الضيقة تزداد ضيقاً من كثرة الأثاث الذي يملأ كل ركن فيها. كتل من الخشب الداكن في الضوء القاتم الذي يتسرب في صعوبة عبر النوافذ والستائر الكثيفة، كأن المكان مخزن للأشياء. السقف

منخفض، والجدران الرمادية تضغط على الصدر بكل ثقلها. وفي الصباح الباكر يصحو على حركة الذاهبين إلى العمل، وصوت المياه في صد نبور الحمام، وضوء المصابيح الكهربائية الضعيفة تبدد الظلام، دون أن تبدده، ذلك الظلام الذي هو ليس بالليل تمامًا، ولا بالفجر وإنما شيء آخر قبـ ل نهاية الليل، وقبل بداية الفجر، يصحو ليضع رأسه تحت المياه الباردة مثل الثلج ويرتدي ملابسه، ويشرب الشاي مع الذين يشربون حـ ول المائـ دة العريضة، يجلس في المكان المحدد له بجوار أمه تلح عليه حتـ ى يبتلـ ع قطعًا صغيرة من السمك المفرطح المقلي بالزبدة.

عالم غريب، كأنه من الأشباح، لا يصل منه صوت عبر الـ زمن، سوى صوت الجارة البدينة وهي تتشاجر من فوق سـ ور الحديقـ ة، ولا يصل منه شعاع من الضوء، سوى تلك الومضات السريعة في عيني الأم الزرقاوتين التي يراها كلما عاد من جولاته اليومية، ولا رعشة من الدفء سوى ذلك الإحساس الساخن اللذيذ الذي يشعر به عندما يلتصـ ق جسـ ده بجسد خالته الغض. فبينه وبين الفتاة الجذابة بعينيها العسليتين تعطش إلى الحب وسط ذلك العالم الموحش، يجلس ملتصقا بها في الأمسيات يتبادلان الحديث الهامس عن أحداث اليوم. وعندما تصل إلى المنزل قبله تنتظـ ره عند باب الحديقة حتى يظهر جسده الصغير مثل نقطة سـ وداء متحركـ ة على الثلج الأبيض، فتمشي نحوه ليلتقيا في منتصف الطريـ ق، وليعـ ودا بخطوات بطيئة إلى البيت.

حتى السينما الرابضة فوق الربوة لم تشعل في خيال الطفـ ل شـ يئًا آخر سوى المخاوف. يلبس معطفه الكحلي السميك كل يوم سبت، ويضع فوق رأسه طاقية من الصوف، ويضع يده الصغيرة في يد أمه ثم يصعدان الطريق الطويل حتى الربوة بخطوات مسرعة فوق الثلج الخشن، ويدخلان

السينما المظلمة بمقاعدها من القطيفة ليحيا ساعتين من الرعب يشاهد الرجل الوطواط الذي يمص دماء ضحاياه، أو الرجل العملاق يدب بساقه الخشبية عبر دهاليز البيت المهجور لينقض على امرأة في الظلام، ويطعنها بنصل حاد مثبت في الطرف المدبب للساق، لتمزق صرخاتها الرهيبة سكون الليل، فينكمش الطفل المرتعد في مقعده، تسيل منه الدموع الصامتة، وينهمر العرق الغزير على صدره وبطنه وساقيه.

كم كان يوم السبت يومًا مكروهًا في حياته، يزحف عليه كالشبح الأسود كل أسبوع. سأل أمه ذات ليلة وهو يخلع ملابسه قبل النوم. " لماذا يقتلون في السينما يا أماه "؟ فأجابت: " إنها قصة يا حبيبي وليست حقيقة". ولكن بالنسبة إليه كانت أكثر من الحقيقة، حقيقة تنمو في داخله، تملأ عقله وخياله وقلبه وجسده وكأن جيشًا من الحشرات العمياء يزحف عليه من كل صوب.

هكذا كانت تمر الحياة مع الطفل، يأكل، ويغتسل، وينام، ويتأمل جدته العجوز وهي تعد الطعام، ويحتضن خالته الشابة كمن يبحث عن مأوى في أحضانها، ويسأل عن عشرات الأشياء، عن كل شيء، فتضحك الأم فخورة أحيانًا، وتنهره ضجرة أحيانًا أخرى. لا يطلب الكثير ولا يلح، يتحرك في هدوء ويطيع الكبار عندما يأمرونه، وينتظر يوم السبت يزحف عليه كالشبح الأسود.

ولذلك فوجئ أفراد البيت جميعًا عندما وقف في ذلك اليوم الذي لم يطوه النسيان، وقف على قدميه وسط الحجرة، وعيناه مرفوعتان إلى وجه أمه، ورفض بإصرار لا يلين أن يذهب معها إلى السينما.

خارج هذا العالم الضيق الباهت كان هناك عالم آخر واسع حيث يختلط الواقع والخيال. الجدول الرقراق يجلس على ضفافه الساعات

الطويلة تحت ظلال الأشجار ممسكًا ببوصة طويلة، ربط في طرفها دوبارة، وسنارة تتدلى تحت سطح الماء، على أمل اصطياد سمكة من الأسماك التي تنطلق هنا وهناك كالسهام الفضية. والسماء الصافية بعصافيرها المجنحة تدور فوق رأسه، فيرفع لها وجهه، ويشعر بأشعة الشمس دافئة حمراء فوق جبينه، والرجل العجوز الطيب ذو الشارب الأبيض الكث والعينين الضاحكتين الذي يقف في الحانوت الأخضر الأنيق بجوار كوبري السكة الحديد، ويدس في يده كيسًا صغيرًا من الحلوى كلما وقف على الرصيف يحملق في اللعب، والكور الملونة، وأكوام البلي الزجاجية، وكوبري السكة الحديد والقطارات المسرعة التي تحمل الناس، والأطفال مثله إلى بلاد بعيدة سمع أسماءها تتردد في أحاديث الكبار: باريس، روما، القاهرة، دون أن تعني شيئًا بالنسبة إليه، سوى مكان جديد غير هذا المكان، ربما استطاع في يوم من الأيام أن يذهب إليه ويراه.

هكذا كان يهرب من الألوان الباهتة، والبيوت التي لا تتغير، والحجرات الضيقة، وضوء المصابيح في الصباح الذي ما زال ليلاً، والأحاديث التي لا تخصه ولا تثير اهتمامه، والقيود، والشعور الدفين بالبرودة ... وبالوحدة، وأخذ يخطو خطواته الأولى في عالمه الخاص.

* * *

فتح عزيز عينيه على حلقات السلسلة ترن بصوتها المعدني الحاد في سكون الليل، وحديد المزلاج يصطدم بعنف في حلقة الباب. وأضيئت اللمبة الكهربائية الباهتة فجأة ليجد أمامه وجه عويس الأسمر وكأنه مصنوع من الطين الأسوانلي، وعينين صغيرتين كحبتين من الخرز الأسود لا يحيط بهما بياض، كعيني حيوان أخرس، تتذبذبان في حركة منتظمة بحثًا عن أشياء لا وجود لها، وشاربًا أشيب أطرافه مدببة

وممطوطة إلى أعلى، وشفتين غليظتين زرقاوتين فوق فكه المربع، انفرجتا عن بعضهما لتخرج منهما حشرجة غبية.

" قم تسلم ملابسك "

وضع قدميه العاريتين في الحذاء الموضوع بعناية تحت حافة السرير ونهض واقفاً. من خلال الباب المفتوح كان تيار الهواء البارد يشق طريقه داخل الحجرة، فالتفت إلى الفتحة العريضة التي تطل على الظلام الخارجي، وملأ صدره بأنفاس عميقة، تاركاً الموجات المنعشة تداعب وجهه، وخصلات شعره المبعثرة فوق الجبهة، والأذنين، والجفنين، وتملأ الفراغ بين الياقة المفتوحة عند الرقبة وتتدحرج فوق ضلوعه الأعلى من بطنه.

" قلت لك تسلم ملابسك "

انتبه إلى عويس المنتصب في نصف المسافة الصغيرة التي كانت تفصل الباب عن السرير بحيث بدا وكأنه قد ملأ الحجرة، وبحث عن لفة أو كيس بين يدي الرجل قد يحوي ملابسه فلم يجد أي شيء. دار بعينيه على أركان الحجرة، وعندما عادت نظرته إلى الباب ثانية كانت عيناه قد أفاقت من ومضة الضوء المفاجئ، فلاحظ لأول مرة شبح رجل آخر يقف في الظلام خارج الحجرة أخذ يتقدم نحو دائرة النور. لم تستطع عينا عزيز العاجزتين بدون نظارة أن تميز ملامحه أول الأمر، ولكن عندما اقترب منه الرجل وأصبح على بعد أقل من ثلاث خطوات، تطلع إلى هذا القادم الجديد، فاعتراه شعور أقرب ما يكون إلى الدهشة. كان الرجل منتصب القامة، متوسط الطويل، يبدو أنيقاً، ونظيفاً في زيه الأصفر، يتحرك في ليونة وقوة يحسهما الإنسان أكثر مما يراهما، حليق الوجه، ملامحه منحوتة بعناية في وجه تبدو عليها علامات الرجولة الهادئة،

والرقة، والتهذيب، ونظرته تطل من الأعماق كأن عينيه ينبوعان متدفقان يفيض منهما كل ما تختزنه نفسه الخصبة والغنية.

مد إليه كيس من التيل الأبيض الخشن كان يقبض عليه بيد واحـ دة حول العنق، وهو ينظر في عينيه مباشرة دون أن يـ تكلم. فأخـ ذها منـ ه ووضعها على السرير.

قال عويس:

" تسلم ملابسك بالقطعة "

فك عزيز العقدة المربوطة حول عنق الكـ يس بأصـ ابعه الطويلـ ة النحيلة وأفرغ محتويات الكيس على السرير: بيجامتـ ان مـ ن الصـ وف الأبيض مطرز على صدر كل منهمـ ا حرفـ ي ع. ع بـ الخيط الأزرق، غياران من الملابس الداخلية، صابونة لوكس في علبة بلاسـ تيك ورديـ ة اللون، فرشاة للأسنان، أمبوبة معجون كولجايت، شبشـ ب مـ ن المطـ اط البني، منشفة وجه كبيرة صفراء مطرزة بخطوط سوداء، وفي ركن منها الحرفان ع. ع، ثلاث جوارب صفراء رمادية، ورائحـ ة عطـ ر خفيفـ ة مختلطة برائحة الصابون. أحس بيد أمه في العناية، وفي تـ ذكر الأشـ ياء اللازمة. لديها خبرة سابقة. رأى عينيها الزرقاوتين أمامه للحظة خاطفة، ووجهها المتغضن قليلاً، وابتسامتها التي تشرق وتختفي فجأة مثل سطوع الشمس في بلاد الشمال، فانتفض قلبه انتفاضة واحدة هائلة ثم سكن.

" ناقصك حاجة "؟

" نعم النظارة "

" لا أدري عنها شيئًا. الرئيس سيمر عليك في الصباح. قل له مـ ا تريد ".

أعطاه ظهره وخرج من الباب. " أغلق الباب يا محمد " مخاطبًا الرجل الذي كان يرافقه.

سمع المزلاج يصطدم بحلقة الباب الحديدية، والرنين الحاد المعدني ينبعث من حلقات السلسلة، ثم أطفئ النور الكهربائي، وساد الصمت والظلام مرة أخرى.

خلع ملابسه قطعة بعد الأخرى في الظلام، حتى أصبح عاريًا تمامًا. أحس برائحة العرق تحت إبطه تتسلل إلى أنفه. وأثارت الرائحة خاطرًا غريبًا في ذهنه: " لماذا ننفر من رائحة العرق في الآخرين، ولا ننفر منه في أجسادنا؟ الذات ... كم هي قوية تبسط سلطانها على كل شيء. كل شيء يتعلق بذاتنا قريب، ومحبوب وعزيز، حتى العرق، حتى الأخطاء لا نتخلى عنها بسهولة. الحياة تشغلنا عن التفكير في أهم الأشياء. بينما هذه الأشياء هي التي تحركنا وتتحكم فينا. لقد انشغل هو أيضًا منذ سن مبكرة، بالاستذكار المتواصل في المدرسة ثم في الكلية وعمله بعد التخرج، وميادين أخرى كثيرة ألقى بنفسه فيها، بكل كيانه، وعواطفه وشغفه بالحياة، حتى بدا وكأنه لا يفكر في ذاته، ولكن في كل خطوة كانت هذه الذات موجودة، قوية، تبسط سلطانها على تصرفاته، ربما دون أن يدرك ذلك في كل الأوقات. الآن لديه الوقت، بل ربما كثير من الوقت ليتأمل ويسترجع، ويفكر في الأشياء.

تحقيق الذات مثلاً. هناك رجال يجمعون المال، ويبنون العمارات، ويشعرون بسعادة عارمة كلما ارتفعت أرقام حساباتهم في البنك، ويقضون عمرهم كله في البحث عن المزيد ثم يموتون. وهناك رجال يغلقون الأبواب على أنفسهم في معملهم بحثًا عن أسرار الخلية، والنواة، والأحماض المعقدة التي يقول العلماء أنها تخفي شفرة الحياة وأسرارها.

وهناك الفنان الذي تستولي عليه الرغبة في الخلق إلى درجة أنه يعيش كالمسعور يسهر الليل بطوله، ولا يعرف النوم، ولا الراحة، ولا يدرك معنى السعادة إلا عندما يرى لوحته أمامه، وقد وضع عليها آخر لمسة من اللون، لتسقط فرشاته من بين أصابعه المرتعشة المرهقة. وهناك الموظف الذي تنحصر دنياه في إرضاء رؤسائه والارتقاء على سلم الدرجات قبل زملائه. وهناك الملايين من الرجال والنساء يغرسون أقدامهم في الطين بحثًا عن لقمة العيش في أعواد الذرة الخضراء، ويحزنون على موت الجاموسة أكثر ما يحزنون على موت طفلهم بعد نوبة خاطفة من المرض. وهناك رجال يقضون حياتهم فوق أجساد النساء، أو يغرقون أنفسهم في أحلام بحثًا عن السعادة المفقودة.

كلها درجات وأنواع من تحقيق الذات. كل ما في الأمر أنه يوجد أشخاص عاديون وآخرون غير عاديين. العاديون يحققون ذواتهم في أنفسهم وفي إشباع رغباتهم. وعدد قليل من المتميزين لا يكفيهم هذا، ويبحثون عن ذاتهم في عمل كبير، في الفن أو العلم، أو يوجهون طموحهم لخدمة الآخرين. إن أعلى درجات الذاتية هي إنكار الذات.

شعر عزيز فجأة بلفحة هواء بارد تسقط على جسده العاري من النافذة المفتوحة بجوار السقف، وفوجئ بالبدر الوليد الأصفر معلق في السماء مثل المنجل يطل من بين القضبان، فأخذ يتحسس السرير بيديه حتى وجد الملابس المنثورة. ارتدى السروال، والفانلة، والبيجامة الصوف الناعمة بحركات سريعة مرتعشة من البرد. وفكر في سخرية " غدًا سيرونك كم تساوي ذاتك هذه ".

وسط الصمت الثقيل انبعثت من خلف الجدار المجاور للسرير ضربات خفيفة تكاد لا تسمع، كأن شخصًا ينقر بأصابعه على الجانب

الآخر. كتم عزيز أنفاسه، وألصق أذنه اليسرى على الجدار ثم أخذ يستمع إلى النقرات وهي تصل إليه بوضوح متزايد.

* * *

سقطت أشعة الشمس الحمراء الدافئة على جفنيه، وأحس بطنين ذبابة كسولة تدور حوله، وتستقر بين الحين والحين على أذنه، وفمه، وأنفه، وجبهته في إصرار سخيف، ثم تختفي لحظات لتعيد الكرة من جديد، وكأنها قررت الحيلولة دون استمتاعه بآخر لحظات النوم اللذيذ في الصباح. استمر في رقدته يتململ كلما اقتربت منه الذبابة، ويصعد في صعوبة من بئر النوم العميق إلى سطح اليقظة، كأنما عقله يقاوم هذه اليقظة، ويستشعر الراحة في فقدان الوعي.

بقى هكذا مدة من الوقت بدت له طويلة، مرهقة، ثم أخذت الأفكار تطن في رأسه مثل أسراب من الذباب محبوسة في إناء من الزجاج. لابد أن يستيقظ الآن. لم يبق منا سوى عدد قليل. تغيب احمد عن ميعاده أمس. ومنذ شهر اختفى سيد ... أليس هناك آخر لهذه المعاناة؟ لا يكفي أن تكون على حق ليقتنع الناس. ففي النهاية تتحكم القوة، والقوة تحمي المصالح، ولعبة المصالح معقدة. والشعب كالمحيط ما زلنا نتحرك على سطحه بعيدًا عن الأعماق.

الملايين الذين تراهم يمشون بأقدامهم المفرطحة الغليظة فوق التراب في بلدتك، وفي كل البلاد التي سافرت إليها خلال رحلاتك المضنية الطويلة، وأولئك الذين تراهم يتدفقون كالسيل من أبواب المصانع، أولئك، هم القوة إذا أدركوا.

لم تكن تعلم عندما بدأت أن الطريق طويل يستغرق العمر كله. كان كل شيء سهلاً، وجميلاً، ورائعًا، ونبيلاً. ولكن مع الوقت جاء الفهم. ومع

الفهم زاد الإصرار، ومع الإصرار أصبحت هذه الحياة محتملة بحلوها ومرها، وفي أغلب الأحيان كان المر أكثر من الحلو. ولكن الحلم جميل أليس كذلك؟ حلم كبير ليست له حدود، وليست له نهاية.

اليوم يجب أن تذهب إلى طنطا. فقد انقطعت الصلة منذ أن اختفى سيد. ستلبس الجلباب، والبالطو، والطاقية، وتركب الكافوري محصورًا بين نساء يرضعن أطفالهن من أثداء تتدلى كقطعة من اللحم المقدد، ورجال تفوح منهم رائحة العرق والتراب. وستبحث عن مكان لجسدك النحيل بين أكداس الناس والقفف.

فتح عزيز عينيه استعدادًا للنهوض فاصطدم بجدار أبيض مطلي بالجير. دار بنظراته حول الحجرة باحثًا عن الأشياء التي تعود رؤيتها كل صباح، النافذة المطلة على الغرفة الواسعة، والمائدة المستطيلة ذات الأرجل الرفيعة، والمكتبة العالية التي تصل بكتبها إلى السقف، فوجد نفسه راقدًا على الملة الحديد، فوق البطانية الخشنة البنية اللون، وبجواره مائدة صغيرة مربعة، ودكة ذات ثلاثة أرجل.

رفع عينيه إلى السقف، فلمح أشعة شمس طويلة تسقط من النافذة، وقطعة من السماء صافية، زرقاء، تقطعها قضبان حديدية رفيعة تخترق النافذة من أعلى إلى أسفل.

خلال اللحظات الخاطفة التي أحاطت فيها عيناه بمحتويات الحجرة الضيقة ظل كالتائه المشدوه، لا يعي تمامًا ما حوله. ولكن بالتدريج، ولأول مرة، زحف عليه الإدراك الكامل بكل ما وقع. بقي في مكانه مستلقيًا على ظهره فوق السرير، يسترجع بسرعة ما حدث منذ الليلة التي جاءوا فيها إليه. طالت رقدته حتى أحس بالملل فوثب من السرير، ووقف

وسط الحجرة على قدميه العاريتين يستقبل بوجهه، وبعينيه، وبكل كيانه أشعة الشمس المنسابة من الخارج.

من خلف الباب الأخضر الداكن وصلته همهمة رجال يتحدثون، وأصوات أوان تقع على الأرض. فاقترب من الباب لعله يسمع شيئًا مما يقولون، ولكن المسافة بينهم وبين الباب السميك حالت دون ذلك. وجد نفسه يحملق في الكلمات التي حفرت في النصف الأعلى من الباب بيد مرتعشة، " الله يكون في عون من يدخل إلى هنا ".

في تلك اللحظة لم يعرف لإحساسه الجامد إزاءها سببًا. فقد كان مقدرًا أن تمر السنون الطويلة قبل أن يعرف الإجابة على كثير من تساؤلاته.

ارتفع غطاء النظارة الخارجي عن الباب فجأة دون صوت، واصطدمت نظرته بعين سوداء صغيرة، مثل عين حيوان غريب، تطل عليه من الفتحة.

منذ الآن لم تعد عاداته، وحياته الخاصة، ملكًا له. فحركاته، وسكناته، ونومه، ويقظته، وكل التفاصيل الصغيرة المرتبطة بشخصه، والتي يخفيها الإنسان أحيانًا حتى عن زوجته، أصبحت تحت الفحص الدقيق المستمر من العيون الساهرة، العيون التي تدرس، وتوزن، وتقدر، وتريد أن تصل إلى الأعماق الحقيقية، بل وإن أمكن إلى الخواطر الدفينة المستترة، العيون التي تبحث عن النقطة، عن الثغرة، التي يمكن النفاذ منها، والتي تفتح الطريق أمام الغزو ليأتي بعده الانهيار.

وقف جامدًا في مكانه. شعر أن الزمن توقف، وأن الدنيا الواسعة انكمشت حدودها إلى حدود الحجرة الكئيبة، كأن العين السوداء الصغيرة سدت آخر المنافذ إليها. استمرت لعبة العيون كأنها مبارزة صامتة بسيوف

لا ترى، أو فترة استعداد لجولة آتية، يفحص فيها كل خصم خصمه. ثم اختفت العين الصغيرة السوداء، ونزل غطاء النظارة في هدوء تاركًا عزيز مرة أخرى لعالمه الخاص، للحجرة الضيقة المطلية بالجير الأبيض، والسرير المعدني بغطائه البني الخشن، والمنضدة المربعة، والدكة ذات الثلاثة أرجل.

بدا كأن شيئًا لم يتغير. ولكن عندما رفع رأسه نحو النافذة الصغيرة بجوار السقف باحثًا عن قطعة السماء الصافية رأى بدلاً منها سحابة داكنة معلقة دون حركة. استقر شيء صلب ثقيل مثل الحجر في صدره، وبرزت فوق جبهته حبات قليلة متناثرة من العرق البارد، وانتابته التقلصات المعوية الخفيفة المرتعشة التي تصيبه بين الحين والحين منذ أن مرض بالدوسنتاريا أيام الكلية، وأسرعت نبضاته تجري كالقطار.

انبعث من مكان في أسفل جمجمته ومضات منتظمة، بطيئة، منذرة، مثل كرات معدنية رفيعة تنطلق من ثنايا المخ. رأى عيونًا سوداء صغيرة كثيرة تحملق فيه، وتحيط به، وتحاصره. سيطر عليه شعور باليأس القاتم، بالوحدة التي لا حدود لها، بالخوف الأعمى الذي لا يعرف العقل، وبالخطر يزحف عليه شيئًا فشيئًا، كمن يدور في فراغ مظلم ليست له بداية ولا نهاية.

* * *

مرت الساعات هكذا، أو ربما كانت دقائق بدت كالساعات، ثم انفتح الباب في هدوء دون الضجيج المعتاد وظهر " عويس " في الفتحة، ومعه محمد، واثنان من الرجال في ثوب أزرق خشن مكون من سروال يصل تحت الركبة، وسترة تشبه كيسًا مفتوحًا عند الرقبة، أضيف له كم طويل من كل جانب. كان أحدهما يحمل إبريقًا ضخمًا من الألومنيوم، وعددًا من

الأكواب المعدنية الصغيرة التي فقدت معالمها، وآذانها، ولونها الأصلي من كثرة الاستعمال. أما الرجل الثاني فكان يحمل طبقًا معدنيًا وضع عليه شيئًا يشبه المعجون الأصفر المتجمد، ورغيفًا من الخبز.

مد محمد يده إلى عزيز بأحد الأكواب وصب له الرجل الأول من أعلى سائلاً ساخنًا في لون العسل الأسود، وكأنه بائع عرق سوس يصب كوبًا من مشروبه لأحد الزبائن. أشار عويس إلى الرجل الثاني فتقدم ووضع الطبق المعدني، ورغيف الخبز على المائدة المربعة، ثم انصرف عويس ومعه الرجلان. تلكأ محمد قليلاً عند الباب. القى ناحية عزيز بنظرة خاطفة من عينيه العميقتين ونطق " صباح الخير " بنبرات واضحة ثم أغلق الباب. رنت الكلمتان في أذنه غريبتين مدهشتين، كلمتان سمعهما آلاف المرات، ولكنه يشعر أنه لم يسمعهما من قبل، كلمتان تحملان معهما، وسط هذا الفراغ الموحش، معنى الدفء الإنساني.

انقشعت السحابة الرمادية من فوق النافذة شيئا فشيئا، وظهرت المساحة المربعة الزرقاء من جديد، وكأن جفنًا عليلاً يرتفع بالتدريج ليكشف عن عين صافية تنبض بالحياة، وتسلل خيط رفيع من الضوء عبر القضبان، وسقط على كوب الشاي يحول سطحه إلى دائرة ساخنة مرتعشة من الذهب. جلس عزيز على المقعد أمام المائدة المربعة، وأخذ يأكل من طبق العدس الأصفر بحركات بطيئة مدروسة، كأنه أمام وجبة شهية يريدها أن تمتد به أطول مدة ممكنة. مسح الطبق بآخر لقمة خبز، ثم أمسك بالكوب الساخن بين يديه، وشرب منه رشفات سريعة متتالية. كانت أمه تندهش لقدرته على ابتلاع السوائل الساخنة، وعلى تحمل الساعات الطويلة من الجوع، وتغضب لأنه، رغم شهيته القوية، لم يكن كثير الاهتمام بأنواع الأطباق التي توضع أمامه. ابتسم بشيء من السخرية إزاء

الخاطر الذي طرأ له: " يبدو أن الطبيعة أعدته جيدًا لما هو آت ". ومع ذلك لم تكن دلائل حياته الأولى في الطفولة، ثم خلال سني الدراسة حتى آخر سنة في الكلية تنبئ بأي شيء مما حدث بعد ذلك. كانت حياته سهلة، رغدة، خالية من المآسي، والمواقف العنيفة. ولكن لابد أن شيئًا ما كان يعتمل في نفسه، وأن ظروفًا ما دفعته في هذا الطريق. تحت السطح كانت عوامل متصارعة تتفاعل ببطء عبر مراحل حياته المختلفة، لتؤدي إلى التحولات السريعة التي وقعت في مدة لا تتعدى سنتين، آخر سنة في الكلية، والسنة الأولى بعد التخرج، تمامًا كما يحدث في التفاعلات الكيمياوية البطيئة التي تتم داخل خلايا الكائنات الحية، فتؤدي عند نقطة معينة إلى ظهور أجناس جديدة، أو في انفجار البراكين على سطح الأرض بعد سنين من التفاعلات المعقدة بين المواد والغازات في الأعماق تحت القشرة. الإنسان ما هو إلا مجموعة لانهائية من العمليات الكيمياوية التي تبنى وتهدم ثم تبنى من جديد، والتي ارتفعت يومًا بعد يوم، وسنة بعد سنة حتى أكسبته صفات العقل، والفكر، والشعور، والعواطف وجعلته قادرًا على تغيير العالم.

تغيير العالم. تذكر الجملة التي قرأها مرة قبل التخرج بأشهر: " إن مهمتنا ليست تحليل العالم فحسب، بل تغييره ". في سكون الليل، تحت ضوء المصباح توقفت عيناه عند الكلمات وتسمرت عليها، رنت في نفسه بصفاء غريب كأنه أمسك الحقيقة بيديه، فأصبح كل شيء واضحًا كالبللور، وأصبحت الحياة بحيرة صافية يرى كل ما يدور في أعماقها.

عاد من لندن مع أمه وهو في سن الخامسة. وطئت أقدامه أرض بلاده لأول مرة عندما نزل من الباخرة يرتدي البدلة القطيفة الكحلي، الموشاة بالدنتلا وبأزرار صغيرة تلمع، وقميصًا من الحرير الأبيض

وحذاءً أسود. ما زال كل شيء يتعلق بطفولته غامضًا، كأنه حلم بعيد طمست تفاصيله وضاعت مع الزمن مهما حاول أن يتذكر. قالوا له أنه كان طفلاً جميلاً، والصور المعلقة على جدران شقتهم في قصر الدوبارة توحي بذلك: شعر غزير أسود مفرق على الجانب الأيمن، وعينان سمراوتان ومسحوبتان مثل ثمرة اللوزة تبرقان من تحت حاجبين كثيفتين تتصلان من فوق الأنف بشعيرات قليلة. وأنف مربع فيه شيء يوحي بالتحدي، وشفتان فيهما شغف للحياة واستعداد خفي للابتسام. وجه فيه رقة وهدوء وإن كانت خطوط الفك القوية تدل على استعداد كامن للعراك.

عندما نضج وأصبح رجلاً، ليدخل حياة العمل، كان يشعر بالزهو عندما يلمح نظرة إعجاب تلمع في العيون السود، وهو يسرع الخطو عبر الردهات الطويلة.

كان جده ينتظرهم على رصيف الميناء. رجل طويل القامة يرتدي عمامة حمراء، وقفطانًا من الصوف الأبيض، وجبة مخططة بخطوط رفيعة أنيقة لونها رمادي مشوب بالزرقة. وفوق هذا المنظر المهيب عينان تبرقان مثل حجرتين من الرخام الأسود المصقول، عينان فيهما قوة وجبروت، وأنف طويل مدبب، ولحية سوداء تغطي الجزء الأسفل من الوجه كله ما عدا الفم الكبير الذي يكشف بين الحين والحين عن أسنان بيضاء.

صورة متفرقة من قصة الماضي لا رابط بينها سوى خيط رفيع مستتر يلمس ولا يرى. والزمن كالرقيب، يعمل بذكاء مفرط أحيانًا، وبغباء وحشي أحيانًا أخرى، ليقطع ما يشاء بمقص النسيان. إحساسه أنه لم يره سوى مرتين في حياته، الأولى على رصيف الميناء بجوار الباخرة البيضاء الضخمة، ذات المداخن السوداء العالية، والنوافذ الدائرية

الصغيرة التي تشبه العيون التي لا تبصر، وهي رابضـ ـة علـ ـى الميـ ـاه الزرقاء، وقد سكنت محركاتها، وتوقفت عن نبضـ ـها المنـ ـتظم. والثانيـ ـة عندما دخل عليه فوجد الرجل المهيب ساجدًا فوق بساط أحمر، مزركش، وجبهته تلمس الأرض، وشفتاه تتحركان بكلمات صامتة، ققز على ظهره، وامتطى كتفيه العريضتين القويتين تاركًا ساقيه تتدليان من حـ ـول الرقبـ ـة الغليظة، فأحس بشيء كالجبل يموج تحته، وانزلق علـ ـى الأرض ليجـ ـد نفسه يعدو كالسهم منطلقًا من باب الحجرة ثم فوق الـ ـدرجات الرخاميـ ـة الضيقة إلى الحديقة الكبيرة، ليختفي في أطرافها البعيدة، خلـ ـف أشـ ـجار الكافور العالية المرصوصة بجوار حظائر الخيل.

وصلته أصوات ضجيج مختلط يرتفع من البيـ ـت. رأى البسـ ـتاني العجوز يجتاز مربعات الحشيش الأخضر متجهًا نحوه، بخطواته المتعثرة، المرتعشة، ونظرات عينيه الحمراوتين الخاليتين من الرموش، والسـ ـايس بساقيه المقوستين يخرج من باب الحظيرة، يتبعـ ـه عـ ـم حسـ ـين سـ ـائق الحنطور.

أحاطوا به عند طرف الحديقة، واقترب منه عم حسين. وقف أمامه في صمت متردد، كأن شيئًا ما يحول بينه وبين الكلام، وتطلع إلى وجـ ـه عزيز بنظرة غريبة فيها انكسار، وطيبة، وفهم. مرت اللحظات بطيئة مثل ساعة تدق على الحائط، ثم مد عم حسين يده الخشنة المتغضنة إليه، وتمتم من تحت شاربه الكث الأبيض: " تعالَ يا سي عزيز هو حصل إيه؟ مالك هربان كده، تعال معاي نرجع الدار ".

سارا معًا، اليد الصغيرة مدفونة في الكف الخشن، حتـ ـى المـ ـدخل الخلفي للبيت، وصعدا الدرجات الرخامية التي انطلق عليها عزيـ ـز منـ ـذ دقائق، كمن يطارده شبح رهيب حتى وصلا إلى مدخل الصالة الكبيـ ـرة،

ليجدا الخدم بملابسهن السوداء المنسابة حتى القدمين. انخفض الضـ جيج المختلط الذي كان يصدر منهن إلى همس يكاد لا يسمع، والتفتن إليه فـ ي حركة واحدة، كأنهن أجزاء جسد واحد تطل منه عشرة عيون. برزت من بينهن جدته تخترق الكتلة السوداء لتصل إليه، وأمسكت بذراعه في رفق، ثم قادته إلى حجرة واسعة ليجد نفسه فجأة أمام جده. كان يجلس على كنبة عالية تمتد بطول الجدار المواجه للباب الذي دخلا منه. خلف ظهره فتحت النوافذ العالية ذات القضبان الرفيعة المثبتة في الإفريز الخشبي. لم يكن قد لاحظ من قبل وجود هذه القضبان، ولكنها ملأت قلبه بشعور غريب، كأنه حيوان صغير وقع في قفص الصياد. وقـ ف أمـ ـام جـ ـده علـ ـى قـ ـدمين صغيرتين، ويداه متشابكتان خلف ظهره، والتقت عينـ ـا الطفـ ـل بعينـ ـين تشبهان حجرتين من الرخام الأسود تتفرسان في وجهه، وسـ ـاد الصـ ـمت المتوتر. فوجئ الرجل الجالس القرفصاء على الكنبة العالية المغطاة بثوب من الحرير الأخضر الموشى بخيوط من الذهب، وفوجئت الجدة بصـ ـوت طفل يرن واضحًا كالجرس: " أنت راجل وحش ".

في اللحظات الرهيبة التي تلت هذه الكلمات، بدا وكأن صداها يملأ الحجرة الفسيحة حتى الجدران، والسقف العالي، والباب البعيد حيث اختبأ جمع النساء بأنفاس مكتومة ... جسد واحد أسود لم تعد له أجزاء.

نظر الرجل إلى الطفل كأنه يفحص كائنًا غريبًا، وانفرجت شـ ـفتاه عن ابتسامة بيضاء انقلبت فجأة إلى ضحكة مجلجلة. أنزل ساقيه من تحت القفطان الواسع، ثم تقدم نحو الطفل ليربت على رأسـ ـه بيـ ـد كـ ـادت أن تحتويه. ثم دفعه نحو الباب برفق قائلاً " والآن انصرف ".

لم يكن يعلم الطفل أن سياط الأسياد لا ترتفع إلا فوق ظهور الفقراء

لم يكن يعلم كثيرًا من الأشياء. عاش في هذا البيت الكبير ذي الحجرات الفسيحة، والجدران السميكة، والأسقف العالية، والقضبان الحديدية، كالتائه في عالم مجهول، يستكشف الحياة خطوة بعد خطوة، وحده دون عون من أحد، وكأنه قد دفع به في بحر مظلم متلاطم الأمواج، وهو يكاد لا يعرف شيئًا عن السباحة. طفل أعزل تُرك، مثلما يترك ملايين الأطفال، للصدف والظروف، وللمعدن الذي صبته الطبيعة داخل خلايا الوراثة. لم يعان من العطش، ولم يذق ألم الجوع، ولم يقشعر من البرد، ولم تلفحه سياط الشمس، أو ضربات الخولي بين حقول القطن الأبيض. ولكنه عرف الوحدة. ومن الوحدة تعلم دروسه الأولى في الحياة، وأخذ يبحث عن دفء الإنسان، فلم يجده. الناس في هذا البيت الكبير ما أكثرهم: الجد، والجدة، وأعمامه الخمسة، وعماته الثلاث، وخدم لا أول لهم ولا آخر يهرولون هنا وهناك لتلبية أوامر هذا العدد الوفير من الأسياد. ولكن لا أحد يلتفت إليه أو يبحث عنه، سوى في مواعيد الأكل والنوم. وجه أمه ضائع وسط هذا الزحام، وشخصيتها مختفية بين الموانع القوية، والتقاليد المتسلطة، لعائلة إقطاعية نزحت إلى القاهرة لتستقر في الجزيرة بجوار سراي عمرو إبراهيم، ولطف الله.

في صالة الاستقبال الضخمة التي لم تكن تخلو من الزوار ليلاً ونهارًا، وحول موائد الطعام المثقلة بكميات لا حصر لها من اللحم، والطيور، والفطائر، والمخللات، والحلوى، رأى كثيرًا من الرجال والنساء الذين قرأ عنهم فيما بعد في كتب الرافعي.

في يوم من أيام الصيف المشتعل وقف الطفل فوق العتبة الرخامية المؤدية إلى باب المنزل الرئيس يستمتع بالملمس البارد المتصاعد من تحت قدميه الحافيتين. لم يكن يدري ماذا يفعل بالضبط. هل ينزل إلى

الحديقة ويتسلل من البوابة الحديدية المدببة عبر الشارع إلى سور النـ ـادي المقابل ليشاهد الخيول العربية الرشيقة، وهي تنطلق كالسهام فوق بحر من الحشيش الأخضر؟ كان يعشق منظـ ـر الفرسـ ـان، بأجسـ ـامهم القزمـ ـة، وملابسهم الزاهية الملونة، وهم يقفون على أطراف أصابعهم كـ ـالطيور، ويلهبون أرداف الخيل بضربات متتالية سريعة من سياطهم تطرقـ ـع فـ ـي الهواء بصوت كالطلقات، وظهور الخيل البيضاء مثل اللـ ـبن، والسـ ـمراء مثل الفحم، والعسلية المذهبة في ضوء الشمس، والرمادية، وهـ ـي تمـ ـوج مسرعة مثل شلال متدفق، وتدب حوافرها في الأرض بضـ ـجيج منـ ـتظم يشبه الرعد، أم يبقى هكذا في ظل القبة الخشبية ذات الرسومات العربيـ ـة المحفورة في خطوط متناسقة جميلة، تدل على الدقة، والسخرة التي تسحق كل تمرد؟ وبينما هو يتردد بين هذا وذاك شاهد عربة حنطـ ـور يجرهـ ـا حصانان مطهمان تقف عند بوابة الحديقة، وينزل منهـ ـا اثنـ ـان، رجـ ـل وامرأة. كان الرجل طويل القامة بشكل غير عادي، يتكئ علـ ـى عصـ ـا غليظة، ويرتدي سترة طويلة سوداء، ورباط عنق رماديًّا منتفخـًـا يسـ ـتر الجزء الأعلى من صدره، وطربوشًا يتميز بقصره الشديد. لـ ـم يسـ ـتطع الطفل أن يلمح أكثر من عينين عميقتين تعلوهما جبهة منحوتة، وتحددهما من أسفل وجنتان عاليتان بارزتان. أما السيدة، فقد تـ ـأخرت قلـ ـيلاً فـ ـي صعود السلم، وعندما وصلت بجوار الطفل، قالت للرجل بصوت مسموع "يا سعد باشا ده ابن الإنجليزية أهو". وعندما تلفت الطفل إليها فـ ـوجئ بأنف مقوس كمنقار الصقر، وعينين خضراوتين متنمرتين.

لم يدرك الطفل معنى الكلمات، ومع ذلك رنت في أذنه رنينًا غريبًا، واستمر صداها يتردد بضعة دقائق وكأنها التصـ ـقت بطبلـ ـة الأذن، ثـ ـم غاصت في أعماق النفس كالحجر. وعندما جاء موعـ ـد العشـ ـاء، جلـ ـس

بجوار جدته مستغرقًا في الصمت، لا يقدم عل ى الطع ام، ولا يتح رك. نظرت إليه في هدوء، ووضعت يدها عل ى كتف ه، وانفرج ت ش فتاها الرفيعتان عن ابتسامتها الطيبة الممزوجة بمسحة من السخرية وقال ت: " لماذا لا تأكل "؟ فوجئت بالطفل يسألها بلكنته الأجنبية " يعني ؟إيه يا ب ن الإنجليزية "؟ فسكتت الجدة برهة ثم أجابت " يعني اللي أمه جايه من بلاد الإنجليز ". فسأل الطفل بنبرات يتخللها خليط من الحنق المكتوم، والبك اء المستتر.

" وهو دي تخلي الناس ما تحبوش "؟

" ابن الإنجليزية " بقيت هاتان الكلمتان مدفونتين في أغوار ال نفس عبر السنين، كامنتين، ساكنتين أحيانًا، منتفضتين متقدتين كجمرتين أحيانًا أخرى، فقد تركتا أثرًا عميقًا ومزدوجًا. من ناحية أحس أنه ل يس مث ل الآخرين، وأنه بشكل أو بآخر مرفوض منهم. فكان عليه أن يتفوق عليهم. تملكه شعور لم يكن يدرك كنهه، شعور أقرب ما يكون إلى الغربة ع ن الأشياء، والناس، والمجتمع الذي يعيش فيه. ولكن في نفس الوقت غرست فيه هذه الحادثة البذرة الأولى لتلك الكراهية التي حملها طوال عمره ضد كل أنواع التفرقة.

هكذا عاش في البيت الكبير وسط عائلة كبيرة من الرجال والنس اء بأجسادهم الطويلة، وسيل من الزوار لا ينقط ع، وجمه رة م ن الخ دم كالقطيع، بيت يخيم عليه صمت القبور عندما يدخله جده، ويرتف ع في ه ضجيج مستمر عندما يغادره ممتطيًا ظهر حصانه الأب يض، أو مس تلقيًا بجسمه الكبير على العربة الحنطور اللامعة المشدودة إلى زوج من الخيل نحاسي اللون، وهما يمرقان عبر شوارع الضاحية الخضراء في س رعة وكبرياء.

عالم غريب مليء بالحركة، الناس يروحون ويجيئون بقاماتهم العالية، وملابسهم الطويلة المسترسلة، ولا يلتفتون إليه. والأحاديث تدور عن أشياء لا يفهمها، ولا تثير انتباهه. وملامح الأم مختفية وسط الزحام. والأب، اكتشف وجوده، يوم أن وقعت له حادثة مروعة، تحطمت فيها سيارته تمامًا وتحولت إلى كتلة معدنية غير واضحة المعالم، رأى الطفل هيكلها المفزع عندما مر أمامها في الحنطور مجتازًا مفرق الطرق بجوار سراي لطف الله. حادثة نجا منها الأب بأعجوبة، واضطرته للبقاء في المنزل، كان يرتدي روبًا أحمر، وينتقل من حجرة إلى حجرة، وفوق درجات السلم بخطوات متعثرة بالغة البطء، وعلى وجهه تقلصات الألم الشديد، ونبت من الشعر الأسود. إنه لا يتذكره قبل ذلك، وكأنه ظهر فجأة بعد اختفاء طويل.

عالم غريب يعيش على حافته مقطوع الصلة به، حتى في أوقات الطعام والنوم التي تجمعه مع الأم. ليس له فيه صديق سوى عم حسنين سائق الحنطور الذي ينتمي إلى عالم آخر، هو عالم الحظائر والخيول. في هذا العالم كان يشعر بالألفة، وبالراحة. يجلس بجوار عم حسنين تحت ظلال أشجار الكافور التي ترتفع قامتها عالية حتى السماء، وتفصل بين حديقة المنزل وبين قصر عمرو إبراهيم، ويستمع إلى أقاصيصه عن الخيل، وكيف ولدت، ولماذا مرضت، وأنواعها المختلفة وطباعها، أو يقف في الحظيرة ممسكًا بحزمة من البرسيم ليضعها في فم الحصان، ويتركها ترتفع شيئًا فشيئًا بين أسنانه الكبيرة الصفراء، وشفتيه السوداوتين الممطوطتين، حتى تختفي تمامًا، بينما يطرف إليه الحيوان بعينه الحمراء القلقة. هنا كل شيء بسيط، ومفهوم، ويبعث على سعادة لا يعرف لها سببًا.

لم يكن في المنزل الكبير أطفال غيره. ولكن في بعض الأيام، على فترات متباعدة، كان يحضر بعض أقاربهم للزيارة، ويبقون معهم أسبوعًا أو أكثر. وخلال هذه الفترات القصيرة كانت تنقشع سحابة الوحدة، ليستمتع باللعب مع الأطفال الآخرين، يجرون في ردهات المنزل، أو يركبون الدراجة الصغيرة الزرقاء التي أحضرها معه على الباخرة عندما عاد من الخارج، ينطلقون عليها عبر مسالك الحديقة الفسيحة، ويضحكون، ويتشاجرون. وخلال هذه الزيارات المتباعدة اكتشف لأول مرة في حياته أن هناك جنسًا آخر غير جنسه يسمونه " البنات "، جنس فيه نعومة، وفيه جاذبية تختلف عن أمثاله من الصبية، فكان يبني معهن بيوتًا صغيرة من كراسي القش المخصصة للجلوس في الشرفة الزجاجية التي تطل على الحديقة الخلفية. وذات صباح أراد أن يستكشف أسرار هذا الجنس الآخر، فاختار بنتا صغيرة بيضاء ممشوقة الساقين، وخلع ملابسها الداخلية، وأخذ يفحص فتحات جسمها باهتمام شديد. أصابه دهشة بالغة عندما اكتشف أنها تختلف عنه. وفي المساء عندما اصطحبته أمه إلى الحمام ليغتسل قبل النوم سألها: " يا أماه لماذا توجد فتحة في أسفل بطن البنات "؟. فنهرته بعنف بالغ وكادت أن ترفع يدها عليه. أحس بشيء مثل الطعنة، وكأنه قد ارتكب ذنبًا لا يغتفر. ولكنه لم يدرك السبب، ولم يعرف بماذا أخطأ وكان هذا أول وآخر سؤال يوجهه لوالديه عن شيء يتعلق بالجنس – ولذلك عندما حاصره العبد الأسود الذي كان يقوم على خدمة جده في حجرة الاستقبال، وأخذ يعرض عليه الجزء الأسفل من جسمه، فر هاربًا من نافذة الشرفة إلى الحديقة، ولكنه كتم صوت الصراخ الذي كاد أن ينبعث من حلقه. ومرت السنون الطويلة دون أن يتخلص من حلم مفزع كان ينتابه بين الحين والآخر، عن عبد أسود يقف وسط أثاث عربي

فاخر، ويرفع جلبابه عن فخذيه وبطنه، كاشفاً عن أجزاء متضخمة في جسمه، حلم يجعله يستيقظ في بحر من العرق.

* * *

نفذ الضوء الكهربائي الضعيف عبر جفونه، ففتح عينيه ليجد رجلاً طويلاً يقف بجواره عند رأس السرير، كأنه شبح أسود تسلل في صمت إلى الحجرة. لم يكن عزيز قد سمع صوت باب يفتح، فسرت قشعريرة في عضلات بطنه. كانت ملابسه مبللة بعرق غزير جعله يحس بثقلها فوق جلده – وخلال لحظات خاطفة تشابك الحلم باليقظة، واختلط الواقع بخيال الطفولة. هذا العبد الأسود لماذا يطارده؟ ثم أفاق على عينين صغيرتين ماكرتين تشبهان الخرز الأسود، وسمع صوت عويس يقول:

" قم ارتدِ ملابسك. أنت مطلوب "

اعتدل على حافة السرير ملقيًا بالبطانية الخشنة جانبًا ولمست أطراف أصابعه العارية سطح الأسفلت البارد، فسرت اليقظة في جسمه مثل تيار كهربائي.

" من طلبني "؟

" لا أعرف. كف عن الأسئلة. ارتد ملابسك وسر معي "

خلع البيجامة وألقى بها على السرير ثم ارتدى قميصًا من الصوف الأسود، وسروالاً رماديًا، وأدخل قدميه بسرعة في الجراب الطويل ثم دسهما في حذائه الخالي من الرباط، وخطى خطوتين نحو الباب ثم تلفت نحو عويس وقال:

" أنا جاهز. هيا بنا ".

في الخارج كان الليل قاتمًا، والقمر والنجوم مختفية خلف صفوف متراصة من السحب الكثيفة. خطواتهما لها فوق حبات الرمل إيقاع خشن منتظم، يبدو موحشاً في الصمت الواسع الممتد الذي لا يقطعه سوى صفير الرياح المتقطع، يجتاز المسافات المفتوحة ليصطدم بالمباني المنخفضة المتناثرة. بين الحين والحين كانا يجتازان الأسوار التي تفصل بين المباني، أسوار عالية من الطوب فتحت فيها أبواب صغيرة مثل الشقوق، لينتصب بجوار كل منها رجل يحمل بندقية، وكأنه منحوت هو أيضًا في الحجر. عند كل باب كان يهمس " عويس " في أذن الرجل بكلمتين ثم يفتح الباب ليمرا منه، ويغلقه وراءهما بالمفتاح. وبين الباب والباب، عبر المساحات الرملية المتتالية أحس عزيز بأصابع يده الغليظة القوية تلتف حول ذراعه.

توقفا عند مبنى صغير محاط بسور من الأسلاك الشائكة، واجتازا بابًا حديديًّا صغيرًا ليجد نفسه فجأة في حجرة خالية تمامًا من كل شيء، ما عدا دكة طويلة تمتد بجوار الحائط، ومقعد عادي من الخيزران وضع في منتصف الحجرة.

سمع الباب الحديدي يغلق من ورائه، وصوت مفتاح يدور. مصدر الضوء الوحيد لمبة كهربائية تتدلى من السقف، لتكشف عن حجرة جدرانها وأرضيتها من الأسمنت العادي، ولا تزيد مساحتها عن مترين مربعين.

جلس على الدكة ينتظر، المقعد مخصص لشخص آخر. لم يكن يعرف الوقت ولكن شيء ما في الجو جعله يحس أن الفجر يقترب. مر الزمن بطيئًا وهو يجلس ساكنًا في مكانه. سمع صوت المفتاح يدور في الباب الحديدي. رأى مساحة من ظلمة الليل، ونجمة وحيدة تطل من السماء، ورجل يدخل وقد حنى رأسه حتى لا تصطدم بحد الباب. عندما رفع الرجل وجهه إلى النور لمح البشرة الشاحبة، وحبات العرق المتناثرة على الجبين، والذقن الحليقة، والسترة الطويلة، والمنديل الأبيض المحشور في الكم، والحذاء الأسود المدبب، واستنشق رائحة الكولونيا المنبعثة من الملابس.

هكذا وجد عزيز نفسه، مرة أخرى، أمام الرجل الذي اقتحم حجرته في جوف الليل، ليسوقه إلى هذا المكان.

جلس الرجل على المقعد، ووضع ساقًا فوق ساق، ثم أخرج علبة بلاستيك شفافة من جيب سترته الداخلي، وأشعل منها سيجارة بولاعة فضية اللون. نفخ منها خيطًا رفيعًا من الدخان، وهو يتأمل طرف حذائه المدبب كأنه انشغل بالتفكير في أمر ما، ونسى وجود شخص آخر في الحجرة. أسند عزيز ظهره إلى الجدار، يستمع إلى دقات قلبه المنتظمة، وينظر بعينين نصف مغمضتين تفحصان وجه الرجل من خلف الجفون. بقيا هكذا دون حركة سوى حركة اليد البطيئة بالسيجارة، بين الركبة البارزة تحت السروال والشفتين، وخيطين رفيعين من الدخان الأزرق ينبعثان من تحت الأنف. كتم عزيز في نفسه رغبة عارمة في التدخين.

اعتدل الرجل في جلسته، وخرجت نبرات صوته مفاجئة جوفاء متضخمة تملأ بصداها أركان الحجرة الصغيرة.

" هه. كيف الحال يا عزيز "؟

" لا بأس ".

" أريد أن أتحدث معك قليلا. أموافق أنت "؟

" لا مانع، ولو أنك اخترت مكانًا غريبًا للكلام " أشار عزيز بيده إلى الحجرة.

رنت من الرجل ضحكة قصيرة مشوبة بشيء من الحرج ثم استطرد: " ماذا يهمك في المكان. ألا نستطيع أن نتكلم فيه؟ وعلى أية حال لست أنا الذي اخترته. لا تضع الحواجز بيني وبينك. أريد أن تعتبرني مثل أخيك، وقد أتيت لأنصحك. فأنا أعرف أنك من عائلة طيبة. وأخوك معي في فرقة كرة السلة. وأنا أشعر بالضيق إزاء الوضع الذي أصبحت أنت فيه ".

" ألست أنت الذي أتيت بي إلى هنا "؟.

" هذا شيء آخر. أنا أقوم بواجبي وأنفذ الأوامر التي تصدر إليَّ "

" أنت تنفذ الأوامر فعلاً. أما واجبك فهذا أمر آخر ".

سكت الرجل لحظة طويلة ثم عاد من جديد يقول:

" أنا أنصحك لمصلحتك. أنت شخص ذكي وأمامك فرص كثيرة. ماذا جنيت من كل الذي أنت فيه؟ ستضيع عمرك هباءً ولن تحقق شيئًا مما تريد. إنها مجرد أحلام. لن تستطيع أن تقاوم الدولة بأكملها ".

" ماذا تريد مني بالضبط "؟

" أريد منك أن تكون عاقلاً. أمامك طريقان. إما البقاء هنا إلى الأبد، وإما الخروج إلى الحياة. فأيهما تختار "؟

" اختار الخروج طبعًا ".

علت شفتيه بسمة سريعة واقترب بمقعده من عزيز:

" حسنا بدأنا نتفاهم. طالما أنك تريد أن تخرج فالمسألة في يدك ".

" كيف "؟

" حدثني بصراحة، ولا تخفي أي شيء ".

" عن ماذا "؟

" عما كنت تفعل أنت وزملاؤك ".

" ماذا كنا نفعل "؟

" ألا تعرف ماذا كنتم تفعلون "؟

" لا أفهم ماذا تقصد "؟

اعتدل في جلسته وتغلغلت إلى صوته المعدني نبرة تهديد خفيفة.

" لا أفهم ماذا تريد منى بالضبط ".

" كنت أظن أنك ستكون أكثر ذكاءً هذه المرة. ولكن يبدو أن اللين لا يجدي معك ".

" لا زلت لا أفهم "؟

علت في صوته نبرة تهديد أكثر وضوحًا:

" ألا تعلم أننا يمكن أن ندفنك دون أن يدري أحد "؟

" أعلم أنكم لا تستطيعون. لست أي شخص حتى يحدث لي هذا ".

" أواثق أنت؟ الدولة لا تعبث. ينبغي أن تدرك هذا تمامًا وهي قادرة على سحق كل من يعترض طريقها ".

سادت لحظة صمت ثم عاد إلى لهجته الهادئة.

" ما زلت شابًا وأمامك الحياة كلها. ألا تريد أن تخرج من هنا؟ ألا يكفيك ما مررت به من قبل؟ لا نطلب منك إلا أن تتحدث بصراحة ولن يعلم أحد شيئًا عما دار بيننا. ماذا يضيرك في هذا؟ أتحمي زملاءك. إنهم لا يستحقون الحماية. أنت أمامك فرصة واسعة في المستقبل ... إنهم ليسوا مثلك. لماذا أنت صامت "؟

" لأنك لن تفهم إذا قلت لك أنه ليس لدي شيء أقوله ".

" أنا أفهم كل شيء. ونحن نعرف عنكم كل شيء. يبدو أنك خائف من زملائك. ما كنت أظن أنك ستخاف منهم. ما دمت تخشاهم، تكلم عن نفسك. ألست فخورًا بما قمت به؟ ".

بقي عزيز صامتًا دون أن ينطق بكلمة، وظل الرجل شاخصًا إليه في حنق ... ثم انتفض واقفًا واقترب منه. ما جدوى كل هذا؟ لقد تعود أن الصمت في مثل هذه المواقف هو الحل الوحيد.

" يا عزيز نعرف عنكم كل شيء، ولا فائدة من صمتك. نعرف مثلاً أنك مريض ".

" مريض "!؟

" نعم مريض. ألست تشكو من دمل في الشرج ".

أحس عزيز أن سيفاً مدببًا من النار اخترق جبهته، ودارت به الدنيا في سباق جنوني، كأن موكبًا من الوجوه الساخرة تمر أمامه على شاشة مسرعة. دمل في الشرج!! ... دمل في الشرج!! ... كيف عرف الرجل ما لا يعرفه أحد سواه؟ ... ليس الآن وقت التفكير في هذا. المهم هو أن يهدأ. بذل جهدًا عنيفًا لكي تتوقف رأسه عن الدوران، وشعر بحبات العرق تنبت فوق جبهته، وبشيء كالغثيان الخفيف في معدته. ثم هدأ كل شيء.

رفع عينيه إلى الرجل الواقف أمامه وقال:

" أتريد مني شيئًا آخر "؟

" لا ستنصرف الآن. وإن شاء الله لنا لقاء آخر ".

خطى خطوتين نحو باب الحجرة ونقر عليه بأصابعه، فانفتح الباب، وظهر عويس في الفتحة.

" خذه معك ".

وقف عزيز واتجه نحو الباب مارًّا أمام الرجل. عندما التقت عيونهما أشاح الرجل بوجهه. دلف عزيز من الباب وسار إلى جوار عويس عبر الطريق الذي جاءا منه. حاول أن يدرس تفاصيل الأشياء التي مرا بها، ولكنه أحس بإعياء شديد، واستسلم لنسمات الريح الباردة تلفح وجهه. سارا مدة من الزمن لا يعرفها. رأى أضواء الشمس الأولى تصعد عند الأفق. وصلا أخيرًا إلى باب حجرته، فوجد اللمبة مضاءة، ولمح محمدًا واقفًا على قرب منها، أدخله عويس في الحجرة، ثم خرج وأغلق الباب خلفه. ولكن بعد لحظات فوجئ عزيز بعويس يدخل عليه ومعه محمد يحمل أشياء طويلة تشبه الثعابين السوداء، يصدر عنها رنين معدني.

أوقفه عويس في وسط الحجرة وطلب منه أن يضع يديه وراء ظهره. دار محمد حول ظهره، وأحس به يوثق معصميه بشيء ملمسه مثل الحديد البارد. ثم دار حوله من جديد ولفه بحزام من الجلد تتدلى منها سلسلتين من الحديد، ثبت في آخر كل منها حلقة نصف دائرية مزودة في أطرافها بشيء كالمسمار. هبط محمد على ركبتيه، ووضع الحلقتين حول رسغيه، وأغلق كل منهما بالمسمار، بعد أن دقة دقتين قويتين بشاكوش ثقيل كان يحمله معه.

لم يرفع محمد وجهه إليه طوال هذه العملية. أحس عزيز بيديه تمران عليه خفيفتين دون عنف في حركاتهما، مثل يدى خياط الملابس المحنك يقيس له ثوبًا جديدًا.

عندما انتهت مهمة الرجلين، أطفئ النور، وأغلق الباب. وجد عزيز نفسه واقفًا وسط الحجرة، ويداه موثقتان خلف ظهره، وشيء ثقيل يشد على وسطه ويلف حول رسغيه. رفع إحدى قدميه عن الأرض، فصدر عنه رنين سلاسل الحديد.

* * *

الذبابة المعتادة تدور حول رأسه وقدميه، وتصر على إيقاظه. عرفها من طنينها المتميز الممل الذي لا يرتفع عن نوتة " السي " في السلم الموسيقي، ولا ينخفض عنها، كأن لعنة أبدية أنزلت بها. أراد أن يخفف من غيظه فأطلق العنان لخياله. من يعلم ربما تكون أميرة جميلة وقعت في براثن ساحرة عجوز، حولتها المرأة الشمطاء إلى ذبابة، ترزح في قيود أفظع من تلك التي يعاني منها.

إزاء هذا الاحتمال أحس نحوها بنوع من الشفقة، وكأنهما شريكان في مصير واحد. لو تكف قليلاً عن التنقل المستمر بين أجزاء وجهه!!! إن يديه الموثقتين خلف ظهره تزيدان من غيظه، فهو لا يستطيع مطاردتها، ويكتفي بهز رأسه هزًّا عنيفًا، أو النفخ بشدة من بين شفتيه كلما استقرت على أنفه أو فمه.

أخيرًا قرر أن يقوم من رقدته، بعد أن فشلت كل محاولاته للنوم، وبعد أن عجزت القصة الخرافية التي نسجها خياله عن تخفيف حدة التوتر والضيق الذي أخذ يشعر بهما يصعدان داخل صدره مثلما يصعد مد البحر شيئًا فشيئًا. حاول أن يهم بجذعه من فوق السرير دون جدوى، فاقترب من الحافة، وأنزل قدميه على الأرض، ثم ارتفع بالجزء الأعلى من جسمه إلى أن أصبح في وضع الجلوس. مع كل حركة كان يصدر صوت معدني

أصم من حول قدميه. التفت إلى بقعة السماء الصافية المطلة من أعلى. ترى كم الساعة الآن؟ لم يعد يدري للزمن حسابًا. الوقت يمر ثقيلاً بطيئًا، والأيام فقدت أرقامها، وأسماءها. بقي فقط التتابع المنتظم المتكرر لليل والنهار، تسجله بقعة السماء من خلال فتحة بجوار السقف، فتحة تطل على عالم بعيد لا يرى، على شيء أصبح لا شيء. وقف على قدميه العاريتين. دارت به الدنيا دورة عنيفة، وتسلل إعياء مفزع إلى جسده، فسقط جالسًا على السرير من جديد. أحس بمثانته منتفخة تكاد أن تنفجر، فاستجمع قواه، ووقف، ثم اتجه إلى أحد أركان الحجرة بعيدًا عن الباب. أسند كتفه إلى الجدار، وأخذ يحرك جذعه، ويثني ركبته، في رقصة غريبة، وكأنه مشلول أخذته النشوة. بعد جهد انفرجت الفتحة في سرواله، واندفع السيل الأصفر الساخن إلى الوعاء المصنوع من المطاط الأسود، لتتصاعد منه رائحة النتن، والنشادر المتراكمة عبر سنين طويلة لا عدد لها، سنين صب فيها رجال كثيرون مثله فضلات أجسادهم المنتكهة في أوعية من المطاط الأسود.

عاد إلى جلسته على حافة السرير، وسرت إلى جسمه شيئًا فشيئًا موجات متصاعدة من الحيوية، تتدفق كأنها شحنات من الحياة تستأنف سيرها الطبيعي ... متى نام بالأمس لا يدري ... طول عمره كانت لديه تلك القدرة الطبيعية الغريبة على السقوط في أحضان النوم العميق المريح متى استطاع أن يمد جسمه فوق السرير، أو فوق مساحة من التراب أو البلاط أو القش. رفع عينيه إلى السقف فلمح عصفورًا صغيرًا على حافة النافذة، جسمه مختفي، ورأسه يطل بفضول عبر مربع القضبان، فانتابته موجة من السعادة المفاجئة تدفقت إلى قلبه وأضاءت وجهه ليصبح كطفل عادت إليه أمه بعد يوم العمل تحمل لعبة جديدة، زاهية، مغلفة بالسلوفان.

تذكر أحداث الأمس دون اكتراث. ما دام حيًّا فليس هناك ما يخشاه. الموت وحده هو المفزع. فبالموت ينتهي كل شيء. حتى الآن رغم كـ ل شيء، رغم الجدران، ورغم السلاسل، ورغم الحصار المـ دروس بدقـ ـة، المدروس في صمته وفي ظلامه، وفي عزلته التامة المطلقة وفي الإيحاء بأنه يقف وحده أمام قوة باطشة لا ترحم، قد تضرب غدًا أو بعد غـ ـد، أو بعد دقائق، ورغم اللعب على وتر الخوف، رغم كل هـ ـذا مـ ـا زال هـ ـو المنتصر، ما زال هو الأقوى. لماذا لا يدري. ليس هذا وقت البحث عـ ـن السبب. سيفكر في الأمر عندما تهدأ الأمور قليلاً، أو ربما عنـ ـدما تتـ ـأزم أكثر من هذا.

بالأمس كان الرجل مجتهدًا. لابد أنه درس هذه المسائل في مكـ ـان ما. ربما في لبنان أو في نيويورك " دخن أمامه إذا كـ ـان مـ ـدخناً بتلـ ـذذ واضح ". أتذكر يا عزيز في الجلسة الأولى، كيف انهار محمود. كانـ ـت البداية سيجارة. " ثم حاول الإغراء بالمستقبل، بفرحة الحياة "، " ما زلت شابًا وأمامك الحياة كلها "، " حاول أن تضرب على وتر الغرور والزهـ ـو بالنفس "، " أنت لست مثل الآخرين، أنت شاب ذكي ... ألست فخورًا بما فعلت؟ تكلم بصراحة إذن ". " حاول أن تستميله إلى الروابط القديمة، إلى العائلة، إلى الحياة الرغدة السابقة ". " أنت من عائلـ ـة طيبـ ـة " " ربمـ ـا استطعت أن تجذبه من صفوف الناس الذين اندفع إليهم ليعود إلى صفوف الطبقة التي جاء منها ". " اغرس فيه اليأس مما يفعل ". " ماذا تستطيع أن تفعل ضد قوى الدولة؟ " " ثم الخوف من الـ ـبطش ". " الدولـ ـة تسـ ـحق، وسندفنك هنا ولا يدري أحد " " وإذا لم يجد كل هذا انفث سـ ـموم الشـ ـك القاتل " " أنت مريض. عندك دمل في الشرج ". الشك الشك. كيف عرف؟ لابد أن أحدًا تكلم. من؟ من؟ ... الدمل في الشرج. أراد أن يقنعـ ـك بأنـ ـه

يعلم كل شيء عنك، حتى أدق التفاصيل عن جسمك، بل عن فتحات جسمك، لتشعر أن لديه مصادره ربما من بين زملائك. الشك القاتل الذي يفقدك الثقة في الآخرين، ويدفعك إلى اليأس، إلى الأنانية، إلى قانون الغابة حيث يسعى كل واحد إلى إنقاذ نفسه ولو على حساب الغير. " الأنا " في أعنف صورها، في قمتها، في أحد درجاتها. فالحياة نفسها قد تكون في كفة القدر. " أنا وبعدي الطوفان ".

أراد أن يضعفك ولكنه لم يستطع. متى يشعر الإنسان بالضعف؟ إذا سدد الخصم سهامه إلى نقط الضعف فيك، أو إذا هوجمت في شيء عزيز عليك فلم ترد، بينما كان الرد واجبًا. عندما يتذكر الإنسان مثل هذه الأشياء يشعر بقلبه مثقلاً ... مثقلاً بهم كبير ... وتسري فيه قشعريرة غريبة كأن جسده يريد أن ينفض عن نفسه، وبسرعة، عارًا خفيًّا، وتأنيبًا مقلقًا، وندمًا لا رجعة فيه، لأنه لم يعد يستطيع تدارك ما حدث.

* * *

كان المدرج مكتظًّا بمئات من الطلبة يجلسون فوق المقاعد الخشبية اللامعة بطلائها الجديد، صفوفًا متراصة من الرؤوس والوجوه والأكتاف المتلاصقة ترتفع درجة فوق درجة، ونصف دائرة فوق نصف دائرة، من الصف القصير الأمامي حول منصة المحاضر، والسبورة العريضة السوداء إلى الصف الأخير الطويل في أعلى المدرج تحت السقف تمامًا، وبجوار النوافذ المطلة على الحوش الذي يحيط بمبنى الإدارة. الأفواه كلها مغلقة أو شبه مغلقة، وصمت غريب يخيم على الحشد، صمت مطلق شلت معه كل حياة. أجساد متراصة من الشمع في متحف، لا تتنفس، ولا تهمس بكلمة أو جزء من كلمة، ولا تنقل قدمًا من مكانه فوق البلاط الأبيض المغطى بحبات من التراب الخشن، ولا تبدو منها حركة إصبع من أصابع

اليد، ولا طرفة جفن، ولا حفيف قلم فوق الورق، وكأن الدنيا تجمدت عند لحظة مثل فيلم صامت كف فجأة عن الدوران.

الكراريس مغلقة فوق المناضد، والأقلام راقدة بجوارها، والكتب مدفونة في الحقائب، والعيون تحملق مصوبة نحو الأستاذ " وايت "، ومن ورائه كلمات سطرت بالطباشير الأزرق على الصبورة، عيون تبصر ولا ترى، كعيون حيوان أصم، أو ربما كعيون وليد تسجل ولا تدرك، عيون غريبة تسمرت على شيء ما، فيها دهشة غبية، أو تبلد، أو لا شيء على الإطلاق.

والأستاذ " وايت " يروح ويجيء على المنصة بمعطفه الأبيض ناصع البياض يصل فوق الركبة، وقميصه الأزرق الأنيق، ورباط عنقه المعقود بعناية حول رقبته العجوز المتغضن، وقامته المنتصبة رغم سنه، يروح ويجيء في غضب مكتوم، تحسه في احمرار وجهه، وفي حركة يديه الكبيرتين العصبية، وفي النظرات الحانقة من عينيه الزرقاوتين. يتحدث في نبرات هادئة مثل لسعة كرباج من الحرير. " من الذي كتب هذه الكلمات؟ إذا كان فيكم رجل فليتقدم. لقد وقفت على هذه المنصة عشرات السنين أعلمكم، وأعلم من سبقوكم بناء الجسم وأجهزته، وعضلاته، وأعصابه، وأحاول أن أعلمكم كيف تستخدمون عقولكم. ولكنكم لا تستحقون هذا العناء " أيها الإنجليز الكلاب اخرجوا من بلادنا ". من كتب هذا الكلام؟ لماذا لا ينطق أحد منكم؟ أليس بينكم رجل؟ رجل واحد؟!! أنتم الكلاب، وينبغي أن تحكموا بالسياط. فعندما ترتفع السياط تسكتون، وعندما تعاملون باللين تتمردون. " أيها الإنجليز الكلاب، اخرجوا من بلادنا ". اعلموا جيدًا أنكم ستنهارون إذا خرج الإنجليز كما

تقولون. نحن الذين علمناكم كل شيء. وغدًا سترتفع السياط في الشوارع. وسنرى إن كان فيكم رجل ".

تدفقت كلماته مثل سيل من الحديد الساخن المنصهر يصب على أجساد من الحجر. فلم يتحرك أحد، ولم ينطق أحد، واستمرت العيون البهيمية الغريبة تحملق ببلادة في الرجل، وكأنه يتحدث عن شيء لا يفهمونه، أو عن أشياء لا تمت إليهم بصلة. وأخيرًا انطلق خارج القاعة تاركًا وراءه الحشد الصامت.

بقي الطلبة بضعة دقائق أخرى دون حركة، وكأن قوة مغناطيسية تشدهم إلى مقاعدهم. ثم بدءوا ينصرفون في مجموعات صغيرة صامتة، وكأنه استنفذت كل موضوعات الحديث.

ظل عزيز جالسًا في آخر صف حتى كادت القاعة أن تفرغ من الطلبة، ثم انصرف. لم يكن المشهد قد أثر عليه في شيء. كان كالمتفرج الذي لا يعنيه الكلام، ولا يحس أنه موجه إليه، مجرد عابر سبيل قادته خطواته بالصدفة إلى القاعة، فأخذ يشاهد من بعيد ما يجري فيها من أحداث لا تربطه بها أدنى صلة.

هذا الانفصال عما يدور حوله لم يكن يقلقه على الإطلاق. كان منهمكًا في الدراسة، لا يترك المشرحة إلا عندما تغلق أبوابها، يسهر في سكون الليل منكبًا على الكتب العلمية السميكة، ويشعر بالرضى إزاء تفوقه المستمر على الآخرين، ونظرات الطلبة التي يختلط فيها الإعجاب الخفي بنوع من الغيرة، ويختال مزهوًّا بين الجثث عندما يلمح نظرات أخرى لها معنى تتساب من بين الأهداف الطويلة لتنقل رسالة أنثوية مستترة. ولكن رغم لحظات الضعف البشرية هذه كان قسيسًا في محراب العلم، وكأن قوة ما داخلية، لا تهدأ ولا تنام، تدفعه دون كلل نحو المزيد

من المعرفة، لتشبع تلك الرغبة العارمة في التفوق التي لا يعرف لها حدود، والتي لا يصيبها الشبع أبدًا.

عاد إلى المشرحة في ذلك اليوم وكأن شيئًا لم يحدث. أخرج أدوات التشريح اللامعة من كيسها الأنيق المصنوع من الجلد الأسود، وجلس على المقعد بجوار الجثة المستلقية على مائدة من الرخام البارد. أمسك بالمشرط الطويل الحاد وبالملقاط ليتتبع في صبر وأناة تفرعات العصب الأبيض اللامع في يد الجثة، تتحرك أصابعه الطويلة الرفيعة برفق فوق الكف، لتزيل طبقات الشحم والأنسجة الضامة، وتكشف العضلات الدقيقة وهي تمر جنبًا إلى جنب، حزما متراصة من الألياف الحمراء المنتفخة، لتنتهي عند نظام الأصابع البيضاء في خيوط رفيعة، وإلى جوارها تجرى الشرايين كالأنابيب الدقيقة من المطاط حقنت بمادة وردية اللون، والأوردة الملساء بدمها القاني المتجمد.

وقف إلى جواره زميله في المجموعة أسعد، الشاب القصير المرح الذي جاء من بيروت ليدرس الطب، يراقب من فوق كتفه عملية الكشف البطيئة الحاذقة، بعينيه الهادئتين المستغرقتين.

لم يكن عزيز قد عرف لحظات كثيرة من المتعة الحقيقية. كانت الحياة تسير بأحداثها اليومية المتكررة كأنها شريط آلي يمر عليه دون أن تترك أثرًا عميقًا، سواء من الألم أو من السعادة. ولكن هذه الساعات التي يقضيها في المشرحة تمثل شيئًا آخر مختلفًا كل الاختلاف. هنا يدخل إلى عالم جديد يستغرق فيه كل الاستغراق، وكأنه انفصل تمامًا عن كل ما يدور حوله، ليبقى وحده أمام الجثة الممدودة على الرخام الأبيض، يجلس الساعات الطويلة، لا يشعر بالتعب أو الجوع، يتوغل بمشرطه الحاد اللامع في أعماق الإنسان، يزيح ستارًا ليكشف ستارًا آخر، ويمزق طبقة

وراءها طبقة أخرى، كالمحموم يحفر بأصابعه بحثًا عن كنز ثمين، عن سر يجذبه كالمغناطيس، كالمفقود غرق في أعماق نفسه بحثًا عن معنى الحياة في هذه الجثة الصامتة الجامدة. هنا في الحجرة الشاسعة الأركان تختلط رائحة الموت المعقم، البارد، برائحة الأنفاس الحية الساخنة، لا يفصل بينهما شيء سوى خيط رفيع لا يرى أو هوة سحيقة تبدو أحيانًا كالخيط الرفيع.

هذه اليد المذبوحة، ترى ماذا فعلت قبل أن تموت؟ أصابع الإنسان التي تعزف أجمل الألحان، وتكتب، وتنسج الحرير، وتطلق الرصاص لتقتل ليست الآن سوى كتلة من اللحم. يد الإنسان أداة المعرفة والخلق. كان مثل القرد يتسلق الأشجار، ثم انتصبت قامته ووقف على قدميه فأصبحت يداه حرتان، لتلمس، وتجرب، وتصنع. وكلما تعلمت شيئًا جديدًا حولته إلى قشرة المخ الرمادية ليعود إليها ثانيًا شحنة من الحركة. وهكذا، دون توقف، عبر اللحظات، والسنين والقرون، هذا التيار الخفي يصعد ويهبط بين اليد والمخ، بين العمل والعقل.

ولكن هذه اليد الممدودة المتصلبة انتهى فيها كل شيء، توقفت ... ماتت ... لماذا؟ وكيف؟ أسئلة تروح وتجيء كل يوم في ضجيج المشرحة وسط الجثث، بأعضائها المتهتكة، وعيونها الصماء، ومجموعات الطلبة المحتشدين حولها، يتحدثون، ويضحكون، وينفثون خيوطًا من الدخان الأزرق، ويغرسون مشارطهم الحادة في أجساد استسلمت نهائيًا، فلم تعد تنتفض من الألم، أو تستطيع الاعتراض. وأستاذ يضع يدًا في جيبه ويختال في ردائه الأبيض بشعره الأشيب وسط مجموعات الطلبة، يتحرك ببطء مدروس، ويبتسم ابتسامة مدروسة، فيها كبرياء ومساحة من السخرية، كمن يعلم ما لا يعلمه الآخرون، كمن يعرف الإجابة على كل

الأسئلة. يقترب أحياناً من إحدى المناضد ليشرح بإصبع مدبب يكاد يغرسه في العيون المحملقة، والأفواه نصف المفتوحة، ويبتعد أحياناً ليقف هناك، بعيدًا، وكأنه يفكر في أمر مهم. والسؤال ما زال يتردد لماذا؟ وكيف؟ لماذا؟ وكيف؟

قال أسعد: " ترى من كتب الكلمات التي أثارت الأستاذ وايت على السبورة "؟

" لا أدري ".

" أليس عندك استنتاج "؟

" أبدًا. أنت تعلم أنني لا أهتم بمثل هذه الأمور ".

" لأن والدتك إنجليزية "؟

" لا لأنها لا تهمني في شيء ".

" ولماذا لا تهمك؟ ألا تريد أن يخرج الإنجليز؟ "

" هذه مسألة لم أفكر فيها ".

" غريب أنت. البلد تغلي، والحالة تكاد أن تنفجر. وأنت في عالم آخر – في عالم الجثث ".

" لست في عالم الجثث، أريد أن أتعلم وأدرس ".

" لماذا "؟

" لأصبح طبيبًا ".

" وماذا بعد "؟

" سأذهب إلى الريف لأعالج المرضى هناك ".

" يا صديقي ... ولماذا إلى الريف "؟

" لأن الناس هناك فقراء، ويحتاجون إلى الطبيب أكثر من غيرهم ".

" ومن أين جاءتك هذه الأفكار النيرة "؟

" لا أدري بالضبط، ألم تقرأ رواية كرونين: " القلعة ".

" لا ... من هو؟ " كرونين " هذا "؟

– أنا لا أهوى الكتب كثيرًا، ولم أقرأ " كرونين " ولا غير ره. ولا أفهم لماذا يجب أن يحدد " كرونين " مستقبلك. هل ه و الـ ذي نصد حك بالذهاب إلى الريف "؟

" أنت؟ لا تفهمني يا أسعد. هناك أشياء أريد أن أفعله ا. وعند دما قرأت " القلعة " وجدت فيها صدى في نفس ي. أري د أن أك ون غي ر الآخرين. أن أجد معنى الحياة. وأعتقد أنني سأجدها في خدمة المرض ى. لذلك دخلت الطب ".

" ومن قال لك أن الآخرين لا يجدون معنى لحياتهم؟ أنا مثلاً راض تمامًا عن حياتي. أريد أن أتخرج وأعمل في المدينة، وأكسب كثيرًا م ن المال، وأشتري سيارة تنطلق كالبرق، وأراقص الفتيات الجميلات حت ى الصباح. ما رأيك في كل هذا؟ ". رنت منه ضحكة صافية مرح ة، ث م وضع يده على كتف عزيز وقال:

" هه لماذا لا ترد "؟

" لكل منا نظرته للأمور ".

" ألا تحب الفتيات الجميلات "؟

" طبعًا ".

" وألا تحب الرقص "؟

" إلى حد كبير ".

" والمال "؟

" ليس ذات أهمية كبيرة عندي ".

" لأنك لم تعرف الحرمان ".

" ربما ".

" وماذا تقول والدتك الإنجليزية في كل هذا "؟

" وما دخلها في الموضوع ".

" أليس لها دخل؟ أنا مثلاً دخلت الطب لأن أبي أصر على ذلك ".

" وأنا دخلت الطب باختياري. ولكن أمي كانت تمسك بيدي وتنظر إليها وتقول: لديك أصابع فنان، أو جراح ماهر ".

" أرأيت أنني على حق. أبي أنا أصر على أن أدخل الطب وأمـ ك أنت أوحت إليك بذلك. الإيحاء أقوى وأبقى من الإصرار ".

سكت أسعد قليلاً ثم قال بهدوء:

" ولكن أبي مات بعد أن دخلت المرحلة الثانوية. مات من السرطان " تعثر صوته لحظة، ثم استطرد: " ولكن دعنا من هذا. أتعرف من كتب الكلمات على السبورة؟ إنه خليل ".

" خليل؟ أتقصد ذلك الشاب الطويل الـ ذي خطـ ب فينـ ا الأسـ بوع الماضي؟ يلبس نظارة، وعيناه فيهما شيء غريب، كالأعمى الذي ينظـ ر ولا يرى "؟

" نعم هو بالضبط ".

" ولكنه يبدو لي شجاعًا. أراه يتكلم دائمًا بحماس شديد، ويتحـ رك هنا وهناك. يبدو أنه نشط في الاتحاد. فلماذا لم يعترف بأنـ ه كتـ ب مـ ا كتب"؟

" والامتحان "؟

" لا أفهم ".

" أحياناً يا عزيز تكشف عن غباء مستحكم. إذا اعترف أنه الفاعـ ل فلن ينجح في المشرحة أبدًا ".

" ولكن أشعر أنني لو كنت مكانه لاعترفت ".

" وأحياناً تكشف عن سذاجة متأصلة ".

" هل هي سذاجة أو شجاعة "؟

" إذا أراد الإنسان أن يتكلم عن الشجاعة فلا بد أن يفعل شيئًا أولاً. وحيث إنك مدفون في الكتب فليس هذا موضوعك ".

" يا أسعد، لماذا تحدثني هكذا؟ أقترح أن ننهي المناقشة "

" ننهيها أو لا ننهيها ما الذي أدخلنا في هذه المسائل أصلاً. دعنا من كل ذلك. أنا أفضل الحديث عن الفتيات الجميلات، والرقص معهن حتى الصباح. أعطني المشرط. أريد أن أمرن يدي قليلاً ".

عاد إلى منزله في ذلك اليوم على دراجته كالمعتاد. ومكث حتى ساعة متأخرة من الليل منكبًا على كتبه تحت ضوء المصباح الأخضر في حجرة المكتب الأنيقة المطلة على النيل. ولكن عقله كان يسرح هذه المرة في أشياء جديدة. وعندما جاءت أمه بصينية الأكل التي تعودت أن تقدمها له قبل النوم، جلس أمامها يأكل في صمت، ولم تنجح نظرات عينيها المتسائلة في حمله على الكلام. ولأنها كانت تحترم حريته، كأن هناك معاهدة صامتة بينهما، لم تحاول أن تسأله عن شيء، وأخذت تحكي له عن شئون المنزل، وتغريه بين الحين والآخر على تناول صنف من الأصناف. " قليل من الزبادي " " انظر سلاطة البنجر هذه، لونها جميل أليس كذلك؟ " " اللحمة اليوم طرية جدًا وأم أحمد أبدعت في طهيها " " أنت تحب البطاطس خذ كمية أخرى ".

* * *

أحس بألم حاد في الجزء الأعلى من معدته تحت الضلوع، وكأنه ابتلع مسمارًا مدببًا يحاول أن يخترق حصار الجدران، ألم عميق مركز

عند نقطة معينة لا يتزحزح عنها، نقطة دائرية صغيرة يصطدم بها شيء كالسيل المتواصل من الشحنات الكهربائية السد اخنة. انتابته ا تقلص ات عنيفة، موجات متتالية، تزداد ثم تهدأ لتزداد من جديد.

تطلع إلى النافذة فوجد ضوءًا باهتًا يزحف بالتدريج عبـ ر السد ماء المظلمة. آلام القرحة تأتيه دائمًا مع الفجر، عندما تفرغ معدته. الجـ وع، الجوع جعله يحلم ... " قليل من الزبادي " ... " سلاطة البنجـ ر لونـه ا جميل أليس كذلك "؟ أم السعد جاءت من البلد طفلة. كانت تكبره بسد نتين ... فلاحة سمراء، قوية الجسد والذراعين، كبرت في بيتهم، أتقنت الطهي واللغة الإنجليزية. هذا الألم اللعين، كان يسكته بقطعة مـ ن الشـ وكولاتة يحملها في جيبه أينما ذهب، ويضعها بجوار سريره عند النوم. بعد الليلـ ـة ... سيحتفظ بنصف الرغيف من باب الاحتياط.

رفع عينيه مرة أخرى إلى النافذة، فوجد الضوء وقد انتشـ ر فـ وق نصف المربع ... يوم جديد ... ترى ماذا يحمل معه؟ يوم جديد ... فجر جديد. كلمات لها ذكرى ... كلمات كان وقعها غريبًا ومثيرًا عندما خرج من باب الكلية ليجد نفسه طبيبًا على عتبة الحياة. كلمات زلزلت أركـ ان كثير من الأشياء التي كانت تبدو راسخة كالزمن، وحملت معها ريحًا نقيًا قويًا.

حاول أن يحرك معصميه حتى يعود إليهما الدم، فأحس بشيء مثل وخز الإبر عند أطراف أصابعه. سحب المخدة بأسـ نانه إلـ ى منتصـ ف السرير ثم انقلب على بطنه فوقها، لتضغط على معدته.

مرت الدقائق الطويلة ثقيلة كأقدام مغروسة في مستنقع تنتزع نفسها من الطين خطوة بعد خطوة. ظل راقدًا، مشدودًا ما بين اليقظـ ـة والنـ وم،

وشحنات الألم حقن مخدر بطيء المفعول تدفعه بالتدريج نحو حافة اللاشعور.

لم يتنبه إلى الباب وهو ينفتح، ولم يشعر بيد غليظة تمتد إلى كتفه لتهز جسمه هزًا عنيفًا، ولم يسمع صوتًا أجش يقول له " قم، حضر نفسك " لم يدر بشيء إلا وهو جالس على حافة السرير ووجه عويس أمامه يظهر ويختفي كأن سحابة من الدخان الكثيف تجيء وتروح في المسافة التي تفصل بينهما.

" قم حضر نفسك. أنت مطلوب في الإدارة ".

وقف عزيز على قدميه يترنح قليلاً. ونظر ناحية الضوء فوجد محمدًا واقفًا يستند بكتفه إلى قائمة الباب، اخترق الصوت الأجش الصمت من جديد.

" محمد فك له الحديد ".

تقدم الرجل نحوه وفي يده مفتاح صغير، لامع، مصنوع في شكل ماسورة قصيرة من الحديد، ودار حوله ليقف خلف ظهره. سمع عزيز صوت صرير المفتاح حول المسمار كأن طيرًا غريبًا يحاول الإفلات من قبضة الصياد. في لحظة أصبحت يداه حرتين يحركهما كما يشاء، فأخذ يدلك معصميه مكان الأساور الحديدية التي كانت تحيط بهما. أحس بالدماء تجري في أصابعه المتجمدة. ركع محمد على ركبته اليمنى عند أقدامه ودق أربع دقات قوية بالمطرقة الرفيعة التي كان يحملها معه، فانفصلت السلاسل الحديدية عن رسغيه لتصبح معلقة في الهواء. أخذ عزيز يفك حزام الجلد المربوط على وسطه بأصابع ما زالت تتعثر، وترتعش، وكأنها أصابع شخص آخر لم يعد يستطيع السيطرة عليها. فجأة

سقط الحمل من حول جسده على الأرض، ورن صوته عاليًا في الحجرة الصغيرة ليتكون عند أقدامه، ثعبان أسود فقد الحياة.

جسده أصبح خفيفًا يكاد لا يشعر به، كمن تخلص من أثقال الدنيا كلها، بل كمن تحرر من الجسد نفسه، فأصبح روحًا بغير جسد. أخذ يحرك قدميه ويديه يريد أن يحس بوجودها، فرآها تتحرك أمامه وكأنها أشياء منفصلة عنه. دار حول الحجرة دورتين ليطمئن على ساقيه. طائر يجرب جناحيه ليطير، فتتسع له الدنيا ويرتفع فوق الجدران مستمتعًا لأول مرة بالحرية ... بالقدرة على الحركة.

أتاه الصوت الأجش يقطع عليه لحظات النشوة.

" ارتد ملابسك ".

ارتد القميص الأبيض، والسروال الرمادي بسرعة، وهو ما يزال يترنح قليلاً، وجلس على السرير ليدس قدميه الواحدة بعد الأخرى في الجراب الجديد ثم في الحذاء الأسود المفتوح. لمس في حركة آلية شعيرات ذقنه البارزة الخشنة ثم وقف وقال:

" أنا جاهز ".

اجتاز الموكب الصغير مساحات الرمل الخشن، والجدران، والأبنية المنخفضة المسطحة. الأشياء تبدو ناعسة مستسلمة في ضوء الشمس الدافئة، ورجال في ملابسهم الزرقاء يرشون الماء من الجرادل بحركات بطيئة لا مبالية، كأنهم من عالم آخر. يشعر بأصابع عويس الغليظة تضغط على ذراعه بأحكام متزايد كلما بدا أنهم يقتربون من هدفهم. حركة السجان الغريزية عندما يقترب من الرئيس. وصلوا فجأة أمام مبنى منخفض سدت منافذه وأبوابه بسلك معدني رفيع، وساروا عبر ممر ضيق اصطفت على جانبيه قصارى تطل منها نباتات شوكية، بعضها طويل

مدبب، وبعضها قصير منتفخ كالقربة. دخلوا من الباب الرئيس وسط المبنى وخطواتهم تدق فوق الأرض الخشبية اللامعة، ثم انحنوا إلى اليسار، وتوقفوا أمام باب أخضر داكن مزود بقبضة نحاسية مدورة.

نقر عويس على الباب نقرتين خفيفتين، وكأن حياته تتوقف على تفادي إزعاج من بالداخل، ووقف منتصب القامة، مكتوم الأنفاس، كمن ينتظر حدثًا عظيمًا لابد أن يقع. سمع عزيز صوتًا غامض النبرات يقول من الداخل: " ادخل ". فتح عويس الباب عن آخره، وتقدم خطوتين إلى الداخل. رفع يده اليمنى بالتحية في ذبذبات صغيرة عنيفة متوترة تأبى أن تعود إلى السكون، ونطق كلمة غير مسموعة ثم أشار إليهما بالدخول. فدخل عزيز ومن ورائه محمد.

كانت الحجرة تحوي جمعًا صغيرًا من الناس يتحدثون ويدخنون. رجل يبدو طويل القامة يجلس خلف المكتب، يرتدي نظارة ذات عدسات سميكة، تخفي عينيه فلا يرى منهما إلا دائرتين سوداوتين غير واضحتي المعالم، ووجه بيضاوي أقرب ما يكون إلى الاستدارة حفرت فيه حبوب الشباب فجوات صغيرة متناثرة تجمعت بكثرة فوق الأنف الكبير وعند الوجنتين، تفصل بينهما نقط سوداء صغيرة في حجم رأس الدبوس. وفم غليظ شفتاه لا تكاد أن تنفرجا حتى وهو يتكلم. وجه لا تستشف منه الغضب أو الرضى، القسوة أو الطيبة، وجه بلا معنى، جامد كالأداة، كرأس المطرقة. تمسكها يد أخرى لترتفع عنك أو تسقط فوق رأسك.

على يساره جلس رجل أشيب الشعر ذو عينين صغيرتين تتحركان بسرعة في كل الاتجاهات، وأنف مدبب، وأذنين كبيرتين مفرطحتين تميلان إلى الأمام، وتهتزان وكأنهما خلقتا للتسمع. وجه فأر وضع على جسد إنسان، والجسد الهزيل يكاد يختفي في الملابس، والعنق رفيع

متخشب كأنه يكتفي بحركة عينيه الدائبة، وأذنيه الكبيرتين، لمعرفة كل ما يدور، دون أن يكون في احتياج إلى الالتفات حوله. كان يجلس منتصـ ب القامة، على الجانب الأيسر من المكتب، بطريقة تنم عن الاحترام الشديد، بل وشيء قريب من التقديس للأشخاص الآخـ رين المحيط ين بـ ـه فـ ي الحجرة، وقد وضع أمامه ملفًا منتفخًا، وحزمة من الورق، وعددًا من أقلام الحبر المختلفة الأحجام والألوان.

في أحد أركان الحجرة القريبة من المكتب، بجوار الناف ذة المطلـ ـة على الحديقة الصغيرة، وقف رجل ثالث يدخن سيجارة في صمت، مستندًا بكوعه على منضدة بيضاوية ترتفع على أربعة أرجل رفيعـ ـة مسـ حوبة، وضع فوقها تمثال نصفي لعرابي بملامحه الصارمة الخشـ نة، وشـ اربه الكث، وطربوشه التركي المبتور. وقف الرجل الصـ امت مـ ع التمثـ ال وكأنهما يشاهدان أحداثًا لا تعنيهما في كثير أو قليل، يسرحان بنظرتهمـ ا إلى أفق بعيد، ويستمعان في برود دون انفعال للأحاديـ ث الـ دائرة فـ ي الحجرة.

على كنبة من القطيفة الحمراء الداكنة ممدودة بطول الجدار جلـ س الرجل حجازي بعينيه الزرقاوتين الباردتين، وشاربه الأصفر، يسند رأسه على كف يد كبيرة، وإلى جواره الرجل الأصلع بنظارته الطبية المذهبـ ـة، وفمه الذي يبدو كالشق العريض.

عندما دخل عزيز، توقف الحديث. أحس بعيون الرجال تلتفت إليـ ـه فجأة، لتفحصه بإمعان مستتر كأنه يوضع على كفة ميزان دقيق، إلا عيني الرجل المستند بكوعه على المنضدة العالية إلى جانب التمثال، فهي تحملق في شيء بعيد لا يرى، كأن صاحبها لم يشعر أن هناك أحدًا دخـ ل إلـ ى الحجرة.

أشار الرجل الجالس وراء المكتب إلى مقعد وثير بمسندين، فأسقط عزيز جسده بعناية في الفجوة العميقة الحمراء الداكنة. أحـ س بعضـ ـلاته ترتخي فوق ملمس القطيفة الناعمة الدافئة. مد أطرافه تحت المكتب كمـ ـن يريح قدميه المتعبتين بعد مشوار طويل. هز الرجل رأسه هـ ـزة خفيفـ ـة فانسحب عويس، ومن ورائه محمد من الحجرة. خـ ـيم الصـ ـمت لحظـ ـة قصيرة ثم نطق الرجل بصوت واضح النبرات:

" الدكتور عزيز أظن "؟

" نعم ".

سكت برهة ثم مد إليه يده بعلبة فضية مستطيلة ضغط عليها بإبهامه المنتفخ فانفتحت فجأة ... " تك " رنت في الصمت كالإنذار الخاطف.

" سيجارة "؟

" شكرًا لا أدخن ".

" قهوة "؟

" لا مانع ".

ضغط على جرس بجواره، فدخل رجل أسمر يرتدي رداءً أزرق. " مضبوط "؟

" لا على الريحة ".

خرج الرجل ذو الرداء الأزرق سائرًا على قدميه الحـ ـافيتين. مـ ـد كفيه المكتنزتين على المكتب ومال برأسه إلى الأمـ ـام. تنـ ـاول الرجـ ـل الأشيب الجالس بجواره أحد الأقلام ... نزع الغطاء المعدني من فوقه ثـ ـم فتح أوراقه، وانتظر.

" أريد أن أسألك بعض الأسئلة ".

" اتفضل ".

" اسمك "؟

" عزيز ".

" اسمك بالكامل ".

" عزيز عمران ".

" متزوج "؟

" نعم ".

" ما اسم زوجتك "؟

" لم أعد أذكره ".

" وكيف هذا "؟

" لم أرها منذ سنين ".

" تنسى اسم زوجتك "؟

" أحياناً أنساها، وأحياناً أكاد ألمسها بأصابعي ".

" والآن "؟

" الآن ينبغي أن أنساها ".

ارتفع صوته قليلاً.

" أنت تحاول التمويه علينا. ليس هذا من مصلحتك. قل الحقيقة ".

" الحقيقة؟. منذ متى تطلبون الحقيقة؟ أنا أقول الحقيقة ولكنها غير ما تريدون ".

" لا تحاورني. لن تستطيع إخفاء شيء ".

" ليس لدي ما أخفيه. فكل شيء ينبغي أن يقال ".

" اتفقنا إذن. قل لي اسم زوجتك ومكانها ".

" لا أتذكر ".

بشيء من الضيق:

" هذا ما لا أستطيع أن أتصوره. أنت تكذب علينا ".

" أنا لا أكذب. الإنسان ينسى ما يريد أن ينساه ".

سكت لحظة ثم استطرد:

" ألديك أطفال "؟

" نعم طفل واحد ".

" أين هو "؟

" في طي النسيان مع أمه ".

" أتريد أن تقول أنك نسيت طفلك أيضًا "؟

" إنه مثل كل الأطفال، ومع ذلك يختلف عنهم. أذكر عينيه الواسعتين السوداوتين فيهما تأمل، وبريق لا ينطفئ ".

دخل الرجل ذو الرداء الأزرق ووضع فنجاناً من القهوة فوق المكتب.

مد عزيز يده للفنجان. أحس بالدفء تحت أصابعه ورائحة البن والحبهان في أنفه. تناول رشفتين ودارت رأسه دورة خفيفة منعشة ثم استقرت من جديد. انتقلت عينا الرجل الواقف بجوار التمثال إلى وجه عزيز، وتقابلت عيونهما في نظرة سريعة، ثم انفصلت من جديد، وكأنها سيوف تلتقي في لحظات المبارزة الأولى يجس فيها الخصم خصمه. وضع حجازي ساقاً فوق ساق مصوبًا نظراته إلى ركن الحجرة كأنه ينتظر إشارة ما تأتيه من هناك، وانشغل المحقق بإشعال سيجارته من الولاعة الصغيرة السوداء المذهبة. انبعثت نقرات أصابع من خلف التمثال، ثم ساد الصمت من جديد، لا يقطعه سوى حفيف القلم على الورق.

" نريد أن نتفاهم بطريقة أفضل. لماذا أنت مصر على هذا العناد. ألا تريد أن تنتهي مما أنت فيه؟ نحن نسعى إلى تحقيق العدالة وينبغي أن تساعدنا على ذلك ".

" عدالة من "؟

" عدالة القانون ".

" أي قانون؟ قانون الذي يملك على من لا يملك "؟

" أنت ضد القانون إذن "؟

" لا ليس كل القوانين، أنا ضد قانون الغابة ".

" لا تخرج بنا عن الموضوع. أنا أسأل وعليك أن تجيب ".

" كما تشاء ".

" أنت تقول أن اسمك عزيز. ومع ذلك فأمامي أوراق تثبت أنه ليس اسمك فكيف تفسر ذلك "؟

" أوراق؟ لا أعرف شيئاً عن هذه الأوراق ".

" أخذناها من منزلك ".

" ليس لي منزل ".

" لقد أتينا بك من منزلك في عين شمس ".

" ربما كان شخصاً آخر. أنا كنت أسير في الشارع، فأحاط بي رجالك وقادوني إلى هنا ".

ضرب بقبضته على المكتب وارتفع صوته في غضب.

" أنت تكذب من جديد. كنت في المنزل ".

" قلت لك أنني لا أكذب. ليس لي بيت. بيتي متهدم، وأنا أتنقل في الشوارع والطرقات ".

" التحريات التي أمامي تقول أنك طبيب، وكلامك يدل على أنك متشرد. فما هذا التناقض؟ هل أنت طبيب فعلاً؟

" نعم ".

" وأين تعمل "؟

" في كل مكان، أعالج الأمراض ".

" طبيب متجول!! أليس لك مقر ثابت "؟

" ليس لي مقر ثابت ".

" كلامك غامض وهذا لن يقودك إلى شيء ".

" أنت تسأل وأنا أجيب ".

نظر إلى الأوراق التي أمامه.

" التحريات تقول أنك كنت تقوم بأعمال أخرى ".

" أنا أعمل لآكل. أحياناً أمسك بالفأس، وأحياناً أخرى أدبغ الجلود، أو أنسج الحرير ".

" ولكن الأوراق تثبت أنك تغير اسمك، فأحياناً تسمي نفسك عزيزًا، وأحياناً حساناً، وأحيانا أخرى ماجدًا، فلماذا "؟

" لا أعرف شيئاً عن الأوراق التي ذكرتها. ولكنني أغير اسمي فعلاً".

" لماذا "؟

" لأنني مطارد "؟

" ولماذا أنت مطارد "؟

" لا أدري. كل ما أعرفه أنني مطارد. وعندما أبحث عن السبب لا أجد تفسيرًا يقبله عقلي ".

" ألا تعرف لماذا "؟

" لا أعرف. أتنقل من زنزانة إلى زنزانة ومن سجن إلـ ـى سـ ـجن. وعندما أخرج تتبعني عيونكم، ويحاصرني رجالكم ".

" أنت تعرف السبب ولكنك تتغابى ".

" لا أعرفه ".

" الأوراق التي أمامي تثبت عكس ما تقول. هذه الورقة مثلاً ". مد يده بورقة عبر المكتب " أليست بخط يدك "؟

نظر عزيز إلى الورقة المغطاة بسطور متتالية من الخـ ـط المربـ ـع العريض، وأحس بالوجوه تحاصره ... تقترب ... تنتظر سقوط الضحية. أزاح الورقة قليلاً من أمامه.

" لم أرها من قبل ".

صوت الأنفاس تلهث الآن مثل حيوان رابض في مخبئه.

" وهذه الأوراق المكتوبة على الأستنسل "؟

" لم أراها من قبل ".

" وهذه النوتة. أليست لك "؟

أمسك بنوتة صغيرة خضراء، وأخذ يقلب صفحاتها، ويقرأ بصوت منتظم لا يعلو ولا يهبط.

" مصطفى الأندلس. من هو مصطفى هذا "؟

" لا أعرفه ".

" هل لديك ميعاد معه يوم ٦ أبريل القادم الساعة الخامسة "؟

" قلت أنني لا أعرفه ".

" سنرى هذا قريبًا ". قلب صفحة أخرى بإبهامه المنتفخ.

" حسين. الليمون. آخر الجدول. ماذا تقصد بذلك "؟

" هذه النوتة ليست لي ".

نقر على المكتب نقرات سريعة عصبية. اقترب الرجل القابع في الركن.

" في الصفحة الخاصة بيوم ٨ أبريل. مكتوب الآتي: لجنة. بحر كالمعتاد. لماذا تكتب هذه الكلمات "؟

" لا أفهم أي شيء مما تقول ".

" يا دكتور عزيز. إلى متى تستمر في الإنكار؟ ألا ترى أنك تعقد موقفك أكثر فأكثر. انظر خلفك ".

استدار عزيز بوجهه، فوجد بجوار الجدار، عند نهاية الحجرة، حقيبتين كبيرتين مفتوحتين دست فيهما أوراق كثيرة، وإلى جوارهما آلة كاتبة، وأكوام من الكتب.

" وجدنا كل هذا في منزلك ".

" قلت لك أنني لا أعرف عن كل هذا شيئاً ".

" والكتب. أليست هذه كتبك "؟

" لا ".

تقدم الرجل الأسمر الذي كان يقف الآن على بعد خطوتين من عزيز في اتجاه الكتب، ورفع حزمة صغيرة، نحيت جانبًا، حملها حتى المكتب ليضعها أمامهم. تلاحقت الأسئلة سريعة مثل طرقعة الكرباج.

" هذا الكتاب يبدو أنك قرأته جيدًا " فتحه عند إحدى الصفحات. " نفس الخط الموجود في الأوراق وفي النوتة ". الحرية لا تمنح ولكنها تنتزع. ماذا تقصد "

" هذه ليست كلماتي ".

" إذا افترضنا أنها ليست كلماتك ما رأيك فيها "؟

" أوافق عليها ".

" وهل توافق على كل ما هو مكتوب في الأوراق "؟

" يجب أن أقرأها أولاً حتى أجيب على سؤالك ".

" تقول أن هذا الكتاب ليس ملكك. ومع ذلك به إهداء إليك ".

فتح الغلاف ودفع بالكتاب عبر المكتب " اقرأ ".

" إلى صديقي عزيز. ذكرى لقائنا الأول. حسين ".

" من هو حسين هذا "؟

" لا أعرفه ".

" ولكنه كاتب هذا الإهداء ".

" ليس لي صديق اسمه حسين. وهذا الكتاب ليس لي ".

" ولكننا نعرف غير ذلك ".

" ما دليلك "؟

" حسين نفسه ".

توقفت الأنفاس لحظة، وتوقفت اللحظة كأنها نقطة ماء تحولت إلى ثلج قبل أن تهبط. أحس عزيز بقلبه يسقط في فراغ. كل شيء يضيع ... يتلاشى ... يتوقف. ما عدا عضلة رفيعة ترف كالعصفور المذبوح في رقبته.

" حسين قال أنه أهداك الكتاب ".

* * *

الزنزانة مظلمة تمامًا. من آن لآخر يسمع وقع أقدام في الخارج، وأصواتًا مكتومة تقترب ثم تبتعد، أو سعال ديدبان يطرد النوم. رياح الخماسين تصفر صفيرًا يكاد يكون متصلاً، تقطعه فترات سكون متباعدة، ويرتفع أحيانًا إلى صوت يشبه عواء حيوان يتجول في الصحراء. حبات

الرمل الدقيقة تتسلل من تحت الباب لتخنق أنفاسه، وتملأ أنفه وفمه برائحة التراب وطعمه.

لم يعد قادرًا على النوم، يقضي الليل كله يتقلب على الفراش الخشن. يشعر بلسعات دقيقة فوق جلده تشبه وخزات الإبر الساخنة. ظل يومين يبحث عن مصدرها حتى اكتشف الفجوة الرفيعة، العميقة، المحفورة في منتصف الجدار فوق السرير، والتي يختبئ فيها البق أثناء النهار، لينقض على جسده طوال الليل. فعجن قطعة صغيرة من الخبز بفمه وحشرها في الفجوة مستعينًا بلسانه، وبإصبع قدمه الكبير. ومع ذلك ظل عاجزًا عن النوم. فجسده عاطل ينال من الراحة أكثر مما يحتاج، وعقله متيقظ، متوتر، مشحون، تتزاحم فيه مئات الصور والأفكار في دائرة مفرغة تدور، وتدور، مثل تيار كهربائي لا ينتهي.

الزمن لم يعد له حساب والأيام تمر أمواجًا وراء أمواج تسقط فوق شاطئ مجهول في حركة رتيبة، مستمرة، متكررة، لا فرق بين الأمس واليوم، ولا فرق بين اليوم والغد. كل شيء في الحجرة ثابت لا يتغير. عدد الخطوات بالطول أربعة، وبالعرض اثنتان ونصف، بعدها على رنة السلاسل. والأرض تنحدر قليلاً عند الباب، والباب أخضر داكن، فيه كوة دائرية من حديد، تتوسطه نظارة مغلقة، عين واحدة متربصة، ينفتح جفنها المعدني أحيانًا في سكون لترقب وتسجل، عين باردة تنتظر في صبر، والسقف منخفض يبدو وكأنه يهبط بالتدريج ليضغط فوق جسمه، ثقل متزايد، والجدران الخشنة بيضاء بياضًا متسخًا يميل إلى الاصفرار تنحدر فوقها قنوات رفيعة من النشع، وتنتشر على سطحها بقع من الدم، بصمات أصابع في لون البن المطحون. كلما اكتشف شيئًا جديدًا ظل يتأمله، ويدرسه الساعات الطويلة، يحس كأن الحياة تدب من جديد في هذا

المستنقع الآسن الذي لا يتحرك أبدًا: طعم الملح على طرف لسانه عندما يلمس به القشرة الجيرية، وطابور من النمل الصغير يشق طريقه المتعرج من ركن النافذة، يهبط فوق الجدار، ويجتاز الأرض الأسفلتية الداكنة، ليدور حول أرجل المنضدة المربعة، ويصعد عليها باحثًا عن بقايا الخبز.

اعتاد أنفه رائحة وعاء المطاط المنزوي في ركن الحجرة تتصاعد منه البولينا، والنتن في موجات فجائية، ليست لها ميعاد، تنبعث أحيانًا بالميل مع نسمات الريح الباردة، أو في وسط النهار عندما يشتد القيظ وتتصاعد في عنف كلما وقف فوقه مبعدًا ساقيه ليفرغ فيه الماء الأصفر الساخن المتراكم في مثانته. اعتاد الرائحة الكريهة، الزاحفة في بطء ثقيل، تاركة بقعة من النزف الأحمر. اعتاد رائحة العرق الحامض المتراكم في ثنايا الملابس، واعتاد رائحة الحيوان المحبوس في قفص مغلق، يفرز فيه يومًا بعد يوم فضلات جسمه.

هذه الروائح المختلطة اعتاد عليها. كرهها من الأعماق في بعض الأحيان، وتلذذ منها حتى الأعماق في أحيان أخرى. فقد كانت رائحة حياته.

الأمواج تسقط فوق الشاطئ المجهول مستمرة، رتيبة، متكررة. الأسئلة تتردد، تتكرر، تروح وتجيء في رأسه مثل الحيوان المحبوس في القفص، مثلما يروح ويجيء هو: أربع خطوات ... من الباب إلى الجدار ... ومن الجدار إلى الباب. والسلاسل ترن مثل ساعة تدق، وتدق، وقد نزعت عقاربها. تنظر إليها فلا تعرف منها شيئًا.

لماذا؟ لماذا؟ لماذا تكلم حسين؟ الدمل في الشرج ... حسين ... حسين أهداه الكتاب ... وقال لهم أنه أهداه الكتاب ... وقال لهم أن لديه دمل في الشرج ... فحسين وحده يعرف ... كان يعالجه ... كان

معه منذ أيام المشرحة ... منذ ثماني سنوات ... المشرحة أيام بعيدة. لم يكن يعرف آنذاك أين ستقوده خطواته ... العلم والدراسة كانت حياته كلها، لم يكن يعرف أين ستقوده خطواته ... ولو عرفت ماذا كنت ستفعل؟ ... السؤال الكبير ... لماذا يتردد الآن؟

* * *

كان يجلس على المقعد أمام الجثة ممسكًا بمشرطه اللامع الحاد منهمكًا في استكشاف أغوار الجمجمة المفتوحة أمامه. الصالة الضخمة بلمباتها الطويلة المتدلية من السقف العالي كالكرات البيضاء، خالية من الناس تمامًا: لا طلبة، ولا مدرسين، ولا فراشين، ولا أحد سواه. صفوف الجثث المصبوغة بلونها الأسمر ممدودة فوق مسطحات الرخام الأبيض، بعضها راقدة على ظهرها، وبعضها سيقانها المتخشبة مربوطة إلى أعلى مثل فروع شجرة ميتة متروكة في الخلاء. المقاعد الصغيرة بقرصها الدائري اللامع، وشقها المفتوح كثقب حصالة النقود، متجمعة حول الجثث، أو متناثرة بإهمال فوق مربعات البلاط المتآكل من آلاف الأقدام التي تروح وتجيء كل يوم. والصمت المطبق يحلق في الجو، صمت القبور، والجثث، والموت مختلطًا برائحة الفورمالين.

بقى هكذا ساعة أو أكثر، لا يدري بشيء، ولا يحس بالجموع المحتشدة في الخارج، يرتفع منها هدير البحر الغاضب، وتتلاطم الصفوف كأمواج حوصرت في مجرى مياه ضيق، ترتطم بجدار منيع لترتد عنه، ثم تلقي بنفسها عليه من جديد، المرة بعد المرة في إصرار عنيد، لم يشعر بباب المشرحة يفتح بهدوء وبجمع صغير من الطلبة يتقدم نحوه. لم يدر بأي شيء إلا بعد أن أحاطوا به، فرفع رأسه ليجد العيون مصوبة إليه من كل ناحية، عيون غريبة يشع منها غضب مكتوم، وقوة مستترة منذرة، إلا

عينين اثنتين عسليتين غائرتين تحت جبهة عريضة، عينان فيهما تساؤل، وفيهما دهشة، وكأن صاحبهما فجع في شيء لم يتوقعه.

انفصل من الجمع الصغير طالب طويل القامة، تخفى سترته الداكنة بأكتافها العريضة جسمًا يوحي بقوة غير عادية، وذراعين طويلتين رأسه الصلعاء بارزة إلى الأمام عند الحاجبين تكاد تخفي عينيه السوداوتين الصغيرتين، وبشرته سمراء لفحتها شمس الصعيد. يبدو كمن توقف في منتصف الطريق بين القرد والإنسان. اقترب منه حتى أصبح على بعد خطوة واحدة، ثم غمغم في صوت متصل، اختفت في ثناياه مقاطع الكلمات:

" ماذا تفعل هنا "؟

" أشرح كما ترى ".

" لا تتظاهر بالذكاء. لماذا لم تخرج مع الباقين "؟

" لأنني لا أريد أن أخرج ".

" لماذا " يا بيه " لا تريد أن تخرج "؟

" لأنني لا أرى جدوى في ذلك ".

بنبرة تهديد:

" ليس هذا وقت الفلسفة. الأفضل لك أن تخرج ".

" وإذا لم أخرج "؟

" ستخرج سواء أردت أم لم ترد ".

نظر عزيز حوله إلى الوجوه الشاحبة الصامتة، وأحس بالخوف يتصاعد داخله.

" بالقوة ".

" نعم بالقوة ".

مسح المشرط على قطعة صغيرة من القماش، ووضعه في كيس الجلد. خلع معطفه الأبيض ووضعه فوق ذراعه، ثم تناول كتاب التشريح الصغير المفتوح فوق المنضدة، والكيس، وصوب نظرة خاطفة نحو العملاق الأسمر.

" ماذا تنتظر "؟

خط طريقه بين المناضد حتى الباب، ومن ورائه الموكب الصغير، ودلف إلى الحوش يشق طريقه بصعوبة وسط الكتل البشرية. تقدم خطوة خطوة نحو الباب الحديدي الكبير المطل على شارع القصر العيني. كانت قطع الطوب والحجارة تتطاير من فوق الرؤوس المحتشدة، وهتاف يعلو في الهواء، كموجات من الرعد تصعد ثم تهبط لتصعد من جديد. استمر في سيره المتعثر يفتح بكتفه طريقاً عبر الأجساد، ليجد نفسه فجأة في الصفوف الأولى للجمع المحتشد، وقد امتدت أمامه مساحة خالية غطت أرضها بأكوام متناثرة من الطوب والحجارة. خطا خطوتين للأمام ثم اصطدمت عيناه بشيء كالجدار الأسود السميك، تعلوه مئات الوجوه كقطع متراصة من الصخر، تلاشت ملامحها تحت خطوط متموجة من كرات الرصاص، وخلفه مئات العصى الطويلة الغليظة، والدروع المعدنية العريضة. شيء كالوحش الرابض، لا ترى عيونه الكثيرة ولكنك تحس بها تنتظر اللحظة المواتية.

نظر إلى جواره فوجد الطالب ذا العينين العسليتين، والجبهة العريضة يمسك بذراعه.

" أريد أن أعود إلى البيت ".

" أمجنون أنت؟ أتريد أن تذهب إلى البيت على نقالة؟ تعال معي ".

ظل يمسك بذراعه إلى أن أصبحا قريبين من السور المطل على قصر محمد علي. توقفا عن السير لحظة يبحثان عن مكان خال.

" هنا خلف التمثال، لا توجد زحمة ".

قاده من ذراعه خلف تمثال كلوت بك. أسند عزيز ظهره إلى التمثال ينتظر.

" ما اسمك "؟

" عزيز. وأنت "؟

" حسين ".

سكتا برهة ثم استطرد حسين:

" تعال نتحدث قليلاً ".

* * *

الباب يفتح ثلاث مرات في اليوم ليدخل منه عدد من الرجال، بعضهم يلبسون أحذية سوداء غليظة، ورداءً أصفر تلمع فوقه الأزرار النحاسية، وبعضهم حفاة يرتدون سترة كالجوال الضيق، وسروالاً يكاد لا يغطي الركبة، صنعتا من قماش أزرق خشن، ويحملون معهم صحناً معدنيًّا صب فوقه قرصًا من العدس المتجمد، ورغيفًا من الخبز الأسود، وكوبًا من الشاي كالمياه الفاترة، ويحملون معهم أيضًا وعاءً من المطاط الأسود فرغ من محتوياته، ليوضع مكان الوعاء الممتلئ الذي يخرجونه من الباب قبل أن يغادروا الحجرة، ليصبح وحده من جديد.

كان ينتظر هذه الزيارات الخاطفة الصامتة وكأنه يستأنس بوجود آدميين مثله يتحركون في الحجرة بضعة لحظات رغم أنهم لا يبادلونه كلمة واحدة، بل ولا نظرة واحدة. فهم يدخلون ويخرجون ونظراتهم مثبتة

عند خطواتهم، ينفذون بدقة متناهية، وبآلية الخوف المطلق، تعليمات صدرت إليهم من قبل.

ثم يأتي الليل بظلامه الدامس تخترقه أحياناً خيوط رفيعة من ضوء النجوم، مثل ذرات دقيقة من الماس نثرت فوق رداء من الكحل، وأحياناً أخرى فيض من شعاع القمر أبيض شفاف كالسحر، كالبلسم المريح يوحي له بأن الدنيا ما زال فيها قبس من جمال. ولكن ما عدا الصدف القليلة التي يمر فيها القمر فوق النافذة العالية ليغمر الحجرة الصغيرة بضوئه، يبقى كل شيء غارقاً في الظلام، كأنه محاط ببطانية سميكة تسد عليه كل المنافذ ويكاد يلمسها بيديه. فتبدأ ساعات العذاب الطويل، والسهر المضني. وتزحف عليه رائحة البول والبراز. الصاعد من وعاء المطاط القابع في ركن الحجرة، رائحة ليست رائحته حتى يحتملها، وإنما رائحة رجال آخرين ينامون، ويأكلون، ويتبولون، ويتبرزون، مثله في الأقفاص المجاورة، وينقرون بأصابعهم على الجدران، يبعثون باستغاثات يائسة أو ربما، من يدري، برسائل أمل للذين يعانون مثلهم. أثارت فيه النقرات أول مرة موجة عارمة من المشاعر المختلطة، فيها أمل، وفيها حب، وفيها الإحساس بأخوة الإنسان، موجة عنيفة صعدت من صدره وكادت أن تخنقه من شدتها. ولكن مرت الليالي تلو الليالي دون أن تأتي هذه النقرات بجديد، فأخذ يتجاهلها في كثير من الأحيان، ويرد عليها بنقرات مماثلة أو مختلفة بين الحين والحين، كأنه يطمئن الإنسان القابع وراء الجدار من الناحية الأخرى على وجوده، ويتبادل معه رسالة تشجيع.

الرائحة النتنة العفنة التي كانت تنتقل في جرادل المطاط من حجرة إلى حجرة، ومن سجن إلى سجن تثير فيه حالة غريبة، مصنوعة من أشياء متداخلة، مختلطة، يستحيل الفصل بينها، كالمريض في قمة المرض

لم يعد يميز بين الأعراض، وإنما يحس بحالة واحدة مركبة تحتويه وتسيطر عليه، حالة من القرف، والتقزز، والغثيان، والألم المدفون أسفل الحجاب الحاجز، والذل، والتمرد العاجز. فهو محاصر في هذا القفص القذر، مكبل، يحس وكأن جسمه كله تحول إلى أنف كبير ثبتت فتحتاه عند جردل البول، ليتنشق ويستنشق، ويستنشق تلك الراحة التي لا تنتهي لم يكن شيء يستطيع أن يشغله عن هذه الرائحة سوى عذاب من نوع آخر، عذاب له رائحة أيضًا، ولكن له إلى جوار الرائحة نهم لدماء الجسد الحي. عذاب ينقض مع الظلام على الجسد المنهك، من السقف، ومن كل شق من شقوق الجدار، ومن كل فجوة من فجوات السرير، ومن كل ثغرة من ثغرات الخشب في الباب، والنافذة، والمقعد، والمنضدة. جيش من البق يلسع، ويلسع، بدون رحمة، جيش من الإبر الرفيعة تزحف فوق الجلد، من أعلى ومن أسفل، ومن الأمام ومن الخلف، حتى يستحيل لحمه المكبل بالحديد إلى كتلة من الجحيم المتقد.

عاش عزيز أيامًا وليالي لم يعد قادرًا على حسابها إلى أن فتح الباب ذات صباح، ليدخل عويس، تبدو عليه علامات الهمة، وكأنما أوكل إليه القيام بعمل خطير، كان عزيز يقف في أحد أركان الحجرة، مسندًا ظهره إلى الحائط. تقدم عويس نحوه، وعلى غير العادة نطق: " صباح الخير " لوح بيده ناحية الباب، فظهر محمد في الفتحة، حليق الذقن، أنيق الملبس كالعادة، ووقف صامتًا ينتظر الأوامر. خطا عويس خطوة أخرى ثم قال:

" اقترب منا ".

فتقدم عزيز إلى وسط الحجرة.

" يا محمد، حل الحديد ".

اختفى محمد وراء عزيز، وأحس بشيء يشد على معصميه، تردد في الحجرة من جديد، صرير المفتاح وهو يدور في القناة الحديدية الضيقة المفتوحة عند طرف، والمسدودة عند الطرف الآخر وانفتحت الأساور الحديدية الثقيلة الواحدة بعد الأخرى، تك، تك، فسحب يده اليمنى برفق من الحلقة البيضاوية حتى يحول دون أن يخدش الجلد على ظهرها. شعر بثقل الحديد كله معلقاً على معصمه الأيسر، فجذب ذراعه أمام جسده، وخلع الحلقة الباقية مستعيناً بأصابعه الطويلة الرفيعة.

دار محمد حوله وانحنى على ركبتيه. رنت ضربات المطرقة الصغيرة فوق رأس " القادوم " وانفلتت السلاسل الطويلة من حول رسغيه، لتصبح معلقة في الهواء، مشدودة إلى الحزام المربوط حول وسطه، تتأرجح بحركة بطيئة بين ساقيه فأخذ يحل الحزام بأصابع متخشبة تأبى أن تنثني عند المفاصل. بعد لحظات بدت طويلة في جو الترقب الصامت سقطت السلاسل فجأة على الأسفلت الأسود محدثة خشخشة معدنية حادة.

انتابته مرة أخرى تلك الموجة من النشوة العارمة، كالطائر أُطلقت جناحاه. انتبه حوله فوجد عيني محمد الواقف أمامه ترمقانه بنظرة هادئة وكأنها تقول: " أنا أعرف ما تشعر به الآن " ثم التفت أصابع عويس الغليظة حول ذراعه وكأنها تريد إعادة جسده وأفكاره المحلقة بسرعة إلى الأسر من جديد. سمع صوته الأجش يقول:

" يا محمد خذه إلى الإدارة ".

خرجا جنبًا إلى جنب تحت أشعة الشمس الدافئة كأنهما صديقان يتنزهان. لم يحاول محمد أن يلمسه بيده، بل سار على مسافة خطوتين أو ثلاث منه، وكأنه لا يحرسه. كان يمشي بخطوات نشيطة، مرنة، توحي

بالقوة المستترة، مطرقًا إلى الأرض قليلاً، متفاديًا النظر إليه. أحس عزيز بالنشاط يدب في جسده وبالمرونة تعود إلى عضلاته ومفاصله رفع وجهه إلى الشمس، وإلى السماء الصافية تعبرها سحابات خفيفة متناثرة كندف القطن البيضاء، واستنشق الهواء بأنفاس عميقة يملأ صدره كالغريق الذي عاد إلى الشاطئ، أو كرجل يسبح عاريًا لأول مرة في بحيرة دافئة نقية، يتمرغ في فيض من الإحساس الجسدي بنشوة الحياة ولذتها. لذلك فوجئ عندما سمع صوتًا ممتلئًا واضح النبرات يقول:

" شد حيلك يا دكتور "

التفت إلى محمد فوجده مطرقًا في الأرض وكأنه لا يحدثه، فأدرك عزيز أنه يتفادى أن يراه أحد وهما يتحدثان.

" مشدود يا محمد ".

" كن على حذر ".

" مم "؟

" من الدكتور حسين ".

" أين هو "؟

" هنا ".

" متى جاءوا به "؟

" في نفس الليلة ".

" ولماذا تحذرني منه "؟

" لأنه يقابلهم كثيرًا ويُعامل معاملة خاصة ".

" معاملة خاصة "؟

" نعم ".

" وما هي "؟

" الفسحة، وأكل من المنزل. ولم يوضع في القيود ".

مر عليهما جمع من الرجال الحفاة في أثوابهم الزرقاء، فسكتا برهة إلى أن أصبحوا بعيدين.

" أنت طبيب بشري "؟

" نعم. وأنت "؟

" إسكافي. كنت أصنع أحذية جميلة ".

" ثم ماذا "؟

" أفلست. فجئت إلى هنا ".

كانا قد اقتربا من مبنى الإدارة المنخفض فصمتا من جديد. أسرعا الخطى عبر الممر الضيق الطويل بنباتاته الصحراوية الشوكية حتى وصلا إلى الباب الرئيس عند السلم وجدا الرجل الأسمر الذي كان يقف بجوار التمثال أثناء التحقيق ينتظرهما. دك محمد الأرض بقدميه. رفع أصابعه الممدودة إلى حاجبه الأيمن بحركة خالية من كل تشنج، وقال في صوت هادئ " تمام يافندم ".

أشار إليه الرجل بالانصراف، ملوحًا بيد مستهترة دون أن يلتفت إليه، واستمر يرمق عزيز بنظرة طويلة دون أن يحول نظراته عنه. كان يرتدي سروالاً داكنًا، وقميصًا أبيض من الحرير، وسترة صوفية خفيفة نسجت من خيوط سوداء وزرقاء متعرجة. يداه صغيرتان، الكف شبه دائري، والأصابع قصيرة مفرطحة، خالية تمامًا من الشعر، يحيط بخنصره الأيمن خاتم من الذهب السميك محلى بحجرة بيضاوية في لون حبة الرمان، وقد أطال ظفره المدبب عدة سنتيمترات. قدماه صغيرتان أيضًا يبدوان وكأنهما محشورتين بالقوة في الحذاء الضيق المدبب. كانت عيناه السمراوتان جاحظتين قليلاً، يشوب بياضهما احمرار خفيف،

وتعلوهما حاجبان رفيعتان كأنهما خطا بقلم من الفحم. جبهته ذات تجاعيد عميقة عند ملتقى الحاجبين، ينسدل عليها شعر أسود أملس كالحرير اللامع، وفمه غليظ الشفتين، تنفرجان عن أسنان صفراء من كثرة الدخان. وجه غريب متنافر وكأن أجزاءه قد جمعت بيد طفل عابث فخلق شيئًا غير محدد الملامح، غير محدد الجنس يقع ما بين الذكر والأنثى، ما بين الإنسان والحيوان.

فوجئ عزيز بصوت ناعم رقيق يختبئ في أعماقه شيء حاد مستتر مثل شفرة الحلاقة.

" صباح الخير يا عزيز ".

" صباح النور "

" تقابلنا من قبل أظن "؟

" نعم أثناء التحقيق ".

" تتبعت بإعجاب موقفك أمام المحقق. ولكن أشفقت عليك في نفس الوقت ".

" ولماذا "؟

" أنا أحترم أصحاب المبادئ. ولكن أتساءل لم الإصرار في الدفاع عن قضية خاسرة، وعلى التضحية بدون نتيجة "؟

" لماذا تعتبرها خاسرة "؟

" لأنكم لن تغيروا شيئًا ".

" كل شيء قابل للتغيير ".

" أنا لا أقول أن الأشياء لن تتغير. أنا أقول فقط أنكم أنتم ستعجزون عن تغييرها ".

" ولماذا "؟

" لأنكم وقعتم جميعًا. ولم يبق أمامكم سوى السجن ... وربما ... سكت قليلاً ... " الموت ".

" لا أظن ".

" أنت تقول لي هذا ولكن أنا أعلم منك. نحن نعرف كل شيء عنكم. وكل شيء قد انتهى ".

" هناك أشياء لا تنتهي ".

" مثلاً "؟

" ما جدوى الكلام. لن تفهمني ".

" أنت تتهرب. لماذا لا تواجه الواقع؟ ماذا تستطيع أن تفعل؟ حتى صوتك لن يُسمع ".

" الصوت له صدى ".

" حتى الصدى سيموت ".

" الصدى يلتقطه آخرون ".

" قلت لك لم يبق آخرون ".

" يوجد دائمًا آخرون ".

" يبدو أنك لم تفهم بعد، تعال معي. أود أن تقابل أحد أصدقائك. سأترككما لتتحدثا سويًّا، سوف تتذكر كل هذا في يوم من الأيام، وتشكرني على الجهد الذي بذلته معك ".

أدخل عزيز من باب المبنى المنخفض وسارا حتى آخر البهو الكبير المزين بأوان نحاسية تلمع في نصف الظلام، وتحوي نباتات خضراء أوراقها مثل أوراق النخيل اليانع. ضغط الرجل دفعة واحدة على كرة نحاسية لامعة بكف يده اليمنى، فانفتح أمامهما باب عريض، انزلق بنعومة فوق عجلات صغيرة وصلت إلى آخر مجراها فارتد الباب قليلاً، ثم

توقف. دخل عزيز وبقى الرجل بالخارج. مد يده وأغلق الباب فوجد عزيز نفسه وحده داخل حجرة واسعة تطل نوافذها المستطيلة البيضاء على شرفة نصف دائرية. الحجرة طويلة وعريضة تحس فيها بالبذخ، البذخ المتحفظ الرزين. فالجدران مغطاة على نصفها الأسفل بمربعات صغيرة من الخشب البني السميك، المنحوت في خطوط رفيعة متدرجة تنتهي عند دائرة مفرغة من الوسط. والنصف الأعلى منها مدهون بطلاء لونه سمني غامق، يتغير عند خط الالتقاء مع السقف تغييرًا طفيفًا يكاد لا يرى، ليصبح أكثر بياضًا. النوافذ تغطيها ستائر شفافة بيضاء تتموج مع نسمات الريح، ومن السقف تتدلى نجفة مستديرة. صنعت كلها من قطع زجاجية خضراء مستديرة، تبرق بوهج مثل الزمرد كلما اخترقت الحجرة أشعة ضوء قوية عبر الستائر المتعرجة.

في جانب من الحجرة احتلت المدفأة الضخمة، المبنية من الموزايكو الأحمر، الجزء الأكبر من الجدار، تعلوها رخامة سوداء لامعة وضعت فوقها أوان فضية فارغة منقوشة على الطريقة الفارسية، وصور ملونة للخيل، وكلاب الصيد، وبعض الرجال يرتدون ملابس الفروسية. حول المدفأة، في نصف دائرة، وضعت المقاعد العميقة بغطائها الأخضر الداكن تتوسطها منضدة منخفضة قرصها البيضاوي في لون الأبنوس، وأرجلها الرقيقة تسقط في خط مستقيم.

عند الجانب الآخر استقر مكتب، بدا هائلاً في حجمه، مصنوع من لوحة سميكة من الخشب البني الثقيل، محمول على أربعة أرجل مستديرة صنعت في شكل جذوع الشجر، وخلف المكتب انتصب مقعد من نفس الطراز له ظهر عال، وأمامه وضع عدد من المقاعد الجلدية الوثيرة. لمح

عزيز على الجدار فوق المكتب سيفًا طويلاً في غمده، ومسدسًا ذا ماسورة طويلة، قبضته تتخللها شعيرات براقة من الفضة.

كانت المساحة الممتدة من الجانب الأيمن عند المكتب حتى الجانب الأيسر عند المدفأة، ومن باب الحجرة حتى النوافذ المطلة على الشرفة، خالية من كل شيء، تتدلى فوقها النجفة، وتغطي أرضيتها المصنوعة من الباركيه اللامع سجادة مزركشة سميكة، تخنق وقع الأقدام.

عندما دخل عزيز الحجرة لم يشعر أول الأمر بوجود أحد فيها. سمع فقط صوت الباب وهو يغلق خلفه فتلفت إلى الوراء ليجد الرجل وقد اختفى. دارت عيناه عدة مرات على تفاصيل الحجرة، وقد اعتراه خليط من الفضول والاندهاش، فلم يكن يتوقع أن يجد شيئًا كهذا. مر وقت طويل قبل أن يحس فجأة بحركة خفيفة تصدر من أحد المقاعد العميقة الموضوعة حول المدفأة. حول عينيه إلى مصدر الحركة ليجد شخصًا غارقًا في أعماق المقعد، يكاد لا يبدو منه إلا رأس كبيرة، خضبها قليل من الشيب، وجبهة بارزة. اقتربت منه بخطى مترددة، وفجأة أحس وكأن قلبه يسقط من بين ضلوعه من شدة الفرح، وركبتيه تنتابهما رعشة خفيفة.

" حسين. أنت "؟

ساد الصمت في الحجرة. تقدم عزيز نحوه كأنه يقفز فوق الأرض إلى أن أصبح أمامه تمامًا، ثم توقف وأخذ يفحصه في حماس ولهفة. " لا تبدو عليه علامات تغيير ملموسة، " ولكن ما هذا؟ ... هناك شيء ما ... في الوجه الذي شحب قليلاً وانتفخ، وفي الجسد المربع القصير الذي تهدل، وترهل فجأة، واكتنز باللحم كبقرة أوثقها صاحبها عند المربط أيامًا طويلة ليعلفها. عيناه العسليتان الغائرتان نصف مختفيتين خلف الجفون الثقيلة انطفأ فيهما شعاع كان موجودًا، وهما يتطلعان الآن إليه بنظرات

غريبة جديدة لم يرها من قبل، نظرات مفعمة بالحزن العميق، نظرات عينين تستجديان كالغريق الذي تبحث أصابعه المتقلصة عن شيء تلتف حوله، عن قشة، عن فرع شجرة، عن يد إنسان، فلا تجد سوى قبضة ماء أو هواء. نظرات بهما خبث وشراسة الحيوان المحاصر.

لم يقف على قدميه عندما أقدم عزيز، ولم يمد إليه يده، فبقى عزيز حائرًا لا يعرف كيف يتصرف، إلى أن فوجئ بصوته يهمس:

" اجلس يا عزيز ".

أمسك عزيز بظهر أحد المقاعد ولفه قليلاً حتى يواجه حسين، ثم وضع يديه على المسندين وأسقط نفسه فيه بالتدريج، وكأنه يختبره قبل الجلوس.

قال حسين بصوت فاتر:

" تشرب إيه "؟

أحس عزيز برأسه تدور وبالحياة تستولي عليه. هذه الحجرة وحسين. ومنظره الغريب، وهذا الجو من الغموض، ماذا يعني كل هذا؟

أعاد عليه حسين السؤال مرة أخرى:

" تشرب إيه؟ ".

أجاب عزيز كأنه في حلم:

" أشرب شاي ".

حجرة من الطين الأسمر، على الطريق الزراعي، بداخلها رف من الخشب، عليه وابور جاز، وبراد لعمل شاي، وأكواب صغيرة للشاي، وأخرى كبيرة للسكر، وعدة صواني من الخشب والألومنيوم، وملاعق صغيرة اسود معدنها من كثرة الاستعمال، وعلى الجدار ثلاث كنكات نحاسية لامعة من مختلف الأحجام، والجوزة المصنوعة من بوصة طويلة

وبرطمان من الزجاج. وخارج الحجرة خص من البوص كامتداد للحجرة، أقيمت تحته مصطبة من الطين تمتد بطول جدار الحجرة، ومعها عدد من المناضد الخشبية الصغيرة، ومقاعد من القش تتأرجح بشدة كلما جلست عليها، وبعض قصارى الزرع، وترتفع فوقه أعواد الياسمين المتناثرة، تنتشر رائحتها الجميلة الرقيقة.

كانت هذه هي " قهوة بدوي ". لم تكن تسمى في الواقع قهوة بدوي. كان الناس يكتفون بقولهم " عند بدوي ". وبدوي هذا كان شابًا نحيلاً، طويلاً، يلبس طاقية مزركشة مشغولة باليد، وجلبابًا أبيض، وبلغة صفراء، ويعرج قليلاً أثناء السير نتيجة لحادثة أصابت ساقه اليمنى. كان أعلم الناس بشئون الدنيا الخارجية، وبشئون قرية الباجورية نفسها. فالقادم من البندر أو من القاهرة يستريح عنده قليلاً ليتناول كوبًا من الشاي قبل أن يستأنف سيره إلى الدار، والقادم من البندر أو القاهرة هذا، عادة ما يكون أحد الموظفين العائدين لزيارة أهله، يحمل معه ذخيرة من الأخبار والمعلومات عن العالم الواسع خارج القرية، أو طالبًا حضر لقضاء أجازته السنوية أو النصف سنوية في القرية. والمسافر، أو الذاهب إلى عمله في المركز، أو في الغيط، أو العائد منهما، كثيرًا ما يجلس " عند بدوي " قليلاً، يتخفف من عناء اليوم، ويشرب فنجانًا من القهوة المطحونة بالحبهان أو كوبًا من الشاي الأسمر المسكر، ويستنشق هواء الصباح النقي في ضوء الشمس، أو يتمتع بنسيم الليل الهابط على القرية، وبألوان الغروب تشتعل في الأفق فوق مياه النيل الواسعة المتدفقة بتيارها القوي.

وجميع هؤلاء يتحدثون، وبصوت عال طبعًا، وبدوي يسمع ويلتقط، ويسجل في ذاكرته القوية التي كانت لا تنسى شيئًا أبدًا. وهم يطلبون منه مختلف الخدمات الصغيرة، يقضيها عن طيب خاطر، مرسلاً ابنه الصغير

لقضاء أغلبها. " واد يا سمير، هات باكو معسل لعمك رمضان، بسرعة يا واد ". " واد يا سمير شوف عمك راشد في الدار ولا لأ. وإذا لقيته ازعق عليه، وقله إن الشيخ علي رضوان مستنيه عند بدوي ". " واد يا سمير خذ اللفة دي وصلها لدار عمك جعباس " وهكذا طوال اليوم، فقد كانت قهوة بدوي بمثابة المحطة والملتقى لابد أن يمر عليها الجميع، يودعون عندها في كثير من الأحيان قفف أو لفف من مختلف الأنواع والأحجام، لفترات قصيرة أو حتى طويلة، إلى أن يرسل أصحابها في طلبها.

كان عزيز من رواد " قهوة بدوي "، يجلس عندها في الصباح الباكر يشرب الشاي الخفيف الكهرماني اللون الذي يصنعه خصيصًا له، ويتبادل معه حديثًا هادئًا عن شئون الدنيا والآخرة، عن محصول القطن، ومشاكل الناس، وأخبار الحرب وستالينجراد وهتلر. ولكن في ذلك الصباح كان مشغولاً عن بدوي بشخص آخر. فقد حضر معه حسين من القاهرة ليقضيا أجازة نصف السنة بالقرية، يستذكران دورسهما قليلاً، ويقضيان أغلب الوقت في التنزه على ضفاف النيل، يتبادلان حديثًا لا ينتهي عن أشياء كثيرة بدأت تشغلهما خارج نطاق علم الطفيليات والبكتيريا والعقاقير. جلسا على مقعدين من القش متجاورين أمام المنضدة الصغيرة الخشبية، وفي أيديهما كوبان من الشاي الساخن يتصاعد منهما البخار الخفيف في أشعة الشمس الدافئة.

" ما زلت يا عزيز غارقًا في عالمك الخاص، تحملق في الجمجمة المفتوحة كما وجدتك في أول يوم. أتتذكر "؟

" أتذكر ".

" أنت تحيا في أشياء ميتة ".

" ليست ميتة يا حسين. أهناك ما هو أكثر حيوية مـ ن أن نعـ رف كيف يعمل جسم الإنسان وعقله، وأن تتعلم كيف تعالجهما بل تصد ونهما من المرض إن أمكن "؟

" وما فائدة ذلك في بلد مستذل ".

" الناس يمرضون في البلد المستذل ".

" وحضرتك ستعالجهم بالطبع "؟!

" سأحاول ".

" وتترك الأحذية الغليظة تدوس على رقبتنا "؟

" هذا ليس شأني. لكل منا عمله. أنا سأعالج المرضى، وأنت عليك قيادة المظاهرات ".

" أف. حقًا إنك صلب الرأس ".

" لست صلب الرأس. فقط أنا أقتنع بأي شيء أفعله. يبدو أنك مقتنع بما أنت فيه "؟

" بالطبع ".

" منذ متى "؟

" إيه. منذ ثلاثة أو أربعة شهور ".

" هكذا بسرعة "؟

" بسرعة؟ المسألة ليست مسألة وقت وإنما شعور بما يجري حولي، واطلاع على الفكر الجديد ".

" وما هو هذا الفكر الجديد "؟

" تطبيق العلم في دراسة المجتمع ".

" كلام كبير يا حسين، لا أفهم معناه بالدقة. ولكن هل انتهيت فـ ي هذه المدة القصيرة من تطبيق العلم في دراسة المجتمع "؟!

" أوه أنت متعب. أنا أعيش الأحداث وأنفعل بها. وأختلط بالشباب الذي يفكر بطريقة جديدة، وأقرأ كتبًا فتحت آفاقًا لم أكن أعرفها. وكل هذا يؤثر في. أما أنت فما زلت تحملق في قاع الجمجمة ".

" ربما. ومع ذلك أحس أنك اقتنعت بسرعة كبيرة، وكأنك تركب موجة دون أن تفكر كثيرًا ".

" ينبغي على الشباب أن يكون في المقدمة ".

" وأنا أريد أن أكون في المقدمة أيضًا ".

" مقدمة. مقدمة ماذا "؟

" مقدمة الطب ".

" طموحك محدود ".

" محدود؟ وهل تعتقد أنه يسهل أن تكون طبيبًا بمعنى كلمة طبيب. طبيب وليس تاجرًا في الطب ".

" لا فائدة من الكلام معك. أحلامك صغيرة. أما أنا فأحلم بلا حدود".

" ماذا تريد مني بالضبط "؟

" سأعرفك ببعض أصدقائي، وأعطيك بعض الكتب التي قرأتها ".

" ليس لدي وقت كثير، ولكنني أحب القراءة ".

" اتفقنا. عندما نعود إلى القاهرة. سأعطيك بعض الكتب.

سكت عزيز برهة ثم التفت إلى بدوي الذي كان يقف إلى جواره منذ لحظات.

" أتريد شيئًا يا بدوي "؟

" بنتي عندها إسهال يا دكتور. هل يمكن أن تعطيني بعض الدواء لها ".

" أرسل إلي سمير بعد الظهر. سأعطيك شيئًا ينفعها وأكت ب ل ك الإرشادات على العلب. هل عندك من يستطيع قراءتها ".

" نعم يا دكتور. ابن أختي في المدرسة ويمكنه أن يق رأ لن ا م ا ستكتبه ".

وقف عزيز وناوله خمسة قروش.

" خلي يا بيه ".

" معلهش. متشكر يا بدوي ".

انصرفا سويًّا عبر الحارة الطويلة المتعرجة المفضية إلى الـ دوار. الطريق ضيق في أوله يمر بين صفين من البوص العالي الكثيف وسـ ط حدائق البرتقال، فيكاد لا يسع أكثر من رجلين، ويتسع بالتـ دريج منحنيً ا بجوار وابور الطحين في نصف دائرة تترك مساحة خالية مـ ن الأرض، جلست فوقها دوائر سوداء من النسوة يتبادلن الحديث بصوت عال يغطي الصفارة الرفيعة المنتظمة الصادرة من ماكينة الطحـ ين، وقـ د وضـ عن أمامهن قفف الحب الأصفر، ثم يلتف حول طلمبة المياه المتدفقة يحيط بها جمع من الصبية والفتيات ينثرن رذاذًا منعشًا في ضوء الشمس، ويـ رفعن كعوبهن البيضاء من تحت الأثواب الملونة الطويلة، وتـ رن ضـ حكاتهن الصافية اللامبالية، خفتت فجأة عند قدوم الشابين.

سارا في صمت لا يلتفتان إلى ما يدور حولهما، وكأنهما غرقا فـ ي دوامة الحديث الذي كان يدور بينهما منذ لحظات. وجدا أنفسهما فجأة وقد دخلا في قلب القرية بين صفين طويلين من البيوت المنخفضة المتزاحمـ ـة بأبوابها الكبيرة تنحدر إلى أسفل كالأفواه الفاغرة على جوف من الظـ ـلام، وأكوام السباخ، وأسراب الأطفال العرايا يجلسون فوقها ويدفنون أيـ ديهم الصغيرة تحتها، بحثًا عن شيء ما، أو يعجنون منها دوائر طريـ ـة تشـ به

الكعك، ويجرون هنا وهناك في مجموعات صغيرة تحيط بهم سحابات كثيفة من الذباب الأسود، يختلط طنينها المتصل بصرخة الأصوات اللاهية وبرك الماء الملقاة أمام البيوت تتصاعد منها رائحة مختلطة نفاذة من الصابون، وفضلات الحيوان، وبقايا الطعام، والفراخ تقفز بسيقانها الرفيعة الهوجاء من تحت أقدام المارة، وقوافل البط البطيء تأكل القاذورات وتمشي في غباء منتصر، والكلاب النحيلة البائسة تنبح في شراسة مفتعلة أو ترمقهما بطرف عيونها الذليلة، وعيون النسوة العجائز صغيرة ماكرة تنظر إلى لا شيء، وأفواههن كالشق المغلق على لا شيء. وبين الحين والحين ترتفع الأيدي فوق الجبهة وتتردد التحية الممطوطة في نبرة عميقة تصعد من الصدر " السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ".

سار عزيز وسط زحام الحيوانات والناس، كالمتفرج أو كالعالم، عقله يسجل كل ما يراه، مثل آلة التصوير تلتقط بدقة مشاهد تمر أمام عدستها، ولكنها لا تنفعل أو تضطرب. عيناه تفحصان الوجوه الشاحبة المشدودة تمامًا كما كانت تفحص أحشاء الجثة الممدودة أمام المشرحة. كان يحس فقط بشيء من النفور إزاء كل هذا القبح، ولذلك عندما وصل إلى البوابة الخشبية الضخمة المغلقة بمزلاج عريض من الخشب، شعر بارتياح وهو يدق بقبضته عليها، ويصيح مناديًا عبر الحاجز " افتح " افتح الباب يا عم عبد الله ".

فتح الباب رجل عجوز أشيب الرأس والشارب واللحية، يلبس عمامة بيضاء قذرة، وجلبابًا ممزقًا أحاطه عند وسطه بحزام من ألياف التيل. أحدثت الضلفة الضخمة صريرًا متقطعًا مثل الأنين وهي تفتح عن آخرها، لتكشف عن ممشى طويل ضيق يسير بطول السور المنخفض الممتد على يساره، والمبنى من الطوب الأخضر ومن الخشب المعروق

بخطوط من سواد، ترتفع فوقه فروع رفيعة متعانقة من الياسمين بزهوره الصغيرة البيضاء، وعن بحر صغير من البرسيم الأخضر يتموج في الريح وينتهي عند صف من أشجار الجميز الضخمة ترتعش أوراقها بآلاف الارتعاشات، وتبرق في ضوء الشمس ببريق من آلاف العيون، وهي ترتفع كالمارد في السماء الصافية فوق جذعها العريض المفتول، موحية بالقدم والأصالة والثقة. وبين البرسيم والممشى الضيق قناة طويلة ينساب فيها تيار المياه الأسمر الهادئ، تصعد إلى اليمين عند آخر حقل البرسيم لتصل إلى السور الخارجي العالي، وتنحدر إلى اليسار لتصب في حديقة الفواكه المختفية خلف حاجز الياسمين، مارة عبر ماسورة طويلة من الحديد.

سار الصديقان فوق الممشى الضيق الطويل يقطفان زهورًا من الياسمين حتى وصلا عند نهايته إلى مساحة واسعة من الأرض تمتد من السور الخارجي المطل على الترعة حتى حدود الحديقة، أقيم فوقه دوار واسع منخفض في شكل مربع ضخم مبني حول فناء داخلي اصطفت عند جدرانه مصطبة خشبية طويلة تسع مئات الجالسين، مرفوعة على أرجل عالية، ومغطاة بالوسائد المستطيلة وأغطية من صوف الخراف. كان السقف مصنوعًا من كتل خشبية مطلية باللون الرمادي تمتد بالعرض بين ذراعي المبنى، يتدلى منها عدد من الفوانيس المعلقة من السقف العالي بسلاسل طويلة من الحديد. من الناحية البحرية يفتح الفناء الواسع على مساحة خالية من الأرض تظلها فروع الجميز الوارفة عند حدود حقل البرسيم والممشى الطويل وسور الحديقة، وعند الطرف الآخر على حوش داخلي غير مسقوف بنيت حوله عدد من حجر الخزين، وزرائب المواشي، واصطبلات الخيل، ومخزن للسروجية.

آثر الصديقان الجلوس فوق المصطبة الصغيرة المبنية من الطوب عند الجدار البحري للمبنى. فهنا كان الهواء، والنسيم الرطب المنعش، ومساحات البرسيم تريح العين، وصوت الريح يحف بآلاف الأوراق. وفي هذا الجزء من النهار حيث تقترب الساعة من ميعاد صلاة الظهر لم يكن من المحتمل أن يزعجهما أحد. نادى عزيز على العجوز عبد الله وطلب منه أن يحضر إليهما الكتب الموضوعة فوق المنضدة في الحجرة التي ينامان فيها. فجاءه بحمل ثقيل من الكتب الضخمة، وضعها أمامه ثم انصرف ليعد لهما الشاي.

كان عزيز قد تعود منذ سنين أن يحضر إلى القرية بانتظام منذ أن مرضت جدته العجوز بورم خبيث في ذراعها. فهذه المرأة ذات الوجه المتغضن، والعيون الصغيرة الذكية التي تلمع فيهما على الدوام نظرة الإنسان الذي فهم الحياة، نظرة تختلط فيها الصرامة بالدفء، وبنوع غريب من الإشراق الداخلي، والقوام القصير المنكمش المختبئ في الثوب الأسود الفضفاض، والخطوات البطيئة الهادئة التي تكاد لا تسمع وهي تجيء وتروح، كانت في الواقع رئيسة العائلة دون منازع، تستطيع أن تتحكم في خمسة من الرجال وثلاث من النسوة عرفوا جميعًا بصعوبة التحكم فيهم. فإذا ما أمرت تطاع، وإذا ما طلبت من أحدهم أن يصمت صمت، وإذا ما أشارت عليهم بشيء أو بنصيحة نفذوها. تتحدث بصوتها الهادئ، فيستمعون إليها. حتى عمه عمران الرجل الطويل القامة ذو التقاطيع الحادة وكأنها منحوتة في الصخر، والعينين الخضراوتين كعيني القطة، والشارب المفتول، والفجوة الصغيرة تحت خده الأيسر التي تركتها رصاصة اخترقت وجهه وخرجت من رقبته دون أن تصيبه بشيء يذكر فجرى خلف الجاني محاولاً ملاحقته، حتى ذلك الرجل الذي تخافه القرية

من شدة بأسه، ويخشاه الأعيان من فوراته الفجائية في سبيل حق من حقوق رجل فقير لم يجد من يناصره، يصبح هادئًا رقيقًا إذا ما وقف بين يديها.

كانت تحب أن تجلس في قاعة الطعام الكبيرة، ومن حولها أولادها الثمانية وأحفادها الذين لا آخر لهم، تنظر إلى هذا الجمع بعينين لم يعودا يميزان الأشياء جيدًا، وتستمع إلى الأحاديث الدائرة بابتسامة راضية على شفتيها، وقد لفت حول رأسها وشاحًا أسود خفيفًا. ثم إذا ما انصرفوا عن الطعام ترفع قدميها فوق الكنبة العالية ذات الغطاء الأبيض، ويستقر عزيز إلى جوارها يناولها من حين إلى آخر قرصًا من التين الناشف، أو حبات من الجوز، واللوز، والسوداني المقشر. كان يحتل مكانة خاصة في قلبها. فهو يزاملها من أول النهار، تصحو مع صياح الديكة لتصلي الفجر في حجرتها. ثم تهبط السلالم الحجرية العالية ذات الدرابزين الخشبي المتآكل فيذهبان سويًّا إلى زريبة المواشي يشهدان اللبن الأبيض الفائر وهو يصب في خيوط دقيقة متقطعة داخل الأواني الفخارية المستديرة، فتناوله آنية ليشربها. وينتقلان إلى حجرة الأفران البلدية الثلاث ينبعث اللهب من جوفها المشتعل، وتخرج أقراص الخبز الأبيض العريضة، والفطير المعجون باللبن، والسمن، والأقراص الصغيرة المستديرة المحشوة بالعسل والسمسم. ثم يخرجان إلى الحديقة يتجولان بين أشجار البرتقال واليوسفي، والجوافة، والرمان، والمانجو، والسفرجل، ويمران تحت تكعيبة العنب الطويلة، ويرفعان رأسيهما إلى أعلى فتصطدم عيونهما بالنخيل فارع القوام، يتمايل تحت سماء صافية تخترقها الأشعات الحمراء الأولى للشمس، وهي تصعد بالتدريج خلف سحابة في لون البنفسج.

هذه العلاقة الوثيقة بينهما كانت علاقة صامتة إلى حد كبير. لا يتحدثان سويًا إلا فيما ندر. وكأنهما يشعران بالسعادة لمجرد وجودهما سويًا. كان يقدر فيها شخصيتها القوية الصادقة، ودأبها المستمر على العمل رغم قسوة الآلام التي كانت تعانيها من جراء الورم في ذراعها، ودفء الحب الذي كانت تشيعه على الآخرين. ويشعر بنوع من الزهو عندما يمشي إلى جوار هذا الجسد النحيل المتشح بالسواد، والذي تحيط به كل هذه المظاهر من الحب والاحترام.

لم يكن يختلط بأحد سواها، فهو غريب عن باقي أفراد العائلة، غريب عن القرية نفسها. يرى الناس من بعيد وهم عائدون آخر اليوم يسيرون مع مواشيهم عبر الحواري المتعرجة، أو يرفعون الفأس فوق الأرض السمراء، أو يستحمون في الترعة تخفيفًا للفحة الحر، أو يجلسون في الأمسيات على المصاطب أو بجوار أبواب المنازل. إنه يراهم من بعيد ولا يفكر فيهم كثيرًا. ويكتفي برد تحية الرجال عندما يقفون احترامًا لسليل العائلة الكبيرة التي تسكن ذلك الدوار الضخم المعروفة بكثرة عدد الخدم، وسعة مخازنه وزرائبه، واتساع حديقة الفواكه التي تحيط به.

كان يسهر إلى جوارها عندما يشتد عليها الألم في الليل، فهو يعرف ما تعاني. ومع ذلك لا يصدر عنها سوى أنين خافت، يكاد لا يسمع، وتبقى هكذا طوال الليل، أحيانًا دون أن يخفض لها جفن، لتبدأ يومها من جديد مع صلاة الفجر.

هذا الشعور بالوحدة هو الذي جعله يصطحب معه حسين في زياراته الأخيرة للقرية. يمشيان الساعات الطويلة فوق الضفة المرتفعة بجوار النيل العريض والتي توصل بين قرية الباجورية وكفر نصير، يشاهدان الشمس تغرب خلف الأفق الأخضر في بحر من الذهب الملتهب

يأكلان سويًّا على صينية مستديرة من النحاس، ويغمسان خبزهم الأبيض في الأطباق المتزاحمة الصغيرة، ويقرآن في الكتب السميكة ذات الورق اللامع، والحروف الإنجليزية المتناسقة، ويحفران في ذاكرتهما الصور الزاهية الملونة التي تكشف عن تفاصيل الجسد الإنساني وأسراره المدفونة تحت الجلد.

فتح عزيز أحد الكتب وحاول أن يقرأ فيه. ولكن ذهنه كان مشغولاً بأشياء أخرى لم يستطع، على غير العادة، أن يطردها بعيدًا. أخذ يفحص وجه صديقه من طرف عينيه. كان صموتًا بطبعه، يعجز عن الكلام إلا إذا كان مدفوعًا إليه، ويستعيض عن الحديث في أغلب الأوقات بالاستماع إلى الآخرين، وتتبع ما يدور حوله بحواس أصبحت حادة من كثرة المران. الوجه الذي أمامه جدير بالدراسة، فقد اقتحم حسين حياته في يوم لن ينمحي من ذاكرته يوم أن وقف وحده في المشرحة يواجه نظرات الغضب والكراهية المصوبة نحوه، يوم أن خرج وسط كتل المتظاهرين غارقًا في إحساسه بالانهزام والغربة، ليجد يدًا تسحبه إلى مكان آمن، وصوتًا يحدثه برنة الصداقة.

العينان الغائرتان تحت الجبهة البارزة تنتقلان بسرعة بين سطور الكتاب المفتوح أمامه. وقسمات الوجه دقيقة: الأنف صغير مربع، تتسع فتحاته وتتكمش مع كل شهيق وزفير. والفم شفتاه حمراوتان ممتلئتان يعلوهما شارب أصفر رفيع. والوجنتان تبرزان قليلاً تغطيهما شعيرات خفيفة مثل الزغب. والبشرة سمراء تغشيها صفرة خفيفة تميل إلى الشحوب. وشعر الرأس قصير وكثيف ممشوط بعناية إلى الخلف، وجه ذكر يختلط فيه شيء من دقة الأنثى، وعنايتها بنفسها. الجسد مربع ممتلئ

يدل على القوة مع شيء من الترهل، واليدان أصابعهما مدببة عند الأطراف، سميكة عند الجذوع.

اخترق الصمت صوت عزيز وهو يسأل:

" متى ستحضر إليَّ الكتب التي وعدتني بها "؟ فجاءه صوت تتخلله نبرة خفيفة من الأنف.

" عندما نعود إلى القاهرة ".

" وماذا ستعلمني هذه الكتب "؟

نحى حسين الكتاب جانبًا بحركة عصبية والتفت إلى عزيز.

" يبدو أنه ليس لديك ميل للمذاكرة اليوم ".

" أجب على سؤالي ".

" ستعلمك معنى الحياة ".

" وهل تعرف أنت معناها "؟

" عرفتها الآن. بعد أن أدركت أشياء كثيرة ".

" قل لي إذن. ما معناها "؟

سرح حسين قليلاً ثم التفت إلى عزيز بعينيه العسليتين:

" الحياة بلا معنى إذا لم تفعل شيئًا يبقى من بعدك ".

" وما هو هذا الشيء "؟

" أن نحرر بلادنا. أن نقضي على البؤس والاستغلال ".

" أنا أبحث عن معنى الحياة. ولكنني لا أجده فيما تقول. فالحياة تبدو لي غريبة. الناس يولدون عزل في هذه الدنيا ويعيشون ضحايا لظروفهم وللمخاطر التي تحيط بهم في كل يوم. يتزوجون ويتناسلون، ويأكلون، ويشقون للحصول على لقمة العيش، وتمر السنون بسرعة لتأتي ساعة الموت. وينتهي كل شيء. فماذا أستطيع أنا وسط كل هذا؟ "

" أنت لا تريد أن تشغل ذهنك أو تفكر فيما حولك. كل هذا البؤس، والفقر، الذي تراه، ألا تريد أن تغيره "؟

" ما شأني أنا به. لست مسئولاً عنه ولا يشغلني كثيرًا. وأنا لا أفهم لماذا تهتم أنت بهذه المسائل. أمن أجل بؤس الآخرين، أم لأنك تبحث عن مجال أوسع يرضي طموحك؟ أما أنا فراض بما أفعل. وأعدك أنني عندما أصبح طبيبًا، سأعالج الفقراء الذين تقلقك حالتهم ".

ارتفع صوت حسين في شيء من الغضب:

" أنت تسخر مني الآن، وهذا ما لا أقبله ".

" أنا لا أسخر منك، بل أقول ما أحس به. الحياة بالنسبة إليّ تبدو غامضة أشد الغموض، بل أحيانًا مخيفة. وهناك أسئلة تلح عليَّ ولكنَّ آراءك لم تقنعني. وأشعر أنني لن أجد لها إجابات شافية. فمنذ أكثر من سنة وأنا أدور في حلقة مفرغة من التساؤلات دون نتيجة ".

علق حسين بشيء من الحدة:

" الإجابات موجودة، وواضحة، ولكنك ترفضها ".

" لا يا صديقي لا تأخذ المسألة بكل هذا الجد. لكل منا طريقته في التفكير ".

سمعا صوت سعال خافت يأتيهما من مدخل الدوار، فالتفتا نحو الصوت ليجدا عم عبد الله ومعه صبي صغير يرتدي طاقية بيضاء قذرة، وجلبابًا أزرق، ممزقًا عند الصدر، يقف على قدمين حافيتين مشققتين، وعيناه نصف مغمضتين، وحول الرموش خط متصل من الصديد. تقدم الرجل العجوز خطوتين دافعًا الصبي الصغير نحوهما من كتفه.

" يا سي عزيز. اعمل معروف افحص عيني هذا الصبي ".

وضع عزيز يديه على كتفي الصبي وأوقفه أمامه بحيث يقع الضوء على وجهه.

سأل عم عبد الله: " ابنك "؟

" نعم "

" منذ كم يوم أصبحت عيناه هكذا "؟

" منذ يومين ".

فتح عزيز جفني العين اليسرى بأصابعه، وحملق في العين الحمراء المتورمة بضعة لحظات ثم فحص العين اليمنى، والتفت إلى حسين.

" قل لنا رأيك يا حسين ".

فتقدم حسين نحو الصبي وسأل:

" ما اسمك "؟

لم يجب الطفل، فأعاد عليه السؤال ثانيًا. أسرع عم عبد الله ونطق بصوت عال " محمد يا سيدي البك ".

" ارفع رأسك إلى أعلى ".

مال الطفل برأسه نحو أبيه كأنه يطلب منه العون، ثم خفض رأسه نحو الأرض.

" أقول ارفع رأسك إلى أعلى ".

استمر الطفل مثبتًا نظرته نحو قدميه، وكأنه لم يسمع، وفجأة رن في الصمت صوت كف يصطدم بشيء صلب. مال الطفل برأسه ميلاً شديدًا كاد أن يسقطه على الأرض، وانبعثت عنه صرخة حادة طويلة، كالحيوان الجريح. تجمد الرجل العجوز في مكانه كأن شيئًا لم يحدث غير أن عينيه غشيتهما سحابة خفيفة داكنة جاءت لحظة ثم اختفت.

التفت عزيز باندهاش إلى حسين واقترب من الطفل ليربـ ت علـ ى رأسه. نظر في وجهه صامتًا، ثم قال مخاطبًا الأب العجوز:

" عنده التهاب حاد صديدي في العينين. سأعطيك زجاجـ ـة قطـ ـرة تضع له منها نقطة في كل عين، أربع مرات يوميًا. وسأصنع لك زجاجة غسول لتغسل عينيه ستة، أو ثماني مرات في اليوم ".

" الله يحميكم من كل مكروه ويعطيكم الصحة " انصرف عم عبد الله ساحبًا معه طفله. وساد الصمت بين الصديقين. عاد عزيز إلى المصطبة، وفتح الكتاب، وأخذ يقرأ فيه دون أن يتكلم. مشى حسين بضعة خطـ ـوات حتى وصل إلى ربوة صغيرة، تظللها شـ ـجرة جميـ ـز ضـ ـخمة، واتجـ ـه بنظراته نحو حقل البرسيم، موليًا ظهره لعزيز.

مرت الدقائق ثم عاد عم عبد الله إليهمـ ـا، حـ ـاملاً صـ ـينية كبيـ ـرة مستديرة من النحاس مغطاة بمشنة عالية من الخوص الأصفر المزركش، وضعها فوق المصطبة، ثم رفع عنها الغطاء ليكشف عن أطبـ ـاق الأرز، والملوخية، والفاصوليا، والباذنجان، واللحوم، والطيـ ـور، وطبـ ـق كبيـ ـر وضعت فوقه صفوف من الرقاق، وبطة محمرة صغيرة الحجم، وأطبـ ـاق فخارية من السلاطات المتنوعة، وحزمة عالية من الخبز الأبيض، وآنيـ ـة بيضاوية رصت بالبرتقال، واليوسفي، والموز.

صاح عزيز بصوت عال:

" هيا بنا نأكل يا حسين. الغداء. حضر ".

" بعد قليل ".

" إذن يا عم عبد الله، ضع الصينية في الحجرة الداخلية ".

" أتريد أي شيء آخر "؟

" اصنع لنا إبريقاً من الشاي. وه ات الأك واب الص غيرة الت ي أحضرتها معي ".

* * *

سمع عزيز الباب وهو ينزلق على العجلات الصغيرة فوق المجرى المعدني المحفور في الأرض الخشبية. ودخل رجل حافي القدمين، يتحرك كالشبح في ردائه الأزرق دون أن يصدر عن ه ص وت س وى حفي ف الملابس الخشنة تحتك بفخذيه، وساقيه، وهو يمشي. كان يحم ل ك وبين صغيرين من الشاي في لون الكهرمان. وضع الص ينية أمامهم ا ف وق المنضدة المنخفضة، وانصرف مغلقاً الباب خلفه. مد عزيز يده إلى الشاي وأحس بالدفء يسري في كفه. أخذ رشفتين صغيرتين وتطلع إلى وج ه حسين ينتظر منه أن يبدأ الكلام، ولكنه ظل صامتاً، وعيناه مثبتتان عل ى المدفأة الضخمة – وكأنه مستغرق في شيء بعيد. ثم نطق فجأة بص وت خفيض تتخلله النبرات الخنفاء المميزة.

" كيف حالك يا عزيز "؟

" لا بأس، وأنت يا حسين "؟

" الحمد لله ".

" لم أكن أتوقع أن أقابلك. لم أر أحدًا منذ أيام لم أع د أس تطيع أن أحصي عددها ".

" وكيف علمت أنني هنا؟ أنا لم أعرف بوجودك "؟

" أنا الذي طلبت مقابلتك يا عزيز ".

" وكيف علمت أنني هنا؟ أنا لم أعرف بوجودك "؟

" علمت، وكنت أريد أن أتحدث إليك ".

" إنها مفاجأة غير متوقعة. أنا سعيد برؤياك ".

" وأنا أيضًا ".

" وفيم تريد أن تحدثني "؟

" في مسألة أعتقد أنها تهمك ".

" وما هي يا حسين؟ قل لي بسرعة ".

" في مسألة خروجك ".

أخذ عزيز نفسًا طويلاً عميقًا، كمن سقط فجأة في حفرة من الماء البارد. أحس بالنبض ينتفض بقوة في رأسه، وبالريق يجف في فمه. هتف بصوت تخللته بحة مفاجئة.

" وهل هذا ممكن "؟

رمقه حسين بنظرة سريعة " يبدو أنه ممكن ".

" كيف "؟

تقدم حسين بجسمه حتى أصبح يجلس على حافة المقعد، ولمعت في عينيه نظرة غريبة.

" أتريد حقًا أن تخرج من هنا؟ "

سرح عزيز بذهنه لحظة في حلم بدا مستحيلاً. رأى وجه زوجته، ورأى طفله يقف بجوارها، يرفع عينيه الواسعتين إليه في تساؤل. خفق قلبه خفقة كبيرة كأنه يريد أن يقفز من بين ضلوعه، وأحس بالوهن يحتويه بالتدريج، كالغاز يتسرب إلى جسمه عبر الأنف، والفم، والمسام، ويملأ كيانه بشعور من الضعف والاستسلام اللذيذ، كمن جرى مشوارًا طويلاً، ومرهقًا، ولم يعد قادرًا على مواصلة السير.

نطق بصعوبة.

" بالطبع. ومن لا يريد أن يخرج ".

" تريد أن تمشي في الشوارع، وأن ترى زوجتك وطفلك "؟

" ماذا دهاك يا حسين؟ ما معنى سؤالك؟ طبعًا أريد أن أخرج ".

" إذن ينبغي أن تكون عاقلاً ".

رنت الكلمة الأخيرة في أذنيه فجأة كالجرس الحاد يوقظ من النوم، وأحس بشعور غريب غامض لا يستطيع تحديده تمامًا، وكأن شيئًا رفيعًا يلتف حول عقله كالعنكبوت، وينسج خيوطًا رقيقة شفافة من الشك. بذل جهدًا خارقًا لينفض عن نفسه الوهن الذي أصابه منذ لحظات، كالنائم يطرد كابوسًا يشله عن الحركة، أو كالغريق يغالب الأمواج التي تكتم أنفاسه بالتدريج – ردد في صوت ضعيف.

" عاقل. ماذا تقصد بالعقل يا حسين ".

" ألا ترى أننا ارتكبنا أخطاء "؟

فكر عزيز لحظة ثم قال بصوت زادت نبراته حدة:

" لا شك أننا ارتكبنا أخطاء. ولكن هل هناك من لا يخطئ "؟

" طالما أننا ارتكبنا أخطاء لماذا لا نعترف بها "؟

" إنني لا أفهم ماذا تقصد "؟.

" أقصد أننا كنا مخطئين، ومضللين، وينبغي أن نعترف بذلك ".

" مضللين!! ما هذا الذي تقوله يا حسين "؟

مسح حسين على شفتيه بلسانه، وتشابكت أصابعه كمن طعنته نوبة ألم مفاجئ. زاد وجهه شحوبًا، وارتفعت أوتار صوته في عصبية مفاجئة بدت مصطنعة.

" نعم مضللين. مضللين. مضللين في الطريق الذي اخترناه ".

" الطريق الذي اخترناه؟ ولكن أنت أول من حدثني عن هذا الطريق يا حسين. هل نسيت الليالي الطويلة التي قضيتها تحدثني عن أحلام المستقبل؟ هل نسيت ما كنت تقوله عن بلادنا، عن البؤس والاستغلال

الذي يجثم علينا؟ عن حرية الوطن؟ ألست أنت الذي قلت لي أن الحياة بلا معنى إذا لم نفعل شيئًا لبلادنا، شيئًا للآخرين. ماذا جرى لك؟ رد علي ... ماذا جرى "؟

مد عزيز يده نحو حسين والتفت أصابعه حول ذراعه تعصره في جنون، ولكنه بقي في مكانه ساكنًا لا يتحرك، غارقًا بجسده المربع في المقعد الكبير، وعيناه تحملقان في أفق بعيد، كأنه لم يعد يحس بما يدور حوله، كأن شيئًا ثقيلاً يجثم على صدره، على أنفاسه، ويسحقه دون أن يستطيع مقاومته. ساد الصمت طويلاً، مرهقًا، ممتدًا، وكأنه بداية نهاية لن تنتهي أبدًا، وتعلق عزيز بشفتي الرجل الجالس بجواره ينتظر الكلمة، الكلمة الفاصلة التي لا تجدي بعدها الكلمات. ولكن حسين ظل كمن فقد القدرة على النطق، وغشيت عينيه سحابة رقيقة فوق السطح.

" أجب يا حسين، لماذا سكت؟ ماذا تخشى؟ ماذا تريد؟ ما زلنا أصدقاء، وأنا هنا بجوارك، قل لي ماذا جرى؟ سأساعدك ".

التفت إليه حسين بعينين اتسعت مقلتاهما فجأة. لم يعد بين الجفون سوى دائرتين من السواد، يطل منهما الخوف، الخوف الذي يسري عبر الجسد في قشعريرة باردة وينفذ حتى النخاع.

اختفت تلك المسحة من الغرور والاعتداد بالنفس التي كانت تميزه وبدا ضعيفًا مشلولاً، كالحيوان الصغير الذي يرى وحشًا ضاريًا ينقض عليه.

" أنا لا أريد منك شيئًا أنا لا أريد مساعدتك. اتركني وشأني. نعم سرنا في الطريق سويًّا، وكانت أفكارنا سليمة. ولكن وسائلنا، وسائلنا كانت خاطئة. لقد حاربنا أناسًا، اتضح أنهم يريدون لنا الخير ".

" وسائلنا، وسائلنا يا حسين كانت الكلمة والرأي، وحوربنا بكل الوسائل، بالإرهاب وبالتضليل ".

" أقول لك أننا ارتكبنا أخطاء. ومع ذلك فهم يريدون لنا الخير، يريدون إعطاءنا فرصة أخرى ".

" ومنذ متى اكتشفت كل هذه الحقائق يا حسين "؟

" في الأيام الأخيرة. فكرت في كثير من الأشياء ".

" وما الذي دفعك فجأة إلى التفكير "؟

" وجدت منهم موقفًا أخويًا ".

" بعد ٤٨ ساعة يا حسين "؟

تسللت إلى عينيه نظرة اندهاش، قال في صوت مرتعش مبحوح: " من قال لك هذا "؟

" علمت. ماذا حدث يا حسين خلال اليومين الأولين من حضورك إلى هنا "؟

" لا شيء ... أقول لك لا شيء. اتركني وشأني، فكرت في المسائل ووجدت أنني كنت مخطئًا ".

" هكذا فجأة. ولماذا لم تفكر من قبل؟ أم أنك أدركت أن الثمن سيكون غاليًا. المكسب والخسارة يا حسين. كنت تتحدث كثيرًا عن المكسب والخسارة. لم تحسب المكسب والخسارة جيدًا. المسألة لم تعد مريحة أليس كذلك؟ ولكن حساباتك الآن هي الخاطئة يا حسين. أتدرك الثمن الذي ستدفعه لكي تخرج؟ أتدرك أي منزلق تسقط فيه؟ كيف ستقابل الناس؟ كيف ستقابل أصدقاءك وزملاءك وكل الذين يعرفونك؟ كيف ستقابل نفسك "؟.

انتفض حسين وواجهه بعينين تستجديان. ثم مد إليه يدًا ترتعش وهمس في ضعف:

" أرجوك يا عزيز. اتركني وشأني. أنا انتهيت ". قالها في يأس واستسلام. بدا وجهه وجه إنسان سقطت منه كل الأقنعة، لتكشف عن ألم وحزن عميقين، حزن ما بعده حزن، وألم ما بعده ألم.

استطرد عزيز بصوت عادت إليه نبرة من حماس وأمل:

" انتهيت. من قال هذا؟ لن تنتهي يا حسين. ما زالت أمامك فرصة. ماذا تخشى؟ السجن سينتهي. كل شيء ينتهي ما عدا عذاب الضمير ".

" لن تقنعني. لم أعد قادرًا على العودة إلى ما كنت عليه ".

سكت برهة ثم استطرد في إعياء شديد كأنه يردد درسًا أملي عليه.

" ارتكبنا أخطاء ولا بد أن نواجه الحقيقة ".

شعر عزيز بموجة من الغضب تعلو في صدره، وتسللت نبرة احتقار إلى صوته.

" لا تتحدث عن الحقيقة يا حسين. قل لي أي صفقة مهينة تلك التي عقدتها في الأيام الأخيرة "؟

انتفض حسين في جلسته كمن لسعته النار، والتفت نحو عزيز بوجه تقلصت عضلاته، وأصبح كالرخام الأبيض.

" أنت تتحدث عن الصفقات المهينة. ولكنك لا تعلم من هم الذين يعقدون هذه الصفقات ".

تقابلت عيون الكراهية وتلاحقت أصوات الأنفاس السريعة.

" أتريد أن تعرف من سلمك إليهم ".

" من سلمني إليهم "؟

" نعم. أو بتعبير أدق من سلمتك إليهم "؟

" من "؟

جاءت الكلمات حادة لاسعة، تقطع المسافة بينهما مثل ذيل الكرباج.

" زوجتك. سلمتك لهم ثم سافرت إلى الخارج ومعها طفلك ".

دارت الدنيا دورة واحدة عنيفة، واسود كل شيء أمام عينيه، كمن أصيب بعمى مفاجئ. ازدحم ذهنه بصور لا رابط بينهما: نافذة عليها قضبان، وذبابة تطن حولها، وجموع من الطلبة يجرون تاركين أحدهم وقد سقط في بركة من الدماء الحمراء، وطفل صغير تتحدر الدموع على وجهه في صمت، ورغيف من الخبز الأسود يزحف عليه صرصار ضخم. أحس شعورًا من الضعف القاتل، وبقشعريرة باردة تزحف عليه كالحمى المجهولة لا ... لن يستطيع أن يحتمل أكثر من هذا ... لابد أن يصرخ، أو يضحك أو يفعل أي شيء مجنون يرفع عن عقله، عن صدره، عن نفسه تلك الأصابع الحديدية من اليأس التي أحاطت به، وكأنها تخنق، وتخنق بالتدريج. لم تعد هناك فائدة من المقاومة. كل شيء ينهار، والعفن يسري كالدماء في الشعيرات، في الناس، فيه. نظر إلى حسين ولكنه لم يره، رأى شيئًا كالثعبان الأسود البارد يحملق فيه بعينين صغيرتين لا تتحركان ولا تريان، ثعبان يزحف عليه ببطء شديد، يتوقف لحظة ثم يسير من جديد، ساعيًا نحو هدف معروف ومحدد، في إصرار صامت مخيف، ثعبان يريد أن يلتف حوله، وأن يجره نحو مستنقع عميق تطل منه أعين كثيرة حزينة مستجدية، والثعبان يقترب، ويقترب، ويشد على قدمه ثم ساقه، وقدمه تنزلق في الطين اللزج وتغوص، ويشعر بجسده وكأنه يبتلع ... القدم، ثم الساق، ثم الفخذ، ويضع يديه على مسندي المقعد ليحول دون هذا السقوط الذي لا رجعة فيه، وعينا حسين تراقبانه من بعيد بنظرة جديدة لم يرها من قبل، نظرة فيها شراسة، ومكر، وتشفي تطل منهما،

وقد تحول لونهما العسلي إلى لون الطين في قاع المستنقع. التفت أصابعه حول المساند بقوة مجنونة وأخذ يقاتل بكل عضلة مـ ن عضـ لاته، بكـ ل عصب من أعصابه، ويضغط على أسنانه حتى آلمتـ ه. فقـ د الإحسـ اس بالزمن وبالحجرة وبكل ما يجري حوله، إلا ذلك الصراع الـ ذي يـ دور هناك في نقطة بعيدة في أعمق أعماق نفسه، وينتشر في موجات تتسـ ع، وتتسع، وتتسع لتشمل النفس كلها، والجسد كله. كالبحر في الظلام، تمـ ر موجاته فوقه، تغرقه في صمت، تقتله. والصراع يـ تقلص مـ ن جديـ د، ينسحب من الجسد جزءًا بعد جزء كالقلعة التي تستسـ لم، ينسـ حب إلـ ى النقطة الصغيرة المحاصرة في أعمق أعماق النفس. ويكـ اد كـ ل شـ يء ينتهي، بل تبدو الحياة وكأنها تنتهي هي أيضًا، إلا تلك النقطة الصـ غيرة النابضة في أعمق أعماق النفس، مثل النار البعيدة الموقدة في الليـ ل، أو مثل الخلية الضوئية الدقيقة ترسل شحنات من الحياة، ضـ عيفة، واهنـ ة، ولكنها موجودة تقاتل، وتقاتل لتعيش. وأخذت الموجات تتسع، وتتسع مـ ن جديد لتشمل النفس كلها، ولتنتشر خطوة بعد خطوة في كـ ل جـ زء مـ ن أجزاء الجسم.

وفجأة انهمر منه العرق الغزير خارجًا من كل المسام في سـ يل لا يتوقف كان جسده يغتسل، يطرد عن نفسه ذلك اليأس، ذلك العفن، ذلـ ك السم الذي تسلل عبر الشعيرات إلى الجسم، إلى العقل، إلى النفس، إلى كل خلية من الخلايا، ما عدا نقطة دقيقة تركزت فيها الحياة كلهـ ا، بمعانيهـ ا وأحلامها، وعذابها. وسكنت القشعريرة التي بدت وكأنها لن تسكن أبدًا.

اختفت عينا حسين من أمامه وتوارتـ ا، وتـ وارت معهـ ا الأعـ ين الحزينة المستجدية، وانسحب الثعبان الأسود، وسقط بعيدًا، فلم يعد يـ راه. أسند رأسه على ظهر المقعد كمن يستريح بعد صـ راع اعتصـ ر قـ واه

وأرهقه، وخرجت من الظلام عينان أخريان جميلتان، واسعتان، يشع منهما بريق من الدفء، والحنان، ونظرتا إليه لحظة طويلة جعلت قلبه يخفق خفقة قوية مندفعة مفعمة بسعادة لا نهاية لها. أحس بهدوء غريب يستولي عليه كأنه أصبح في مأمن من كل المخاطر، كأنه زورق ينساب بشراعه الأبيض على صفحة الحياة الزرقاء الصافية، ورنت ضحكات طفله وهو يمسك بالدفة، ويقول: " بص يا بابا أنا باسوق المركبة ازاي " وتقابلت العيون الحانية المحبة من جديد. وسطعت الشمس فوق الماء، ومرت سحابة رقيقة تسرع أمام الريح، ورنت ضحكات الطفل مرة بعد مرة بعد مرة.

جاءه صوت لا يعرفه:

" لماذا أنت صامت "؟

التفت بعد جهد إلى مصدر الصوت، ووجد نفسه ينظر إلى حسين بشعور من اللامبالاة، ويراقبه كأنه حشرة غريبة يتسلى بالفرجة عليها.

" ماذا تقول "؟

" ألم تسمع؟ أقول لك أن زوجتك سلمتك لهم ثم سافرت ".

" هذه خدعة أخرى ". قالها عزيز بهدوء.

ارتفع صوت حسين في صراخ هيستيري.

" أنت لا تعلم شيئًا. أنا متأكد مما أقوله. ولدي الدلائل. وستعرفها في يوم ما. ستعرفها، ستعرفها. الخيانة أحاطت بنا في كل خطوة ... الخيانة. خيانة أقرب الناس إلينا. ومع ذلك تريد مني أن أضحي؟! ... "

" أنت الذي تخون ".

" سأترككم هنا وأذهب بعيدًا عن الأسوار التي تخنقني ".

" اذهب. ولكن اذهب وحدك ".

" يا عزيز لا تكن مجنوناً. فكر بعقل ".

" لن تستطيع أن تجرني معك ".

تحول خبث العينين إلى الكراهية وكساهما شيء كالغطاء الأسود. أحس عزيز بالغثيان، وأشاح بوجهه نحو النافذة البيضاء يطل منها على الحديقة الصغيرة، وأوراق شجر تهتز في الريح. ثم أعاد نظرته إلى وجه حسين، وجه إنسان انقلب إلى حيوان، وجه تفككت أوصاله وانتفخت ملامحه وكسته صفرة مريضة. العينان زائغتان، تعكر لونهما فأصبح بلون البركة، اختلط فيهما التحدي مع اليأس، والضعف مع الشر، والخبث مع نظرات الانكسار الرهيبة. والشفتان مفتوحتان ينساب من بين زاويتيهما سيل رفيع أبيض من اللعاب.

جاءه الصوت البعيد من جديد.

" إنهم لا يريدون منك إلا شيئًا واحدًا ".

صمت عزيز والتفت ثانية إلى الرأس المحنية نحو الأرض.

" يريدون منك المطبعة التي تعمل في طنطا ".

" المطبعة "؟!

انكمشت الدنيا بسرعة جنونية كالنفق الطويل يدور ويدور، ويمتد ويمتد ليصل بينه وبين مكان بعيد، بينه وبين حجرة صغيرة بجدرانها المشقوقة المتسخة، وسرير، ومقعد، ولمبة واحدة قوية، وكتلة من الحديد تلف تروسها وتلف، في حركة متصلة لا تنقطع، ويخرج من بين أسنانها الحادة المحفورة، أوراق فوق أوراق، فوق أوراق تصعد في أكوام حتى السقف، وتملأ كل ركن من أركان الحجرة، وتحيط بالجسد الأسمر النحيل يقف وسطها بعينين نصف مغلقتين تشتاقان إلى النوم، وملامح مشدودة من الإرهاق، يطعم بيديه القويتين الآلة الدائرة بالورق الأبيض، ويصب

الحبر الأسود على الأسطوانة الرفيعة، وتلمع أسنانه البيضاء مشرقة فـ ـي الوجه الأسمر.

انكمشت حدود الدنيا، انكمشت دنياه، حياته، أحلامه، قلبه، عقلـ ـه، إلى حدود هذه الحجرة الصغيرة التي أصبحت كل شيء بالنسبة إليه، مثل شريان يغذيه بالدم الأحمر، بالدفء، بالحب، بمعنى حياته كلها من يوم أن خطا خطواته الأولى نحو قلب المدينة.

اقترب منه حسين بوجهه وهمس في أذنه:

" إنهم لا يريدون منك إلا شيئًا بسيطًا. لماذا لا تفكر فـ ـي الأمـ ـر. أتريد أن تبقى هنا إلى الأبد؟ ماذا سيضيرك إذا وافقت؟ عنوان المطبعة يا عزيز ... عنوان المطبعة ... ولن يعلم أحد أنك أنت الذي أعطيته لهـ ـم ... ماذا تخشى؟ إنها مسألة بسيطة "!!

حملق عزيز في الوجه الشاحب الذي كاد أن يلمسه، وكأنه لا يعرفه ونظر إليه حسين بعينين تبحثان عن إجابة، ولكنه أحس فجأة أن الجـ ـالس أمامه لم يعد يسمع.

* * *

إنه يتذكر ذلك اليوم جيدًا، يومًا من أيام شهر سبتمبر الصافية صفاء يخطف القلب، والشمس ساطعة تمد أصابعها الدافئة عبر المسافات تنفـ ـذ إلى أعماق الجسد، وتحرك الرغبات المدفونة. أجازة الصيف لم تنته ولكن في الكلية كان العمل مستمرًا، والطلبة والطالبات يروحون ويجيئون عبـ ـر عنابر المستشفى الرابض على شاطئ النيل كالعملاق الأبيض، ويجتازون ردهاته الطويلة، ويعبرون الكوبري الصغير فوق الترعـ ـة ثـ ـم يسـ ـيرون بضعة خطوات في الشارع، ويخترقون البوابة الصغيرة التي تقـ ـود إلـ ـى

قسم الولادة في المستشفى القديم. فهذا هو الطريق المختصر إلى الكلية التي تلتصق مبانيها المتناثرة بجدار المستشفى القديم.

والحركة دائبة بين المستشفى القديم والجديد، والمجموعات الصغيرة تعبر الكوبري، الكتب تحت الإبط، والسترة البيضاء ملقاة فوق الكتف، والسماعة تتدلى أحياناً من الجيب الخلفي للسروال، والكلمات والضحكات ترن في صفاء متدفق. السيل لا يتوقف أبدًا طوال النهار، يروح ويجيء دون انقطاع.

ولكن في ذلك اليوم بالذات كانت بعض المجموعات الصغيرة من الطلبة المتجهة إلى المستشفى الجديد، تنحني إلى اليسار، وتمر تحت خط قصير من الأشجار العالية لتصل إلى الملاعب. هنا تمتد المساحات الخضراء الواسعة، تبعث الراحة في العيون المتعبة، والعقول المرهقة من كثرة السهر أمام السطور المطبوعة، ومن ساعات الانحناء الطويلة فوق الصفحات البيضاء السميكة التي تلمع في ضوء اللمبة الكهربائية. هنا تحت السماء الزرقاء الرقيقة، وفوق الحشيش الرطب الذي يميل في لين تحت الأقدام، يمكن للإنسان أن يبحث عن لحظات من الاسترخاء اللذيذ. ومع ذلك كان يبدو هذا الرافد الفرعي من مجموعات من الطلبة وكأنه يسعى نحو هدف محدد. فلم يكن أحد منهم يتوقف ليتمتع بأشعة الشمس الدافئة، أو يطيل النظر في المساحات الممتدة أمام العين. كانوا يتجهون الواحد خلف الآخر إلى مبنى صغير مستطيل ومنخفض عند بداية الملاعب، أقيم بحيث لا يفصل بينه وبين السور سوى بضعة أمتار، ثم يدلفون من باب صغير جانبي إلى داخل المبنى.

دخل عزيز من الباب، يتبعه حسين وخليل، وقد اشتبكا في نقاش طويل لم يلتقط منه سوى بعض الكلمات المتفرقة، فقد كان منصرفاً بكل

ذهنه وحواسه إلى تتبع ما تدور حوله. الحجرة مستطيلة تلتف حول جدرانها صفوف متراصة من الأدراج المربعة تصل حتى السقف، بعضها مفتوح تطل منها ملابس الألعاب الملونة، والأحذية البيضاء، وبعضها مغلق بالأقفال الحديدية الصغيرة المختلفة الأشكال والأحجام. الأرض مصنوعة من ألواح خشبية تآكلت بفعل الزمن، وزحف آلاف الأقدام فوقها، وقد غطتها طبقة سميكة من التراب، فأصبحت في لونه. رائحة الحجرة مزيج من دخان السجائر، والعرق القديم في الملابس المحفوظة داخل الأدراج الخشبية، يختلط بالعرق الجديد الذي ينز بالتدريج من الأجساد الكثيرة المحشورة في الحجرة، ومطاط الأحذية البيضاء المتناثرة على الأرض، والتراب المعلق في الجو من كثرة الأقدام التي تروح وتجيء. المقاعد والدكك الخشبية اصطفت بجوار الأدراج بحيث يستطيع الجالسون عليها إسناد ظهورهم على شيء. البعض يجلسون وقد التصقوا التصاقًا شديدًا، وأطبقوا أفخاذهم، أو وضعوا ساقًا فوق ساق بحيث تسع المساحات أكبر عدد من الجالسين. والباقون افترشوا الجرائد أو قطعة قماش قديم متسخ، أو مناديلهم، وجلسوا على الأرض يتطلعون بوجوههم إلى أعلى، ليتابعوا كل ما يحدث، أو وقفوا في أركان الحجرة خلف الجالسين على المقاعد والدكك.

في منتصف الحجرة، وضعت منضدة صغيرة تقف على أرجل طويلة مرتفعة، تتخلل سطحها شقوق غائرة حيث تكسر الخشب، وبقع سوداء اللون تدل على أنها استخدمت لأغراض مختلفة من بينها الكتابة والأكل، وخلف المائدة على مقعدين استقر شخصان: خليل وحسين.

وقف عزيز في أحد أركان الحجرة وسط كتلة مختلطة من الأجساد التي كادت أنفاسها أن تختنق من شدة الزحام، ومع ذلك لم يرتفع صوت

بالشكوى أو الاحتجاج. في أول الأمر ساد ضجيج عال اختلطت فيه همهمة الأصوات يتخللها بين الحين والآخر، نداء عال أو غضبة احتجاج، أو ضحكة تعلو فوق الضحكات، مع وقع مئات الأقدام تضغط بثقلها فوق الألواح، واصطدام الخشب بالخشب كلما احتكت المقاعد والدكك ببعضها، أو كلما نقلت من مكان إلى مكان فوق الرؤوس، لتنزل بأرجلها دفعة واحدة فوق الأرض. ولكن بالتدريج خفتت كل حركة، وخفتت كل الأصوات حتى ساد الصمت. فلم يعد يسمع سوى الأنفاس الساخنة تدخل وتخرج من الأنوف والأفواه، وكلمة هامسة هنا وهناك.

جال عزيز ببصره على الوجوه المتراصة، عضلاتها مشدودة في انتظار شيء سيقع، وقسماتها يعلوها شحوب أقرب ما يكون إلى الصفرة، شحوب جاء قبل الأوان، ربما من الخوف، أو من الأمل المكبوت أو من الانتظار الطويل لأشياء لم تتحقق، أو من الجوع المستتر منذ الطفولة، أو من نهش الديدان في مجاري البول وفي الأحشاء، أو من السهر الطويل في الحجرات المغلقة فوق أسطح المنازل، أو من دخان الكيروسين في الشعلة الصغيرة المضيئة بجوار الكتاب، أو من هذه الأشياء كلها، تكاتفت وتفاعلت لتمتص عصارة الشباب، عصارة الحياة قبل أن تقوى وتنضج وتكتمل.

العيون كلها تتطلع نحو الجالسين خلف المنضدة الصغيرة، والعرق يتصبب فوق الجباه ويفوح من تحت الإبطين، وهنا وهناك تلمع نظارة في الضوء الخافت الذي يسقط خلال النوافذ الثلاث الصغيرة المفتوحة بجوار السقف، أو فوق رأس معممة أخذت مكانها في الصفوف الأولى، تتحرك يسارًا ويميناً كأنها في جامع للصلاة، وترتفع فوق جسد نحيل يستتر في ثنايا العباءة السوداء الواسعة. وعلى الطرف الآخر بجوار الباب وجه

أسمر صارم كأنه منحوت من الصخر، تلف حوله لحية كثيفة سوداء مثل الفحم. وجه جامد، قاس، لا تتحرك فيه عضلة، ولا يرتعش فيه عصب، تتطلع عيناه في ثبات، تسجل وتنتظر.

طوال هذا الوقت كان الجمع الصغير الجالس خلف المنضدة يتهامس في حديث طويل غير ملتفت لما يدور حوله، وكأن أفراده يتشاورون في أمور هامة للغاية. ثم وقف خليل فجأة على قدميه، ولوح بذراع طويلة إلى الجمع المحتشد، فساد صمت أعمق، ذابت فيه كل الهمسات واختفت، وتعلقت فيه الأنفاس كأنها توقفت بإشارة واحدة. دار خليل بعينيه على الصفوف دورة سريعة ثم بدأ يتكلم.

لم يكن عزيز يتابع سيل الجمل المتدفقة كان سدًّا انهار أمام بحر لانهائي من الكلمات. كان يصل إليه الصوت الجهوري بكلمات متقطعة متناثرة، ترتد عن طبلة أذنه برنين أجوف لا يحرك في أعماقه الشعلة الحية المدفونة، مثل تيار الهواء الثقيل يعجز عن تحويلها إلى لهب.

الشاب الذي يتكلم عيناه تطلان من خلف النظارة، وتتابعان الأشياء في حركة دائبة، ولكن في نظرتهما شيء غريب، كأنهما عينا رجل أعمى، فقدا الدفء، والبريق، وإشراقة الابتسام، ولمحات الفهم بعد السنين الطويلة من العجز. طوله فوق المتوسط، وجبهته تمتد إلى أعلى في نصف دائرة كبيرة تلمع تحت الضوء، ولا تترك سوى مساحات ضئيلة للشعر الباهت القصير. وفي وسط الجبهة الكبيرة العارية من الشعر بروز بيضاوي منخفض، يشبه الغدة المنتفخة. بشرته ليست سمراء ولا بيضاء. وإنما من لون الاثنين يصعب تحديده. وفوق الشفتين الرفيعتين أنف مستقيم، يغرس جذره العريض بين الحاجبين البارزين اللذين تغطيهما بضعة شعيرات متناثرة.

الفم يفتح ويغلق في حركة آلية مستمرة كأنه لم يعـ ـد قـ ـادرًا علـ ـى التوقف، والكلمات تنسكب في سيل متدفق، كلمات وراء كلمات التقط منها " الاستعمار " " نتحرر أو نموت فداءً للوطن " " الجلاء هو مطلبنا الذي لا نحيد عنه ". ثم فجأة دون سابق إنذار سقطت آخر جملة من الفم المفتوح، وضاع رنينها وسط الوجوه المتطلعة الصامتة: " عاش نضـ ـال الشـ ـعب المصري ".

من الركن البعيد ارتفعت يد عملاقة تطلب الكلمة، والتفتت العيـ ـون إلى الوجه الأسمر الجامد كالصخر تحيطه اللحية السوداء في لون الفحـ ـم. رن الصوت العميق ينطق المقاطع في وضوح حـ ـاد، وانسـ ـابت اللغـ ـة العربية الرصينة كالنهر العميق تخفي تحت سطحها نغمة مستترة منـ ـذرة، هادئة.

" باسم الله الرحمن الرحيم. ينبغي الاتسـ ـاق وراء قـ ـوم مضـ ـللين، غشيت قلوبهم وعيونهم شهوة إلى الشر والتمرد علـ ـى التقاليـ ـد أصـ ـيلة ورثناها عن أجدادنا جيلاً بعد جيل. إنني أدعوكم إلى الحكمة، والتبصـ ـر، والسكينة. يجب أن تعطوا لأولي الأمر مـ ـنكم فرصـ ـة التـ ـدبر، فرصـ ـة للتفاوض مع حكام بريطانيا لاستخلاص حقوقنا المسلوبة، وليلتفت كل منا إلى نفسه " فلا يصلح الله ما بقوم حتى يصلحوا ما بأنفسهم ".

انطلقت أصوات التأييد من الجمع المحتشد بجوار الباب " لا إله إلا الله " " الله أكبر ولله الحمد "، واختلطت معها عبارات الاحتجاج من الركن الآخر. ارتفعت همهمة خافتة أخذت تعلو وتعلو حتى امتلأت الحجرة تهتز وكأن حيوانًا ضخمًا محبوسًا في الداخل يحاول تحطيمهـ ـا حتـ ـى ينطلـ ـق الصغيرة بضجيج متصل، مضغوط بين الأجساد المتلاحمة، الملتصقة، من الأسر، فقفز حسين على قدميه، وشب على أصـ ـابعه بقامتـ ـه القصـ ـيرة

المربعة ملوحًا بيده الصغيرة في الهواء: " أيها الزملاء ... الهدوء، الهدوء، حتى نناقش أمورنا ونتدبرها جيدًا ". مرة أخرى انطلقت الكلمات والجمل، سلسلة متصلة لا تتوقف. الصوت ممطوط، أخنف، ترتفع نبراته العالية الرفيعة فوق الضجيج. ومن جديد جاءته الألفاظ المتناثرة وكأنها تأتيه من بعيد: " الجلاء بالدماء " " لا مفاوضة بعد اليوم ". وأحس بالحماس يعلو ويعلو. ولكن قلبه ظل باردًا لا يستجيب لموجات الحرارة المتدفقة من العيون، ومن الوجوه المشدودة الصامتة، ولا ينفذ إليه فيضان الكلمات المنطلقة كالرصاص الساخن، ولا الإحساس المخنوق بالمخاطر القادمة. الكتلة البشرية المتماسكة المتلاحمة تثور، وتموج، ثم تهدأ وتسكن كجسد واحد. وحسين يقف غارقًا بقدميه في قلب الجسد الضخم، يسيل منه العرق، ويسقط فوق رؤوس الآخرين، نقطة وراء نقطة. المعاني تنطلق إلى الآذان المصغية، وكأنه أذن واحدة، تصب في عقل واحد، وتشعل حلمًا واحدًا، يحلق بأجنحة الخيال العريضة فوق الحياة الصغيرة لكل يوم، ويبدو أمام الشباب المحتشد في المبنى الضيق رغم كل الغموض، وكل المخاطر، واضحًا وسهلاً وقريب المنال. واصل الجسد الضخم طيرانه محمولاً فوق أجنحة الأمل، واشتعلت العيون ببريق جديد، وتلاحقت الأنفاس سريعة ساخنة، وكأن صدرًا واحدًا يرتفع وينخفض بالشهيق والزفير، وجرت الدماء الحارة في الوجوه الشاحبة، فتوارى شحوبها خلف الدماء، وسرت قشعريرة في الكتلة البشرية المتلاحمة كاهتزاز الأشجار في رياح الخريف، أو كالحمى تسري من هول الأحلام الجريئة. وفجأة ماتت الكلمات، وساد الصمت. بدا على العيون أنها تستيقظ وتفكر، وتتأمل. وهربت الدماء الحارة من الوجوه إلى الأحشاء، فعاد إليها شحوبها من جديد. وسكن الجسد الكبير كأنه يستريح، كأنه يستعد لجولة قادمة.

وقف الشاب وسط الجمع الهادئ المنتظر. وجه شاحب من بين الوجوه، ولكنه مختلف، يلفت النظر بقسماته الحادة البارزة: الجبهة الصلبة ذات العظام السميكة، وكأنها تمرست على تحمل ضربات الحياة، والأنف المدبب يشق الهواء في كبرياء مختزن، والعيون العميقة بجفونها الثقيلة، يملأها شيء كالحنين، أو الحزن الصامت، وتتردد بين اليقظة التامة لما يدور حولها، وبين الاستغراق في عالم داخلي بعيد، والفك يبرز في قوة، يعلوه فم صغير شفتاه مطبقتان في عناد. وجه شاب عرف الحياة، ونضج قبل الأوان.

جاء الصوت هادئًا منغمًا مقنعًا:

إذا الشعب يومًا أراد الحياة   فلا بد أن يستجيب القدر

ولا بد لليل أن ينجلي   ولا بد للقيد أن ينكسر

أحس عزيز بنفسه مشدودًا إلى تتبع ما يقول، وكأن القادم الجديد أقحم نفسه عليه، فلم يعد قادرًا على تجاهله. تتبع الكلمات المسترسلة الحماس، ولكنها تحاصر العقل بنسيجها المحكم الدقيق، وتنفذ إلى القلب مدفوعة بالإيمان العميق المختفي في ثناياها، كلمات تتدفع مثل سيل من الذرات الكهربائية الصغيرة تثير القلق، والتساؤل، والاضطراب.

تتبع الكلمات الواحدة تلو الأخرى، كطير يلتقط حبات القمح في نهم. " العالم منقسم إلى معسكرين ... أمريكا على رأس المعسكر الاستعماري وهي الآن أقوى وألد الأعداء ... الاتحاد السوفييتي يناضل جنبًا إلى جنب مع كل الشعوب ... التحرر الوطني والاشتراكية والسلام ... ينبغي أن نحدد أعداءنا وأصدقاءنا ... أعداؤنا الإنجليز وأعوانهم من الإقطاعيين وكبار الرأسماليين. الجلاء لا يتحقق إلا بالدماء، عن طريق الكفاح المسلح ... نحن نريد الجلاء الاقتصادي والعسكري والسياسي ... لابد من

تحالف متين بين العمال، والفلاحين، والمثقفين، والرأسمالية الوطنية ... السودان شقيقتنا في المعركة ولها حق تقرير المصير ".

الآذان كلها منصتة، والعيون كلها تتبع الكلمات الجديدة الجريئة وهي تخرج من الشفاه، وتتلقفها كالأيدي الممدودة نحو شيء ثمين، وتلتقطها قبل أن تسقط على الأرض ... الفكر والعمل ... حتى تتحول الشعارات والأفكار إلى قوة مادية لا بد من التنظيم ... تنظيم الجماهير. يجب أن تشكل لجنة تحضيرية من مندوبين عن كل الكليات ... ويعقد مؤتمر عام في أول العام الدراسي في كلية الطب، حيث بدأ التحرك ... على كل مندوب أن يعمل على تكوين لجنة تنفيذية، تشكل بالانتخاب في كليته ... مندوبو اللجان التنفيذية تتكون منهم اللجنة التنفيذية العليا للطلبة ...

خرج الجمع المحتشد في المبنى المستطيل ذي اللون الرمادي القاتم من الباب الصغير، مثل الخيط الأسود الرفيع، يبرز من الثقب المفتوح في أمبوبة معدنية. العيون ذاهلة، تتفادى ضوء الشمس المحلقة في الأفق، كالنائمين خرجوا من بئر عميق، أو كالعاملين في منجم، وجدوا أنفسهم فجأة وقد انتقلوا من ظلام الدهاليز المحفورة في بطن الأرض، إلى ضوء النهار على السطح. تفرقوا بسرعة في جماعات صغيرة، مثل عناقيد العنب، سارت عبر المساحة الخضراء في اتجاهات مختلفة، دون أن ينهمكوا في أحاديث طويلة، وكأن واجبات ملحة تدعوهم إلى مغادرة المكان بسرعة. وفي دقائق معدودة أفرغ المبنى الصغير ما كان في جوفه من الناس تمامًا، ولم يبق سوى الدخان المعلق في الهواء الساخن، ورائحة العرق، والأحذية المتناثرة فوق الأرض المغطاة بالتراب، والبقع الداكنة، وأعقاب السجائر، وكتل الأدراج الخشبية المرتفعة إلى السقف في صمت.

وأخذت أصابع الظلام تمتد بالتدريج عبر النوافذ الثلاث، والباب، لتغزو المكان الموحش، المهجور.

سار عزيز وحده بعيون نصف مغلقة كالمستيقظ من النوم. كان جسده مرهقًا، ومع ذلك أحس بقدميه تحملانه فوق الحشيش الرطب اللين بقفزات سريعة، مفعمة بحيوية جديدة، وبقلبه خفيفًا بين الضلوع.

* * *

الساعة تدق الخامسة فوق قبة الجامعة، دقات عميقة منغمة ترن كالموسيقا في جو الأصيل الصافي، ويحملها النسيم الناعم، الرقيق، إلى النيل الأسمر العريض، تنساب مياهه في كبرياء رزين بين الضفتين، مثل وحش أسطوري ضخم، استأنسته محن القرون الطويلة، فأصبح حكيمًا، وعميقًا، قويًا وهادئًا. وتعبر الدقات مسرعة فوق سطحه، قوية مسموعة في بداية الطريق، خافتة، رقيقة، عند الضفة الأخرى، لتمر منه بالتدريج خلف المباني البيضاء المفروشة في أرض الروضة الخضراء.

كان يسير في اتجاه الجامعة بخطى بطيئة متلكئة، تحدوه رغبة دفينة في إطالة المشوار أكبر مدة ممكنة من الوقت، ليستمتع برقة الأصيل وصفائه. خلف ظهره ترتفع جبال المقطم بين السحب البنفسجية الكثيفة، تهتز فوقها نجمة وحيدة مثل لؤلؤة صغيرة ضلت الطريق في هروبها المذعور أمام الظلام الذي يزحف عليها. فوق الجبال تمتد السماء كالبحر الأزرق الشفاف، تغادر شواطئه السحب الداكنة، مثل سفن تنطلق في رحلة مجهولة. وأمامه تعلو قبة الجامعة كتلة مستديرة من الحجر الصامت، ومن ورائها كرة ضخمة من الذهب المنصهر، ترسل أشعتها الطويلة مثل عصى الساحر، لتلمس أطراف السحب، والأشجار، والمباني وتحتضنها بألوان وظلال متغيرة في كل لحظة.

قدماه تقودانه عبر حوش الجامعة الواسع إلى فتحة صد غيرة ف ي السور، وترن بوقع مكتوم في التراب. وقلبه ي دق م ع دق ات الس اعة المنغمة، ومع نبض الطبيعة من حوله – ولكنه يدق أيضًا بإحساس ربم ا عرفه من قبل، وإنما ليس بهذه الطريقة، ولا بهذا العمق، إحساس بالجديد الذي يعطي للحياة طعمًا، وللوجود معنى. الفتحة الصغيرة في السور تطل على مساحة واسعة من الأرض الفضاء الخرب ة، س ار فوقه ا بحذائ ه الإنجليزي المتين، متفاديًا الأحجار المدببة التي كاد يقع فوقها بين الح ين والآخر. كان يمشي بتلك الخطوة السريعة الثابتة التي تميزه، منحنيًا إل ى الأمام قليلاً، كمن يفحص الأرض جيدًا قبل أن يخطو فوقها بملء قدم ه. بعد قليل وجد نفسه وسط تجمع واسع من المباني المتلاص قة الص غيرة. اللمبات الكهربائية تضيء الواحدة بعد الأخرى، والأطفال يج رون هن ا وهناك، يصرخون بأصواتهم العالية الرفيعة، أو يلعبون بالبلي، أو يقفزون فوق مربعات الأولى. وبنت صغيرة تسير وعلى رأسها صينية كبيرة من الكعك، تحملها إلى الفرن المجاور على ساقين كع ودين م ن الكبري ت. وعلى ناصية الشارع وقف رجل بصدره العريض وذراعين عاريتين حتى الكتف، يسقط خيوط الكنافة الرفيعة البيضاء من الكوز المس تطيل ف وق الصاج الأسود اللامع بحركة دائرية، منتظمة، والمذياع يصب أغني ة لأم كلثوم تنفذ إلى الآذان في خشخشة عالية، وهو يكاد ينفج ر ف وق رؤوس الجالسين من فرط العويل. وأكواب الشاي الداكنة ت روح وتج يء ب ين المناضد العالية، بقرصها المستدير الصغير، وقد التفت حولها أجساد نحيلة في جلاليبها الرثة، تتخللها هنا وهناك عمامة فقيه، أو طرب وش أفن دي يعمل في مصلحة حكومية. وإلى جوار القهوة حانوت ضيق يمت د إل ى الداخل في نصف ظلام تناثرت حوله سلال م ن الخض روات الملون ة،

الطماطم الحمراء، والجرجير الأخضر، والباذنجان الأسود والأبيض، والليمون الأصفر، تجمعت أمامها النسوة كالغربان السود تنعق حول البائع المسكين الذي تصبب عرقًا من فرط المساومة في الأسعار، وهن يلقين بنظرات خاطفة سريعة على الرجال الجالسين عند القهوة.

مر عزيز سريعًا أمام الجموع المحتشدة، ودلف إلى اليمين في حارة طويلة ضيقة، وهو يقفز بعناية فوق أكوام الفضلات، وبرك المياه، والطين اللزج. انحنى إلى اليسار في حارة أخرى أشد ضيقًا وإظلامًا، وسار مسافة قصيرة تاركًا خمسة بيوت. كان يتحرك كمن يعرف طريقه جيدًا. وعندما وصل إلى البيت السادس ألقى نظرة خاطفة فوق كتفه، ثم تسلل من الباب إلى بئر السلم بخطوتين سريعتين، مثل القط يمرق في الظلام. صعدت إلى أنفه رائحة عطنة مكتومة، وهو يصعد الدرجات المتآكلة، مسندًا يده على الجدار الخشن، بأحجاره الباردة. ترك الدور الأول والثاني، وعند الدور الثالث توقف أمام الباب الخشبي بجوار السلم، ونقر نقرتين خفيفتين على الخشب. بعد لحظات قليلة رد عليه صوت نسائي عميق من الداخل:

" مين "؟

" أنا عزيز يا عمتي "

" طيب يا بني. سأفتح لك فورًا ".

انتظر لحظات قصيرة على العتبة، ثم سمع صوت مزلاج حديدي، ووجد نفسه واقفًا داخل الصالة أمام امرأة عجوز، ترتدي جلبابًا أسود طويلاً، وقد لفت حول رأسها شالاً من الصوف الأسود المشرشر. أغمض عينيه نصف إغماضة في الضوء القوي المفاجئ ومد يده للسلام.

" مساء الخير يا عمتي "

" مساء الخير يا بني. كيف حالك "؟

" بخير الحمد لله. وأنت كيف حالك "؟

" الحمد لله يا بني. طالما أنكم طيبون فأنا طيبة. البركة فـ يكم يـ ا بني".

" لا البركة فيك أنت يا عمتي. طمئنيني على نفسك.. هل تحسـ نت حالتك بعد العلاج "؟

" ربنا كبير يا بني، ورحمته واسعة. الصداع اختفى، ولكن الـ دوار ما زال يصيبني بين الحين والآخر ".

حملق في وجهها المتغضن، وعينيها الصـ غيرتين الخـ اليتين مـ ن الرموش. الوجه صلب وعنيد. صورة طبق الأصل من ابنها بعد أن حفر الزمن تجاعيده وأحزانه عليه.

" إن شاء الله سيختفي الدوار أيضًا. هل تتناولين الدواء بانتظام "؟

" كلما تمكنا من شرائه يا بني ".

" ولكن هذا لا يكفي. لماذا لا تخبريني عندما ينفد "؟

" البركة فيك يا بني. لا نريد أن نتعبك معنا ".

" لا تعب ولا حاجة. أنا أستطيع الحصول عليه بسهولة. سأحضـ ر لك كمية تكفيك شهرين أو أكثر ".

" كتر خيرك يا بني. ادخل، عماد ينتظرك ".

ضغطت بيدها على مقبض معدني طويل يتوسط البـ اب الأبـ يض العالي على يمين المدخل، وانفتح الباب عن حجرة ضيقة تحتـ وي علـ ى سرير خشبي عريض، مغطى بلحاف أزرق، ومكتب صغير حشـ ر فـ ي الفراغ بين السرير والجدار، ودولاب عريض تتوسطه مرآة شقها شـ رخ متعرج من أعلى إلى أسفل. فوق المكتب وضعت لمبة خضـ راء انحنـ ت

برقبتها الطويلة الصدئة فوق كتاب مفتوح. وخلف المكتب جلس عماد مختفيًا في نصف الظلام، وقد وضع ذقنه بين يديه وأسند مرفقيه على المكتب وهو يقرأ.

رفع عينيه عن الكتاب عندما سمع صوت الباب يفتح، وعندما رأى وجه زائره، انفرجت شفتاه عن ابتسامة مشرقة وهتف:

" عزيز. أهلاً بك. متى جئت "؟

" منذ دقائق. كنت أتحدث مع والدتك. كيف حالك؟ لم أرك منذ ما يقرب من عشرة أيام ".

" هل مرت عشرة أيام؟ الوقت يجري. ما أخبارك يا عزيز؟ تعال اجلس هنا " قفز من وراء المكتب فوق السرير، ونزل على الأرض بقدميه فوق الحصيرة المزركشة، مشيرًا إلى المقعد الوحيد بالحجرة ... جلس القرفصاء على السرير في مواجهة عزيز وأطرق برأسه ينتظر كلامه. تأهب عزيز ليقص ما عنده من أخبار، ولكنه لم يمهله، واستطرد في الحديث بصوته الهادئ الممتلئ، وهو ينطق الكلمات ببطء فيه شيء من التردد، كأنه يتوقف للتفكير فيما يقول، أو يمطها أحيانًا بطريقة مميزة.

" عشرة أيام!! لم أشعر بمرورها. كنت مشغولاً للغاية، قضيت منها أربعة أيام بلياليها دون أن أنام، حتى اضطررت لتناول بعض الأقراص المنبهة ".

وضع يديه على جبهته ثم استطرد:

" آه!! رأسي تنفجر، وأشعر بلحظات مفاجئة من الدوار ... اليوم حاولت أن أقرأ قليلاً، ولكنني عاجز عن التركيز. الاتصالات كثرت هذه الأيام ... إننا نسير نحو انفجار شعبي. الطلبة بدءوا في التحرك، وهم يستعدون لدخول الجامعة ... قضية جلاء الإنجليز مثارة بينهم على نطاق

واسع ... لم يعد أحد يحتمل أسلوب المفاوضات والمساومات. وشعاراتنا تسير كالنار في الهشيم. ولكن لا بد من بذل جهود أكبر لتنظيم هذا التحرك الشعبي. مؤتمر كلية الطب فشل. أعد، وتم الاجتماع، وحضره عدد كبير من الطلبة. ولكن مندوبي الأحزاب التقليدية سيطروا عليه. ذلك أن اللجان التنفيذية لم تكن قد تكونت بعد. لذلك ينبغي التركيز على تكوين هذه اللجان بالانتخاب. مندوبان عن كل سنة من سنين الكلية، ثم لجنة تنفيذية مسئولة عن الكلية كلها، ثم اللجنة التنفيذية العليا على مستوى الجامعة ".

كان عماد يتكلم طوال هذا الوقت دون توقف، وعيناه نصف المغمضتين تنظران أحيانًا في عيني عزيز، كأنهما تنفذان من خلالهما، وتنحرفان أغلب الوقت بنظرة جانبية إلى جدران الحجرة ليخترقاها إلى العالم الواسع في الخارج. نظرة غريبة يختلط فيها التمحيص، والتتبع الدقيق، والشك، والتوهان في عالم مجهول كأنه موجود وليس موجودًا في آن واحد.

قاطعه عزيز:

" والمدارس الثانوية "؟

" تم الاتصال بمندوبين عن المدارس الأساسية ".

" أشعر أن العمال أيضًا في حالة غليان. ألم تلاحظ حركات الإضراب المتكررة. الغلاء يطحنهم. وهم يربطون بينه وبين وجود الإنجليز ".

تحركت ابتسامة خفيفة فيها استعلاء على شفتي عماد الرفيعتين، فتوقف عزيز عن الكلام فجأة. سادت لحظات صمت بينهما ثم سأل عماد:

" وماذا فعلتم عندكم في الكلية "؟

" أجريت الانتخابات، وتم تكوين اللجنة التنفيذية ودخلنا فيها حسين وخليل وأنا ".

" حسناً ... أي نوع من التكوين "؟

" الأغلبية للتقدميين وشباب الوفد. وأقلية صغيرة لممثلي الأحزاب والإرهابيين ".

" ولماذا لم يحضر حسين معك ".

" ذهب لإجراء بعض الاتصالات – وإعداد منشور باسم اللجنة التنفيذية حول أهداف المرحلة الحالية ".

سكت عماد لحظة وارتعش رعشة خفيفة كأنه أحس فجأة بالبرد. كان يرتدي بيجامة مخططة زرقاء من قماش الكاستور ممزقة عند الرقبة، لتكشف تحتها عن بعض شعيرات سوداء فوق جلده الأسمر، وقد انفصلت خيوطها عند جيب المنديل تاركة قطعة من القماش تتدلى فوق صدره. السروال قصير يكاد لا يصل إلى رسغيه، وكأنه يرتدي ملابس شخص آخر. قام من جلسته ومد يده الصغيرة المنتفخة إلى الشماعة الواقفة بجوار الدولاب ليسحب من فوقها سترة صوفية داكنة رثة، وارتداها بحركة سريعة، ثم جلس مرة أخرى على السرير، وقد برزت إحدى مرفقيه من ثقب كبير في الكم الأيسر.

استطرد عزيز:

" والعمال "؟

" ماذا عن العمال ".

" ألن تتصلوا بهم ".

" وما شأنك في هذا "؟ قالها بنبرات باردة قاطعة.

أحس عزيز بطعنه خفيفة في قلبه، وبنوع من الجرح المجروح، ولكنه امتنع عن التعليق وواصل حديثه.

" كيف يمكن لحركتنا أن تنجح إذا لم ينشأ تعاون مع العمال "؟

" أتعتقد أننا غافلون عن ذلك "؟

مرة أخرى أحس بالطعنة في قلبه.

" إذن ما هو المطلوب "؟

" ليس مطلوب منك شيء. لقد ناقشنا الموضوع، وعملت الترتيبات اللازمة في هذا الشأن ".

" ولكن الموضوع مثار في اللجنة التنفيذية. وكلف بعض أعضاء اللجنة بالسعي منذ اليوم للاتصال بنقابات القاهرة وشبرا الخيمة ".

" أعرف هذا ".

" ومن أين تعرفه "؟

ابتسم مرة أخرى نفس الابتسامة الخفيفة الساخرة، ثم انفجر في ضحكة عالية حولته فجأة إلى طفل كبير. قام من جلسته وهو يسأل عزيز:

" أقرأت رواية الأم "؟

" لا ".

" اقرأها ستعجبك ".

" لماذا؟ ".

" فيها قصة نضال إنسانية عميقة. قصة أم ".

" سأشتريها وأقرأها ".

" هيا بنا نأكل لقمة ".

قام وفتح الباب، ثم نادى على أمه بصوت عال. ظهرت في فتحة الباب المواجه تلف رقبتها بذيل الشال الأسود في حركة ذراع خاطفة.

" يا بني. ماذا تريد "؟

" نريد أن نتعشى يا أماه. ماذا عندك "؟

" طعمية، وفول، وجبنة بيضاء، وبلح ".

" يا لهذه الطعمية. ألن يتوب علينا ربنا منها أبدًا "!! ضحك في مرح امتزج بلسعة من المرارة. وقال: " هاتي. أمرنا إلى الله ".

جلسا على المنضدة الصغيرة المغطاة بقطعة من المشمع تخللت مربعاته الزرقاء ثقوب صغيرة سوداء، وآثار حرق، وأخذا يأكلان ببطء من الأطباق الموضوعة أمامهما. أكل عزيز بشهية متلذذًا بطعم الخبز الساخن، ولكنه كف عن الأكل قبل أن يشعر بالشبع.

قالت الأم:

" كل يا عزيز. لقد تعشيت أنا وهذا الأكل لكما، أم أن الأكل لا يعجبك "؟

" لا والله يا عمتي شبعت ".

" على راحتك يا بني. البيت بيتك ".

" شكرًا أنا أعلم هذا ".

عادا إلى الحجرة. وجلسا على السرير يحتسيان الشاي وسط رشفات عماد العالية المتلذذة. سمع عزيز صوت المذيع يقرأ نشرة الأخبار في راديو الجيران، فالتقط بعض الجمل ... " رئيس الوزراء يبعث برسالة إلى رئيس وزراء المملكة البريطانية المتحدة يوضح فيها " ...

حمل الريح صوت المذيع بعيدًا عن أذنيه ليضيع في سكون الليل.

قال عماد:

" كفى سياسة – أتبيت هنا الليلة "؟

" أريد أن أعود للاستذكار ".

" اترك كتبك مرة يا أخي. امكث معنا الليلة. سأعطيك بيجامة وأقرأ لك قصيدتي الجديدة ".

تطلع عزيز إلى وجه عماد، وجه الشاب الذي أصبح رجلاً قبل الأوان، وجه عرف كيف يخفي أحاسيسه وأفكاره تحت قناع لا يرتفع أبدًا إلا عندما تنطلق ضحكته العالية تذكر بأيام الطفولة. قال في حماس:

" قصيدة جديدة. متى كتبتها "؟

" بالأمس. وستكون أنت أول من يسمعها ".

" سأبقي معك ".

سكت عماد وسرحت عيناه نحو النافذة المغلقة.

" أحيانًا أفكر أن أترك كل شيء لأعيش للشعر ".

" حتى السياسة "؟

" حتى السياسة – إنها ستقتل في المشاعر ".

" لماذا "؟

" لأنك لا تستطيع أن تعطي حياتك للشعر والسياسة في آن واحد. وهذا الصراع يمزقني. وحتى أحسمه ينبغي أن أختار الشعر ". " أو العكس ".

" لا. إذا ما اخترت السياسة سأحن للشعر دائمًا ".

" وإذا ما اخترت الشعر، ستحن للسياسة ".

" السياسة بالنسبة لي تضحية. تضحية بأهم ما عندي. تضحية بالفن".

" تضحية فقط "؟

ساد الصمت دقائق. ثم نهض عماد وأخرج بيجامة قديمة صغيرة الحجم وناولها له. خلع عزيز ملابسه، وارتدى البيجامة. التفت إلى عماد

ليجده وقد استغرق في قهقهة صافية متواصلة حتى كادت الدموع تنهمر من عينيه.

" يا للأناقة. آخر موضة. بيجامة " ترواكار ". سأحضر مرتبة لتنام أنت على السرير، وسأفترش أنا الأرض.

خرج من الحجرة وعاد بعد قليل يحمل مرتبة كبيرة، وبعض الأغطية فرشها على الأرض ثم قال:

" تعال. اجلس. الآن سألقي عليك قصيدتي ".

* * *

تمطع فوق السرير بشعور من الراحة عميق. مد ساقيه وذراعيه في سعادة، مستمتعًا بقدرته على الحركة الحرة الطليقة. فمنذ الأمس رفعوا عنه القيود، وأصبح يروح ويجيء في الحجرة، ويقضي حاجته، ويأكل، ويشرب، وينام دون معاناة. يشعر حتى أن عملية التنفس أصبحت أيسر مما كانت، وكأن القيود الحديدية كانت تلتف حول صدره أيضًا. فالهواء يدخل ويخرج مع الشهيق والزفير بسهولة، وهو يشعر أن روحه نفسها صارت خفيفة، يتملكها إحساس مرهف بأبسط الأشياء، إحساس ملؤه سعادة جديدة، غامرة.

كان يحس عضلات ذراعيه وفخذيه المرة تلو المرة، وكأنه يريد أن يقول " ما زلت حيًا، ما زلت قويًا " مستمتعًا من مجرد الشعور بجسده، بالدماء تجري فيه، وبالشريان ينتفض عنيفًا، عميقًا.

الأشياء كلها تبدو مشرقة حتى القبيح منها. الذبابة الوحيدة التي تتسلل عبر النافذة في الصباح الباكر مع أشعة الشمس الأولى. أصبحت كالصديقة يحييها تحية صامتة، أحيانًا بصوت عال، ويبتسم لها عندما تأخذ في الطنين حول أذنه، وأنفه، وفمه، وكأنها تقول له " استيقظ ... استيقظ،

لقد جاء الصباح ". ومراكب البق السمين، تبرز من الشقوق في الضوء الكهربائي الضعيف، وهي تسير في تؤدة ورزانة، تذكره بموكب من المحامين أو القضاة يرتدون أروابهم السوداء حول أجسادهم البدينة، ويدخلون بخطوات بطيئة إلى قاعة المحكمة، فيضحك لهذه الصورة الغريبة، وأشعة الشمس الذهبية تغمر الحجرة بضوئها المشرق، فيضع ذراعه، أو وجهه، أو جزءًا من جسمه العاري تحتها ليشعر بالدفء يسري في أوصاله، وبالحياة تتحرك في منطقة دفينة عميقة كالبؤرة المشتعلة. وقطعة من السماء الصافية الزرقاء تجعل قلبه يرف كالعصفور. وأوراق الشجر الخضراء ترتعش في الريح، يراها من فتحة النافذة العالية والتي تعلم كيف يصعد إليها على بطانية مربوطة بين القضبان، يرتفع عليها بحركة قوية من الذراعين. وطبق العدس الأصفر ينقض عليه بشهية متجددة كالطفل الجوعان، ويمسح آخر البقايا بآخر لقمة من الخبز الأسمر.

هذه السعادة المفاجئة، الغريبة، غير المتوقعة، المتناقضة مع كل ما يوجد حوله من قبح وقسوة، وكل ما يدور حوله من محاولات لإذلال إنسانيته ورجولته وتحطيمهما، ما هي؟! ومن أين جاءته؟!

فمنذ اللحظة التي استيقظ فيها هذا الصباح أخذ يغزوه شعور جديد، شعور ترسب في أعماقه، وتأصل، واستقر، بل وزاد استقرارًا كلما مرت الساعات، شعور لا يدرك له سببًا، ولا يعرف دوافعه. ولكنه يحسه قويًا كالنهر المتدفق في جسده. أخذ يسترجع لحظات اللقاء مع حسين وهي تمر أمام عينيه الواحدة تلو الأخرى كشريط سينمائي يدور في بطء، عاشها مرة أخرى بكل تفاصيلها وكلماتها، بالتواءاتها، بشحناتها المتوترة وصراعاتها المكشوفة والمستترة، بغرائزها البدائية وأحاسيسها المتناقضة، بمأساتها.

مأساتها!! ... الحياة فيها مآسٍ كثيرة، ولكنه يحس أن هناك أشياء تجسد مأساة الحياة كلها، أشياء قد تبدو صغيرة إلى جانب كل ما يقع في هذا العالم الغريب المتناقض من أحداث مفزعة، الحروب التي تدمر، والوباء الذي يحصد بالآلاف، والجوع الذي ينهش الجسد الهزيل، ولكن مع ذلك هناك صورة تطارده منذ سنين طويلة لا يستطيع أن يتخلص منها أو ينساها. إنه ما زال يتذكر حتى هذه اللحظة يوم سار على قدميه عبر شارع سليمان باشا، يتسلى بالفرجة على الناس، والتسكع أمام الفاترينات، مستمتعًا بساعة نادرة من الراحة تخللت العمل المتواصل في المستشفى. أمام أحد متاجر الحلوى وقفت امرأة غليظة الجسم، وإلى جوارها طفل صغير وجهه الأبيض المستدير تطل منه نظرة العينين الهادئتين الرقيقتين، يتطلعان في شغف إلى الأكوام المنسقة الصغيرة من الكعك المستدير، والغريبة، والكنافة المحشوة بالفستق الأخضر، وبلح الشام المستطيل الغارق في شراب من الذهب المصفى، وأطباق مسطحة من عيش السراي، والبسبوسة انغرست فيها فصوص اللوز، وطبقات الجلاش الرقيقة، وكتل ضخمة عالية من جوز الهند الأبيض والأسمر، وقطع الشيكولاتة الملفوفة في ورق ملون تتلألأ في بحر من الأضواء الساطعة. الناس يروحون ويجيئون، والضحكات ترن صافية في الأمسية النابضة بالحياة والحركة، والسيارات اللامعة تتهادى فوق الأسفلت الأسود، وعيون الشباب تلتقي، وتتعانق، وتفترق في لحظة، وسط الزحام. وعبر الضجيج المتراكم المندفع سمع صوت الطفل يغرد بكلمات لم يفهمها، ولكنه فوجئ بالأم تتلفت ناحيته وتنهال على رأس الطفل بلطمة قوية أحس وكأنها ارتطمت برأسه هو. نظر مبهوتًا إلى وجه الطفل الصغير ليلمح خليطًا من المشاعر التي اعتصرت قلبه، كأنما قبضة قوية أطبقت عليه: الفزع،

والألم العميق، والاندهاش، والتساؤل، والحزن، والاستجداء، والنفور ... خليط متتابع متداخل مر في لمح البصر على الوجه المستدير الأبيض كأنه يعبر عن مأساة الحياة كلها ... في لحظة واحدة خاطفة من العمر ... عن مأساة الإنسان الفرد، وضياعه في عالم ليس من صـ نعه، فـ ي عـ الم لا يفهمه، يواجه الظلم في كل خطوة، وتنهال عليه اللطمات المباغتة في أي لحظة، أحياناً من أقرب الناس إليه.

والرجل ... عندما ينهار في ظلمة الزنزانة تحـ ت وطـ أة القهـ ر والإرهاب، وحسابات الأجهزة الدقيقة، يمتد الجرح عميقـ اً فـ ي نفسـ ـه، كالشرخ في المرآة، كالكسر الذي لا يمكن أن يلتحم. هل يوجد مـ ا هـ و أفظع من كبرياء الرجل يتحطم، من عذاب الروح، والجسد، وامتهانهمـ ا. الإنسان ذلك الكائن القوي الضعيف في آن واحد، ما الذي يحفظه في تلك اللحظات الرهيبة التي يصبح فيها الحد الفاصل بين القوة والضعف، بـ ين التماسك والانهيار، بين السمو والانحطاط إلى أسفل الدرك، مجرد شـ عرة رفيعة يمكن أن تتمزق في دقيقة واحدة، أو في ثانية، أو حتى فـ ي جـ زء ضئيل من الثانية، لتنحني الرأس المرفوعة نحو السماء تلعق التراب؟

ما الذي يجعل تلك الشعرة الرفيعة التـ ي تفصـ ل بـ ين التماسـ ك والانهيار بين الإنسان الحر، والحيوان المستذل، ما الذي يجعلها تنفصـ م في لحظة من اللحظات لتجد الرجل وقد تحول إلى شيء، مجرد شيء ... كالخرقة تمسح بها الأحذية كل الأحذية، أحذية السادة المدببة الرفيعـ ـة ... وأحذية الجند الغليظة الثقيلة؟

حسين ... أنت يا حسين ... ما الذي جعلك تنقلب هكذا لتصبح أداة في يدهم، يحركونها كما يشاءون ... لم يكن هناك شيء ينبئ بهذه النهاية ... هل كانت هذه الأشياء تافهة حقاً؟ ... أم أن عقولنا الشابة المتحمسـ ـة

كانت تفتقد الخبرة الكافية لإدراك أهمية ما كانت تراه عيوننا، وتسجله آذاننا وأحاسيسنا ... مسألة مثيرة للحيرة!!. ما الذي يؤدي بمناضل مثلك إلى السقوط ... إلى الانهيار؟

كنت إنساناً بارد العواطف لا تنفعل إزاء أي موقف، مهما كان يدعو إلى الانفعال ... فالبرود شيء، والهدوء شيء آخر ... ولكن الحد الفاصل بينهما ليس واضحًا في كل الأحوال حتى للعين الفاحصة الخبيرة بالناس والحياة. وكنت كثير الكلام، ميالاً إلى المبالغة، تصور الأشياء كما يحلو لك أن تراها ... مبالغًا أحيانًا إلى حد الكذب الصريح خصوصًا إذا ما كان الموضوع متعلقًا بذاتك ... وبدورك ... بما فعلته وما تستطيع أن تفعله. كان الحديث عن نفسك يستهويك، تسترسل فيه طويلاً إذا لم نفتح موضوعًا جديدًا، أو نرتجل نكتة تقطع السلسلة المستمرة من الكلمات المنطوقة في نغمة واحدة رتيبة لا تتغير، ويتخللها ذلك الرنين الأخنف الذي كان يميز صوتك.

أشياء صغيرة يتذكرها عزيز الآن. كان قد لاحظها من قبل ولكنها مرت عليه دون أن يضفي عليها أهمية خاصة أو يعتبرها ذات مغزى. ومع ذلك لم ينس أبدًا ذلك اليوم الذي اعتديت فيه على الولد الصغير ابن عم عبد الله وأنت تكشف على عينيه أمام باب الدوار. حادثة تبدو بسيطة، ولكنها كانت تتناقض كل التناقض مع كل ما كنت تقوله عن الفقراء، والظلم، والإنسانية، جعلتك تبدو كأنك تحمل في أعماقك شخصًا آخر يعرف القسوة جيدًا، ويمارسها. ولكن الأيام مرت، وتوالت الأحداث، وكنت أنت دائمًا في قلب المعارك، تعمل بلا كلل وتقدم التضحيات مثل الآخرين.

وعزيز تذكر الآن أشياء أخرى. كان أبوه تاجرًا، وكان يتحدث حسين في كثير من الأحيان بلغة التاجر: " المكسب والخسارة " وكان أحد ألفاظه المحببة عندما يناقشون أي موضوع: " علينا أن نحسب المكسب والخسارة بدقة ". عبارة لا غبار عليها، بل هي عين العقل. ولكن شيئًا ما في طريقة تناوله للأشياء، ربما البرود التام، أو الموازنة الدقيقة لمختلف الأمور بطريقة حسابية آلية لم يكن مريحًا تمامًا. ومع ذلك من يستطيع أن يعترض على ضرورة التقدير الدقيق في كل عمل سياسي. في مثل هذه الأوقات كان العقل الباطن يقول: " ها هو ابن التاجر يتحدث ".

" المكسب والخسارة ". ربما كانت هذه الجملة القصيرة غير المفيدة مفتاح اللغز، بل مفتاحًا لكثير من الألغاز رآها فيما مضى، وسيظل يراها في المستقبل، فالذين ينبعون من الفقر، من الأرض، أو المصنع يخوضون المعارك لأنهم لن يخسروا شيئًا نتيجة القتال في سبيل حياة أفضل ... لن يخسروا حريتهم لأنهم مسلوبون منها أصلاً ... ولن يخسروا بيتًا، أو سيارة، أو كرسيًّا في الجامعة أو مكتبًا وثيرًا، لأنهم لا يملكون شيئًا من كل هذا ... ولن يخسروا مستقبلهم لأنه لا يوجد لهم مستقبل كأفراد ... إنهم لن يخسروا شيئًا سوى القيود التي تكبلهم ... هنا لا مجال لحساب " المكسب والخسارة "، فالخسارة لا توجد بالنسبة إليهم ... والمكسب هو عالم جديد مفعم بالآمال، والأحلام التي يمكن أن تتحقق. إن الحياة لم تهبهم شيئًا سوى كسرة من الخبز يأكلونها، ومساحة من الأرض يفترشونها. هؤلاء الناس عندما يأتيهم الإدراك والوعي بالأشياء، وبالكون، وباتجاه التطور، وقوانينه، يصبحون كالقلعة المنيعة يصعب النفاذ إليها. وعندما يحجزون خلف القضبان لا يتغير الكثير بالنسبة إليهم ... كسرة خبز يأكلونها، ومساحة من الأرض يفترشونها.

ولكنك أنت يا حسين ... أنت تملك الكثير ... بيتًا فاخرًا تسكنه ... وسيارة ... ومستقبلاً مفتوحًا كطبيب، ومتجرًا كبيرًا للحلوى قد تورثه عن أبيك – والذين يملكون شيئًا ... قطعة أرض ... أو عمارة ... أو مركزًا علميًا ... أو قلمًا يملئون به الصد فحات ... أو حت ى فرصد ة مفتوحد ة للمستقبل ... أولئك لا يضحون بنفس السهولة ... فمئات الخيوط المتيذ ة تربطهم بفرص الحياة، وفرص المستقبل ... وأطماعهم سلاسد ل قوي ة تجذب إلى الوراء.

وعندما تشتد المحن، وتتوالى التضحيات وت زداد ... ف ي ظلم ة الزنزانة ... النهار موحش ... والليل صامت طوي ل ... ف ي الوح دة الباردة القاتلة التي تمتد وتمتد كأنها لن تنتهي أب دًا ... عن دما يواج ه الإنسان نفسه ... وتتحرك فيه كل عوامل التناقض ... فتش ده الخي وط والحبال من كل جانب تكاد تمزقه ... وتتصارع في أعماقه كل عوام ل القوة والضعف ... الزهد والرغبة ... الصدق والزيف ... القدرة عل ى المقاومة والحنين إلى الاستسلام ... الإيمان العميق، والكفر بم ا ي ؤمن، عندئذ يلح السؤال الواحد الأبدي الذي لا سؤال غيره والذي تحدد الإجابة عليه كل شيء. " هل أنت مؤمن حقًا بما فعلت "؟ فإذا أجاب بنعم على هذا السؤال يصبح كالحديد المنصهر كلما أغرقته في الني ران خ رج أكث ر صلابة وقوة. ولكن، إذا ما تردد أو تهرب أو سكت تبدأ لعبة " المكس ب والخسارة " وتدخل عوامل الحساب الدقيق، وتبرز الأنا وتنمو، وتتضخم، لتهمس في الأذن " أنا وبعدي الطوفان ". عندئذ تتمزق الشعرة الدقيقة التي تفصل بين القوة والضعف لينهار كبرياء الإنسان ويتحطم، ويصبح ه ذا الإنسان مجرد أداة تحركها الأيدي.

وأنت يا حسين بماذا أجبت على هذا السؤال في ليلة من تلك الليالي المظلمة بين الجدران المغلقة؟.

إن عزيز وآخرين غير عزيز، بل وكثير من الناس يريدون أن يعرفوا، يريدون أن يفهموا ماذا حدث بين الجدران الصامتة كالقبور، ماذا حدث في الزنزانة رقم ٢٤. كان عزيز يسأل محمدًا عن أخباره بالتفصيل، ويحاول أن يتخيل كل ما تم من إجاباته المقتضبة، فمحمد ذلك الحارس الأنيق الذي كان إسكافيًا يجيد صنع الأحذية، فهو اليد الوحيدة الممدودة إلى أولئك الذين يعيشون هنا كالحيوانات خلف الأبواب المغلقة الصماء.

" يا محمد أتتذكر يوم أن حذرتني من الدكتور حسين ".

" نعم ".

" متى كان؟ لقد نسيت ".

" يوم أن استدعوك في الإدارة لتقابله ".

" وما الذي جعلك تحذرني منه "؟

" لقد شرحت لك يومها. كان يعامل معاملة خاصة ".

" منذ متى "؟

" بعد ثلاثة أيام من وصوله إلى هنا ".

" أم من أول يوم "؟

" لا بعد ثلاثة أيام ".

" هل عذبوه "؟

" لا ".

" ألم يضربوه ولو قليلاً "؟

" لا ".

" أتريد أن تقول أنهم لم يفعلوا له أي شيء "؟

" لا شيء. كانوا يتحدثون معه فقط ساعات طويلة ".

" هل رأيته في الأيام الأولى "؟

" نعم ".

" كيف كان يبدو "؟

سكت محمد قليلاً كأنه يستجمع ذاكرته ثم قال:

" كان يبتسم ".

" يبتسم "؟!

" نعم يبتسم ابتسامة بلهاء ".

" وماذا بعد "؟

" وكانت عيناه زائغتين. عيني رجل خائف ".

" ولكن قلت أنه كان يبتسم ".

" ابتسامة مصطنعة، مزيفة، كالذي يريد أن يخفي حقيقة نفسه، حقيقة أفكاره ".

" أنت غريب يا محمد. لست مثل الآخرين هنا ".

" هذه هي مأساتي أنا. وربما كانت مأساتي أكبر من مأساتكم، أنتم أصحاب مبادئ، تدافعون عنها تحت كل الظروف. أما أنا فأشاهد في كل يوم أشياء لا أريد أن أراها. وأحن في كل يوم إلى حياتي القديمة، أصنع الأحذية في النهار، وأضرب على العود وأغني في الليل "؟

" أين كنت تغني "؟

" في أي مكان أوجد فيه ".

سكت عزيز قليلاً ثم استطرد:

" يا محمد متى جئت إلى هنا "؟

" منذ ثلاث سنوات ".

" تقول أنك رأيت أشياء كثيرة "؟

" رأيت أشياء كثيرة وأناسًا كثيرين ".

" أريد أن أسألك. بماذا تفسر ما حدث للدكتور حسين "؟

ساد الصمت لحظات لا يقطعه سوى صوت صنبور المياه المفتوح. ثم جاءت كلمات محمد هادئة واضحة، فيها نبرة جديدة حادة مدفونة في الأعماق، كالنصل المختفي تحت الملابس، كلمات سريعة قاطعة:

" إنه لم يكن منكم ".

" ماذا تقصد "؟

" كان يمثل دورًا ".

" يمثل دورًا. ولكن لماذا "؟

" هذا السؤال تستطيع أنت أن تجيب عليه؟ ربما كان يطمع في شيء ".

" ثم ماذا "؟

" عندما جاء الوقت لدفع الثمن هرب " ... سكت قليلاً ثم استطرد:

" إنه خائن ".

جاءت الكلمات الأخيرة مثل الطلقات تبدد بقايا غيوم النوم في الصباح الباكر. أحس عزيز بجسمه متوترًا مشدودًا كالذي يستعد لمواجهة الخطر، وبعقله ينتفض تحت وطأة الكلمات، وكأنها أصد بحت ذرات تصطدم بخلايا المخ في وقع منتظم يتردد بقسوة: خائن ... خائن ... خائن ...

نظر عزيز في وجه محمد ليجد عينين مصوبتين إليه كالسهام، وأحس بنظرة لم يألفها فيهما من قبل، كأنه يوضع في الميزان، نظرة

تداخلت فيها المعاني، ومرت فوق سطحها لتكشف ظلالاً كثيرة: الشك واليقين، اليأس والثقة، السخرية بالحياة والإيمان بها، والتساؤل ... التساؤل ... التساؤل ... من أنت؟ وماذا ستفعل هنا في هذا المكان؟ نظرة من تعود أن يشهد الأحداث، ويرى الناس، ويتحمل، ثم يحكم في صمت. نظرة تختفي فيها القسوة في ثنايا العطف على الرجال، والحزن على مصيرهم.

أحس عزيز بحلقه جافًا كالحطب. خرج صوته مشروخًا كأن به كسرًا.

" والآخرون يا محمد "؟

" بخير ".

" من يسكن بجواري ".

" سيد ".

" سمعته ينقر على الجدار. أريد أن أراه. هل هذا ممكن ".

" ممكن ".

" أين "؟

" هنا في دورة المياه. هيا بنا. أسمع خطوات تقترب ".

خرجا من دورة المياه وسارا ببطء حتى الباب رقم ٨. دخل عزيز وسمع صوت الباب يغلق وراءه والمزلاج يرد في رفق. استلقى على السرير، وأرهف أذنيه يحاول أن يسمع أي شيء من الخارج. فجأة سمع صوت نقرات خفيفة تأتيه عبر الجدار من الحجرة المجاورة.

* * *

لم تكن هذه أول مرة يسمع فيها عزيز هذه النقرات. لقد سمعها من قبل في الليالي الأولى عندما جاءوا بهما من البيت الصغير الهادئ

الرابض بين الحدائق والأشجار. وسمعها من قبله، وسيسمعها من بعده كل من يغلق عليه باب من الخشب السميك الداكن، يعلوه رقم مكتوب بحروف بيضاء، وتتوسطه عين وحيدة باردة صد امتة يطل ون منه ا ويسد جلون ويراقبون، مثل عالم مجنون يجري تجاربه في صمت على سلالات م ن البشر. فهذه النقرات المتشابهة التي لا يستعملها الناس إلا للاستئذان ف ي الدخول إلى حجرة مغلقة، والتي لا تعني بالنسبة إليهم أي شد يء آخ ر، تتحول هنا إلى لغة جديدة للتخاطب عبر الجدران الصماء، إل ى كلم ات ورسائل تقول أشياء لا تحصى ولا تعد، تعبر، عن الحب والكراهية، عن الرضى والرفض، عن الجوع والعطش والحرمان، عن اليأس والأمل، بل عن كل شيء في الحياة. ولكن أهم ما تعبر عنه ه و أن ه، خل ف ه ذا الجدار، يوجد قلب ما زال ينبض، وإنسان ما زال يقاوم، ويد ممدودة إليك رغم أنك لا تراها.

وعزيز يعي جيدًا اللغة التي تتكلم بها، فقد استخدمها من قبل عديدًا من المرات، وعرف قدرها. أدرك قيمتها في حياة الزنازين التي لا تف تح إلا في مناسبات محددة: الطعام، ودورة المي اه، والفس حة إن وج دت. والمرض إن مرضت، أو لا تفتح على الإطلاق، ليصبح كل عالمك تل ك المساحة المستطيلة أو المربعة بين الجدران.

والأنامل التي تنقر الآن من الجانب الآخر هي أنامل سيد القصد يرة المدببة. وهو في تلك اللحظة لا يحن إلى شيء في العالم قدر ما يحن إلى سيد وسماع صوته القوي الدافئ. ومع ذلك تحمله أفكاره إلى مكان آخر، إلى جدار مثل هذا الجدار تمامًا، تكاد لا تستطيع أن تفرق بينهم ا، لون ه أبيض متسخ، تتخلله بقع متناثرة حم راء أو بني ة، له ا رأس ع ريض مستدير، وذيل رفيع كالضفدع الوليد، جدار له نفس السمك، ونفس الرائحة

العفنة، ونفس الملمس الخشن، ونفس الطعم المالح. وخلف هذا الجدار من الجانب الآخر يرقد محمود ... ومحمود صناعته في الحياة عجلاتي ... يعيش في حجرتين بجوار الميناء عند المفروزة ... تشاركه في الحجرتين أمه العجوز. رجل بسيط قصير القامة، سمين الجسد، يمشي على الأرض بخطوات سريعة متلاحقة كأنه يتدحرج، ويرتدي سروالاً واسعًا كالزكيبة، وقميصًا تمزق عند الأساور، وسترة من الصوف يصعب تحديد لونها بعد أن بهتت أصباغها من فرط الغسيل. عيناه فيهما براءة غريبة، كالطفل يتطلع منهما إلى الحياة باندهاش دائم، يكتشف الأشياء التي يراها لأول مرة، وشفتاه الممتلئان تبتسمان في يسر هادئ، وتكشفان عن صفين من الأسنان البيضاء القوية في الوجه الأسمر المستدير. ويداه العريضتان تحملان فوق جلدهما الخشن آثار جروح وحروق قديمة، ونتوءات تراكمت فوقها طبقات من الجلد من كثرة الاحتكاك بأدوات العمل، وأظافره تنتهي عند خط أسود من الشحم المتراكم تحت جزئها البارز فوق اللحم.

كان يقضي نهاره وسط الدراجات، يفتح محله الصغير في الصباح الباكر ليغسلها بالكيروسين، ويلمعها بخرق قديمة من الصوف، ويفرغ في تروسها نقاطًا من الزيت يسقطها بعناية مقتصدة في مواضع متفرقة، ويطلي الرفارف بألوان زاهية من " الدوكو "، ويثبت الأجراس الرنانة، والأعلام الصغيرة حول " الجادون ".

كانت دراجاته مشهورة على نطاق الحي كله، تمرق في نعومة سريعة عبر الشوارع الضيقة مثل السهم الملون وترن أجراسها بصوت مرح وسط الزحام. كانت تدر عليه دخلاً يسد احتياجاته المتواضعة، فيعود به آخر النهار إلى أمه ليقضي معها ساعات هادئة بجوار الراديو. لم يكن

من رواد المقاهي، أو من أصحاب الكيوف، أو من هواة السهر. كان له عيب واحد فقط حاولت أمه أن تثنيه عنه دون جدوى. كان يدخن بشراهة.

ولكن قليلين كانوا أولئك الذين يعلمون السبب الذي من أجله يغلق محمود محله الصغير مبكرًا في بعض الأيام ويمتطي أحسن دراجاته، منطلقًا تحت جنح الظلام إلى هدف مجهول. حتى أمه لم تكن تعرف السبب، بل لم تكن تعرف أنه يذهب إلى أي مكان آخر سوى محل الدراجات. وعندما كان يعود متأخرًا كانت تظن أنه انشغل بإصلاح دراجته أو أنه كان في انتظار أحد الزبائن الذي تجاوز المدة المحددة له. لم يلاحظ جيرانه في الحارة، أو أصدقاؤه الكثيرون الذين يترددون على المحل، أو حتى أصحاب المحلات المجاورة مثل الحاج حنفي صاحب المقهى، وعم رمضان البقال، وعبد العزيز جادو تاجر المنيفاتورة أي شيء. ولذلك فوجئوا في ذلك الصباح الباكر بأربعة من الرجال طوال القامة، مفتولي الشوارب يرتدون جلاليب من الصوف، ومعاطف داكنة، يداهمون محل محمود العجلاتي، ويفتشون كل ركن فيه بعناية متوحشة، ملقين بكل محتوياته على الرصيف الضيق على جانبي الباب العريض. تجمع المارة حول المنظر الغريب بعيون اختلطت فيها الدهشة، والتساؤل، ورجفة الخوف، وخلجات الإشفاق على صاحب المحل المسكين، وهو يتابع في أسى واضح دراجاته الجميلة الملونة، يلقى بها في عنف بالغ على أرض الرصيف الصلبة، ويرتعد كلما ارتفع صوت الحديد يرتطم بالحجر.

أخيرًا عثروا على ما كانوا يبحثون عنه: لفة ضخمة من الورق المطبوع حملها أحدهم على كتفه العريضة، بينما بقي واحد منهم أمام المحل واصطحب الاثنان الآخران محمودًا، وقد سار بينهما بخطواته

السريعة المتلاحقة كالمشدوه لا يدري ماذا حدث. رجل صغير يكاد لا يلاحق الخطوات العريضة الثابتة للعملاقين اللذين قبض كل واحد منهم على ذراع، وكأنهما وقعا على صيد ثمين يخشيان أن يفلت منهم بينما تبعهما الثالث يحمل اللفة الكبيرة فوق كتفه. سار خلفهما جمع صغير من الناس، أغلبهم من الصبية، حتى آخر الحارة الطويلة، والناس يتلفتون كلما مر بجوارهم هذا الموكب الغريب. كلما تقدم الموكب عبر الحارة ساد الصمت حيث كان الضجيج، ورفرف الخوف بأجنحته السوداء فوق الرؤوس. ولكن فجأة عند آخر الحارة، قبل أن تصب في الشارع العريض بقضبانه الحديدية، وعربات الترام الزرقاء المتجهة نحو وسط البلد، أخذت الأوراق المطبوعة تنفرط من فوق كتف الرجال الثالث بأعداد متزايدة، وتطايرت في الهواء كالحمام الأبيض لتستقر على الأرض، والدكك، ورؤوس الجالسين على المقهى، ورؤوس السائرين خلف الرجال الأربعة. وامتدت الأيدي تلتقطها في نهم وكأنها أوراق النقود، وجرت العيون فوق السطور لتقرأ عند رأس الصفحة المطبوعة بالبنط الأسود العريض: " مؤامرة جديدة تدبر ضد الشعب ".

هكذا استقر محمود العجلاتي في الزنزانة المجاورة لعزيز، لا يفصل بينهما سوى الجدار السميك، وهنا في هذا المكان دخل عزيز لأول مرة في عالم جديد، لم يكن يعرفه من قبل. عالم جديد استقر فيه خلف الباب المغلق ذي العين الواحدة، في حجرة ضيقة فيها منضدة مربعة من الخشب المشقوق، ودكة صغيرة لها ثلاثة أرجل، وسرير فرشت فوق مرتبته الرفيعة بطانية خشنة بنية اللون، وجردل عفن من المطاط الأسود، ونافذة عالية مربعة تقطعها القضبان الحديدية بالعرض وبالطول لتصنع منها مربعات أصغر تطل على مساحة واحدة محدودة من السماء،

ومواكب البق تزحف بإصرار ثقيل تحت جنح الظلام لتنقض على جسمه مثل جيش من الإبر الساخنة، والزمن اللانهائي الذي يكاد لا يتحرك، والوحدة ... والخوف.

فعندما نزح عزيز إلى المدينة الرشيقة بشوارعها النظيفة اللامعة، تمتد أمامها مساحات البحر الأزرق العميق، وتحيط بها من الخلف الرمال البيضاء الناعمة تبدو كالثلج في ضوء القمر المكتمل، وأشجار النخيل الفارغة تميل رؤوسها الخضراء مع الرياح النقية الراحلة من البحر، وسفنها ومراكبها، تروح وتجيء فوق الأفق، خيوط من الدخان الأسود، وأجنحة بيضاء في النهار، أو أضواء متفرقة تتلألأ في ظلام الليل، عندما نزح مع عماد وسكن في غرفة صغيرة فوق السطح وسط حي الإبراهيمية، كان شابًا صافي العينين، قليل التجربة لم يكن قد مر على تخرجه من الكلية أكثر من سنتين. ومع ذلك في مكان ما من عقله الباطن، في منطقة محددة منفصلة عن غيرها، ثابتة ثبوتًا مطلقًا، لا تنمو، ولا تنكمش، ولا تختفي أبدًا، انطبعت في خلية من خلايا مخه، أو في عدد من الخلايا، حقيقة مستقرة لا تتغير مثل الشعلة الصغيرة تحت الرماد، حقيقة تسربت إليه أثناء تجولاته في المدينة، ومناقشاته مع الأصدقاء، واحتكاكه بمظاهرات الطلبة في الجامعة، وإضرابات العمال في كرموز، حقيقة كانت تصدمه كلما اختفى واحد من زملائه اختفاءً مفاجئًا، تاركًا وراءه فراغًا لابد أن يملأ، وأمًا، وأختًا، أو زوجة وأطفالاً لابد من رعايتهم وتشجيعهم، وهي أن الأمور قد تنتهي به إلى نفس المكان الذي دخله الكثيرون من قبله. ولكنه لم يعر الأمر اهتمامًا. ولم يفكر فيه كثيرًا. كان منشغلاً بأشياء أخرى أكثر حيوية في تلك الأيام المفعمة بالأحداث وبالمعارك اليومية.

ولذلك عندما عاد إلى بيته في إحدى أمسيات يونيو الناعمة، وصعد السلم الضيق المظلم بقفزات سريعة، لم يكن يتوقع أي شيء. كان سعيدًا بالكتاب الجديد الذي يحمله تحت إبطه " دراسات في التاريخ المعاصر " سعيدًا بالمهام الكثيرة التي أنجزها منذ أن غادر حجرته في الصباح الباكر، وبالاستعدادات الدقيقة لمظاهرة الغد، وبالهجوم المتصاعد العلني ضد الملك الذي أخذ ينتشر في كل أرجاء المدينة. لمح النجوم المتلألئة في سواد الليل، ثم خطا خطوتين وهو يملأ صدره بالنسمات المنسابة من التلال البيضاء خلف المدينة نحو البحر، ليجد أيادي كثيرة غليظة تلتف حول ذراعيه، وكتفيه، ورأسه وكأن إخطبوطًا بحريًا ضخمًا انقض عليه.

أصابه الذهول إلى حد أنه لم يشعر بشيء إلا وهو يقف منتصبًا ويداه موثوقتان خلف ظهره أمام رجل جاحظ العينين كالضفدع، يجلس خلف مكتب ضخم من خشب الماهوجنة، وقد سلطت عليه الأضواء القوية من أركان الحجرة الفسيحة. دار بينهما حديث مقتضب ثم أخرجوه من الباب المبطن بالجوخ الأخضر، وساروا به عبر ردهة طويلة، رنت فيها الكعوب على الأرض، وارتفعت الأيدي المتخشبة نحو الحاجب، وماتت حتى الأصوات الهامسة، كلما مروا أمام جمع من الرجال، أو باب مغلق يقف أمامه وجه كالقناع.

قادوه إلى كشك خشبي صغير، ليخلع حزامه الجلدي، وليسلم ما معه من نقود وأوراق، ثم هبطوا معه سلمًا دائريًا يسقط في جوف المبنى الضخم كأنه يقود إلى قبو عميق. فتحت أبواب، وأغلقت أبواب ليجد نفسه في حجرة ضخمة، جدرانها القذرة تنشع بالمياه، وكأنها حبات من العرق أفرزتها آلام صامتة. وأرضها المتعرجة غير السوية تغطيها مربعات كبيرة من الحجر المنحوت. في وسط الحجرة وضعت " بتية " مستديرة

تتناسب مع الحجرة في ضخامتها، تراكمت فيها كمية هائلة من فضلات الإنسان. وعند الجدار البعيد " برش " مصنوع من زعف النخيل، تآكلت أليافه حتى أصبح أضيق وأقصر من أن يسع حتى جسمه النحيل.

جلس على البرش، وأخذ يتأمل الحجرة في الضوء الخافت للمبة المثبتة في السقف. زحفت عليه الرائحة النفاذة الكريهة، ولكن بعد أن مرت قرابة نصف ساعة أحس أنه تعود عليها، وكأنها، من فرط قوتها وقدرتها على النفاذ، أصابت أطراف الأعصاب المنتهية تحت الغشاء المبطن للأنف، وشلت قدرتها على الشم. أخذ يعود بالتدريج إلى الإدراك الكامل لما حدث. فقام يتمشى في الحجرة مستعيناً بمساحتها الكبيرة على مقاومة الإحساس بالرطوبة والبرد، ومرت الدقائق تلو الدقائق في صمت عميق كأنه أصبح مدفوناً في باطن الأرض بعيدًا عن السطح، والحياة، والناس.

اعترضه خاطر سريع: ترى، ماذا يحدث لو تركوه هنا متناسين وجوده؟ ارتجف جسده، وتملكه شعور بالعزلة، والضعف، ولكنه طرد هذا الخاطر المستحيل من ذهنه، ووجد نفسه يدندن فجأة بأغنية صعيدية، وهو يدور على مسافة بعيدة حول " البتية " سائرًا بخطوات بطيئة، وتدرجت الخطوة البطيئة إلى خطوة أسرع، والخطوة الأسرع إلى خطوات منغمة متلاحقة تتابع في سرعة متزايدة، والخطوات المتلاحقة إلى رقصة تدور وتدور مع الأغنية، كأنه يرقص على نغمات أسطوانة مجنونة اختل الجهاز الذي تلف فوقه. وتلاحقت أنفاسه اللاهثة تدخل وتخرج مع كلمات الأغنية، وتبددت الرائحة الكريهة، والصمت الثقيل والضوء الخافت الحزين، والخوف الأسود البارد، وانتقضت في أعماقه أوتار النغم والرقص، أوتار التحدي، والمغامرة، والتفاؤل، ورغبة عارمة في الحياة،

وسعادة عميقة قوية، سعادة فطرية بدائية شابة، لا ينضب معينها ولا تتوقف ولا تتبدد.

هكذا رقص عزيز، رقصته المجنونة في القبو العميق تحت سطح الأرض، في تلك الليلة الغريبة التي لن ينساها طوال العمر. رقص حتى تقطعت أنفاسه، ودق قلبه بين ضلوعه بعنف، وتصلبت عضلات الفخذين من شدة الإرهاق، فانهار على البرش، واستلقى فوقه ممددًا جسده المتعب بشعور من اللذة. سكن صدره بالتدريج، واستعاد قواه المفقودة، وعاد قلبه إلى ضرباته المنتظمة المستترة. أحس بالنوم يثقل جفونه بعد قليل. ولم يلبث أن سقط بكل كيانه في عالم من اللا شعور المطلق. بقي جسده الساكن ممددًا لا يتحرك إلا تلك الحركة الخفيفة المنتظمة للصدر، وفتحات الأنف، التي تفصل بين النوم والموت، ساعة أو ساعتين أو ثلاث لا يدري، ليستيقظ فجأة على يد تهز كتفه برفق. فتح عينيه ليجد رجلاً يحملق فيه بعينين صغيرتين بدا لونهما في الضوء الخافت كلون التراب، ووجه شاحب متغضن، يعلو شفته العليا الطويلة الرفيعة شارب أبيض كث. كان يرتدي لباسًا أبيض مزودًا بأزرار نحاسية باهتة، ويلبس فوق رأسه طربوشًا أحمر، نحلت أطرافه واسودت، من كثرة الاستعمال ...

رفع عزيز جذعه من فوق البرش، واعتدل جالسًا، بينما وقف الرجل فوقه كأنه ينتظر شيئًا:

" مساء الخير " ...

" مساء النور ".

" هل معك نقود "؟

" لا ".

" أين هي "؟.

" في الأمانات ".

" لماذا لم تحتجز جزءًا منها "؟

" لأي غرض "؟

" لتشتري ما تحتاج إليه من أكل، أو سجاير ".

" لم أفكر في هذا ".

" ماذا ستفعل إذن "؟

" لا شيء. أنا لا أدخن. ألن تعطوني أنتم أكلاً "؟

" اليوم الأول لا يصرف تعيين ".

" إذن سأنتظر اليوم الثاني ".

سكت الرجل قليلاً كأنه استغرق في شيء بعيد، ثم التفت إلى عزيز وقد علت شفتيه ابتسامة غامضة هادئة.

" الليلة طبخت لي زوجتي حمامة وأرز. سنقتسمهما سويًا ".

" لا داعي. هذا عشاؤك ".

" سأحضر الأكل حالاً ".

انسحب بخطوات رجل عجوز مرهق، وأغلق الباب بالمفتاح. بعد برهة من الوقت فتح الباب من جديد، ودخل حاملاً بين يديه ورقة من جريدة، ورغيف خبز أبيض استقرت فوقه نصف حمامة شطرت بالطول، وكومة من الأرز المحمر، وقطع من اللفت، والخيار المملح. جثم على ركبتيه ليفرش ورقة الجريدة على البرش، ثم وضع الرغيف فوقه ورفع جسمه بصعوبة. سمع عزيز طقطقة العظام عند الركبة وفكر في ذهنه " روماتزم مفصلي مزمن ".

" كل يا أستاذ ".

" متشكر. سآكل حالاً. اتفضل معي ".

" غذائي أنا في الخارج. كل أنت ".

" وهل ستبقي واقفًا هكذا؟ اجلس ".

" لا سأخرج ... سكت برهة ثم استطرد: " ما مهنتك "؟

" طبيب ".

" وماذا أتى بك إلى هنا "؟

" سياسي ".

" سياسي؟ ماذا جرى هذه الأيام؟ كل يومين أو ثلاثة يأتون لنا بواحد منكم. الله يخرب بيتهم. وماذا تريد أنت بسياستك "؟

" طرد الإنجليز ".

" كلنا نريد طرد الإنجليز ".

" وطرد الملك ".

" الله الله. لقد طلعتم في العالي. الملك مرة واحدة ".

" وتوزيع الأرض على الفلاحين ".

" هكذا؟ توزيع الأرض على الفلاحين "! يا بني اسمع نصيحة رجل عجوز. العين لا تعلو على الحاجب والله سبحانه وتعالى قال: " لقد جعلناكم فوق بعض درجات " ... تردد قليلاً ثم تابع كلامه " فكر في أهلك، وأبيك، وأمك اللذين تركتهما. وانتبه لمستقبلك. لن تجني من كل ذلك سوى العذاب. سأتركك الآن. وأنصحك بألا تتكلم كثيرًا. فهذا الكلام خطير ويجب ألا تقوله لأحد ... هه ... السلام عليكم ".

خرج وأغلق الباب. بقي عزيز جالسًا على البرش، رأى وجه أمه وعينيها المطلتين إليه بعتاب صامت. تنهد، ثم طرد الصورة من ذهنه، وكأنه يزيحها بيد رقيقة. أحس بالجوع في معدته، فالتفت إلى الرغيف ... مد يده يأكل في استمتاع بطيء ... بعد قليل كان كل شيء قد اختفى حتى

العظام. استلقى على ظهره فوق البرش، شعر بالبلاط الرطب تحت ظهره، وبالبرودة تسري في جسده من عند ساقيه التي لم يكن البرش القصير يساعهما. بقي هكذا يحملق في السقف العالي ذي الألواح الخشبية، تذكره بالدوار في قريته. كان شيء يقرصه تحت إبطه فمد يده وقبض بين إبهامه وسبابته على جسم صغير. أخرج يده ببطء ثم أبعد أطراف أصابعه بعناية حتى لا ينفلت من بينها شيء. انحني برأسه فوق أصابعه ليجد قملة منتفخة، برأسها المدبب، تتحرك برأسها فوق أصابعه ليجد قملة منتفخة، الإبهامين، وضغط عليها حتى سالت نقطة الدم الأحمر ثم ألقى بها بعيدًا. مر بذهنه خاطر سريع " ستتعلم أشياء كثيرة جديدة ". استلقى على ظهره فوق البرش ثانية، تراوده صور الحشرات الزاحفة، واحتمالات العجز عن النوم، وأحس بأطرافه ترتجف، ولكن بالتدريج سرى الدفء من معدته مثل تيار هلامي يزحف من الداخل عبر القنوات المستترة إلى كل أجزاء جسمه. رأى وجه الرجل العجوز يبتسم، واستولى عليه شعور عميق بالاطمئنان. وفجأة دون أن يدري، في لحظة خاطفة انقض عليه النوم كموجة ثقيلة حملته معها حيث غاب عن كل شيء.

* * *

بعد يومين نقلوه من الحجرة الفسيحة في الحكمدارية ليستقر في الحجرة الضيقة على الجانب الآخر من الجدار الذي يفصل بينه وبين محمود العجلاتي.

مرت الأيام ثقيلة متأنية كما تمر بالنسبة لأولئك الذين يعيشون خلف الجدران، لا تقطعها سوى الأصوات المتسللة من الخارج. خطوات ترن على الأرض الصلبة أو على سلم من حديد، وصرير مفتاح يدور في " الكالون "، وكلمات مبهمة يتبادلها الحراس، و" كلاكس " سيارة يسمع من

بعيد، والباب يفتح ويغلق ثلاث مرات في اليوم لتدخل أطباق العدس المعدنية، والخبز الأسمر، وجردل من الماء، أو وعاء من المطاط الأسود.

ولكن في ليلة حالكة الظلام بعد أن أطفئت الأنوار، وساد الصمت العميق، صمت النائمين أو الساهمين في دنياهم الخاصة، وأحزانهم الخاصة، وآمالهم وأشواقهم، استيقظ على أصوات لم يألفها من قبل، وانتقل في لحظة، كما عودته حياته أن ينتقل، من النوم العميق إلى يقظة الوتر المشدود، وارتعشت خلاياه السمعية مثل قرون الاستشعار الدقيقة، وارتعشت معها خلايا أخرى لا يعرفها سوى أولئك الذين يعيشون في الظلام، خلف الجدران السميكة، كالحشرات نمت فيها حواس الشم، واللمس، والحرارة، والقدرة الفائقة على استشعار الخطر، والإدراك الغريزي لحركة الأشياء، والشعور المرهف بما يقصد إليه الآخرون، أو كمن حكم عليهم القدر بفقدان البصر، يروحون ويجيئون وسط زحام الحياة، وكأنهم يجسون الأرض التي يسيرون عليها، ويتلمسون ملامح الأشياء قبل أن تمتد أيديهم إليها.

سمع أصواتًا هامسة، وخطوات بطيئة مكتومة تمر أمام حجرته، وصريرًا خافتا يأتيه من الباب المجاور كأن مفتاحًا يدار فيه بحذر، وخشخشة الضلفة تفتح بأناة، وصوت جسد يرتفع من السرير، وخطوات تمر ثانية أمام بابه تسير على أطراف الأصابع، ثم لا شيء ... سوى سكون الليل وصمته من جديد. فخيل إليه كأن جماعة صغيرة من اللصوص تسللت في الليل لتخطف شيئًا وتتصرف ...

مرت قرابة ساعة وهو مستلق فوق ظهره ينتظر. بين الحين والآخر كان يقوم من رقدته، مقتربًا من الباب ليدفع بسبابته الجفن المعدني المنسدل على العين، ولكنه لم يلمح شيئًا من الخارج. بعد قليل كف عن

محاولاته، ولكنه استمر مرهفاً أذنيه ليسجل صوتاً ما. طال به الانتظار فقرر أن يقف لآخر مرة خلف الباب لمدة دقائق قبل أن يركن إلى النوم. وما كاد يصل خلف الباب حتى سمع الخطوات المتلصصة من جديد. مرت أمام حجرته، وتوقفت عند الباب المجاور. أحس ضلفة الباب وهي تلمس الأفريز بصدمة خفيفة، وبالمفتاح يدور في صرير خافت، ثم ابتعدت الخطوات أمامه مرة أخرى وهي تحتك بالأرض كأنما أصحابها لم يعد يهمهم أن يسمعهم أحد. في الحجرة المجاورة كانت ثمة حركة غير مألوفة، خيط من السائل يصب في وعاء، وأرجل مقعد يحتك بالأرض، كأن شخصًا يحركه قبل أن يجلس عليه، ثم صمت دام قليلاً، ثم جسم ثقيل يرتمي فوق السرير ...

رقد عزيز على السرير يحملق في الليل كأنه سيتمكن بجهد غير عادي من أن يخترق الظلام الدامس لينفذ إلى حقيقة الأحداث الغامضة التي سمع أصداءها دون أن يراها. وتزاحمت الأفكار داخل رأسه، تهتز، وتنتفض، وتتذبذب من الشيء إلى نقيضه، ومن الوهم إلى الواقع، من الصورة الواضحة إلى الهذيان المفكك، من الانفعال المشتعل إلى المنطق البارد. كخلية نحل قامت فيها معركة لا تريد أن تهدأ إلا عندما يفنى كل شيء فيها ... ماذا حدث؟ ... ماذا يجري في الظلام؟ ... ما معنى هذه الأصوات الخافتة وتلك الخطوات المتلصصة ... ماذا يدور في الحجرة المجاورة؟ ... أحداث هامة أم تافهة ... خيانة أم بطولة؟ ... صراع شريف أم تدبير خسيس؟ ... استسلام أم انتصار؟

محمود العجلاتي بعينيه البريئتين المندهشتين. لقد رأى بهما شقاءً كثيرًا، ولكنه ليس مثل هذا الشقاء. الحياة هنا شيء آخر، فناء بطيء ساعة بساعة، ولحظة بلحظة. حرمان من كل الينابيع، الفكر والعمل، الفن

والجمال، والجنس، قلب المرأة، وجسدها الناعم، القوي، النهم، السد خي، الذي يحتويك، تبحث فيه عن الفناء، وعن النسيان وتشد بع فيه ظمأ لا يرتوي.

هنا الفراغ اللانهائي، والوحدة بين الجدران، والق بح، والحشرات النهمة لدماء البشر، والأجهزة النهمة لابتلاع الإنسان، ذراعاها مفتوحتان كفكي تمساح تجذبك إلى جوف الظلام، وأيديها ممدودة لتدفع بك إلى قاع عميق.

ولكن هنا أيضًا عظمة الإنسان، وإصراره، وقدرات عل ى الحب والحياة لا تقهر.

* * *

قرب الفجر كف النحل عن العراك، وساد سكون كسكون النهاية، الأفكار المشتعلة أصبحت رمادًا باردًا، والصور المتنوعة المتناقضة غدت ورقة بيضاء خالية من كل شيء، من كل كلمة، من كل خط، وومضات الإلكترونات في المخ خبت، وهدأت، وانحسرت موجاته ا، والجسم المهدود رقد فوق السرير في إرهاق شاحب. ومع السكون، جاءت الراحة، ومع الراحة جاء النوم. ومع النوم بدأ الاستعداد ليوم جديد، ومعارك جديدة.

استيقظ على صوت يهمس في عجلة ... دكتور عزيز ... دكتور عزيز، فقفز من سريره على قدمين عاريتين واندفع نحو الباب. من خلال العين المفتوحة رأى جزءًا من شفة، ونصف شارب أسود مقصوص، وعددًا من الأسنان البيضاء، وطرف لسان يتحرك. اقترب بأذنه من الثقب.

" محمود العجلاتي اعترف ".

فكر عزيز لحظة ثم همس:

" من أنت "؟

" أنا علي ".

" ماذا جاء بك إلى هنا "؟

" قضية سرقة. سأتركك الآن ... هل تريد شيئًا "؟

" نعم عد ثانيًا ".

اختفى اللسان، والأسنان، والشارب الأسود، ونزل الجفن المعدني فوق العين المستديرة. أدخل عزيز سبابتيه في الثقب ورفع الغطاء بعد جهد ليرى شابًا قصير القامة، أسمر الوجه، يرتدي ثوبًا من القماش الأزرق الخشن، يعبر المسافة بين جناحي الزنازين على قدميه الحافيتين، حاملاً في يده اليمنى قطعة مبللة من الخيش.

استلقى عزيز فوق السرير. كان هادئًا كالذي عرف مصيره فاستراح. تتابعت أفكاره واضحة مركزة. ما الذي دفع " عليًّا " إلى تحذيره مما يحدث؟ هل هناك احتمال في أنه يتصرف بإيعاز منهم، وأن ما قاله عن محمود العجلاتي، ليس إلا كذبًا الغرض منه أن ينالوا من عزيمته هو؟ الاحتمال موجود. الاحتمال الآخر هو أن يكون صادقًا، ودوافعه ...؟ دوافعه مثل دوافع العسكري الذي أعطاه نصف عشائه. ذلك التضامن الخفي الذي يربط بين الناس في هذا المكان، وتلك الخيوط الخفية التي تنشأ بين الذين يعيشون محنة واحدة، اللصوص، والقوادون وتجار الموت، والذين يسمونهم هنا " السياسيون ".

والاحتمال الثاني وحده هو الذي يتطلب أن يتصرف بسرعة. فاعتراف محمود العجلاتي أمر خطير يمكن أن يكشف أشياء كثيرة، وعلاقات متشابكة، وأن يحول الأدلة الهزيلة إلى أدلة قوية لها وزنها. إنه

لا يستطيع أن يقابله. ورقة وقلم ... لابد من أن هناك وسـ يلة للحصـ ول عليهما. ولكن هل يمكن أن تؤثر عليه عدة سطور مكتوبة. المسألة تحتاج إلى حوار ... حوار ... حوار ... حوار ... كيف يتأتى ذلك. أخذ يروح ويجيء في المساحة الضيقة واضعًا يديه في جيوبه، كما تعـ ود أن يفعـ ل كلما انشغل بالتفكير في أمر هام. لم يدر بشيء إلا وصوت هامس يجيئـ ـه مرة ثانية عبر ثقب الباب:

" دكتور عزيز. لقد جئت ".

اندفع عزيز إلى الباب:

" أهلا يا علي. أريد منك خدمة ".

" اطلب. أنا مستعد لعمل ما أستطيعه ".

" أريد ورقة وقلمًا حالاً ".

سكت لحظة كأنه يفكر ثم قال بصوت بدا فيه التردد:

" حاضر ".

اختفت مساحة البشرة السـ مراء المسـ تديرة بشـ عيراتها الخشـ نة القصيرة. استأنف عزيز سيره بشيء من العصبية.

مرت الدقائق طويلة حتى كاد أن ييأس من عودته، ثم سمع الهمس المبحوح مرة أخرى.

" دكتور عزيز. خذ ".

ظهر من الثقب ورقة بيضاء ملفوفة. مد عزيز أصابعه ليلتقطهـ ـا. أحس بشيء صلب في داخلها. جلس على السرير وفك الورقـ ـة الملفوفـ ـة ليخرج من طياتها قلمًا صغيرًا في طول عقلة الإصبع. جر المنضدة إلـ ـى جوار السرير ووضع خده في راحة يده، ثم أخذ يفكر فيما يمكن أن يكتبه.

" عزيز محمود،

كيف حالك. كم كنت أتمنى أن أراك لأتحدث معك. ولكن هناك موضوع لابد أن نصفيه فيما بيننا. أنت تعلم يا محمود كم أعتز، ويعتز الآخرون، بصداقتنا، بالعلاقة التي تربط بيننا، وبالأهداف التي جمعتنا. ولكنني سمعت اليوم أنك أدليت ببعض الاعترافات. هل هذا صحيح؟ إذا كان قد حدث شيء من هذا القبيل فأريد أن أقول لك أنك لا تدرك جيدًا مدى الضرر الذي سيصيبنا. الأدلة التي لديهم تافهة. واعترافاتك لن تؤدي سوى إلى تثبيت التهم علينا جميعًا، وهذا الكلام ينطبق عليك أيضًا. فالاعتراف من الناحية القانونية هو أقوى دليل على المعترف نفسه، قبل أن يكون دليلاً على الآخرين. ولا تصدق الوعود أو التهديدات التي يلجئون إليها في كثير من الأحيان.

أما عن الروابط والأهداف التي تجمعنا فأظن أنك لست في حاجة إلى الحديث عنها. فأنا واثق من تمسكك بها. أرجو أن تفكر جيدًا في الأمر وأن تسحب اعترافاتك في أقرب فرصة.

اقترح أن نتبادل الرأي خلال الجدران: الألف، نقرة واحدة، الباء نقرتان، التاء ثلاث نقرات، حتى آخر الحروف الأبجدية فالياء ثمانية وعشرون نقرة. أفضل الفترة أثناء الليل بعد إطفاء الأنوار. إذا كنت موافقًا أرجو أن ترد علي بثلاث نقرات، تتلوها ثلاث نقرات أخرى بعد إطفاء الأنوار مباشرة.

تحياتي وأشواقي

عزيز

* * *

النجمة الوحيدة تشع ببريقها النابض في المربع الأسود الصغير عند أعلى النافذة. وتيار الهواء يسقط فوق جبهته مثل يد رقيقة تحاول أن تزيل

التوتر الذي يشد كل أعصابه ويجعلها كأوتار أوشكت على التمزق. أفكاره تسبح في الفضاء العريض خارج النافذة مع النجمة النابضة، والهواء الناعم الرقيق، وبريق القمر فوق البحر، وأصوات العشاق الهامسة تختلط بحفيف الأمواج وهي ترتمي في رفق على الشاطئ المظلم، كأنه يحاول أن يهرب بنصف عقله عن التفكير في الصراع الدائر في قلب الإنسان الراقد وحده على الجانب الآخر من الجدار، كأنه يريد أن يرتاح من العناء بالهروب إلى شاطئ البحر في ليلة من ليالي الصيف الصافية. ولكن نصف عقله الآخر يشد عقله كله إلى انتظار الإشارة التي يريد أن يسمعها الآن أكثر مما يريد أن يسمع أي شيء آخر في العالم، ويجعل من أذنه اليمنى جزءًا لا يتجزأ من الجدار الصامت. وكلما حاول عقله أن يفلت من ذلك الإطار المحكم عادت إليه صورة عينين مندهشتين تحملقان في الظلام وقد غشيهما شيء كالعذاب الأعمى.

قام إلى الوعاء الأسود في ركن الغرفة، ورن صوت الخيط الرفيع من البول في قاعه، لتصعد منه تلك الرائحة المعهودة. وخطا خطوة ثم الثانية إلى السرير مسندًا يده فوق سطح المنضدة، وقبل أن يضع جسده المنهك فوق البطانية الخشنة سمع ثلاث نقرات خفيفة ... ثم لحظة من الصمت، ثم ثلاث نقرات خفيفة أخرى. أحس بقلبه ينتفخ، ويتورم،:إنه يريد أن ينفجر، وقفز فوق السرير ملصقًا أذنه اليمنى إلى الجدار، وهو يدق عليه دقات قوية متهورة، مفعمة بسعادة مكبوتة انفجرت كالطوفان المجنون المندفع بقوة متزايدة مع كل ضربة تنهال على الجدار، وكأنها تريد أن تهدم ذلك الحاجز البارد الذي يفصل بينهما، ليضم بين ذراعيه الرجل ... الطفل ... المرح ... الحزين الذي يرقد على الجانب الآخر.

وشعر بالملوحة الساخنة تنحدر من فوق وجنتيه يلمسها بطـرف لسـانه ويستطعمها كأنها طعم الحياة نفسها.

هكذا بدأ الحوار الأصم الناطق يروح ويجيء في ظلام الليل يوصل بينهما كدق الطبول في الغابات الموحشة، كلغة البكم عجزت ألسنتهم عن نطق الكلام، حوار بدائي، وساذج، وغبي، ومضحك. ومجنون، وعبقري في نفس الوقت. رجلان يرقدان في الظلام على جانبي حـائط يتبـادلان النقرات المتواصلة التي لا تتوقف طوال الليل حتى الفجـر، وقـد سـال العرق الغزير فوق جباههما وسالت خيوط الدماء الحمراء فوق أيـديهما، وتقلصت عضلات أكتافهما من كثرة المجهود، واندفعت الآلام الحـادة كالسيوف الطويلة تخترق العامود الفقري. " فالياء " ثمانية وعشرون نقرة و" العين " ثمانية عشرة نقرة و" الفاء " عشرون نقرة، حوار سـاذج فـي أدواته، يعود بك إلى لغة الإنسان الأول بل لغة ما قبل الإنسان، بل لغـة أسفل الحيوانات في سلم التطور. حوار عبقري فهو يد الأخ الممدودة إلى أخيه، وإصرار الإنسان على أن يبقي إنساناً، وضربات رجل في بـاطن الأرض، كالذين انهارت عليهم جدران منجم فأخذوا يحفرون بمعـاولهم، وبأيديهم، وأظافرهم ليروا نور الدنيا من جديد، وعقل يفكر ويبتكر من لا شيء، وقلب يصارع لحظة الضعف التي تهدم وتنهي كل شيء عشت من أجله. وكلمات معذب يريد أن ينفجر عذابه في كلمـات، ولا يسـتطيع أن ينطق. فمنذ البداية كانت الكلمة، والكلمة هي التي تجعل منك بشراً، الكلمة هي الحرية، والحب، والصداقة، والصراع، وتعبير عـن الـذات، عـن الوجود. والسجن الحقيقي هو الصمت، والصمت هو المـوت، والفنـاء، والجنون.

وهكذا الساعات تلو الساعات أخذت كلمات هذه اللغة العجيبة تروح وتجيء عبر الجدران. تتوقف أحياناً عندما يقول أحدهما: " أنا تعبت " ... وتعاد السلسلة الطويلة المضنية المرهقة من جديد إذا قال أحدهما " لم أفهم". والعرق يسيل ... والأصابع تمزق فوق عظامها الجلد، وأصبحت كبقع من النيران المشتعلة ... والجفنان مثلقتان بكتلتين من رصاص، تكادان تسقطان وحدهما فوق العينين، عضلات الجسد كلها تشد عليهما لترتفعا من جديد. ولكن الحوار الصامت الناطق ترتفع أصداؤه برنين حاد عبر سكون الليل، وفوق أجساد النائمين مثل كتل من اللحم المبعثرة بعد معركة، لا ترى، ولا تسمع ولا تحس، ولا يبقي بينها وبين الحياة سوى ذلك التيار المتقطع المنتظم الذي يعلو ويهبط من الأنفاس الهادئة. والنقرات المتصلة المتقطعة تعلو وتهبط منفصلة متوترة، وغاضبة حانقة، أو يائسة مرهقة، أو هادئة مقنعة. تقف أحياناً، وتتردد أحياناً، وتعود إلى الوراء أحياناً، ولكنها تزحف بعناد أعمى نحو هدف معروف.

أ (نقرة واحدة) ... خ (٧ نقرات) ... ب (نقرتان) ... أ (نقرة واحدة) ... ر (١٠ نقرات) ... ك (٢٢ نقرة) ... إ (نقرة واحدة) ... ى (٢٨ نقرة) ... هـ . (٢٧ نقرة) ...

" أخبارك إيه ".

و (٢٦ نقرة) ح (٦ نقرات) ش (١٣ نقرة) هـ . (٢٧ نقرة) ... أ (نقرة واحدة) ... م (٢٤ نقرة) ... ي (٢٨ نقرة) ... ب (نقرتين) ... ت (٣ نقرات) ... م (٢٤ نقرة) ... و (٢٦ نقرة) ... ت (٣ نقرات) ...

" وحشة، أمي بتموت ".

م (٢٤ نقرة) ... ى (٢٨ نقرة) ... ن (٢٥ نقرة) ... ق (٢١ نقرة) ... ا (نقرة واحدة) ... ل (٢٣ نقرة) ... ك (٢٢ نقرة) ...

" مين قالك ".

هـ . (٢٧ نقرة) ... م (٢٤ نقرة) ...

" هم ".

ى (٢٨ نقرة) ... م (٢٤ نقرة) ... ك (٢٢ نقرة) ... ن (٢٥ نقرة) ... ك (٢٢ نقرة) ذ (٩ نقرات) ... ب (نقرتان).

" يمكن كذب ".

م (٢٤ نقرة) ... ا (نقرة واحدة) ... ف (٢٠ نقرة) ... هـ . (٢٧ نقرة) ... م (٢٤ نقرة) ... ت (ثلاث نقرات) ... ش (١٣ نقرة) ...

" ما فهمتش ".

تنهد عزيز، وتوقف لحظات، ثم بدأ من جديد.

ى (٢٨ نقرة) ... م (٢٤ نقرة) ... ك (٢٢ نقرة) ... ن (٢٥ نقرة) ... ك (٢٢ نقرة) ذ (٩ نقرات) ... ب (نقرتان).

" يمكن كذب ".

هـ . (٢٧ نقرة) ... ي (٢٨ نقرة) ... ع (١٨ نقرة) ... ي (٢٨ نقرة) ... ا (نقرة واحدة) ... ن (٢٥ نقرة) ... هـ . (٢٧ نقرة) ... ب (نقرتان) ... ا (نقرة واحدة) ... ل (٢٣ نقرة) ... ق (٢١ نقرة) ... ل (٢٣ نقرة) ... ب (نقرتان) ...

" هي عيانة بالقلب ".

ل (٢٣ نقرة) ... ك (٢٢ نقـرة) ... ن (٢٥ نقـرة) ... ت (٣ نقرات) ... ل (٢٣ نقرة) ... ا (نقـرة واحـدة) ... ق (٢١ نقرة) ... ي (٢٨ نقرة) ... هـ (٢٧ نقرة) ... م (٢٤ نقرة) ... ب (نقرتان) ... ي (٢٨ نقـرة) ... ب (نقرتـان) ... ا (نقـرة واحدة) ... ل (٢٣ نقرة) ... غ (١٩ نقرة) ... و (٢٦ نقرة) ... ا (نقرة واحدة) ... ع (١٨ نقرة) ... ل (٢٣ نقـرة) ... ش (١٣ نقرة) ... ا (نقرة واحدة) ... ن (٢٥ نقرة) ... ت (٣ نقرات) ... ض (١٥ نقرة) ... ع (١٨ نقرة) ... ف (٢٠ نقرة) ...

" لكن تلاقيهم بيبالغوا علشان تضعف.

أ (نقرة واحدة) ... ع (١٨ نقرة) ... د (٨ نقرات) ...

" أعد ".

سالت نقطة عرق على أنف عزيز، ومر بلسانه فوق العظام البارزة عند مفاصل الأصابع ليزيل الجير الأبيض الذي علق بها. أحس بطعمـه على طرف اللسان. " الجير مفيد للأطفال " رأى عينين واسعتين تلمعـان كسواد الفحم الحجري يحيطهما بياض كاللبن، وحاجبان تلتقيان فوق الأنف المربع الصغير، ويد بضة عليها صف من الغمازات تمتد إليـه بورقـة ملونة، وسمع صوت طفلة يقول " بابا ... بابا ... شوف أنا لونت إيه ... مش حلوة يا بابا ".

سرى في جسده دفء مفاجئ، ثم انقباض ككتلة من الثلج عند قمـة المعدة، تحت الضلوع. التفت بعينيه إلى الجدار الأبيض العـاري، وأخـذ ينقر من جديد بضربات واهنة.

ل (٢٣ نقرة) ... ك (٢٢ نقـرة) ... ن (٢٥ نقـرة) ... ت (٢٣ نقرات) ... ل (٢٣ نقرة) ... ا (نقـرة واحـدة) ... ق (٢١

نقرة) ... ي (٢٨ نقرة) ... هـ (٢٧ نقرة) ... م (٢٤ نقرة) ... ب (نقرتان) ... ي (٢٨ نقرة) ... ب (نقرتان) ... ا (نقرة واحدة) ... ل (٢٣ نقرة) ... غ (١٩ نقرة) ... و (٢٦ نقرة) ... ا (نقرة واحدة) ... ع (١٨ نقرة) ... ل (١٣ نقرة) ... ش (١٣ نقرة) ... ا (نقرة واحدة) ... ن (٢٥ نقرة) ... ت (٣ نقرات) ... ض (١٥ نقرة) ... ع (١٨ نقرة) ... ف (٢٠ نقرة) ...

" لكن تلاقيهم بيبالغوا علشان تضعف ".

م (٢٤ نقرة) ... ش (١٣ نقرة) ... س (١٢ نقرة) ... ا (نقرة واحدة) ... م (٢٤ نقرة) ... ع (١٨ نقرة) ...

" مش سامع ".

أحس بالغضب العاجز يعلو في صدره كمن يخاطب شخصًا غبيًا لا يفهم معنى الكلمات، بذل جهدًا ليهدأ. " ما ذنبه "؟ كان يجب أن تكون النقرات أكثر وضوحًا.

خ (٧ نقرات) ... ذ (٩ نقرات) ... ب (نقرتان) ... ا (نقرة واحدة) ... ل (٢٣ نقرة) ... ك (٢٢ نقرة) ...

" خذ بالك ".

ط (١٦ نقرة) ... ي (٢٨ نقرة) ... ب (نقرتان) ...

" طيب ".

ت ٢٣ نقرات ... ل ٢٣ نقرة ... ا نقرة واحدة ... ق ٢١ نقرة ... ي ٢٨ نقرة ... هـ ٢٧ نقرة ... م ٢٤ نقرة ... ب نقرتان ... ي ٢٨ نقرة ... ب نقرتان ... ا نقرة واحدة ... ل ٢٣ نقرة ... غ ١٩ نقرة ... و ٢٦ نقرة ... ا نقرة واحدة ... ع ١٨ نقرة ... ل ١٣ نقرة ... ش

١٣ نقرة ... ا نقرة واحدة ... ن ٢٥ نقرة ... ت ٣ نقرات ... ض ١٥ نقرة ... ع ١٨ نقرة ... ف ٢٠ نقرة ...

" تلاقيهم بيبالغوا علشان تضعف ".

جاءه الرد سريعًا هذه المرة.

" جايز. قالوا أنهم حيقبضوا عليها ".

أحس بشيء كالعنة فوق القلب.

" ما تصدقش. دي كلها محاولات علشان يضعفوك ".

" لكن مش جايز يعملوها "؟

تراكم الضيق عند حلقه. ونقرت أصابعه بحدة متزايدة على الجدار:

" اثبت يا محمود ... ما تتأثرشي كده بسهولة "

" وحاشوا عني السجائر ".

" بسيطة ".

" دانا تعبان قوي ".

كاد أن يرى وجه الطفل الكبير يرنو بتوسل في الظلام.

أخذت النقرات تنتظم مثل جهاز تلغراف تـ دربت الأيـ دي علـ ى استعماله. الآن غدت أرقام الحروف معروفة. الياء (٢٨ نقرة) والقـ اف (٢١) والسين (١٢). لم تعد هناك حاجة للتفكير الطويل بين الجمـ ل. لحظات الصمت تنكمش، والكلمات تخترق الجدار بسرعة متزايـ دة. مـ ر عزيز بلسانه فوق عظام الأصابع، وأحس بلسعة خفيفة، وطعم مالح فـ ي الظلام. لابد أن هناك جرحًا صغيرًا.

" معلهش شد حيلك. حابعت لك سجاير بكرة مع واحد اسمه علي ".

طالت النقرات وأحس أنه أخطأ في العدد. جاءه الرد:

" تاني ".

كرر من جديد ببطء حتى يلتقط محمود الكلمات.

" معلهش شد حيلك. حابعت لك سجاير بكرة مع واحد اسمه علي ".

النقرات هذه المرة تنتفض برنة جديدة كالمرح.

" أشكرك ".

فكر عزيز قليلاً كيف يلقي بالسؤال الحاسم.

" محمود. أنت عارف إني باعزك ".

" تاني. على مهلك ".

لم يفهم عزيز هذه المرة. كم من الوقت مضى، إنه لا يعرف. التعب أخذ يزحف وذراعه تؤلمه عند الكتف ألمًا حادًا ينتابه في موجات، يتخللها شيء كالإحساس بالورم. أرسل نقرات متأنية وكأنه يدق بقوة على أصابع البيانو.

" أعد ... يا صديقي ".

" تاني ... على مهلك " جاءت الجملة مكررة. فأعاد عزيز ما قاله من قبل.

" أنت عارف إني باعزك ".

ساد الصمت من الجانب الآخر، صمت فيه تحفظ، أو حذر، أو انتظار شيء ما سيقع.

" سامع "؟

" أيوه ".

تردد عزيز قليلاً ثم ألقى بالسؤال:

" أنت صحيح اعترفت "؟

ساد الصمت وتزاحمت الخواطر على ذهنه. لابد أنه تسرع. سيقطع الحديث الآن وتضيع كل جهوده هباء. كتم أنفاسه في الظلام وأحس

بالعرق ينحدر غزيرًا فوق شعيرات صدره. طال الانتظار. فأعاد السؤال ثانيًا.

" أنت صحيح اعترفت "؟

جاءته الضربات ضعيفة يائسة مهزومة.

" أيوه ".

" ليه "؟

" هددوني ".

غير من رقدته على السرير حتى يريح مرفقه الأيمن. واعتدل جالسًا القرفصاء. ولكن سرعان ما اكتشف أن الوضع الجديد يسبب له آلامًا حادة عند الفخذين كلما مال إلى الأمام ليلتصق بأذنه فوق الجدار. استلقى على الجانب الآخر مسترقًا السمع بأذنه اليسرى.

" طيب والحل "؟

" مش عارف ".

" وضعك حيبقي وحش ".

" أوحش من كده "؟

" بكتير ".

ساد الصمت. فاستأنف عزيز النقر متغلبًا على النار التي أخذت تلسع أصابعه.

" والحكم يبقي أقصى ".

" عارف ".

" وأهل الحي يقولوا إيه "؟

سمع أصواتًا كالخشخشة، ثم لا شيء.

" سامعني "؟

" أيوه ".

" بتسكت ليه "؟

" أقول إيه "؟

" واحنا يا محمود. حاتضرنا ".

" تاني ".

" واحنا حاتضرنا ".

" تاني ".

يا إلهي. سيبكي إذا لم ينته عذابه. أعاد الجملة بالنقرات في إصرار يائس.

" حاتضرنا ".

" عارف ".

" وبعدين ".

" أعمل إيه "؟

أخطأ عزيز العدد. فنقر في عصبية.

" غيَّر أقوالك ".

" إزاي؟ مش ممكن ".

" لأ ممكن ".

" حينتقموا مني ".

أخطأ العدد مرة أخرى. الإرهاق أخذ يدب في جسده. والآلام تزداد في كل عضلة، مع كل حركة، ومع كل صد دام ب ين عظ ام الأصد ابع والجدار. أحس بملابسه مبللة بالعرق وبالتيار البارد يسقط عليه من النافذة فأصابته رجفات متتالية. ضغط على أسنانه واستأنف.

" لازم تغير أقوالك ".

" أقول إيه "؟

" قول أنهم هددوك ".

" وبعدين "؟

" وأنك اعترفت تحت التهديد ".

ساد الصمت المطبق. لا فائدة. الجثة الكبيرة خلف الجدار لم تعد تتأثر. أحس بشيء كالحنق الأعمى يستولي عليه. وأخذ يحدث نفسه مهدئًا: اهدأ ... اهدأ ... لن تصل إلى شيء هكذا.

" قل أنهم هددوك بالقبض على أمك. وهي مريضة ".

" تاني ".

يده لم تستجب لعقله. لابد انه أخطأ العدد ... أصابعه أصبحت مشلولة باردة، يأكل فيها جيش من النمل النهم ... الجملة تبدو طويلة لا نهاية لها ... ببطء ... نقرة بعد فترة ثم قف مدة أطول بين الكلمات.

" قل أنهم هددوك بالقبض على أمك ".

ماذا دهاه. لماذا لا يرد. هذا الصمت سيقتله.

جاءته النقرات واهنة مترددة.

" سيبني أفكر ".

مد لسانه بين شفتين جافتين كالخشب. ثم فجأة تدفقت الدموع الغزيرة في سيل لا يتوقف. لم يدر هل كان يبكي من التعب، أو من المرارة، أو من الإشفاق على نفسه أو على محمود، أو على الراقدين النائمين خلف الجدران المجاورة، أو على الإنسانية المعذبة الممتهنة. مد يده إلى الحائط لآخر مرة ونقر في حركات مدروسة هادئة متتالية.

" تصبح على خير ".

أحس بالتيار البارد يسقط بثقل من النافذة فرفع عينيه إلى أعلى. كانت أشعة الفجر الأولى تنسكب بنورها الشاحب عبر القضبان. مد جسده في إعياء فوق السرير، ومسح يده على وجهه المبلل ثم غاب في عالم النسيان.

* * *

في أمسية اليوم الثاني، وعزيز مستلق شبه نائم على السرير، بعد أن غلف الظلام الجدران، وسكتت حركة الناس والأشياء، انفتح باب زنزانته فجأة. فتح عينيه المثقلتين ليجد رجلين طويلين يقفان أمام الفتحة، أحدهما عريض الجسد، يرتدي معطفًا قصيرًا من الصوف الخفيف، وطربوشًا عاليًا يبدو لونه داكنًا في الضوء الضعيف الذي تسرب من فتحة الباب، والثاني نحيف كعود القصب، اختفى جسمه داخل السترة المهندمة ذات الوبرة الخفيفة، والمربعات السوداء الصغيرة. لم يستطع تحديد ملامحهما في النور الخافت، رأى فقط شبحين واقفين وأيديهما في جيوبهما، ثم سمع صوت أحدهما يقول:

" مساء الخير ".

فجلس على السرير وأجاب:

" مساء النور ".

" دكتور عزيز "؟

" نعم ".

" تعال معنا ".

ارتدى جوربه، وحذاءه، ثم توجه نحو الباب. أفسحا له الطريق ثم أمسك أحدهما بذراعه اليمنى، بينما مشى الآخر خلفهما. ساروا فوق البلاط الصلب البارد في الحوش الداخلي مارين أمام صف طويل من

الأبواب المغلقة بعيونها الجامدة المغمضة، حتى وصلوا إلى حجرة مفتوحة عند آخر الممر، يشع منها نور قوي.

تردد عزيز تحت الضوء القوي، وأغلق عينيه كمن أصابه ألم مفاجئ، دفعه الرجل من ذراعه برفق. دخلوا من الباب، وتقدموا خطوتين فوق بساط أخضر سميك، ليجد عزيز نفسه واقفاً أمام مكتب من الخشب تناثرت فوقه بعض الأدوات المتنافرة: مقلمة من البرونز المنحوت في شكل حصان جامح، ومنشفة من الجلد الأسود، وعلبة خشبية مرصعة بالصدف رصت بداخلها طبقات من السجائر المصرية الرفيعة، ولمبة قراءة معدنية أصابتها لطع من الصدأ، وانحنت برقبتها الطويلة فوق سطح البللور. خلف المكتب جلس رجل أسمر في مقتبل العمر، وجهه عادي كوجه آلاف الموظفين يجلسون خلف المكاتب. عينان جاحظتان قليلاً، وجبهة ملساء عالية تتوسطها زبيبة زرقاء اللون، وترتفع فوقها شعيرات قليلة يبدو وكأنها خط دفاعه الأخير ضد الصلع الزاحف، وأنف مقوس رفيع، وأذنان صغيرتان ملتصقتان بجانبي الرأس التصاقاً شديدًا كأنما انهالت عليهما لطمات عنيفة بكف غليظة.

على الجانب الأيسر من المكتب، جلس شاب يرتدي سترة رمادية انشغل بترتيب ملف تضخم من كثرة الأوراق المحشورة داخله وقد أزاح بوجهه ناحية الجدار البعيد في ذلك الوضع التقليدي لأداة مدربة تريد أن تقول: " ليس هذا شأني. أنا لا أرى، أنا لا أسمع ".

أشار إليه الرجل بالجلوس على أحد المقاعد الموضوعة أمام المكتب. واختار الرجلان مكاناً لأنفسهما على كنبة مستطيلة من الجلد الأخضر الممزق، برزت أحشاؤه من القطن المتسخ والأسلاك الصدئة.

" كيف حالك يا دكتور "؟

" الحمد لله ".

" نريد أن نستأنف التحقيق الذي بدأناه، فما زالـ ـت لـ ـدينا بعـ ـض الأسئلة".

" تفضل ".

" ماذا أتى بك إلى الإسكندرية "؟

" حضرت طلبًا للراحة ".

" وهل كنت في أجازة "؟

" نعم ".

" أجازة رسمية "؟

" أجازة دراسة استعدادًا للدبلوم ".

" وما علاقتك بعماد "؟

" صديقي منذ أيام الجامعة ".

" ولماذا سكنت معه "؟

" عنده سكن جاهز. وهذا يوفر علي عناء البحث والمصاريف ".

" والأوراق المضبوطة في شقة عماد لمن هي "؟

" لا أعرف ".

" أليست ملكك "؟

" لا ".

" ولا ملك عماد "؟

" لا أعرف "؟

" والآخرون ما علاقتك بهم "؟

" الآخرون! من هم الآخرون "؟

توقف عن الكلام وتطلع إلى عزيز بشيء من السخرية المتعمدة.

" الآخرون في القضية ".

" لا أعرفهم. ولا صلة لي بهذه القضية المزعومة ".

" ومحمود العجلاتي "؟

" لم أره في حياتي ".

سكت قليلاً كأنه يريد أن يزن كلماته ويضمن تأثيرها عليه. ثم تابع كلامه ضاغطًا على الحروف والمخارج، كأنه يجد لذة خاصة في نطقها.

" ولكنه يقول أنه يعرفك منذ سنة. وأنه كان يقابلك بانتظام. وأنك كنت مسئولاً عن خلية فيها خمسة أشخاص. هو أحدهم ".

" ليس صحيحًا ".

" كيف تفسر كلامه إذن "؟

" ربما أثرتم عليه ".

" وبم يمكن أن نؤثر عليه "؟

" بالتهديد، أو الإرهاب، أو حتى التعذيب ".

أشار بيده إلى أحد الرجلين الجالسين على الكنبة واللذين كانا يدخنان في صمت، وقد مدا سيقانهما أمامهما فوق البساط.

" أحضر محمود العجلاتي ".

قام الرجل النحيل وخرج من الباب. ساد الصمت في الحجرة، وتوقفت كل حركة ما عدا نقرة ظفر ترن فوق زجاج المكتب في ضربات سريعة متوترة.

بعد قليل دخل الرجل النحيل وهو يمسك بذراع محمود العجلاتي. بدا جسمه الممتلئ القصير مضحكًا بجوار القوام الطويل، ولكن شيئًا ما في نظرة عينيه المندهشتين، وقد حفر حولهما دائرتان سوداوتان عميقتان،

وفي وجهه الشاحب المرهق وقد غطته ذقن كثيفة قضى على كل رغبة في الضحك.

ألقى المحقق نحوه بابتسامة متوددة مثيرة للاشمئزاز.

" اجلس يا محمود. مشيرًا إلى المقعد المواجه لعزيز. نريد أن نوجه لك بعض الأسئلة. قلت في المحضر السابق أنك تعرف الدكتور عزيز أليس كذلك "؟

تطلع محمود مليًا في عيني عزيز.

" نعم حدث ".

" ولكن الدكتور عزيز ينكر هذه الحقيقة ".

" الدكتور عزيز على حق ".

انتصب الرجل ذو المعطف على قدميه. وساد سكون كسكون القبر.

" كيف كان ذلك؟ أتذكر ما قلته "؟ ... جاء الصوت مسمومًا وخرج اللسان الأحمر كثعبان يلدغ.

" نعم ".

" كيف تفسر قولك إذن "؟

" هددني هذا الرجل " مشيرًا إلى الرجل ذي المعطف.

قفز الرجل خطوتين إلى الأمام وصاح " أنت كاذب "!!

" لست كاذبًا!! هذا ما حدث ".

سادت لحظة صمت متوتر. ثم جاء السؤال من جديد.

" وبماذا هددك "؟

" بأن يقبض على أمي ".

لمعت عينا الرجل ذي المعطف كفوهتان من الحقد، ورنت كلمات المحقق منذرة كجرس الكنيسة يدق نبأ الموت.

" مرة ثانية. هل تعرف الدكتور عزيز أو لا "؟

تعلقت عينا عزيز بوجه محمود الشاحب. رأى العضلات تتحرك تحت الجلد في انتفاضات صغيرة حول الفم، والأنف والجفون، كأن ألمًا مستترًا يسري في الأعصاب والألياف، ورأى حبات العرق الغزير تبرز فجأة فوق الجبهة العريضة وتسقط مثل قطرات المطر على يديه المتشابكتين فوق حجره. مرت لحظات بطيئة مشحونة بدا فيها محمود كمن يخرج من تحت أنقاض بيت انهار فوقه، يرفع حملاً ثقيلاً استقر فوق صدره، بعضلات يشدها جهد فوق طاقته، والعرق ينهمر كالسيل، والشفتان ملتصقتان لم تعد تظهر فيهما فتحة، والأسنان تضغط فوق بعضها كمن يخشى أن يفلت منه صوت الألم، والعينان نصف مغمضتين، والوجه الأسمر يزداد شحوبًا حتى كاد أن يصبح في لون الورق الأبيض. الصراع يدور في الجسد المكدود كأنه صراع ضد الموت، وهو يشحذ قواه لقفزة هائلة فوق الهوة السحيقة، الهوة المجهولة ... يقدم ... ويتردد ... ويقف ... ثم يقدم من جديد، والدائرة نفسها تتكرر.

وأحس عزيز أنه لم يعد يحتمل. إنه يريد منه أن يقول أي شيء ويستريح. وفجأة رفع محمود جفنيه، ولمعت من تحتهما العينان كبئرين عميقين من الألم. وتقابلت عيناهما عبر المسافة القصيرة في نظرة مفعمة بأشياء كثيرة، صامتة، عاجزة، وندت عن محمود تنهدة عميقة طويلة كالأنين، ثم التفت إلى المحقق، وقال في صوت يكاد لا يسمع.

" لا ".

نزلت قبضة الرجل الجالس وراء المكتب على لوح الزجاج كالطلقة في سكون الليل.

" فكر جيدًا. أنت تعرف ماذا يمكن أن يحدث لك. للمرة الأخيرة. هل تعرف الدكتور عزيز "؟

جاءت الكلمات في صرخات عصبية متتالية.

" لا أعرفه ... لا أعرفه ... لا أعرفه " ...

حملق فيه الرجل لحظة قصيرة ثم قال:

" ستندم على موقفك هذا ... انصرف ...!!

أشار بيده مرة أخرى، فتقدم الرجلان إلى محمود، وأمسكا بذراعيه، ورفعاه من المقعد كأنهما سيلقيان به على الأرض. خرجا من باب الحجرة مسرعين، وسمع عزيز أصواتًا تصيح في الحوش الداخلي رددت الجدران صداها، وكأنها ترن في كهف أجوف. ثم صوت باب يغلق، وأقدامًا تدب فوق الأرض في غضب.

في الحجرة بقي عزيز جالسًا أمام المحقق. وتشابكت عيناهما في نظرة طويلة، حانقة، بدت وكأنها لن تنتهي.

* * *

مرت ثلاثة أيام لم يذق فيها طعم النوم. ينقر على الحائط الذي يفصل بينهما، ويسترق السمع دون جدوى. أحيانًا يخيل إليه أن هناك نقرات واهنة خفيفة تأتيه من الجانب الآخر، كأن الشخص الراقد في الحجرة المجاورة لم يعد قادرًا على أي جهد سوى مجرد لمسة خفيفة من أصابعه على الجدار. وفي أحيان أخرى يشعر أن كل ما يسمعه مجرد وهم، جسدته رغبته العارمة في أن يسمع شيئًا ... أي شيء يدل على أن محمودًا هناك، وأنه يرد عليه.

وفي الليل يسمع أشياء كثيرة. خطوات تنتقل بخفة بالغة على أرض البلاط أمام حجرته كأن الأقدام تكاد لا تلمس الأرض، أو همسات

كالأنفاس تدخل وتخرج من صدر حيوان يربض خلف الباب. أو صرير مفتاح يدور في " الكالون " بخبث، أو جسدًا ثقيلاً يقع على الأرض كاللحم الطري يسقط فوق شيء صلب، أو ضلفة باب يغلق في حرص متناهٍ. أو شيئًا كالأنين الخافت يتردد خلف الجدار. بقي هكذا يرهف الحس، والسمع دقيقة وراء دقيقة، وساعة وراء ساعة، بأعصاب مشدودة تكاد تتمزق من فرط المجهود. وبدا له أن أذنيه ترتعشان، بل ربما تتموان كأذني الأرنب يروح ويجيء في قفص، وقنوات السمع في رأسه أصبحت صلته الوحيدة بالحياة. حتى الإحساس بجسده تحول إلى دقات قلب تسمع، وأنفاس تسمع، وزغولة الأمعاء تسمع، ومفاصل، وعضلات، وعظام تتحرك، فتسمع.

مرت الساعات الطويلة وهو يسترق السمع، ويفكر، ويتصور ما حدث في الجانب الآخر من الجدار. هل مرض؟ ... هل مات؟ ... هل أخذوه من هنا ليعذبوه ... هل نقل إلى مكان آخر؟ ... يا محمود. أنت أعز إنسان في الدنيا ... ماذا جرى لك؟ ... أين أنت؟ ... لماذا لا ترد؟

ثلاثة أيام مرت وهو ينقر على الحائط بين الحين والآخر ويتسمع وينتظر. ولكن في الليلة الثالثة والقمر يغمر الحجرة الصغيرة، ويشع ضوءًا ساحرًا مخيفًا في القبو المظلم، أدرك أنه لن يراه مرة أخرى.

* * *

في الصباح فتح عينيه على أشعة الشمس الطويلة الدافئة تسقط من النافذة العالية في خط مستقيم فوق المنضدة، أشعة ذهبية مرتعشة تسبح فيها ذرات التراب الرفيعة معلقة في الهواء، تحرك في سكون غريب كأن جاذبية مستترة تشد عليها من كل جانب. دار بنظرته حول الحجرة واصطدمت بالجدار الفاصل بينه وبين الحجرة المجاورة. رفع يده بحركة آلية كأنه يريد أن يعاود من جديد ذلك الحوار الذي انقطع فجأة منذ ثلاثة

أيام بلياليها. استقرت عيناه على فجوة صغيرة محاطة بنقطة دقيقة سوداء، وبقيت يده معلقة في الهواء كان شيئًا ما، قوة ما أمسكت بها لتحول دون اقترابها من الجدار. وتراءت أمامه صور مزدحمة لأحداث مضت تتوالى الواحدة بعد الأخرى مسرعة، مضطربة، متداخلة، كالتريط الذي لا يستطيع إيقافه. قطب جبينه كالذي يشعر بألم دفين، أو يبذل جهدًا مضنيًا ليتذكر، فعاد إليه الإحساس بالزمان والمكان تدريجيًا، كمن يستيقظ من حلم بعيد استغرق في أحداثه الساعات الطويلة دون أن يدري عن العالم المحيط به شيئًا ... إنه يحيا اليوم بإحساس غريب ... فالفاصل بين الحلم والواقع خيط رفيع ... رفيع جدًا. وهو ينتقل من الواحد إلى الآخر في يسر شديد لدرجة أنه لا يستطيع التمييز بينهما أحيانًا. ولكنه يدرك أن الراقد خلف الجدار ليس محمودًا العجلاتي وإنما شخص آخر هو سيد، وأن الحجرة التي أغلق بابها الغليظ عليه هذه المرة غير تلك الحجرة التي أغلق عليه بابها منذ سنوات طويلة، وإن كانتا متشابهتين بحيث يمكن أن يختلط الأمر عليه. وهو يتذكر الآن أنه لم ير محمودًا العجلاتي بعد الليلة التي لن تنمح من ذهنه أبدًا، تلك الليلة التي رأى فيها إنسانًا طيب القلب يصارع قوى عاتية تريد أن تسحقه. فقد قيل أنه هرب ولم يعثر عليه بعد ذلك، وقيل أنه أصيب بالسكتة القلبية، وأشاع آخرون أنه ضرب حتى مات. وأيًا كانت الحقيقة فإن الأقوال كلها تتساوي في الواقع. فالمهم أنه لم يعد. قضوا عليه بطريقة أو بأخرى. لأنه رفض أن يغوص معهم في الوحل بعد أن استدرجوه إليه، فانتقموا منه.

ولكن المسألة اليوم تتعلق بشخص آخر غير محمود العجلاتي. تتعلق بحسين. نفس القصة، وشخصان مختلفان ... نفس القصة ومع ذلك فهي قصة مختلفة. محمود العجلاتي كان إنسانًا بسيطًا. لم يكن يريد كثيرًا

من الحياة. فعالمه الصغير كانت تملأه دراجات ملونة تمرق كالسهام عبر الشوارع، وأم عجوز تنتظره في البيت عند آخر النهار، وأصدقاء الحي يتسامر معهم ويضحك. وعندما اتسع عالمه المحدود أصبح يفكر بنفس البساطة في أمور الكادحين مثله، في شقائهم، في قساوة حياتهم التي يعرفها جيدًا. لم تكن المسألة بالنسبة إليه تحتاج إلى كلمات كثيرة، أو كتب كثيرة. ذلك أن حياته كانت قد حسمت عديدًا من الأمور بالنسبة إليه، فأصبحت وكأنها غريزية، يحسها أكثر مما يعيها. وكان هذا الإحساس البسيط الغريزي بآلام الآخرين أكثر صدقًا من أنهار الخطب والمقالات. لم يكن يدري بخلده أن يكون مسئولاً مهمًا، أو شخصية مرموقة، لم يكن قد عرف صراع الطموح في الإنسان، ولم يكن قد درس لغة المكسب والخسارة. كأنه الوقود الذي يحترق ليدفئ الأيادي الممدودة في صقيع الليل، ويصنع شيئًا للغد. ولذلك أصبح يركب دراجته الحمراء السريعة، ويخترق الشوارع والحواري الضيقة حاملاً معه لفافة كبيرة من المنشورات، وكأنه يتنزه على شواطئ الإسكندرية، مدينته التي أحبها، وأحب بحرها الأزرق العميق، وصياديها، وعمالها وأغانيها ... بنفس البساطة، ونفس المرح، ونفس العاطفة المفتوحة للحياة.

ولذلك عندما شددوا عليه الحصار، وضغطوا بأصابعهم الغليظة على أعصابه، وأغمدوا كلماتهم الحادة كالسكين في جسده، وعصروا قلبه من الخوف على أمه العجوز، انكسر شيء ما في أعماق الإنسان، وانهار ذلك البنيان الدقيق المعقد المتشابك الذي يحرك، ويدفع، ويشحذ طاقته على السير، على النبض، على الصمود، ووجد نفسه كالطفل الكبير يسقط في بئر سحيق مظلم، فخاف وتألم، وبكى، بكى على نفسه، وعلى أمه، وعلى كل شيء كان يعتز به ففقده، ولكن بكاءه كان حارًا وصادقًا ومفعمًا

بالرغبة في أن يعود من حيث أتى. في أن يبقـ ـي كمـ ـا كـ ـان محمـ ـودًا العجلاتي الذي أحبه الناس. وعبر الظلام الدامس لتلك الليلـ ـة، الصـ ـامتة الناطقة بنقراتها المتواصلة، ترتفع مثل رسالة استغاثة بعثت بهـ ـا سـ ـفينة وهي تصارع أمواج العاصفة المتلاطمة، عاد خطوة بعـ ـد خطـ ـوة إلـ ـى السطح، إلى شاطئ المدينة التي ولد فيها، ليرتمي فوق رمالها فاقد النطق، فاقد الحياة. هكذا انتهى محمود العجلاتي دون أن ينتهي.

أما أنت يا حسين، فلم تكن مثل محمود العجلاتي، بل كنت مختلفًـ ـا عنه، أعطتك الحياة كل أسلحتها، فأبوك صانع الحلوى، وتاجرها، أغـ ـدق عليك منذ أيام الطفولة. فكنت تتجول بخطواتك الأولى في البيت الواسـ ـع العريض كالقصر. تأكل بعد الشبع، وتلبس أثواب الصوف الناعم الطري، وتمرق في سياراتك الملونة السريعة عبر شوارع المدينة. وأعطاك سلاح العلم في الكلية لتصبح تلميذًا في الطب، ثم طبيبًا يرقد أمامه المرضى في خشوع كأنه الله أتى ليشفي الناس من أمراضهم، وآلامهـ ـم، بأيـ ـاد مـ ـن السحر. ولم تكتف بكل ذلك. فأصبحت صاحب فكر، وصـ ـاحب اتجـ ـاه، وجالسًا على منابر الخطابة، وجالسًا فوق أكتاف المظـ ـاهرات، وصـ ـاعدًا فوق درجات التنظيمات السياسية، وشعلة حركة تروح، وتجـ ـيء وتحفـ ـز وتقنع.

ولكن لماذا؟ هذا هو السؤال الذي آن الأوان لكي نجيب عليه. سؤال أهم من كل التحريات، والاستفسارات، والاسـ ـتنتاجات، والأسـ ـئلة التـ ـي وجهت إليك أثناء التحقيق الطويل الدائر في صمت وسرية خلف الأبواب المغلقة. لماذا سرت كل هذا الطريق الطويل المفعم بالأحداث، والدروس، والصراع المضني، لتسقط هنا عند أسفل السلم، أمام أول تجربة حقيقيـ ـة،

جثة هامدة، كتلة هلامية ليست لها قوام، مـ ادة لزجـ ة تجـ ذب نحوه ا الحشرات مثلما يتجمع الذباب الأسود الكبير فوق كومة من الفضلات؟

أنت يا حسين، لم تكن مثل محمود العجلاتي. كنت صاحب طمـ وح واسع، وأوسع من ثوب المبادئ، ولذلك عندما وقعت في الخية لم تفكـ ر بقلبك مثله وإنما نشطت عندك خلايا المخ العليا، نشطت في سرعة وإتقان منذ أول ليلة، تضرب، وتقسم، وتجمع، وتطرح في برود العلم الذي يقتل ... بدأت لعبة " المكسب والخسارة ". ماذا أجني من كل ذلك؟ مالي ومال هؤلاء الرعاع الذين يحيطون بي؟ إنهم لن يخسروا شيئًا. ولكن أنا لسـ ت مثلهم.

بدأت لعبة المكسب والخسارة، ودار العقل الإلكتروني البارع البارد يوزن، ويقدر ويقدم النتائج. تحول الإنسان إلى آلة، تحسب، وكـ انوا هـ م أيضًا يحسبون. فأخذت تحسب معهم. وضغطوا على الأزرار. فأصـ بحت تعمل لحسابهم. ومنذ تلك اللحظة قطعت كل ما بينك وبين الماضي، كل ما بينك وبين الآخرين، كل ما بينك وبين القيم التي أقنعت الكثيـ رين بهـ ا. وأخذت تحاول أن تجذب غيرك إلى نفس الهوة، إلـ ى نفـ س المسـ تنقع. فالإنسان الساقط يكره أن يرى الآخرين وقوفًا.

محمود العجلاتي كان إنسانًا يتعذب فضعف في لحظة العذاب. أمـ ا أنت يا حسين أما أنت فكنت تريد أن تربح على الدوام.

* * *

هناك شيء ما، أو أشياء ما يصعب تحديدها في الحجرة البيضاوية الضخمة، تذكر بالحلبة التي يتدرب فيها الملاكمون والمصارعون، ربمـ ا حجم الحجرة أو شكلها، أو خلوها من الأثاث، أو المراتب المفروشة على أرضية من الخشب الأبيض، أو الحشد الصارم الجالس عليها في حلقـ ات

بيضاوية تلف حولها متوازية مع جدرانها، حشد مترابط متلاصق من الناس، وجوههم شاحبة، في الضوء الكهربائي الضعيف، وأكتافهم متلامسة بحيث أصبحوا كتلة واحدة تغطي كل شبر في مساحتها، عدا دائرة صغيرة في الوسط تبدو كالسرة العارية، كتلة تتحرك بحركة واحدة، وتتنهد بنفس واحد كلما نفذت إلى أعماقها كلمة من الكلمات، وتثور، وتهدأ، وتضحك بصوت واحد، ذابت فيها عشرات الأصوات وانصهرت. والجو ساخن، يحلق فيه شيء يشبه الصراع المنتظر، أو العنف المكتوم، وتحلق فيه زرقة خفيفة من كثرة الدخان المتصاعد المتراكم خلال الساعات المتتالية يبحث فيها عن منفذ للخروج فلا يجده.

الذين تكلموا كثيرون. وقفوا وسط الحلبة في المساحة الخالية من الأجساد تحملق فيهم العيون من كل جانب، وتتطلع إليهم الوجوه المرفوعة إلى أعلى في تركيز لا يعرف الملل. الأنفاس معلقة كأنها تشهد حدثًا خطيرًا، شيئًا جديدًا مدهشًا وعظيمًا يولد في هذه النقطة الصغيرة المتواضعة المحدودة من الكون اللانهائي.

والأصوات الخافتة المتجمعة تبدو أحيانًا كأنات من الألم الممض، كالآهات التي ترتفع من أعمق الأعماق. فالولادة حكم عليها بالألم منذ قديم الزمان، منذ آدم وحواء وميلاد البشرية، والحرية تثبت وسط أنغام العذاب.

الحجرة كالمدرج البدائي، تختفي فيها وجوه المشاهدين خلف قناع واحد شاحب أبيض، ورائحة الهواء مثل المخدر الثقيل، والمساحة الخالية وسط الأجسام المتلاصقة منضدة معقمة تجري فوقها عملية شاقة في ضوء المصباح. والطفل الوليد لم يأت بعد ولكنه في الطريق. فهنا في هذه النقطة الصغيرة المتواضعة من الكون اللانهائي تنبعث الشرارة الأولى،

ويتشكل الهيكل الأول لتلك الحركة التي ستنطلق في موجات متصاعدة من مدينة القاهرة لتعم جماهير المقهورين من الطلبة والعمال، ولتنتشر إلى المدن الأخرى من أسوان إلى الإسكندرية.

هنا تولد اللجنة الوطنية للعمال والطلبة – تلك القيادة الجديدة التي انبعثت من صفوف الشعب، من صميم المعركة ضد الاستعمار والسراي، زاحفة على رأس جيش المتمردين، تهز أركان النظام، وتدق بقبضتها القوية على أبواب القلاع العاتية.

فبالأمس فتح الجسر، وسقطت في مياه النيل المتدفق العريض أجسام الطلبة وهي تنهال من أعلى مثل الأحجار الثقيلة، سقطت وسط أصوات الرصاص المنطلق، وهدير الجموع المحتشدة المحصورة بين الجسر المفتوح من أمام كفم التمساح يبتلع كل من يقترب منها، وبين الجدار الأسود المحصن خلف الدروع، والخوذات المعدنية في لون الرصاص، ومن فوقه العصى الطويلة الغليظة ترفعها مئات الأيدي لتنهال بها على الرؤوس، والأكتاف، والظهور، والجباه، والعيون، والأذرع، وعلى كل شيء يتحرك. آلة ضخمة صدرت إليها الأوامر فسارت فوق أسفلت الشارع العريض تضرب، وتسحق، وتقتل كل من يعترض طريقها. فالقامة المنتصبة ينبغي أن تنثني، والرأس المرفوعة ينبغي أن تنحني، والكلمة الحرة لابد أن تموت. والأجسام الشابة تسقط من فوق الجسر، وجوهها إلى السماء وكأنها تطل لآخر مرة على الزرقة الصافية الممتدة فوقها إلى حافة الدنيا، والعيون البريئة مفتوحة في اندهاش وكأنها فوجئت باليد التي تطعن من الخلف، وكأنها تشهد خالق السموات والأرض على غدر الإنسان بأخيه الإنسان. والجسد الضخم المحشور بين الفم المفتوح والجدار الأسود الذي يدفعه إلى الهاوية خطوة بعد خطوة دون

رحمة، يتموج ويتلوى من الألم العميق الذي يسري في أوصاله. والأعلام البيضاء تهتز في الريح، وتنتفض مع الحشد المعذب الذي يتلوى تحته ا، وتسقط فوق الأرض مع الذين يسقطون، لترتفع من جديد حم راء بل ون الدم. والهتافات المدوية تختلط بأزيز الرصاص، وأنغام الأناشيد، وصوت العصى ترتطم بالجماهير المتراصة، ولسعة الكرابيج في الهواء، وه دير الفيضان المتدفق من البشر. والعربات الرمادية تبتلع في جوفها عش رات الطلبة المكبلين في قيود من الحديد، وتنطل ق مس رعة بحمولته ا م ن الآدميين انحشروا فيها كالماشية.

وفي آخر النهار، عندما تنحدر الشمس نحو الأفق، وتمر بلمس ات أصابعها الملونة فوق السحب، ثم تختفي خلف أشجار الجزيرة الخضراء، لم يبق من كل هذا سوى الأسفلت العاري يلمع في ضوء الأصيل، وأعلام من القماش الأبيض بأعمدتها الخشبية المكسورة تركت هنا وهناك، وبق ع من الدماء القانية تناثرت على الطريق، وفوق التراب ح ول الأش جار، وطربوش أحمر داسته الأقدام فتوارى حزيناً بعيدًا ع ن الأنظ ار خل ف عمود الكهرباء، وعند بداية الجسر كتاب مفتوح للسماء في صمت.

وفي الصباح الباكر سقط الطاغية ... ولك ن ... ليص عد مكان ه طاغية آخر. رجل عجوز، شعره أبيض، وعيناه الضيقتين تبرقان بل ون رمادي تشوبه زرقة باردة مخيفة، كنصل من الفولاذ المص قول جي دًا. الجسم قصير، محني، يتكئ على عصا غليظة، ويسير بخطوات ص غيرة مسرعة فيها اهتزاز خفيف، حركة غريبة تشبه ش يئاً م ا ب ين المش ي والرقص. الرأس عريضة مثبتة على رقبة قصيرة مكتنزة. والوجه وج ه طفل، ببشرته الناعمة، وابتسامته البريئة، ووجنتان تعلوهما حمرة ورديـ ـة اللون. والصوت هادئ يطلق الكلمات في وضوح دون بطء.

هذا الرجل ذو الابتسامة البريئة، والعينين الإرهابيتين، والصوت الهادئ الواضح النبرات يعرفه جيدًا عمال السكة الحديد. فقد أفرغ في أجسامهم رصاص البنادق منذ أكثر من ربع قرن، عندما قرر أن الدستور بدعة ينبغي أن تلغى.

وهذا الرجل يعرفه أيضًا الجالسون على المراتب في الحجرة البيضاوية ذات النوافذ المطلة على مستشفى القصر العيني. يعرفونه جيدًا، ويدركون حقيقته، ويستعدون لمواجهة ما أخذ، يدبره منذ اللحظة الأولى. وعزيز يشاركهم الإحساس بأن خطرًا ما يحلق فوق الرؤوس، وإن كان لا يدرك مداه بالضبط، ويشعر بالأجسام الدافئة حوله، والأنفاس تدخل وتخرج بوقع منتظم. يدور بعينيه على الحلقات المتصلة من الوجوه، وتلتقي نظرته بنظرة عماد بين الحين والآخر. لكنها في أغلب الوقت مثبتة على الفتاة السمراء النحيلة التي تقف وحدها في الساحة الخالية وسط الجموع الجالسة على الأرض، وتتدفق كلماته كالينبوع الدافئ المتفجر، وعند باب الحجرة يقف خليل بقامته الممدودة، وعينان تطلان من خلف النظارة بتلك النظرة الغريبة التي تبدو وكأنها لا ترى، يلف ذراعه الطويلة حول كتفي حسين.

والفتاة تتحدث إلى الجميع، والعيون تحملق فيها. وهي ربما لا تدري بالضبط ما الذي أثار انتباهها منذ اللحظات الأولى، ومع ذلك فهي مشدودة إليها بمئات الخيوط الرفيعة، تجذبها بقوة مستترة كالمغناطيس، خيوط لا تراها، ولا تلمسها، ولكنك تحس بها في الجو المشحون، تمتد بين الجالسين على الأرض وبين تلك الفتاة التي تقف بقدمين ثابتتين على الأرض الخشبية وسط الحجرة المحتشدة بالناس وجاءوا من كل أركان المدينة الكبيرة. ربما تولدت تلك الجاذبية الخفية عن الفضول والاندهاش

إزاء منظر غير مألوف. فلم يكن قد تعود الجالسون في الحجرة من قبل رؤية فتاة تشاركهم اجتماعاتهم. بل أكثر من هذا تتحدث إليهم بمثل هذه الجرأة والطلاقة. أو عن الكلمات الجديدة التي سمعها الكثيرون لأول مرة، وقرأها القليلون في الكتب دون أن يعوا معناها الحقيقي. أو لأنه كان غريبًا أن ترى جسدًا أنثويًا نحيلاً، وتسمع صوتًا ناعمًا دافئًا متدفقًا كلبن الأم، يحمل كل هذه القوة والصلابة الكامنة، أو ربما لأن الكلمات التي قيلت في هذه الليلة كانت تحمل معها كل الآلام المكبوتة لأمة بأسرها تحملتها عبر الأجيال الطويلة، وكل الآمال التي استيقظت بعد أن سكتت مدافع الحرب، وكل الإحساس بالمستقبل المفعم بالمخاطر والأحلام، وكل الإدراك بالقوة الجديدة التي أخذت تتحرك من أعماق المصانع والمدارس، والكليات، وأزقة الشوارع الخلفية في المدينة الواسعة المترامية الأطراف، أو ربما لأن عينيَّ الفتاة السوداويتين الواسعتين كان يشع منهما بريق ساطع كالنور، بريق اختلط فيه التحدي، وصفاء المياه النقية، وحنان عميق رقيق كاللمسة على جبهة الطفل المحموم، وحيوية الحياة كلها وإشراقها. أو ربما لهذه الأسباب كلها.

وقفت هكذا منتصبة كالصبي بقوامها اللدن الممشوق يلفه ثوب بسيط، وعلى قدميها حذاء أسود تحس أنها سارت به مسافات طويلة فوق الأرصفة وعبر الشوارع من المنزل إلى الكلية، ومن الكلية إلى المنزل. شعرها الأسود الفاحم في سواد الليل يلف الوجه النحيل في موجات غزيرة منسابة فيها قوة الشباب وحيويته، وتتخلله من أمام خصلة رفيعة بيضاء كشعاع من النور تسلل إليه مبكرًا في الفجر يضفي نضوجًا غريبًا على الوجه المتدفق حيوية وشبابًا، وعلى وجنتيها احمرار خفيف من الانفعال

المكبوت، وشفتاها الممتلئتان تكشفان عن أسنان بيضاء منتظمة تطل من بينهما في ابتسامة مشرقة مفاجئة.

كان عزيز يتتبع حديث الفتاة مثل الآخرين. لم يكن يشعر، ربما على عكس الآخرين، بأية غرابة في الموقف. تعود منذ الصغر على الاختلاط مع الفتيات هكذا ببساطة، دون أن يشعر بأن هناك فواصل تعزل بينه وبينهن. ومع ذلك أحس بأن الفتاة الواقفة وسط الجمع، تتحدث إليهم في سهولة واسترسال، وتلوح بين الحين والآخر بحركة خفيفة عصبية من اليدين، وتدور بوجهها المشرق حول الحجرة ملتفتة هنا وهناك كأنها تريد أن توجه كلامها إلى الجميع، أحس أن شيئًا فيها يجذبه إليها، شيئًا ما أبعد وأعمق من الكلمات الحارة التي ترن في أذنيه منذ أن بدأت حديثها:

" جئت إليكم سيرًا على الأقدام، وسأعود إلى منزلي في ساعة متأخرة من الليل سيرًا على الأقدام. وعندما أصل بيتنا سأجد والدي ووالدتي في انتظاري. وسأسمع كلمات جارحة عن الفتيات اللائي يخرجن بالليل ويتأخرن، كلمات تنفذ إلى قلبي كالطعنات تجعلني أشعر بأنني لست مثلكم، أنني أقل منكم، أنني مجرد شيء يريد الآخرون أن يحركوه. وعندما أقف هنا أمامكم أشعر بشيء غريب في نظراتكم، وكأنكم مندهشون من وجودي بينكم. ذلك أنني فتاة ولكن الفتاة لها عقل، ولها جسم مثل الفتيان. تفكر، وتتنفس، وتسعد، وتحزن هي أيضًا. أذهب إلى الكلية كل يوم وأجلس بجوار زملائي، وأستمع إلى المحاضرات وأتعلم لأنني أريد أن أعمل. وأسهر الليالي أمام الكتب تحت ضوء مصباحي الصغير. تفوقت على كل الذين يدرسون معي. ومع ذلك أشعر أن لا أحد يريد أن يعترف بي. كان من الممكن ألا أحضر إلى هنا، وأن أبقي آمنة هادئة في بيتي. ولكنني أريد أن أشارككم فيما تقومون به. إنني أشعر أكثر

منكم بالهوان الذي نعيش فيه. فأنا أعيش مثلكم في وطن يقهره الأجنب ي، ويتحكم فيه الطغاة. ولكن عندما أمد يدي إلى أيديكم لا أجد من يري د أن يقف بجواري، أن يعترف بأنني إنسانة أفكر وأحس وأتطلع إلى المستقبل. عرفت الفقر مثلكم تمامًا كما تعرفه العاملة أمام آلتها، والفلاحة في قريتها. فالمرأة العاملة تكدح بالنهار، وتحمل أطفالها بالليل، وترضعهم وترعاهم. تجمع القطن، والحطب بالنهار، وتشعل النار وتطهي وتغسل بالليل. لماذا ترفضونها إذن؟ لماذا ترهقونها بالأعباء، وتطلب ون منه ا ك ل ش يء، وتحملونها كل واجبات الشريكة في الحياة، ثم تريدون منها دائمًا أن تحيا على الهامش مسلوبة الإرادة والرأي، مسلوبة من أبسط الحقوق الآدمية.

جئت إليكم من أجل مستقبلنا، من أجل الحرية لكم ولنا. وكثير م ن الفتيات زميلاتي يردن أيضًا أن يساهمن في المعارك التي تشتعل اليوم في كل مكان. ولكن هل ستفسحون لهن مكانًا ب ين الص فوف، أو س تولون وجوهكم بعيدًا عنهن؟.

هذا هو السؤال الذي جئت الليلة لأوجهه إل يكم. ويتوق ف عل ى إجابتكم أشياء كثيرة. فإذا أردنا أن نتحرر فعلاً لم يعد بمقدورنا أن نتجاهل نصف المجتمع ".

تتابعت الكلمات الواحدة بعد الأخرى كنقط من المياه الرقراقة تقطع الصمت الكامل برنين واضح، كأنها تسقط فوق س طح بحي رة س اكنة، مرسلة أمواجًا خفيفة من الارتعاش عبر الصفوف المتجمعة. تطلعت إليها الوجوه الشاحبة في الضوء الخافت بأنفاس تكاد لا تتحرك وكأنها مكتومة معلقة برنين الكلمات، تخشى أن تقطع عليها س ريانها المت دفق، وج وه مختلفة متباينة أتت من أطراف المدينة، وجوه الطلبة شابة نقي ة حالم ة، وجوه ملتحية سمراء تلبس فوق رأسها عمامة حم راء، وج وه مرهق ة

مشدودة عليها آثار الشحم الأسود من عنابر القطارات، ووجوه جامدة متطلعة لبس أصحابها العفريتة الزرقاء، وأتوا من بعيد من شبرا الخيمة ربما مشيًا على الأقدام، أو مسرعين عبر الشوارع على دراجاتهم، ووجوه رجال آخرين ارتدوا ملابس سائقي الترام الصفراء بأزرارها اللامعة النحاسية وجيوبها المنتفخة، ووجوه رقيقة لجمع من الفتيات، وقفن بعيدًا كأنهن مازلن يخشين الانصهار في الجسد الكبير المنفعل، الصامت، الراقد على أرض الحجرة يسمع، ويلتقط، ويشرب الكلمات، كالحيوان الجائع، يلتقط قطع اللحم قبل أن تقع على الأرض.

وقف أحد عمال النسيج بقامته القصيرة وثوبه الأزرق الباهت المفتوح عند الصدر. لمع وجهه الأسمر تحت مصباح الكهرباء المتدلي وسط الحجرة ولمعت عيناه السوداوين كقطعتين من الفحم المصقول، لمح عزيز جبهته عالية عريضة تحت الشعر الأكرت القصير، وأذنين مرهفتين ملتصقتين بالرأس. بدأ يتكلم في بطء ظاهر، ثم تتابعت الجمل بسرعة متزايدة ارتفعت فيها نبرة الحماس بالتدريج.

" أحيي الأخت على كلمتها المؤثرة، وأقول لها أننا نحن العمال نستطيع أن نحس في أعماقنا معنى ما تقول. فنحن نعاني من الاستغلال، ونواجهه في أبشع صوره، نواجهه عاريًا دون قناع، متوحشًا كالحيوان المفترس، في المصنع، حيث يمتص دماءنا يومًا بعد يوم أمام الآلات. وهذا الاستغلال يقع علينا جميعًا رجالاً ونساء. الاستغلال الذي ينبغي أن نواجهه أولاً هو استغلال الأجنبي، وفئات الرجعية، والرصاص الذي ينطلق إلى صدورنا كلما تحركنا لنطلب كسرة خبز إضافية لأطفالنا الجياع.

ولكن الوقت لا يتسع للكلام. فالفكر مهما كان عميقًا، وواسعًا، ومنطلقًا لا يجدي إذا لم يحول إلى عمل، وإلى تنظيم. إن الرجعية ممثلة في أعتى عتاتها صدقي باشا، تستعد لضرب الشعب. وهي تحتاج إلى مهلة للاستعداد وللتآمر. ولذلك يقول صدقي. " اتركوني لأعمل في هدوء " ولكننا يجب ألا نترك الفرصة لكي يعمل في هدوء. اليوم هو يطلب الهدوء. ولكن غدًا سيطلق علينا بنادقه كما فعل في سنة ١٩٣٠. لا سبيل إلى نيل الاستقلال إلا بالنضال. لذلك ينبغي أن نعلن عن تكوين اللجنة. أن نعد لإضراب عام تشترك فيه كل فئات الشعب. نحن عمال شبرا الخيمة قد أعددنا العدة لذلك اليوم. ولجانها تشكلت وبدأت في العمل تحت قيادة موحدة هي اللجنة التحضيرية. والنقابات الأخرى في القاهرة ممثلة هنا، الترام، والمترو، والأوتوبيس، والمطابع، والفنادق، والسكة الحديد، ومختلف المرافق مثل الكهرباء والمياه. ونستطيع أن نوفق ما بين تنظيماتنا. اللجان التنفيذية تكونت في كل الكليات. إذن علينا أن نحدد اليوم، يوم الإضراب السياسي العام. وأن تنطلق جماهير الشعب، من مصانعها، وأماكن عملها، وكلياتها، ومدارسها، إلى قلب القاهرة في ذلك اليوم. هذا كل ما أردت أن أقوله ".

مرت همهمات الاستحسان، وإيماءات الموافقة في موجات متصلة حول الحجرة. وانطلقت عشرات الألسن بتعليقات مختلفة. وفجأة برز الوجه الأسمر الجامد كالصخر، واللحية السوداء الكثة التي رآها عزيز من قبل. وجاء الصوت القوي ينطق الكلمات العربية المنغمة في استرسال بليغ.

" بسم الله الرحمن الرحيم. أخواني. احذروا مَن جاءكم بفتنة وأطيعوا أولي الأمر منكم. إنني أرى أنكم تتعجلون الأمور. وتستمعون

إلى الآراء الهدامة التي ستقودنا إلى التهلكة والضلال. فلا شك أن رئيس الوزراء رجل محنك له باع طويل في السياسة. وهو يدرك كثيرًا من الحقائق، ومن ملابسات الموقف، لا نعرف نحن عنها كثيرًا أو قليلاً. إن واجبنا هو أن نترك له فرصة للعمل. فقد وعدنا بأن يعمل في سبيل الأمة. فلماذا لا نتركه يعمل؟ ولم هذه الرغبة الملحة في التشكيك وفي إثارة الشعب؟ ... أليس من الأكثر توفيقًا أن ننصرف إلى إصلاح الاعوجاج في حياتنا الدنيوية والدينية. ألا نرى كيف أننا نبتعد يومًا بعد يوم عن ديننا الحنيف. فهذه الأخت التي جاءت إلى هنا، لتقف وسط جمع من الرجال، يحيطون بها، وينظرون إليها بملء عيونهم، لتتحدث عن المساواة بين المرأة والرجل. أية مساواة تلك التي تريدها؟ وكيف ننسى تلك الحقيقة الخالدة التي سجلتها الكتب السماوية عندما قالت؟

" الرجال قوامون على النساء " فلتعد المرأة إلى مكانها الطبيعي إلى بيتها، إلى أطفالها. ولنحارب الفسق والفجور في كل مكان، أولئك الذين يتاجرون بالخمر ويحتسونها، وأولئك الذين يفتحون الحانات وأماكن اللهو، هم الذين ينخرون في جسد الأمة كالسوس " ...

ضاع الكلام وسط ضجيج الأصوات، وسرت موجات من الاعتراض تجتاز الحجرة من هنا وهناك. فتقدم خليل إلى وسط الحجرة منتهزًا فرصة التململ والتوقف، وصاح بصوت مرتفع:

" زملائي ... أقترح أن ننهي اجتماعنا فالساعة الآن الواحدة والنصف بعد منتصف الليل. وأمامنا عمل شاق في الأيام القادمة. أقترح أن يستمر استعدادنا ليوم الإضراب العام. وأن تصدر اللجنة بيانًا في الصحف تعلن فيه تحديد يوم ٢١ فبراير يومًا للمقاومة ضد الاحتلال.

وعلى كل المندوبين هنا أن يرتبوا الأمور كل في مجاله. ع اش كف اح الشعب.

و السلام عليكم ورحمة الله ".

أسرع الجالسون بالوقوف، وزاد الضجيج فجأة في الحجرة تخ تلط فيه أصوات المناقشات، بدقات الأقدام عل ى الأرض، وه ي تح اول أن تنفض عن نفسها البرودة المتراكمة، والآلام الحادة كوخز الإبر من طول الجلوس على الأرض، وطقطقة الأجساد والأذرع تتمطع، وخشخشة أعواد الثقاب تشعل السجائر. وأخذ المجتمعون ينصرفون في طابور طويل م ن باب الحجرة على السلم الحديدي المفضي إلى حوش جانبي ف ي الكلي ة. انتظر عزيز مع المجموعات الأخيرة حتى يخرج مع عماد، وسارا س ويًّا بخطوات بطيئة يتحسسون الطريق فوق الدرجات المظلمة. س مع أمام ه صوتًا أنثويًّا يقول وسط دقات الكعوب على الحديد.

" كلمتك كانت رائعة يا نادية " استرق السمع منتظرًا الإجابة.

" يا نادية ألم تسمعي ما قلته؟ كلمتك كانت رائعة ".

سادت فترة صمت قصيرة. ثم سمع الصوت الدافئ يقول:

" كلمتي كانت عادية يا سعاد. أنت دائمًا مبالغة في حماسك. عل ى كل حال فأنا راضية طالما أنها أعجبتك ".

وصلا إلى آخر السلم. لمح أمامه الفتاة تمشي في ليون ة وس رعة نحو الباب الحديدي الصغير المفتوح على الشارع، وإلى جوارها ا فت اة قصيرة القامة لم يستطع أن يتبين ملامحها. التفت إلى عماد وقال مش يرًا إلى الفتاة النحيلة:

" تلك هي الفتاة التي تحدثت الليلة ".

ضحك عماد ضحكته القصيرة المتقطعة.

" قوي الملاحظة أنت فيما يتعلق بالفتيات ".

صمت عزيز. أحس أنه لا يرغب في المزاح. ثم استطرد:

" المواصلات انتهت الآن. ستضطر إلى العودة مشيًا على الأقدام. لماذا لا تقضي الليلة معي "؟

" كنت أريد أن أعود إلى المنزل لأنني سأحتاج باكرًا إلى بعض الأوراق والكتب للكلية ".

" امكث معي الليلة، وباكرًا تستطيع أن تصل بالأوتوبيس إلى منزلك ثم تتوجه إلى الجامعة ".

" وَهْوَ كذلك ".

سارا سويًّا مسافة قصيرة في شارع القصر العيني. ثم قال عزيز: " ما رأيك. نمشي قليلاً على النيل "؟

" لا مانع ".

حفيف الأشجار كالهمس في ريح الليل، وأوراق الأشجار الضخمة المنتصبة على جانبي الطريق ترتعش كقطع من الفضة في ضوء القمر. سارا بخطوات بطيئة فوق الرصيف العريض، وإلى جوارهما انسابت مياه النيل عميقة تلمع في ضوء القمر، وتنتقل الظلال على سطحها من السواد المطلق إلى البياض الساحر الرقيق كأن أصابع خفية تعبث بها. كل شيء في الليل يبدو غامضًا وساحرًا ومفعمًا بالاحتمالات. خليط غريب من المشاعر ينتابه كلما مشى هكذا في الليل، خليط من الحزن المرهف، والأمل الحالم في عالم من الخيال وشذرات خاطفة مفككة من ذكريات الماضي تبدو كالكلمات المتقاطعة والتساؤل الذي لا يهدأ عن المستقبل الذي لا أمان له، أو ربما هكذا دون سبب. التساؤل المستمر الذي يسكن أحيانًا في الأعماق ولكنه موجود على الدوام، يتوارى أحيانًا ليعود أكثر

إلحاحًا في كل مرة، ماذا فعلت بحياتك؟ ماذا تريد في النهاية من كل هذا؟

قطع عزيز الصمت فجأة:

" يا عماد هناك شيء يضايقني ".

" ماذا يا عزيز "؟

" أنت تعرف أنني تعودت دائمًا أن أكون الأول في الدراسة ".

" أعرف هذا ".

" ولكن في هذه السنة، وهي سنة البكالوريوس كما تعلم لم تتح لي فرصة المذاكرة المنتظمة. أنا أحضر الكلية بانتظام، وأجهد نفسي في أعماق المستشفى وأكشف على حالات كثيرة مع أسعد أو بمفردي، ولكن بعد ذلك تستوعبني السياسة تمامًا ".

" جزء من التضحية يا صديقي ".

" أعلم هذا. ولكنها تقلقني مع ذلك. فلا زلت أعتز بتفوقي في الدراسة وأشعر أنها مهمة. وأحلم باليوم الذي سأمارس فيه مهنتي لدرجة أنني أصبت بحالة عصبية غريبة وهي العجز عن الإمساك بالقلم أثناء الكتابة. فعندما أمسك به تنتابني تقلصات مؤلمة للغاية في عضلات اليد، ويقع القلم من يدي كأنني أقبض على قطعة من الصابون، لا تكاد تستقر بين أصابعي حتى تنفلت من بينها.

" وهل استشرت أحدًا من الأطباء "؟

" نعم ذهبت إلى الأستاذ أخصائي الأمراض العصبية. فقال لي أنها حالة نادرة اسمها " اعتقال الكاتب ". وهو مرض يصيب الكتاب عادة نتيجة لشدة الإرهاق. وظن أنني أريد أن أؤجل الامتحان، فعرض علي أن يكتب لي شهادة بذلك. ولكنني رفضت وقلت له أنني سأعود إليه قبل الامتحان إذا استمرت الحالة ليعطيني شهادة تفيد أنني عاجز عن الكتابة.

وعندئذ ربما أمكنني تقديمها إلى العميد حتى يخصص لي واحدًا من كتبة الكلية أملي عليه إجابات الامتحان التحريري ".

ضحك عماد كأنه تذكر شيئًا طريفًا فجأة ثم قال:

" مرض من أمراض الشواذ العباقرة. هون على نفسك. ليس الأمر خطيرًا إلى هذه الدرجة ".

" أنا لا أرى ما يضحك يا عماد. الواقع أنها مسألة تقلقني. أشعر أن هذا القلق يزيد الحالة سوءًا ".

" إذن لا تفكر فيها. لابد أنك ستشفى منها ".

" ربما، ولكن متى؟ قرأت في كت اب الأم راض العص بية أنه ا مستعصية ".

صمت عماد قليلاً وكأنه يفكر. كانا ق د وص لا بج وار الس فارة الإنجليزية. الأضواء على الضفة الأخرى تتلألأ، والني ل يمت د أمامه ا عريضًا ساكنًا كبحيرة من الفضة المنصهرة. الجزيرة الخض راء تب دو غامضة غير واضحة الحدود ترتفع أش جارها إل ى الس ماء، وتتماي ل الأغصان بحركات بطيئة هادئة في الريح، وعلى الجانبين أضواء كوبري قصر النيل، وكوبري الإنجليز في صفين منتظمين تمرق بينهما السيارات مثل الحشرات الصغيرة الفوسفورية.

" ألا تعرف السبب؟ فربما لو عرفت السبب اس تطعت أن تع الج العلة".

" لا أعرفه بالضبط. ولكنه ربما يكون ذلك الصراع الذي أشعر به بين المهنة التي تشدني من جانب، والسياسة التي تش دني م ن الجان ب الآخر. وربما يرجع أيضًا إلى إحساسي بأنني لست مس تعدًا للامتح ان

بالمستوى الذي تعودت عليه. ولذلك عمل عقلي الباطن على اختلاق حالة مرضية أستطيع بها أن أتهرب من الامتحان ".

" من قال لك كل هذا؟. الأستاذ "؟

" لا الأستاذ لم يقل لي شيئًا. كان مستعجلاً. وكانت حجرة الانتظار مكتظة بالمرضى المنتظرين. وأنا طبعًا لم أدفع له أجرًا لأنني طالب طب، فأبى أن يتقاضى مني شيئًا. اكتفى بأن شخص الحالة، وعرض علي كتابة الشهادة المرضية التي رفضتها ".

" إذن فأنت محلل نفساني "؟ قالها في شيء من السخرية.

" لم أقرأ إلا قليلاً في علم النفس ولكنني أحاول أن أفهم. أشعر أنني أمر بمرحلة ليست عادية، وكأن أشياء كثيرة ستحدث في السنين المقبل ة. وأشعر بقلق دفين لا يبارحني ".

" يا عزيز أنت تبالغ. المثقفون هكذا يبالغون دائمًا، خصوصًا عندما تتعلق المسألة بذواتهم ".

" ربما. ولكن هذا هو ما أشعر به ".

وجدا نفسيهما عند نهاية الرصيف المطل على النيل، فعادا أدراجهما بخطوات بطيئة. أحس عزيز أنه يستطيع أن يمشي هكذا حت ى الفج ر، فالطبيعة تدخل على نفسه شعورًا عميقًا بالراحة. ومع ذلك لا يجد الوق ت ليراها بملء عينيه، ويستوعبها بملء فؤاده. كان يحس بها أحيانًا في لمحة خاطفة وهو يركب الأوتوبيس في الصباح، شجرة تهتز أوراقها في نشوة، أو زهرة بنفسجية تلتقطها عيناه وهو يسرع الخطوة إلى الكلية، أو قطع ة من السماء الصافية تطل عليه عندما يستيقظ في الصباح مرهقًا من كث رة السهر، ومن حركته الدائبة التي لا تنقطع حتى ساعة متأخرة من اللي ل، متنقلاً بين شوارع القاهرة وأزقتها، في سلسلة متصلة من الاجتماع ات،

والمقابلات، والمناقشات. كان يعود آخر الليل، ليجد أمه تنتظره بصينية الأكل، تجلس أمامه بعينين فيهما تساؤل يزداد فيه القلق. لم تعد تفهم ماذا جرى له، ولم تعد تدرك معنى الناس الغرباء الذين يفدون عليه في كل ساعة من ساعات النهار والليل، تبدو على ملابسهم، وعلى وجوههم أنهم من أحياء المدينة الفقيرة. إنه يلتهم طعامه دون أن يتكلم في أغلب الأحيان، ثم يأوي إلى فراشه، أو يجلس في حجرة المكتب أمام كتبه محاولاً أن يعوض الوقت الذي فاته.

قطع الصمت من جديد بسؤال مفاجئ.

" يا عماد. هل عرفت الحب "؟

" الحب. ما معنى هذا السؤال المفاجئ "؟

" ألم تحب أبدًا "؟

سكت عماد لحظة طويلة كأنه يسرح في شيء بعيد. ثم قال في صوت خفيض كأنه يحدث نفسه:

" نعم. عرفت الحب ".

انتظره عزيز لكي يستطرد.

" وما زلت أحبها. زميلة في الكلية. صوتها جميل وتهوى الغناء، أزورها حتى الآن في بيتها، عرفتها عن طريق أخيها فهو صديقي. وهو يضرب على العود. ولكنني أحس أن أهلها يتطلعون إلى من هو أغنى مني. ضحك وقال: ولكن ماذا فكرك بالحب؟ كنت أعتقد أن حياتك لا ينقصها هذا الجانب ".

كانا قد وصلا أمام البيت. ضغط عزيز على زر النور وصعدا السلم سويًا حتى الدور الثاني. فتح الباب وأضاء النور في الصالة. عبر إلى الداخل وتبعه عماد وهو يمسك بيده ليعرف الطريق.

* * *

دخلوا الواحد خلف الآخر من الباب المـ بطن بـ ـالجوخ الأخضـ ـر، والموشى بمستطيل منتظم من الرؤوس النحاسـ ـية المسـ ـتديرة اللامعـ ـة، ليجدوا أنفسهم في حجرة خطفت أنفاسهم من شـ ـدة ضـ ـخامتها. تـ ـرددوا كالمشدوهين أمام مساحات الحجرة غير المألوفة، وجدرانها وأثاثها، كالذي يخرج من الظلمة إلى النور فجأة فيجد نفسه عاجزًا عـ ـن الرؤيـ ـة لمـ ـدة دقائق، فأشار إليهم الرجل المرافق بيده الممدودة وقال: " تفضلوا " استأنف الجمع الصغير سيره بخطوات يختنق وقعها، ويتلاشى، في البساط الناعم السميك ذي الرسوم الملونة الفارسية. توقفوا على مسـ ـافة قصـ ـيرة مـ ـن المكتب العريض المصنوع من خشب الماهوجنة الداكن، يبـ ـدو كالكتلـ ـة الراسخة التي لا يمكن أن تبلى أو تتزحزح مهما طال الزمن، ومهما وقع من أحداث خطيرة. وبحركة لا إرادية، وكأنهم قد اتفقوا عليها سلفًا شكلوا أنفسهم نصف دائرة يتوسطها خليل، وبجواره حسين وعماد.

الحجرة الفسيحة يخيم عليها صمت مطبق. فلا صوت يسـ ـتطيع أن ينفذ من خلال الجدران السميكة القوية وكأنها جدران قلعة عاتية بنيت لكي تحمي من بداخلها، ولا من خلال الأبواب المزدوجة المبطنـ ـة بـ ـالجوخ. فينبغي ألا تقلق أصوات الشارع، وصيحات الناس، وأنات الجوع، أولئـ ـك الذين يتصرفون في شئونهم، ويدبرون، ويفكرون. وينبغي ألا تصل إليهم روائح العرق، والأزقة العفنة، والكهوف الآسنة التي تكتظ بأجساد البشر، والمجاري الطافحة في الشوارع والحواري، فهنا في محراب الحكم كـ ـل شيء يجري في هدوء ونظام، بعيدًا عـ ـن ضـ ـجة الحيـ ـاة وسـ ـخونتها، وانفعالاتها. والذي يصل هنا لابد أن يكون صاحب حظوة خاصة، حتـ ـى يجتاز المسافة التي تفصل بين الباب الخارجي المصـ ـنوع مـ ـن الحديـ ـد،

والمطل على الشارع العريض المغطى بالأسفلت الأسود اللامع النظيف من كثرة الرش والكنس، وبين الباب الداخلي المبطن بالجوخ الأخضر المطل على حجرة رئيس الوزراء، مسافة قصيرة لا تتعدى المائة متر، ومع ذلك فهي طويلة، طويلة للغاية. فإذا أردت أن تعبر هذه المسافة القصيرة الطويلة سائرًا فوق أرض الفناء الداخلي بمربعاته من الحشيش الأخضر الناعم، وبمسالكه المغطاة بالبلاط الأصفر والأحمر، وفوق الدرجات المصنوعة من الرخام الأبيض الأملس، وداخل المصعد اللامع وكأن طلاءه يجدد كل يوم، وعبر الردهة الطويلة حيث يتحرك الناس كالأشباح التي تخشى أن يلحظها أحد، لتصل إلى غرفة السكرتير، ثم مدير المكتب، ولتقف في النهاية بأنفاس قلقة أمام الباب المبطن بالجوخ الأخضر الذي يفتح على حجرة معالي الوزير، وكأنك تقف أمام محراب مقدس يستلزم السجود، والخشوع، وانحناء الرأس، والسير بخطوات محسوبة، والنطق بعد الاستئذان، إذا أردت أن تعبر هذه المسافة لابد أن تجتاز أيضًا سلسلة طويلة من العيون المحملقة، المتسائلة، المتشككة، تطل عليك من الوجوه الباردة الحليقة، تحت الطربوش الأحمر، وفوق رباط العنق المزركش، والياقة البيضاء المنشاة، عيون تفحص حذاءك، وملابسك، ووجهك بنظرة سريعة مدربة، وتتساءل عن أصلك وفصلك، وعائلتك، وتحدد من أي طبقة جئت. فالمسافة التي تفصل بين الباب الأسود المطل على الشارع، والباب الأخضر المطل على معالي الوزير هي الهوة السحيقة المحفورة منذ قديم الزمان، منذ أن وجد على الأرض من يملك ومن لا يملك، والتي تصل بين الحكام والمحكومين، بين الذين ينتمون إلى طبقة الحكام، أو يتسلقون السلم المتعرج الملتوي إليها، أو

يلهثون وراءها، وبين الذين تطل من وجوههم المتربة نظرات الإصرار المرهق.

ومع ذلك فقد وصلوا إلى الباب الأخضر، بل مروا من خلاله. وصلوا إلى موجة الجماهير الزاحفة فوق الجسور، وعبر الشوارع مكتسحة من يقف في طريقها. ونفذوا إلى القلعة العاتية، فوق أجساد الذين سقطوا في مياه النيل العكرة، وعلى التراب تحت الأشجار، وفوق الأسفلت الأسود الساخن. وهم يقفون الآن في الحجرة الفسيحة اللمبات الوامضة وسط قطع الكريستال الملونة، يقفون وقد تملكتهم ذات الأعمدة المستديرة من الرخام الأملس وتحت النجفة المضاءة بعشرات مشاعر مختلطة من الرهبة، والخوف، والتحدي، والإدراك الغامض المندفع بشيء جديد قوي يولد. جمع صغير من الفرسان الفتيان ألقوا بأنفسهم في المعترك المتلاطم المجهول وهم لا يعلمون الكثير عن الطريق الوعر الذي يمتد أمامهم، ولا عن القوة العاتية المحنكة المتربصة في الظلام، جمع صغير لا يعرف الكثير عن نفسه، ولا عن أفراده، ولا عن الدوافع الظاهرة والخفية التي قادت كل واحد منهم إلى هذا المكان.

خلف المكتب الكبير جلس الرجل تطل عيناه كالخنجرين البارزين من وجه الطفل المبتسم البريء. وعلى الجانب الأيمن من المكتب وقف رجل صامت يرتدي طربوشًا طويلاً في لون النبيذ، ونظارة سوداء تخفي عينيه تمامًا، ينظر أمامه دون أن تصدر عنه أقل حركة أو إيماءة، يبدو كالتمثال الأعمى الذي لا يرى شيئًا ولكنه يسمع. في الناحية الأخرى جلس رجل آخر، الوجه المتغضن تبدو عليه علامات البلادة الشديدة، والشارب المبروم ذو الأطراف الرفيعة مصبوغ بلون أسود. عيناه صغيرتان تفحصان كل شيء بغباء ماكر. يرتدي طربوشًا وضعه فوق رأسه بميل

خفيف مدروس، ورباط عنق أسود كبير تتخلله نق ط بيض اء، ك االأرز المتناثر، يضفي عليه ادعاءً للفن، وساعة مسلسلة فضية سميكة تمتد عبر البروز المتكور المتراكم عند أسفل بطنه وكأنه محمول على حجره.

وقف الرجل الجالس خلف المكتب، ودار حوله بخطواته الراقص ة المرتعشة مسندًا عجزه إليه ليواجه الجمع الصغير من الش باب المنتظ ر وسط الحجرة، رمقهم بنظرة نافذة من عينيه المعدنيتين ثم بدأ يتكلم بصوته الهادئ.

" طلبت مقابلتكم لنتناقش. أنتم شباب مثقف ولذلك سنتفاهم بسهولة. لقد نمى إلى علمي أنكم تعدون للقيام بعملية شغب يوم ٢١ فبراير، وأن ا أريد أن أحذركم من مغبة مثل هذا العمل. لا تظنوا أن حكومتي تخشى أي شيء ستعملونه. فهي تستطيع أن تتخذ الإجراءات الكفيلة بحماية الأم ن. ولكنني أحدثكم من زاوية مصلحة البلد. نحن نريد أن نتعاون مع المثقفين في جو من الهدوء. وأنا أكرر كلمة الهدوء " ... صمت لحظ ة طويل ة وكأنه يريد أن يرى أثر كلماته على وجوه الواقفين أمامه، ث م اس تطرد بنبرة فيها لين، وشيء قريب من الاستعطاف.

" أنا رجل لم يبق لي في الحياة كثيرًا وقد خ دمت ال بلاد س نين طويلة. والآن أريد أن أختم حياتي بعمل كبير هو أمل كل رجل وطن ي. أريد أن أحقق الاستقلال. ولكن حتى أتمكن من العمل في جو ملائم لاب د أن تبقي البلاد هادئة. نحن أعلم منكم في أمور السياسة. والخص م ال ذي نواجهه خصم عنيد ومحنك. أنتم شباب متعلم وتس تطيعون إدراك ه ذه الحقيقة بسهولة. واتصالكم بالدهماء أمر غير مفهوم. أليس من الأفضل أن تتعاونوا مع الحكومة في تحقيق هذا الهدف النبيل؟ ".

سكت عن الكلام وتطلع إليهم كمن ينتظر إجابة على سؤاله. فتق دم خليل خطوة قصيرة إلى الأمام واضعًا ذراعيه خلف ظهره وب دأ ي تكلم بصوت تشوبه رعشة خفيفة:

" معالي الباشا، نريد أن نعرف ماذا ستكون وسيلتكم ف ي تحقي ق الاستقلال ".

" أليس من الأفضل أن تتركوا شئون الحكم لرج ال الحك م، وأن تنصرفوا إلى دروسكم وإلى مستقبلكم؟ ما لكم أنتم وهذه المسائل. ولم اذا تختلطون بالرعاع وتتصلون بالعمال، وتثيرون الف تن؟ ه ل ه ذه ه ي وسيلتكم لخدمة البلاد "؟

تنحنح الرجل الجالس في المقعد بكرشه المت ورم وربط ة عنق ه المنتفخة حول رقبته وفوق صدره:

" لو سمحت لي يا معالي الباشا " ... ثم موجهً ا كلام ه للجم ع الصغير:

" أنتم في منزلة الأبناء عندي، ولذلك أريد أن أقدم لك م النص يحة عسى أن تعملوا بها. لماذا لا تعقدون الندوات الأدبية في حرم الجامع ة، وتلقون القصائد الوطنية، وتستمعون إلى بعض الكلمات من ذوي العق ل الراجح، أو تدعون بعض الوزراء للاستماع إلى رأيهم في الموق ف. ث م تنصرفون في هدوء وتعودون إلى قاعات المحاضرات وإلى تحصيل العلم تاركين الأمور للأيدي الأمينة التي تتولى شئون البلاد في هذه المرحل ة الحرجة "؟

التفتت إليه عيون الواقفين بنظرة اختلطت فيها الدهشة بشيء أقرب ما يكون إلى السخرية الصامتة، ثم تحولت من جديد إلى الرجل الواق ف نصف وقفة أمام المكتب الكبير دون أن يتعلق بشيء، وكأنما أحد لم يتكلم

... حركة لا إرادية آلية ندت من الجميع تشبه حركة اليد عندما تطرد ذبابة سخيفة من على وجه صاحبها.

كرر خليل سؤاله بصوت تخللته نبرة خفيفة من التحدي.

" يا معالي الوزير أقول أننا نريد أن نعرف ماذا ستكون وسيلتكم في تحقيق الاستقلال ".

بدا على الوجه الجامد للرجل المنتصب بجوار المكتب وكأن عضلاته تتصلب تحت الجلد المشدود، واهتزت النظارة السوداء هزة خفيفة دون أن يظهر من خلفها ما يوحي بأكثر من القسوة المستترة.

جاء الصوت الهادئ عبر المسافة بكلمات ترن كضربات مطرقة صغيرة على سطح لوح من المعدن الصلب السميك.

" وسيلة حكومتي هي المفاوضات ".

" المفاوضات مستمرة منذ سبعين عامًا، ولم يخرج الإنجليز ".

" ولكنهم قد أعطونا تأكيدات بالجلاء هذه المرة ".

" والوعود مستمرة منذ سبعين عامًا أيضًا ".

" ماذا تريدون إذن "؟

" نريد أن نقول أن قوة الشعب وراء الحكومة هي التي سترغم الإنجليز على الجلاء ".

" وهذا هو بالضبط ما أطلبه. أن يساند الشعب حكومته في الخطوات التي تتخذها. فينبغي ألا يشعر الخصم بأي خلل أو انقسام في صفوفنا. إننا نطلب منكم أن تعطونا ثقتكم وأن تتركونا لكي نعمل ".

تدخل حسين في الحوار فجأة قائلاً:

" ولكننا لا نثق في طريق المفاوضات. الجلاء أولاً وقبل كل شيء وبدون شروط ".

التفت إليه الرجل بحركة بطيئة جانبية من رأسه ثم قال:

" هل أفهم إذن أنكم مصممون على الاستمرار في إثارة الشغب "؟

ساد السكون التام في الحجرة كأن كل شيء تجمد في مكانه:

" ما زلت أنتظر الإجابة على سؤالي ".

جاء صوت عماد هادئًا رزينًا ينطق الكلمات كأنها تجر بعضها جرًا بطيئًا.

" نحن مصممون على أن الجلاء لا يتحقق إذا لم يتحرك الشد عب. ولم نعد مستعدين لقبول المفاوضات ".

مرت نظرة الرجل الباردة الثقيلة على الجمع وقد تحولت عيناه إلى لون الرصاص، لا شيء فيهما سوى قسوة رهيبة لا ترحم.

" إذن أريد أن أحذركم من مغبة الطريق الذي تسيرون فيه. إنه طريق محفوف بالمخاطر على مصالح البلاد العليا. والحكومة ليست على استعداد لأن تترك أحدًا ليعبث بهذه المصالح. ستضرب بيد من حديد على كل من يثير الفتنة ويحرض الغوغاء. ولتكن هذه المسألة واضحة. على العموم ما زال أمامكم متسعًا من الوقت للتفكير قبل يوم ٢١ فبراير. وأنا مستعد لاستقبال أي عدد منكم يطلب مقابلتي في الأيام القادمة ".

لوح بيده إلى الرجل ذي النظارة السوداء. فتقدم إلى الباب المبطن بالجوخ الأخضر مشيرًا إليهم بالانصراف. ساروا في طابور صامت إلى خارج الحجرة، وعبروا الدهليز الطويل، وهبطوا الدرجات الرخامية ثم اجتازوا الحوش الداخلي للوزارة حتى الباب الحديدي الأسود المفضي إلى الشارع. تابعوا سيرهم حتى وجدوا أنفسهم واقفين أمام مطعم صغير للفول. قال عماد:

" هيا بنا نأكل شيئًا. أشعر بجوع قاتل. ويمكننا أن نتداول أثناء الأكل ".

جلسوا عشرة أفراد حول منضدتين عاريتين من الرخام المشقوق فأسرع إليهم الجرسون. سأل عزيز:

" ماذا تأكلون "؟

اختلطت أصواتهم بضجيج المقاعد تحتك ببلاط الأرض، فصاح عزيز:

" واحد واحد. لم أسمع شيئًا ".

" حيث إنك ستدفع الحساب أقترح أن تتولى عنا الطلبات ".

التفت عزيز إلى الجرسون الواقف بجوارهم:

" عشرة فول بالزيت. وسلاطة وعشرين بيضة مسلوقة وخبز ".

انصرف الجرسون وهو يردد الطلب بصوت عميق مريح للأذن: عشرة لوز بالزيت وسلاطة " ...

قال عماد:

" ما رأيكم في اللقاء مع العجوز الماكر "؟

ساد الصمت لحظات ثم أجاب حسين بصوته الأخف، ناطقًا الكلمات في شيء من التردد، كأنه يفكر فيما يقول:

" أعتقد أنه كان لقاءً موفقًا فقد تكلم كل منا بالقدر اللازم في الوقت المناسب. وقد أوضحنا وجهة نظرنا بطريقة حاسمة ".

ارتفعت بعض الأصوات تؤمن على كلامه بينما استمر الباقون في صمتهم. ثم رفع خليل يده كأنه يستأذن في الكلام فالتفت إليه الجميع منتظرًا:

" رأيي أننا قلنا ما يمكن أن يقال في هذا الموقف، فينبغي ألا نطلب المستحيل ".

سأل عزيز:

" ماذا تقصد بالممكن وبالمستحيل "؟

ارتفعت الضحكات من تحت المنضدة. وصاح عماد بصوت مرح:

" أنت دائمًا هكذا يا عزيز متعب. كف عن المعاكسة ".

" أنا لا أعاكس. أنا لم أفهم فعلاً ".

" وما الذي لم تفهمه ".

" ما هو الممكن، وما هو المستحيل؟ ".

" يبدو أنك غير راضٍ عن اللقاء ".

" إلى حد ما ".

قاطعهما حسين في شيء من العصبية.

" ولماذا يا دكتور عزيز "؟

" أحسست بأن موقفنا لم يكن قويًا ".

" ولماذا لم تتكلم أنت إذن، حتى تضيف أنت الكلام القـ وي الـ ذي يجب أن يقال ؟".

" ما يحدث الآن جديد عليَّ تمامًا. وعندما كنا أمام الرجل أحسست بالاضطراب ولم أعرف بالضبط ماذا ينبغي أن يقال. "

تدخل عماد في المناقشة من جديد.

" وماذا تقترح الآن إذن ؟".

" لا شيء. أنا أعبر عن شعوري فقط ولكنني أفكر الآن في أشـ ياء أخرى ".

" ما هي؟ ".

" أحس أنهم لن يتركونا في حالنا. أعرفت الرجل الذي كان واقفًا بجوار صدقي باشا "؟

" نعم وزير الداخلية ".

همس خليل في صوت خفيض وقد شحب وجهه قليلاً.

" إذن ينبغي ألا نبيت في بيوتنا الليلة ".

قال عماد:

" هذا أفضل. ومن المهم الإسراع في الاستعدادات الخاصة بيوم ٢١. أقترح أن ننصرف في مجموعات صغيرة، وأن نلتقي غدًا في ملاعب كلية الطب ".

نادى عزيز على الجرسون ودفع الحساب. ثم التفت إلى حسين وقال:

" إذا لم يكن عندك مانع يا حسين أقترح أن نخرج سويًا وأن نبيت في الشقة التي استأجرها أخوك بالأمس ".

" وهو كذلك. هيا بنا ".

* * *

في الزنزانة الرطبة الضيقة التي لم يغادرها منذ أكثر من شهرين إلا للتحقيق أو لمواجهته بأحد المتهمين كان يسترجع حياته الماضية بعمق لم يألفه من قبل. فظروف الحياة نفسها، وتتابع أحداثها السريعة، كانت قد حالت دون أن يجد الفرصة الكافية ليفكر في كل شيء ويتأمله ويستنتج منه ما كان يجب أن يستنتج. وهو يشعر الآن كأنه يعيش حياته من جديد، بمعاناة حقيقية وبانفعال بلغ مداه، فلأول مرة تبلور إحساسه بالمخاطر التي تحيط به ولأول مرة زحف عليه الإدراك الغامض بأن هناك نهاية لحياته اسمها الموت.

وفي الصباح بينما هو مستلق على البطانية الخشنة البنية اللون فوق السرير الملتصق بالحائط الذي يفصل بينه وبين سيد، أحس بسخونة الدماء ترتفع في وجنتيه عندما تذكر ذلك اللقاء التاريخي بين ممثلي الطلبة وبين صدقي باشا. فقد شعر في أعماق نفسه أن موقفه آنذاك كان قد شابه كثير من التردد، بل ومن الخوف.

ولكنه عندما يفكر في الأمور مليًا، وعندما يسترجع كل الظروف التي كانت تحيط به وبهم، يشعر بشيء من راحة الضمير. لقد وجدوا أنفسهم فجأة محمولين على موجة ثورية عاتية، بل وجدوا أنفسهم في موقع القيادة لهذه الحركة الثورية، لا يساندهم إلا حماسهم المندفع، وإدراكهم الفطري لما ينبغي أن يعمل لتوجيهها وتنظيمها. ولم يكن شاذًا بالنسبة له على الأقل، وهو ما زال على هامش هذه التجربة الجديدة الخطيرة، ولم يخرج إلا حديثًا من قوقعة الكلية، والدراسة، والمنزل، وعدد محدود من الأصدقاء، أن ينتابه قدر من الاضطراب والتردد والخوف. ومع ذلك لم يستطع أن يتخلص تمامًا من الشعور بأنه كان من الممكن، بل من الواجب أن يتخذ موقفًا أكثر جرأة وإقدامًا من الموقف الذي اتخذه.

تنهد، وانقلب على جنبه موجهًا وجهه إلى الحائط كأنه مذنب. ما زال يشعر بشيء من الخجل. مأساة الحياة أن الإنسان لا يصل إلى النضوج الحقيقي، وإلى اكتمال قدرته على أن يعطي أقصى ما يستطيع أن يعطيه، إلا عندما يقترب من نهايتها، كالنحل كتب عليه الموت بعد الإخصاب. ربما يكون هذا أحد الأسباب التي تدفع الإنسان للبحث عن وسيلة لإطالة العمر. قرأ في يوم من الأيام أن العلماء يسعون إلى اختصار سنين الشباب بالتأثير في تركيب الخلايا حتى ينضج الإنسان

مبكرًا ... لم تكن هذه المسائل تشغله من قبل. إذا خرج هذه المرة لابد أن يهتم بها. الشباب الحقيقي هو أن تتجدد، أن تتمرد دائمًا على ما هو قائم. الشيخوخة هي الجمود. ولكن العالم يتغير بسرعة. والأشياء تفنى لتحل محلها أشياء جديدة، وقوى الشباب تزحف عليك لتتخطاك وتقضي عليك. هل تستطيع أن تلاحق هذا السباق المندفع الذي لا يتوقف؟ مأساة قاسية حقًا. ما إن تعي حتى تقترب النهاية.

انقلب على ظهره وأخذ يحملق في السقف. الأسئلة تتسابق في ذهنه في حلقة جهنمية لا ترحم. أمسك برأسه بين يديه كأنه يخشى عليها من أن تنفجر. وأحس بجسده ضعيفًا واهنًا، يكاد يعجز عن الحركة كأنه يسقط بالتدريج في نصف غيبوبة، في عالم غريب من الصور الممزقة، والخواطر المحمومة. مر الوقت دون أن يشعر بسريانه وبما يجري حوله وفجأة فتح عينيه ليجد محمدًا واقفًا إلى جواره يحملق في وجهه بشيء من الاندهاش.

" صباح الخير يا دكتور عزيز ".

" صباح الخير يا محمد ".

" ألا تريد أن تخرج قليلاً من حجرتك "؟

أحس بقلبه يسرع.

" طبعًا ".

" هيا بنا إذن. ارتدِ شيئًا في قدميك، وخذ معك المنشفة، والصابون وغيارًا نظيفًا. فمنذ اليوم سيسمح لكم باستخدام دورة المياه والحمام مرتين في اليوم، وقد جاء دورك ".

جلس على حافة السرير وارتدى خفيه ثم تبع محمدًا إلى خارج الحجرة. كانت الشمس ساطعة تنفذ من خلال جسمه حتى العظام. أحس

بدفئها يغمره. رفع عينيه إلى السماء الصافية وإلى سحابة بيضاء خفيف ـة تتحرك برقة عبر المساحة الزرقاء الممتدة إلى آخ ـر الرؤي ـة. استنش ـق الهواء النقي بنفس عميق، وسار خلف محمد متجهًا إلى المبن ـى المرب ـع المنخفض في وسط الحوش. وجد نفسه أمام سترة خشبية رفيعة مغروسة في الأرض الرملية على عمودين طويلين. دار حول أحد جوانبها لي ـدلف إلى داخل المبنى من خلال الفتحة العريضة التي تقود إلى داخله.

توقف محمد عند أول الفتحة وقال:

" ادخل وسأعود إليك بعد قليل ".

تقدم إلى الداخل ليجد صفاً من أحواض الصيني البيضاء تصب فيها صنابير مياه نحاسية، وأربعة أبواب مغلقة تصل إلى نصف المساحة ب ـين الأرض والسقف. الجدران، والأرض، والأحواض والصنابير كلها لامعة نظيفة. دار بعينيه حول الأشياء المختلفة المألوفة التي افتقدها مدة طويلة، واستنشق رائحة الفنيك، والصابون بارتياح. فتح أحد الأبواب ليجد خلفه " دشًّا " معدنيًّا طويلاً يلمع مثل النيكل. أحس بسعادة غ ـامرة وه ـو يخل ـع ملابسه ببطء ويستمتع بكل لحظة تمر، وبكل حركة من حركات جس ـمه، كأن عضلاته، وشرايينه، وأعصابه المعطلة تبعث فيها الحياة من جدي ـد. علق ملابسه فوق المسمار البارز المثبت في الباب، ووقف حافي القدمين فوق البلاط ثم فتح الصنبور وترك المياه تنسكب فوق جس ـمه ك ـالمطر البارد والمنعش يخطف أنفاسه. دعك نفسه بالص ـابون والليـ ـف م ـرتين ضاغطًا بعنف على جلده، ومارًا بعناية على كل جزء من أجزاء جس ـمه. وقف تحت المياه المنهمرة مدة طويلة كأنه يريد أن يتخلص من كل الآثار المتراكمة خلال الأيام والليالي الطويلة التي قضاها في الحج ـرة الض ـيقة المغلقة وسط الروائح الكريهة، والحشرات الزاحفة من كل فج في الجدران

والباب. ثم أخذ يجفف نفسه بالمنشفة في حركات قوية منتظم ـة. ارت ـدى ملابسه النظيفة وأحس بالدماء الساخنة تتدفق في أوصاله غزيرة مندفع ـة كغزارة الحياة واندفاعها. فتح الباب وخرج. لمح شخصًا منحنيًا أمام أح ـد الأحواض، رفع رأسه عندما سمع الباب يفتح، واستدار لي ـرى مص ـدر الصوت، ففوجئ عزيز بسيد يقف أمامه والمياه تتساقط من وجهه ويدي ـه فوق ملابسه وعلى الأرض. اندفع نحوه بحركة تلقائية ففتح سيد ذراعي ـه الطويلتين، وصدره العريض، وتشابكت الأذرع حول الجس ـمين وأخ ـذت تضغط بشدة وكأنها تريد أن تعتصر ذلك الشيء العزيز ال ـذي تحتوي ـه، وتمنعه من أن يفلت منها، أو كأنها تخنق في هذا العناق الطويل العني ـف كل آلام وأحزان الأيام الماضية. أحس بنقط ساخنة تسقط فوق أذنيه تتابع الواحدة بعد الأخرى، وطعم الملوحة في فمه. ابتعدا عن بعضهما.

" أتبكي يا عزيز؟ يا للفضيحة ".

" وأنت يا سيد. إنك تبكي أيضًا ".

ندت منهما ضحكات طويلة، رنت تح ـت س ـقف البن ـاء بص ـوت مجلجل، ضحكات استمرت وتصاعدت كالنغم المفع ـم بس ـعادة غ ـامرة، عميقة، لا تعرف الحدود. وفي تلك اللحظة الغريبة من لحظات العمر، في دورة للمياه محاطة بفناء واسع من الرمل وصف مستطيل ومن ـتظم م ـن الأبواب المغلقة يحيا فيها الناس كالحيوانات في قفص من الحديد، وق ـف سيد وعزيز يضحكان بملء صدريهما، وقد نسيا كل شيء في الدنيا، ك ـل آلامها، وعذابها، وهوانها، ومخاطرها، نسيا كل شيء سوى حقيقة واحدة أروع من كل الحقائق، وأهم من كل الحقائق، هي أنهما هن ـا عل ـى قي ـد الحياة يقفان بساقيهما على الأرض، ورأسيهما مرف ـوعتين إل ـى أعل ـى،

والعيون تلمع ببريق كالنور، والدماء تجري وتجري في أجسادهما دون توقف.

مسح سيد عينيه بالمنشفة الصفراء الملقاة على كتفه ثم قال بصوته الدافئ القوي:

" لم أكن أعلم أنك هنا، ولكنني أحسست أنك ستتشرفنا في الغالب، إن عاجلاً أو آجلاً ". صدرت منه ضحكة قصيرة تخللتها نبرة غريبة توحي بالمرارة.

" أما أنا فكنت أعلم أنك هنا يا سيد ".

" كيف "؟

" من محمد "؟

" محمد من "؟

قطب جبينه لحظة ثم انفرجت أساريره عن ابتسامته المشرقة تبدأ من العينين ثم تزحف على الوجه كله كبؤرة من النور تضيء وتنتشر حولها.

" الحارس "؟

" نعم. أصبح صديقي ".

" كن على حذر ".

" طبعًا. ولكن اطمئن. أحسست به إنسانًا منذ أول يوم. ثم أنا لا أقول له شيئًا ".

ساد الصمت قليلاً ثم سأل عزيز:

" كيف حال زوجتك وأولادك "؟

" وصلتني ورقة صغيرة من علية تقول فيها أنهم بخير. لا أدري ماذا يفعلون ولكن علية ستتصرف بطريقة أو بأخرى ". سهم قليلاً ثم قال:

" وأنت "؟

" ليس لدي أخبار ".

" لا داعي للقلق. نادية تستطيع أن تتحمل الأعباء مثلك تمامًا ".

" أعرف هذا. كنت أريد فقط أن أعرف أين هي. على كل حال ليس الآن وقت هذا الكلام. ما رأيك في موقفنا "؟

" موقفنا سيئ. ليس لأسباب قانونية. ولكن لأنهم قد قرروا التخلص منا هذه المرة لمدة طويلة. هجومنا عليهم كان شديدًا في الفترة الأخيرة وسببنا لهم متاعب كثيرة. أعتقد أنهم سيقدموننا إلى محكمة خاصة هذه المرة ".

" أعلمت بموقف حسين "؟

" نعم واجهوني به. وحاول أن يهديني إلى الصراط المستقيم ".
ضحك بصوته المرح الدافئ، ولمعت عيناه العسليتان وغطت وجهه ابتسامة سعيدة.

" ولكنني رفضت، وصممت على أن استقر في الطريق المعوج ".

رنت ضحكته مرة أخرى، فأحس عزيز بمرحه يمتد إليه.

" كيف وقعت يا سيد "؟

" في الشارع. أمسكوا بي عند أول كوبري عباس من ناحية المنيل. كنت أتنزه قرب الساعة السابعة مساءً بعد أن دخنت الشيشة المعتادة في قهوة السلام. كان عندي موعد مع حلمي في فم الخليج فقررت أن أذهب سائرًا على الأقدام. وقرروا هم أن ينغصوا علي حياتي. ففي تلك الليلة كنت في أحسن حالاتي. سعيد، ومنسجم، ومستمتع بالنسيم فوق الكوبري. وإذا بهم ينقضون علي بأيديهم الغليظة، وإذا بي أنتقل إلى هذا المكان "، لوح بيده حوله. رنت ضحكته قصيرة ساخرة هذه المرة. ثم سأل:

" وأنت "؟

" حضروا إلى الحجرة التي أستأجرها في عين شمس قرب الفجر ".

" هل كنت وحدك "؟

" لا. كانت نادية معي. وأخذوها في سيارة منفصلة. رأيتها تـ دخل معنا من الباب الرئيس. وتنزل من السيارة في الحوش الخارجي. ومنـ ذ تلك اللحظة انقطعت عني أخبارها.

" هل يعلم عماد أنك هنا "؟

جاء السؤال كأنه يريد أن ينتزع عزيزًا من أفكاره.

" عماد؟ لا أعرف. أين هو ".

" هنا ".

" ولكنه كان في سجن مصر ".

" نقلوه إلى هنا ".

" يريدون إدخاله في القضية معنا ".

" كيف "؟

" حسين اعترف عليه ".

قال عزيز، وقد تخللت كلماته مرارة مفاجئة:

" عظيم، عظيم. يبدو أننا سنتجمع كلنا في مكان واحد لسنين طويلة. ألم يفلت أحد يا سيد "؟

ساد الصمت ثم فاجأه سيد بسؤال غير متوقع.

" أتظن أنهم سيشنقوننا هذه المرة يا عزيز؟ " لمس رقبته بأصـ ابعه في حركة لا إرادية ومر شيء كالسحابة الداكنة فوق عينيه فتعكر لونهما الصافي.

صمت عزيز لحظة. بماذا يجيب؟

" لا أظن يا سيد. ليست مسألة سهلة. غريب أن تفكر في هذا. ألـ م تواجه الموت كثيرًا، أنت بالذات "؟

" الموت بالرصاص، ولكن ليس بالحبل ".

" وما الفارق "؟

" لا أعرف بالضبط. لا أعرف لماذا اقشعر من فكرة الموت شنقًا ".

ساد الصمت من جديد. في الخارج سمعا أصوات خطوات تقترب.

قال عزيز بسرعة:

" سأرتب لقاءً آخر معك، ومع بعض الآخرين، هل تريد شيئًا "؟

" لا. سلم على حلمي إذا قابلته ".

ابتسم وقال: " إلى اللقاء ".

ظهر محمد في فتحة الباب. لمعت أسنانه البيضاء بين شفتيه وقال:

" هل انتهيتما "؟

رد عزيز:

" إذا كان من الممكن أن نبقي قليلاً " ...

" يستحسن ألا يطول بقاؤكما هنا سويًا. فقد يلاحظنا أحد "

" هيا بنا إذن ". مد عزيز يده إلى سيد وتشابكت أصابعهما بقوة ثـ م استدار وخرج من الباب يتبعه محمد. سارا عبـ ر الحـ وش حتـ ى بـ ـاب حجرته. وقف محمد لحظة كأنه يتردد في الانصراف ثم قال:

" أتريد شيئًا آخر "؟

" لا " ... سادت لحظة صمت تلاقت عيونهما أثناءها فـ ي نظـ ـرة خاطفة متأملة. ثم نطق عزيز بهدوء: " متشكر. لن أنسى ما تفعله ".

" لم أفعل شيئًا. كنت أود أن أعمل أكثر من هذا. هـ ذه أول مـ ـرة أشعر فيها بآدميتي منذ سنين طويلة. وأنا مدين لك بهذا يا دكتور عزيز ".

" ولكنني لم أفعل شيئًا على الإطلاق. أنت الذي تفعل كل شيء ".

" أحسست منذ أول لحظة أنك لا تكرهني، إنك تفهمني. وهذا هو ما جعلني أقدم عليك ". التفت خلفه كأنه يطمئن على خلو الحوش مـ ن أحـ د يسمعهما ثم قال:

" سأعود في وقت آخر. السلام عليكم ".

سمع عزيز صوت الباب يغلق في هدوء. مرة أخرى ساد الصـ مت المطبق في الحجرة. نقل المقعد إلى جوار المنضدة ثم جلس عليه واضعًا وجهه بين كفيه، مسندًا مرفقيه على المنضدة.

* * *

كان سعيدًا باللقاء الذي تم، فقد كان سيد أقرب زملائه إلى قلبه. لقد أحب ذلك الشاب المنصوري الذي تعرف به لأول مرة في حجرة صغيرة على سطح أحد البيوت المتواضعة في حي المنيرة. أحس به منذ اللحظات الأولى إنسانًا مرحًا وبسيطًا اكتملت رجولته في سن مبكـ ر. كـ ان دائـ م الضحك والسخرية من كل شيء، ولكنها سخرية فيهـ ا إنسـ انية عطوفـ ة خالية من الحقد أو الرغبة في الهدم. سخرية الشخص الذي يرى الأشـ ياء والناس بل ويرى نفسه بصدق نابع من فطرته السليمة. وفيما بعد، عندما توطدت بينهما أواصر الصداقة، عرف عنه أيضًا الكـ رم الريفـ ي الـ ذي يدفعه إلى اقتسام كل ما عنده مع الآخرين دون أدنى تـ ردد أو تصـ نع – هكذا ببساطة كالينبوع الدافئ الذي يعطي من الأعماق. وعنـ دما تبـ ادلا الأحاديث الطويلة أدرك عزيز أيضًا أن خلف هذه البساطة يكمـ ن الفهـ م العميق للحياة، والتفاؤل الذي لا يحتاج إلى جهد لكي يحافظ عليه.

في ذلك الوقت كان قد عاد لتوه من بورسعيد، تبدو عليه النحافة من كثرة التنقل ومشقة الحياة التي عرفها هناك. وجهـ ه المفتـ وح، وجبهتـ ه

العالية تحت الرأس المستديرة المغطاة بشعر غزير أكرت، لفحتها الشمس، ورياح المساحات المفتوحة فوق البحر باللون البرونزي الذي يميز سكان السواحل. لم يتحدث كثيرًا عن حياته هناك، ولكنه كان يحكي بين الحين والآخر قصصًا مرحة ساخرة عن المآزق التي وقع فيها، تجعلك تدرك أنه يعرف كيف يواجه المخاطر بشجاعة.

ومع ذلك كان يسقط أحيانًا في هوة سحيقة من اليأس الغريب، تلك الظاهرة التي لم يستطع عزيز أن يفهمها إلا حينما أدرك أن ذلك الشاب المرح المقدام قد حمل معه من قريته طبيعة الفلاحين الذين عاش وتربى بينهم. حمل معه تناقضات تجسدت في جنوحه إلى الانتقال من قمة التفاؤل إلى أعمق درجات اليأس، ومن الرغبة في العمل، إلى العزوف الكامل عنه، ومن الصبر على الجهد الطويل، إلى الضيق، والتهور، والرفض الكامل للجهود التي ما زالت مطلوبة. حقًا لم تكن هذه النوبات تنتابه كثيرًا، فقد صقلته المعارك التي مر بها، ومع ذلك فبين الحين والآخر كانت تسيطر عليه لبعض الوقت. ولكن سرعان ما كان يعود إلى سلوكه المعتاد.

كانت طبيعته المقدامة، وقدرته على التفكير المستقل هي التي جعلته زعيمًا من زعماء الطلبة، ومسئولاً أثناء معارك المقاومة المسلحة في منطقة القناة. وكانت صفاته الأخرى؛ مرحه وبساطته، وقلبه المفتوح، ويده الممدودة لكل صديق . هي التي جعلته محبوبًا من الناس.

كان لقاءً غير متوقع. غريبة هذه الحياة، تلقي برجال مثل محمد في هذا المكان. لم يكن قد نبهه إلى أنه سيقابل سيد. لماذا؟ ربما لأنه لم يكن متأكدًا من أن الفرصة ستواتيه اليوم لترتيب اللقاء، فأراد أن يجنبه خيبة الأمل. أو ربما لأن السنين التي قضاها هنا علمته أن يتصرف في صمت

وسرية. أو ربما لأنه كتوم بطبعه. من يدري؟ إذا أتيحت له الفرصة سيسأله.

استرجع عزيز في ذهنه دقائق الحديث الذي دار بينه وبين سيد. لم تضف إلى معلوماته جديدًا سوى أن عمادًا موجود معهم الآن، ربما في حجرة من الحجر المجاورة. كم يتمنى أن يراه. كان آخر لقاء بينهما منذ أربع سنوات. ترى هل تغير كثيرًا؟

الزمن ... السنين تمر دون أن ندري بها. وإذا مرت هكذا في المستقبل ستجد نفسك وقد انتهت حياتك أيضًا دون أن تدري. على كل حال لا بأس. فالأفضل ألا يحس الإنسان بالنهاية. أحسن نهاية هي تلك التي تأتي مفاجئة وأنت تعمل، أو أثناء النوم. المهم أن يعمل الإنسان حتى آخر لحظة في حياته. فالعذاب الذي ما بعده عذاب هو أن تشعر أنه لا أحد يحتاج إليك، أنك أصبحت عالة لا عمل لك، وأن الناس ربما ينتظرون موتك. الموت السريع أفضل من الموت بعد سنين طويلة من الشيخوخة العاجزة أو المرض. يقولون الآن أن الشيخوخة مرض، وأن الإنسان ينبغي أن يعيش نشيطًا حتى آخر لحظة في حياته ...

ما له يفكر في الموت كثيرًا هذه الأيام؟ أشياء صغيرة ربما لم يدر بها في حينها. بدأت عندما أخذوا منه الحزام، ورباط الحذاء. فقد استخدمهما آخرون من قبل للانتحار. والنظارة كذلك. عادت إلى ذهنه كلمات الرجل الأصلع بنظارته ذات الإطار المذهب الرفيع، القومندان كما يسمونه هنا. " أخذنا منك النظارة خوفًا من أن تضر نفسك بها ". ماذا كان يقصد؟ كانوا يريدون أن يوحوا إليه بالمخاطر التي تحيط به ... نوع من التهديد الذكي المستتر وكأنهم يقولون له: أنت في وضع قد يدفعك إلى الانتحار. هل يستطيع أن يقسم أن هذه الكلمات لم تؤثر فيه؟ حقًا لم يفكر

أبدًا في الانتحار. فهو يحب الحياة إلى درجة يستحيل معها التفكير في الانتحار. إنه يشعر وكأنه هو والحياة شيء واحد لا ينفصلان، ولكن الكلمات تركت شيئًا فيه. وإلا كيف يفسر هذا الميل إلى التفكير في موضوع لم يكن يشغله من قبل ... الظلام؟ الزنزانة؟ التهديد؟ كلها عوامل لا شك، ولكن ربما أقوى العوامل هي تلك الكلمات القليلة الملقاة هكذا، ببساطة، كأنه لا يوجد من ورائها غرض ... كحجر صغير ألقى به في الماء الساكن ليحدث أمواجًا خفيفة، مرتعشة، تتسع، وتتسع في سكون، دون أن تحدث صوتًا يسمع، ولكنها ذبذبات موجودة تتحرك وتؤثر، وتدخل الاضطراب والقلق حيث كانت الطمأنينة والهدوء. إيحاء نفسي ... مدروس ... ومقصود، أحس به بعد أن أغلقوا عليه الباب، أحس به ينفذ إلى عقله الباطن ويترك شيئًا ما، غير محسوس تمامًا، ولا مفهومًا تمامًا، ولكنه موجود في القاع كنقطة صغيرة ثقيلة باردة يحملها معه، شيء بين الخوف والقلق، أو مزيج من الاثنين، إحساس يتأرجح بين الغموض والوضوح. فإذا فكر فيه وواجهه أصبح واضحًا. ولكنه سرعان ما ينحيه جانبًا ويرفضه ليعود إلى الغموض من جديد.

لماذا تلح عليه فكرة الموت؟. أصابع سيد الملتفة حول رقبته في رفق قوي تلوح أمام عينيه، وتعود إلى خياله المرة تلو الأخرى، فكلما طردها عادت إليه أكثر وضوحًا وإصرارًا ... إنه الصمت، ثم الساعات والأسابيع والأشهر بين هذه الجدران الباردة الرطبة يسهر الليالي وحده، ويشاهد نور الفجر يزحف عبر النافذة المظلمة وحده، ويقضي النهار، ويأكل ويشرب، ويجلس وحده. إذا نام طاردته الوحدة حتى في الأحلام. وإذا جاء الصباح مد يده وهو يتأرجح في نصف غيبوبة باحثًا عن جسد دافئ بجواره فلا يجده. وإذا استيقظ تلفت حوله عسى أن يجد كائنًا آخر

في الحجرة. تاق إلى الحديث، إلى الغناء، إلى الضحك، إلى سماع صوت آدمي.

طوال الساعات، والأسابيع، والأشهر الماضية أحاطت به العيون تترقب نهايته كحيوان جريح سقط في المصيدة، وزحفت عليه جيوش البق تغرس خراطيمها الدقيقة في جلده، وجثمت على أنفاسه روائح العفن، والبول المتراكم. وحاصرته الوعود الناعمة تغري بالحرية، بالمروج الخضراء، والسماء الصافية، بالخطوات الواسعة المنطلقة فوق الأرض، بجلد الأنثى الناعم فوق جلده، وبقلب الأنثى النابض فوق قلبه، بيد الطفل الصغيرة تعبث بوجهه في الصباح، وبابتسامته المشرقة تطل عليه عند العودة في المساء. وانتظار المصير المجهول، وقلق اللحظة المقبلة، والأصوات الهامسة يسمعها أو يتخيلها تدبر شيئاً في الخفاء. ولكن قبل هذا كله، وفوق هذا كله أحاط به الصمت.

تاق إلى الشيء الذي يجعل من الإنسان إنساناً، ومن الوجود حياة، ومن الوحدة أنسًا. تاق إلى الكلمة، إلى النطق. ولكنه لم يجد حوله سوى الصمت ... الأيام الصامتة، والجدران الصامتة، والأثاث الصامت، والجماد.

وعندما خرج في هذا الصباح وسار على قدميه فوق الأرض الصلبة وتحت الشمس الساطعة، ورفع عينيه إلى السماء، وأحس بالمياه المنعشة تسقط فوق جسمه كالمطر في الخريف. وعندما وقف مع سيد يتبادل الكلمات والضحكات، أحس بالحياة وكأنه يولد من جديد، أحس بها كما لم يحس بها من قبل، أحس بها عميقة جارفة متدفقة. وعندما أحس بالحياة تذكر الموت، تذكره كما لم يتذكره من قبل، وشعر به كما لم يشعر من قبل. فأقدامه مغروسة في قاع مستنقع ولم يعد قادرًا على انتزاعها.

والمياه الباردة الثقيلة ترتع كالزئبق في الظلام، ترتفع حول جسمه سنتيمترًا بعد سنتيمتر كالمصير المحتوم، تغطي فخذيه ثم بطنه، ثم صدره، ثم رقبته وتكاد تصل إلى فمه، وأنفه، لتخنق أنفاسه وتطفئ شعلة الحياة في جوفه. لم يعد يستطيع المقاومة، بل لم يعد يريد أن يقاوم. فهو كالمشلول، عضلاته تأبى أن تلبي رغباته، ورغباته نفسها لم يعد لها وجود. ليس هناك سوى فراغ أجوف مكان القلب، وكتلة هلامية بدائية عاجزة مكان العقل، لا تبالي بشيء بل تكاد لا تحس بأكثر من الحرارة والبرودة، والضوء، والظلام، كالخلية الوحيدة تحت عدسة الميكروسكوب. أحس كأنه استنزف كل طاقته فاستولى عليه شعور بالوهن المطلق.

جاءه صوت سيد يقول " أتظن أنهم سيشنقوننا هذه المرة "؟ ورأى أصابعه مرة أخرى تلف حول عنقه، وتتحسسه، كأنها تبحث عن شريان الحياة. وتحولت الأصابع إلى حبال تتدلى من السقف، وانشقت الأرض عن هوة سحيقة مظلمة، ثم اختفى كل شيء ولم يبق سوى سواد ممتد لانهائي. تصبب العرق من كل جزء من جسمه، وشعر بعضلاته ترتعش، وكأنه أصيب فجأة بحمى الملاريا. وضع رأسه بين ذراعيه فوق المنضدة، واستسلم للرعب الأسود الذي لا يعي.

لن يخرج من هنا. الموت هو نهاية المطاف هذه المرة. كان هذا واضحًا منذ اللحظات الأولى. ولكنه كان ساذجًا غبيًا. كل هذا الصمت والتكتم، والترقب. ألم تفهم ماذا يريدون؟ أما الموت المعنوي تنفذه أنت على نفسك بيديك، كما فعل حسين. وأما الموت على يديهم هم. طريقان لا ثالث لهما. أمامهم متسع من الوقت. ولذلك ينتظرون.

الموت نهاية المطاف. هوة سحيقة سوداء يصب فيها كل شيء وينتهي ... ينتهي كل شيء، يموت، وأنت ستموت أيضًا. ولكنه لا يريد

أن يموت الآن. وضع يديه حول ذراعيه، وتحسس عضلاته، ثم بطنه، ثم لف أصابعه حول فخذيه. ما زال جسمه قويًا، ما زال شابًا. كيف يموت وهو ما زال شابًا؟ كيف يموت وهو ما زال قويًا؟ تذكر وجه زوجته، وعينيها، وفمها وحاول أن يضمها إليه، ولكنها أفلتت منه كالغريبة. الجميع يتركونه الآن وحده يواجه الموت. هل سيكون بعد أن يموت؟ أحس بالإشفاق على نفسه، وارتعش جسمه بعنف. هوة سحيقة سوداء ... لا شيء. هل يمكن أن ينتهي كل شيء إلى لاشيء، إلى ذلك الفراغ الأسود الذي لا يستطيع أن يتصوره. مستحيل ... مستحيل، صرخ بأعلى صوته " مستحيل " وانتفض من فوق المقعد بقفزة مجنونة، كالحيوان الذي يرى الموت بعينيه فينقض على من حوله في هجوم يائس لا يألو على شيء. أمسك بالمقعد وأخذ يضرب به على الأرض حتى تحول إلى قطع متناثرة من الخشب، وأطاح بالمنضدة في ركن الحجرة، وانهال عليها ركلاً بالأقدام. اصطدمت ساقه بأحد الأركان الحديدية المدببة، فتمزق السروال من فوق القصبة، وسالت دماؤه بقعًا حمراء فوق قدمه، وعلى الأرض، ضرب بقبضته على الجدار، وفوق الباب، وعلى عمود السرير وهو يصرخ " مستحيل " ... " مستحيل " ... بصوت مختنق، كأنه يصارع شيئًا التف حول عنقه، وتمزق الجلد فوق عظام يده فبرزت من تحتها الأنسجة مصبوغة بلون الدم.

دار في الحجرة يضرب ويركل كل شيء فيه كالثور الهائج كالمجنون لا يعي شيئًا، سوى تلك الرغبة العارمة التي لا تقاوم في أن يحطم كل شيء، في أن يحطم حتى نفسه. ثم فجأة انهار فوق السرير يبكي بكاءً متصلاً وكأنه لن يتوقف أبدًا.

* * *

لم يدر كم من الساعات مضت وهو نائم. ولكنه استيقظ فجأة على صوت الباب ينفتح. وقف عويس منتصبًا في فتحة الباب، بقامته الطويلة، وسترته الصفراء الرسمية، يطل عليه بعينيه الماكرتين، وفكه الغليظ، دار بعينيه حول الحجرة وقال بنبراته المغمغمة:

" ما هذا "؟

جلس عزيز على حافة السرير وقال: " لا شيء ".

" لا شيء. تقول لا شيء. وهذا (أشار إلى المقعد المهشم، وإلى المنضدة الملتوية في ركن الحجرة). سيعمل لك محضر إتلاف ".

" كما تريد ".

" سأبلغ القومندان فورًا، وسترى ماذا يجرى لك ".

وقف عزيز وتقدم نحو ركن الحجرة في صمت. رفع المنضدة من فوق الأرض وأوقفها وسط الحجرة. أشار عويس لأحد الرجال المنتظرين خارج الحجرة وقد ارتدى حرملة من الصوف فوق الملابس الزرقاء المعتادة، فتقدم حاملاً طبقًا وضعت فوقه كمية من حبات الفول الداكنة، ورغيفًا من الخبز الأسمر وقطعة جبن بيضاء. وضع الغذاء فوق المنضدة، وانسحب مسرعًا دون أن يتكلم. رفع عويس أجزاء المقعد المهشم من الأرض، ملقيًا نظرة أخيرة، منذرة، على وجه عزيز. ثم خرج من الحجرة مغلقًا الباب وراءه.

عاد عزيز إلى رقدته على السرير، واستلقى على ظهره محملقًا في السقف. ما هذا الوهن الشديد الذي استولى عليه؟ الحركات البسيطة التي قام بها منذ لحظات أرهقته إلى درجة غريبة، وجعلته عاجزًا على أن يحرك ذراعيه أو ساقيه من جديد. يريد أن يبقي هكذا، راقدًا على ظهره في سكون تام. إنه هادئ الآن، ولكن هدوءه يخفي قلقًا دفينًا، مزعجًا، أخذ

ينمو من جديد في موجات متزايدة من التوتر فوق جبينه، وتتدحرج في بطء حول عنقه. أدرك أن شيئًا ما سيحدث له من جديد إذا لم يوقف هذه الموجة الصاعدة من التوتر، شيئًا مثل ذلك الذي حدث له منذ ساعات. أخذ يحدث نفسه بكلمات صامتة هامسة من الداخل: يا عزيز أنت طبيب. لم تتعود من قبل أن تهرب من الحقيقة. فلا تهرب منها الآن. ما الذي جرى لك اليوم؟ وما الذي يجري لك الآن؟ أنت تعرف. لا داعي للخجل. فهو شيء يمكن أن يحدث لأي شخص. لم تكن تتوقع أن يحدث لك هذا. كنت تعتقد أنك أقوى من أن تنتابك مثل هذه الحالات. ولكن ما هي القوة يا عزيز؟ هل توجد قوة بدون ضعف؟ هل يوجد الشيء دون نقيضه؟ ابتسم ابتسامة خاطفة مريرة. مولع أنت بالفلسفة، كنت تظن أنك مصون. ولكنك لست مصونًا. ستتعلم الكثير هذه الأيام. الكثير عن الآخرين، والكثير عن نفسك. أتعلم ما الذي حدث لك أيها الحكيم؟ يسمونه انهيارًا عصبيًّا، أليس كذلك؟ والانهيار العصبي قد يقودك إلى الانهيار الكامل لأنه البداية فقط. والبداية قد تقودك إلى الجنون ".

أمسك عزيز برأسه بين يديه. شعر بالرعب يتملكه من جديد، رعب لم يعرفه من قبل، رعب فظيع ينمو في داخله ويحاصره كلما حاول أن يفلت. أصبح كالحيوان الصغير المرتعش، كالفأر يقبع في ركن من أركان الحجرة، وقد تسمرت عيناه على قط أسود كبير يزحف نحوه بالتدريج. أي شيء إلا هذا. الموت أهون من الجنون. فالموت ينهي كل شيء. أما الجنون فتحمله معك طوال العمر، يعذبك وأنت مريض لأنه بداخلك، ويعذبك عندما تشفى لأنك تخشى أن يعود.

هذا الصمت اللعين المستمر يومًا بعد يوم، وليلة بعد ليلة هو السبب. أنت تحيا داخل نفسك، في الذكريات والأوهام والمخاوف. فإما أن

تموت على حبل المشنقة، أو تفنى على مذبح الخيانة، أو تنتهي في مجاهل الجنون. هذا ما يريدونه، فماذا أنت فاعل؟ كيف ستقاوم هذا الرعب الأسود الذي سيزحف عليك كل يوم، وكل ليلة، بل وفي كل ساعة دون أن تستطيع أن توقف زحفه. أنت طبيب يا عزيز. الانهيار العصبي ليس سوى الإنذار الأول. كنت تعالج الآخرين. هل ستعجز الآن عن علاج نفسك؟ أنت تدري كل ما هو في الميزان. كل ما كنت تؤمن به، وتضحي من أجله. والآخرون لا يرونك وأنت تصارع الأشباح، ولا يحسون بقلبك تعتصره القبضة الباردة، ولا يلمحون قطرات العرق تسقط على المخدة. ولكنهم سينتظرون، وسيحكمون. وطفلك الصغير عندما يكبر ماذا ستقول له إذا عشت؟

انهيار عصبي. ينبغي أن تتغلب على الصمت القاتل، على الفراغ. ينبغي أن تعيش كل لحظة من حياتك بين هذه الجدران، أن يتحرك جسمك، ويتعب، ويعرق، وأن ينشغل عقلك بأشياء كثيرة متلاحقة، أن يخضع لنظام صارم لا يجد معه فرصة الإفلات. ينبغي أن تركب الحصان الجامح وأن تروضه.

إذن فليصنع لنفسه برنامجًا يوميًا يملأ به الساعات الطويلة منذ اللحظة التي يستيقظ فيها إلى اللحظة التي يحتويه فيها النوم، برنامجًا ينبغي أن يفكر فيه جيدًا، وأن يرسمه بدقة، برنامجًا يحتاج إلى خيال، وإلى صبر.

وضع يديه تحت رأسه وأحس بحبات العرق تجف فوق جبينه، وبالقبضة الباردة تنفك عن قلبه، وبموجات التوتر العنيف المتصاعدة في صدره تهدأ بالتدريج.

أولاً سيستيقظ مبكرًا، ويمارس بعض الألعاب الرياضية لأطول مدة ممكنة على أن يتوقف قبل أن يشعر بالإرهاق. فالإرهاق يزيد التوتر العصبي. يجب أن تكون الحركات لينة، ونشيطة، بحيث تستنفد طاقته في الحدود المطلوبة ... الرياضة ستريحه عصبيًا، وتساعده على النوم ليلاً. وينبغي ألا ينام بعد الظهر حتى لا يصاب بالأرق. ولكن لم الاستيقاظ مبكرًا؟ كلما استيقظ مبكرًا كلما طالت ساعات النهار. إذن فلينم أطول مدة ممكنة حتى يختصر جزءًا من اليوم.

بقي هكذا مستلقيًا فوق الفراش، وعقله يدور مثل الآلة المنتظمة، خلاياه كالتروس ذبذباتها سريعة، متصلة، تلف بالأفكار فوق حزام متحرك، في انسياب صامت هادئ. بعد الرياضة سيسترجع الكتب التي قرأها. الأفضل أن تترك هذا الليل ... الليل ... ربما كان الليل أنسب للخيال. في الليل يذهب الناس إلى السينما والمسارح. إذن في الليل سيذهب هو أيضًا إلى السينما، ليرى كل الأفلام التي رآها من قبل. وسيصطحب معه والدته في ليلة، وزوجته في الليلة التالية وطفله أيضًا. طفله سيضحك مع الرسوم المتحركة وعيناه ستلمعان في الظلام. وسيشعر بيده الصغيرة الساخنة تمتد إليه كالعصفور. سيعود معهما مشيًا على الأقدام فوق كوبري قصر النيل في ضوء القمر. نعم هذا هو برنامج الليل. والنهار ماذا يفعل بالنهار؟ الرياضة. وبعد الرياضة قليل من الراحة. وبعد الراحة لابد أن يعد دفاعه في القضية. فالمحاكمة تقترب لا شك. وينبغي أن يعد لها كما يجب. ستكون محاكمة لا تنسى. وبعد ذلك ماذا؟ سيفتحون عليه الباب ليذهب إلى دورة المياه، وليترك المياه المنعشة تنهمر على جسده مثل مطر الخريف. وعندما يعود إلى الزنزانة لماذا لا يرقص؟ الرقص يطلق الحياة في الجسد. فمنذ أقدم العصور رقص

الإنسان فوق الأرض، ليعبر عن الحياة في حركة النغم. وسـ يغني وهـ و يرقص. وبعد قليل سيحضرون إليه الغذاء ... فترة من الراحـ ـة. وبعـ ـد الراحة سيعيد قراءة الكتب التي قرأها. ذاكرته الفوتوغرافية ستساعده على ذلك كما ساعدته أيام الإعداد للامتحان.

وبعد ذلك ... ماذا بعد ذلك؟ دار بعينيه حول الحجرة ورأى الذباب يطن فوق رأسه في حركة بطيئة كسولة. سيطارد الذباب ... كل الذباب. الواحدة بعد الأخرى حتى تخلو الحجرة منه تمامًا. الأيام أصبحت قصيرة الآن. فالشتاء يقترب. وسيأتي ميعاد العشاء. قطعة من الجبن، والحـ ـلاوة، والخبز الأسمر، والشاي الساخن، لا طعم له ولكنه ساخن يدفئ الجسم.

تزاحمت الأفكار والصور في ذهنه، وأحس بحالة غريبة من النشوة ترتفع به كأنه طائر يحلق بجناحين قويين. السماء صافية، وهـ و يطيـ ـر، ويطير في عالم من الخيال. ومع ذلك شيء ما في أعمـ ـاق الـ ـنفس بقـ ـي مظلمًا كالسحابة الداكنة أخذت تنمو وتتضخم بالتدريج حتى أظلمت السماء أمامه من جديد، وأحس بنفسه يسقط فجأة من فوق القمة التي ارتفع إليها. هربت الأفكار من ذهنه كأن حشرة كبيرة سوداء تطاردها، ووجد نفسـ ـه أسير شعور ملح يستولي عليه من جديد ويغلق عليه كل المنافذ. ما جدوى كل ذلك، إذا كان سيموت معلقًا عند أطراف الحبال الطويلة تمتـ ـد حـ ـول رقبته؟ إنه يصنع عالمًا من الخيال حتى يهرب من الحقيقة المرة، الحقيقة الوحيدة، الحقيقة النهائية التي لا توجد بعدها حقيقة أخرى. سـ يعيش هنـ ـا عددًا لا يعرفه من الأيام والليالي، وفي موعد حدد من قبل سيفتحون عليه الباب في الصباح. وسيأخذونه إلى المحكمة ليواجه منبرًا عاليًا يجلس فوقه خمسة من الرجال، نسخة طبق الأصل من شيء واحد، يتحركون بحركة

واحدة، ويحملقون بنظرة واحدة، ويلبسون رداءً واحدًا تلمع فوقه الأزرار النحاسية الصفراء. وسينطقون حكمًا واحدًا ينهي كل شيء.

رأى نفسه يهبط درجات السلم الحديدي الطويل، ورجلان ط ويلان قويان وجهاهما كالصخر، وذراعاهم ا ك الفولاذ، تضغط أصابعهما كالأسلاك الحديدية حول مرفقيه. في العنبر الكبير، ووراء عشرات الأبواب مئات من الناس يقبعون بأنفاس معلقة. الصمت يخيم عل ى ك ل شيء، صمت مطلق عميق تستطيع أن تسمعه. دخل من الب اب الص غير إل ى الحجرة ذات السقف العالي، ترتفع وسطها أعمدة من الخشب، وتتدلى منها حبال طويلة كالثعابين تنتظر لتلتف حول الفريسة. ثم خطا خطوتين إل ى الأمام وسقط الحبل حول عنقه ثم ... لا شيء، سوى السواد الحالك ... لا شيء! لا شيء! لا شيء!!.

إنه يهرب في الخيال. فالموت ينتظره، نعم ينتظ ره. ولك ن ه ل الموت منفصل عن الحياة؟ الموت امتداد طبيعي لها. وموت ه ينبغ ي أن يكون كذلك امتدادًا طبيعيًا للحياة. بذلك وحده لن يموت. سيعيش في حياة من يتذكرونه. الموت الحقيقي هو أن ينهار وأن يستسلم. عندئذ لن يت رك شيئًا وراءه. قد تنتهي حياته هو بعد ساعة، أو باكرًا، أو بعد باكر، أو بعد سنين طويلة. ولكن الأشياء ستعيش بعده، ن وارة القط ن ف ي الحق ول الخضراء، والوجه القوقازي يقود الجرار، ووجوه الأطفال ف ي ط ابور الصباح، وأكوام الكتب عند سور الأزبكية، والشراع الأبيض فوق الني ل، والنخيل.

ربما ذهب إلى الموت بعد ساعة، أو باكرًا، أو بعد ب اكر، ولكن ه سيهبط السلم الحديدي بخطى ثابتة، وسيشرب س يجارته الأخير ة ف ي

استمتاع بطيء، وسيرفع رأسه في هدوء لتلتف حوله الحبال. سيعرف كيف يجب أن يموت.

* * *

الشوارع تحولت إلى أنهار، أنهار من البشر تتدفق من أطراف المدينة إلى قلبها، أنهار من الحياة تفجرت ينابيعها في المصانع، والكليات والمدارس، وفي كل مكان يكد فيه الإنسان ليعيش، ويعمل لكي يخلق القيمة. الأنهار تحمل أشرعة بيضاء كتبت عليها آمال أمة بأسرها والأشرعة مرفوعة على عواميد من الخشب تحملها أكتاف قوية، كأنها أسطول من السفن، والقبضات مرفوعة إلى السماء تلوح لتبدو من بعيد، كالأمواج الصغيرة المضطربة في يوم اشتدت رياحه. وهنا وهناك صعد رجل فوق الأكتاف، كالربان في زورق صغير، تعلو به الأمواج وتهبط، فيظهر أحيانًا ويختفي أحيانًا أخرى. والأصوات المنفردة تهتف، فيرد عليها صوت كالرعد، وكأن عاصفة توشك أن تنفجر فوق الأمواج الزاحفة إلى قلب المدينة، والأنهار تصب مياهها في الميدان الفسيح كالروافد، تتجمع في البحر العظيم. والأنهار ليست بلون واحد، فالنهر الأزرق يتدفق من شبرا الخيمة، والنهر الأصفر يتدفق من عنابر الترام في شارع ماسبيرو، والنهر الأحمر ينهمر من جامع الأزهر إلى العتبة ثم يتفرع ليلتقي من جديد في الميدان الكبير أمام الثكنات، والنهر الأبيض فرع منه يجري فوق كوبري قصر النيل، وفرع آخر عبر شارع القصر العيني ليلتقيا عند الشاطئ الجنوبي، والنهر الأسود ترك دروعه لينهمر كالسيل من ميدان العتبة. ولكن هنا في الميدان اختلطت كل الألوان لتخلق نسيجًا واحدًا متعدد الألوان، واندمجت كل الألحان لتصنع لحنًا واحدًا، ولد منذ سنين طويلة في شوارع كوم الدكة، وانصهرت كل الأصوات لتردد

هتافًا واحدًا " الاستقلال التام أو الموت الزؤام " وتلاحمت ملايين الأجساد المتفرقة لتصبح جسدًا واحدًا. يزحف على ساقين لا يراهما أحـد، وإنمـا يحس بهما تمشيان بإصرار رهيب نحو الهدف المحدد. شيء كالطوفـان الجارف أزاح عن طريقه الدروع والجنود، والخيول والرماح، والعربات المصفحة والاستحكامات، والخوف، والتردد واليأس وأصـوات التهدئـة، ونصائح الحكماء، ومؤامرات التابعين في عابدين وقصر الدوبارة.

* * *

وجد عزيز نفسه بين الجموع محمولاً علـى الأمـواج كـالزورق الصغير، جزء من هذه الكتلة البشرية الممتدة كالبحر، فرد واحد ضـاعت إرادته في إرادة الكل، وضاع صوته في لحن الكل، وضاع جسـده فـي جسد الكل، واختلطت رائحته بعرق الكل، يمشي دون أن يحرك ساقيه، بل دون أن يشعر بأن له ساقين، ويتقدم دون أن يسعى إلى التقدم، ويتوقـف دون أن يفكر في التوقف، كالأعمى الذي لا يرى إلـى أيـن يسـير، أو كالمسحور تدفعه يد القدر إلى مصير مجهول.

لم يدر ماذا حدث فجأة. سمع صوتًا كالصفير المتواصل، كأسـراب من النحل تطير في الهواء فوق سطح الـرؤوس، ثـم طرقعـات عاليـة متقطعة تتوالى وسط هدير الجموع. وانشق الجدار الآدمي من أمامه كأن سكينًا حادًّا يشطر الجسد المتلاحم إلى نصفين.

انفتحت أمامه فجوة عميقة كالجرح الغائر، ارتدت الموجة البشـرية إلى الوراء، ورأى خلال الفجوة العميقة أشباحًا تتحـرك خلـف عواميـد السور الحديدي. ثم التأم الجسد من جديد، كأنه يسد الجرح قبل أن ينزف.

تطايرت في الهواء كتل من القماش المشتعل مثل كرات من نـار، تسقط هناك خلف السور. وتدفقت الموجات البشرية في إصرار عنيـف.

عادت أسراب النحل فوق الرؤوس، وسمع أصوات الانفجارات تقترب بالتدريج. انشطر الجسد مرة أخرى مثل بطن المريض تحت مشرط الجراح وظهر الجرح الغائر، مصبوغًا بلون أحمر، يسيل على القاع فوق الأرض. اختلط الصراخ، والأنين، وطنين الرصاص، وطرقعة البارود، وهتاف الجموع، ولحن النشيد، وارتفعت ألسنة النيران المدببة العالية كالأصابع تمتد إلى السماء، واختفت السماء خلف سحب الدخان الداكنة، وسالت الدماء الحمراء فوق الأسفلت الأسود. وامتزجت حرارة الأجساد بحرارة القتال، والنيران المشتعلة، وانفجار الرصاص، والدماء المسكوبة وتحول الميدان إلى جحيم الآخرة.

وجد عزيز نفسه يحملق كالمذهول في جسم ملقى على الأرض، وقد تكوم على جنبه، واضعًا رأسه فوق ذراعه كالنائم. سقط على الأسفلت فوق ركبتيه، ودفع الجسد برفق من الكتف، ففوجئ به ينقلب على ظهره بحركة ثقيلة مثل كتلة من اللحم الطري.

تطلع إلى الوجه الشاحب الأصفر وإلى خيط رفيع من الدماء تسيل بجوار الصدغ فوق ياقة القميص البيضاء. هذا الوجه ... أحس بطعنة حادة في قلبه، ومرت عليه لحظة غاب فيها عن كل شيء، ثم أفاق من جديد على الوجه الشاحب، والعينين المفتوحتين على السماء ككتلتين من الزجاج الملون، ونظرة الدهشة المختلطة بالألم. أفاق على وجه أسعد. لم يعد يشعر بما يجرى حوله، لم يعد يرى أي شيء سوى هذا الوجه، كأنه ينظر إليه من خلال منظار طويل. وضع أصابعه فوق المعصم بحركة الطبيب الآلية. خيل له أنه يشعر بانتفاضات خفيفة، واهنة، تكاد لا تحس. أمسك بقدمي الجسد، وأخذ يجرها في اتجاه الرصيف. أحس به ثقيلاً أول الأمر وبذل جهدًا مضنيًا جعلت كتفيه، وذراعيه، كالحبال المشدودة، تكاد

تتمزق، وجعل العرق يتصبب من جسده. بعد قليل أحس وكأن الجسد أصبح أكثر خفة. أخيرًا وصل إلى الرصيف – التفت حوله ليجد فتاة نحيلة سمراء تقف إلى جواره، ممسكة بإحدى الساقين المرفوعتين في الهواء. أنزلا الساقين على الرصيف برفق، ثم التفت إليها بعينين تخترقانها وكأنها ليست موجودة. قالت في صوت يتعثر قليلاً:

" يا دكتور عزيز أنا نادية. ألا تتذكرني "؟

صمت كأنه لم يسمع سؤالها ثم قال:

" ابحثي عن سيارة بسرعة ".

اختفت وسط الجموع، بقي منتظرًا، كم من الوقت؟ لا يدري. من حوله أخذت الجموع ترتد من الميدان خطوة بعد خطوة، كالجيش الذي يقاتل وهو يتراجع أمام العدو، وفوجئ بها تقف بجواره مرة أخرى، وتشير بأصابعها النحيلة نحو سيارة تشبه علبة الكبريت المثبتة فوق أربع عجلات كبيرة. نزل منها شاب عريض المنكبين يرتدي نظارة طبية سميكة وسترة بنية من الجلد. حملوا الجسم الثقيل، وأجلسوه في السيارة من الخلف. أخذ عزيز مكانه بجوار أسعد واضعًا ذراعه حول كتفيه ليمنع جسمه من السقوط. وجلست الفتاة في المقعد الأمامي بجوار الشاب. سارت السيارة ببطء شديد عبر الجموع المحتشدة وتوقفت عدة مرات. كانوا يصرخون:

" معنا جريح. افتحوا لنا الطريق ". أخيرًا وصلوا إلى مركز الإسعاف الرئيس عند تقاطع شارع فؤاد وشارع الملكة نازلي. مروا بالسيارة عبر الباب، وساروا مسافة قصيرة في الفناء حتى أصبحوا أمام حجرة الاستقبال. نزلوا من السيارة وحملوا الجسد البارد داخل الحجرة، ووضعوه فوق المنضدة الطويلة المغطاة بقطعة متسخة من المشمع

الأحمر. تقدم نحوهم طبيب شاب يرتدي معطفًا أبيض ويضع حول عنقه سماعة طويلة. وضع أصابعه فوق المعصم، ثم رفع الجفنين إلى أعلى، وحملق في العينين، ثم أزاح الملابس المصبوغة بالدم الأحمر فوق الصدر، ووضع سماعته تحت الثدي الأيسر، حملق عزيز في الثدي المنتفخ، ومر على ذهنه خاطر غريب. ثدي فيه شيء أنثوي.

سمع صوت الطبيب يقول " أنا متأسف. المصاب مات ".

* * *

هناك كلمات لها ذكريات، عندما يسمعها الإنسان تحدث ذبذبة خاصة في الأذن، وتغوص إلى الأعماق، كالحجر الثقيل يغوص إلى قاع البحيرة، يحرك فيها أشياء كانت ساكنة، جامدة، وكأنها انتهت إلى الأبد، وتحيي صورًا عن الماضي، تبعثها من الأعماق، كالأشباح في قصص الأطفال، في الأساطير، لتطفو على السطح من جديد، في ظلمة الليل الداكن وضباب النسيان.

وكلمة " مات " هذه ترن في أذن عزيز بذبذبة خاصة. كلما سمعها رأى طبيبًا شابًا يرتدي معطفًا أبيض، وتتدلى فوق صدره سماعته الطويلة السوداء، وأمامه جثة ممدة على منضدة الكشف، ومنضدة الكشف مغطاة بقطعة متسخة من المشمع الأحمر، والجثة لها عنق تلتف حوله ياقة بيضاء، يسيل فوقها خيط رفيع من الدم الأحمر، ولها ساقان طويلتان تمتدان إلى آخر المنضدة، ولها قدمان ترتديان حذاءً بنيًا متينًا غطاه تراب الشارع، ولها رأس يغطيه شعر أسود كثيف، ولها وجه شاحب كالشمع الأصفر، والوجه ... الوجه وجه أسعد. ولكنه في نفس الوقت ليس وجهه. فوجه أسعد لم يكن هكذا جامدًا لا يتحرك. وجه أسعد شفتاه تبتسمان وتضحكان وعيناه العسليتان فيهما شقاوة، وجبهته تتغضن في تقطيبة

غاضبة، أو تنبسط لتصبح كسطح المياه الهادئة، وأذناه ترهف الحس للحياة وللنغم. ولكن هذا الوجه لم يعد يرى، أو يسمع، أو يغضب، أو يفرح، أو يبتسم. لم يعد حتى يتحرك. هذا الوجه الشاحب كالشمع الأصفر وجه ميت. فأسعد قد مات. وكلمة مات هذه مكونة من ثلاثة أحرف ... " مات " م ا ت كلمة قصيرة ولكنها طويلة تمتد هكذا مااااات. كلمة قصيرة تنهي كل شيء كالأمر، كحرف الجزم، كالحكم الذي لا رجعة فيه. وكلمة طويلة تمتد إلى الأبد عبر الزمن اللانهائي. فالحياة لها نهاية ولكن الموت لا ينتهي. وحياة أسعد كانت قصيرة وانتهت. ولكنه مات وسيظل ميتاً إلى الأبد. وأسعد عندما مات لم يعرف لماذا مات. كان يسير وسط الجموع، لماذا ... لا يدري بالضبط، أحس بشيء في أعماقه يقول له ينبغي أن تمضي معهم. ربما الإحساس بالأخوة، أو الرغبة في ألا يبقي وحده، أو الفضول، أو غريزة القطيع، أو ربما الإحساس الوليد بأن هناك شيئاً اسمه الوطن. من يدري؟ على أية حال فهو لا يعرف لماذا مات. فاجأته الرصاصة الغادرة وسط الجموع واخترقت رأسه فمات. لن يغني أو يرقص بعد اليوم، ولن يصوب شقاوة عينيه إلى الفتيات، ولن يضع سماعة فوق صدر مريض، ولن يعود إلى أمه آخر النهار. وعزيز أيضاً لا يعرف لماذا مات. لمح فوق وجهه، عندما سقط على الأرض تلك النظرة المندهشة المتألمة كأنه يقول لماذا؟ ... لماذا؟ ... ومات قبل أن يجيب عليه أحد.

لم يعرف عزيز ماذا حدث بعد ذلك. كان يتحرك كالآلة، ويجيب على الأسئلة دون أن يدري ما يقوله. لم يذرف دمعة واحدة، كأنه نضب من الداخل، ولم يشعر بالألم، كمن فقد القدرة على الإحساس. تمت الإجراءات الرسمية بسرعة، ونقلت الجثة إلى المشرحة، ثم وجد نفسه

جالسًا خلف الفتاة على مقعد السيارة، يقودها الشاب عبر شوارع خلت من الناس. أفاق على صوتها يهمس في رفق كمن توقظ طفلاً نائمًا.

" إلى أين يا عزيز "؟

حرك سؤالها جزءًا صغيرًا في عقله، كضوء خافت ومض فجأة وسط الظلام. وأحس بشيء كاليقظة الغريزية، كالدودة الصغيرة تتحرك في الأعماق.

قال:

" إلى العباسية ".

تساءلت بصوتها الهادئ:

" هل تسكن هناك "؟

" لا ".

" لماذا العباسية إذن "؟

" لابد أن أذهب إلى منزله ".

" الآن "؟

" أمه تنتظره ".

ندا منها صوت كالشهقة. ثم سألت وكأنها أحست.

" وحدها "؟

" نعم ".

" هل ستبلغها بما حدث "؟

" لا أدري ... لا أدري ماذا سأفعل " قالها في يأس.

مرت الدقائق دون أن يتكلم أحد. ثم تساءل الشاب الجالس وراء عجلة القيادة.

" ما اسم الشارع الذي سنتوجه إليه "؟

فكر عزيز قليلاً ثم أجاب:

" شارع البارودي ".

عاد الصمت يخيم من جديد كأن أحدًا لا يجد في نفسه دافعًا للكلام. كان عزيز يشعر بإعياء شديد. كأنه بذل جهدًا خارقًا اعتصر كل ما في جسمه من طاقة وقوة. شعر أنه لا يريد أن يتحرك، وبات يحملق في الأشجار والبيوت تمر أمام عينيه بسرعة كعواميد النور من نافذة القطار. أفاق على السيارة تبطئ في سيرها، وعلى صوت الشاب يسأل من جديد.

" ما هو رقم المنزل "؟

" أربعة وثلاثون ".

توقفت السيارة عن السير فجأة. التفتت الفتاة إلى الوراء والتقت عيناها العميقتان بعيني عزيز في نظرة طويلة يطل منها تعبير غامض، فيه تساؤل، وإشفاق، وتوقع لشيء مرعب. قالت:

" وصلنا ".

تردد عزيز قائلاً ثم قال:

" سأصعد إليها ".

التقت عيناها بعينيه مرة ثانية وكأنها تحجم عن إلقاء سؤال يدور في ذهنها. ثم بعد تردد قالت:

" أتريد أن أصعد معك "؟

فكر عزيز لحظة ثم قال:

" نعم ".

صعدا السلم الملتوي الضيق بدرجاته المتآكلة. عند الدور الثاني فوجئ بيدها الصغيرة الدافئة تلتف حول أصابعه وتضغط عليها وكأنها تشجعه. توقفا عند الدور الثالث أمام باب من الخشب تغطي شراعته

قضبان من الحديد المدبب مطلية باللون الأبيض. ضغط على الجرس، فأطلقت يده. بعد لحظات فتحت الشراعة، وأطل منها وجه سيدة لفت حول رأسها طرحة سوداء. عندما لمحت وجه عزيز فتحت الباب بسرعة وهتفت:

" دكتور عزيز. تفضل ".

دخلا إلى الصالة، ووقفا في الضوء الخافت تبدو عليهما علامات الحيرة.

ألقت السيدة على الفتاة نظرة خاطفة متسائلة. فقدمها عزيز قائلاً:

" الآنسة نادية طالبة في كلية الآداب، وصديقة ".

تنهدت السيدة، وقالت مشيرة إلى كنبة عريضة مغطاة بقماش أخضر لامع وبعدد من الوسائد الملونة المتناثرة.

" تفضلا، تفضلا، اجلسا ".

جلسا على الكنبة صامتين، وكأنهما يبحثان عن كلمات يقولانها. السيدة الجالسة أمامهما تبدو في مقتبل العمر، متوسطة الطول، مكتنزة الجسد قليلاً، جميلة في ثوبها الأسود الطويل، المغلق بإحكام عند الرقبة، وقد أحاط بجيدها عقد طويل من اللآلئ، لفته في ثلاث صفوف متناسقة. عيناها السوداوتان الواسعتان تلمعان في وجه بيضاوي، بشرته بيضاء وناعمة، لا تظهر عليه سوى بعض التجاعيد الخفيفة عند ركني فمها الممتلئ، وخطين طويلين يصلان بين طرفي الأنف والفم. الأنف مستقيم فيه رقة، والوجه ملفت للنظر، فيه جاذبية شديدة، لا يعيبه سوى مسحة من المرارة يؤكدها الخطان الطويلان والتجاعيد الرفيعة التي رسمها الزمن حول الفم. لم يكن الشبه بينها وبين أسعد واضحًا، ولكن شيء ما في

تكوين الوجه والجبهة، ونظرة العينين تجعلك تحس في لحظة خاطفة أنك أمام وجه أسعد نفسه.

سألته بصوتها الأنثوي العميق:

" ماذا يمكن أن أقدم لكما؟ قدحين من الشاي، أو القرفة. الجو بـ ـارد أليس كذلك "؟

نظر عزيز إلى الفتاة. هزت رأسها بـ ـالنفي دون أن تـ تكلم. قـ ـال عزيز:

" لا شيء. مع الشكر يا سيدتي ".

جلسا صامتين أمامها. فأخذت تنظر إليهما كأنها تنتظـ ـر أن يبـ ـدآ بالكلام، ثم وجهت إليهما سؤالاً هادئًا رن في السكون كطلقة رصاص.

" أين أسعد يا دكتور عزيز "؟

بلع ريقه، وأخذ يفحصها بعينيه، يريد أن يقدر مدى قـ ـدرتها علـ ـى التحمل. قال بصوت تتخلله رعشة خفيفة.

" جئت إليك بنبأ سيئ. أرجو أن تتقبليه بهدوء ".

أصبح الوجه الأبيض أكثر بياضًا، كان البقية الباقية مـ ـن الـ ـدماء هربت منه.

هتفت في انزعاج بصوت مختنق النبرات، كأنها لا تريد أن تخرج من حنجرتها:

" أسعد. أسعد أصابه مكروه؟ تكلم ... لماذا أنت صامت "؟

جرت عيناها الحائرتان بينهما تبحث عن شيء يخبئانه عنها.

" أسعد أصيب في حادثة. وهو موجود الآن في المستشفى ".

أصبح الوجه الأبيض جامدًا ككتلة من الثلج. تعلقت أنفاسها، وعـ ـلا صدرها، ثم بدا وكأنه توقف.

" حادثة؟ مستشفى؟ كيف؟ تكلم. أنت تخفي عني الحقيقة ".

قال في يأس:

" أنا لا أخفي عنك شيئاً. هو في المستشفى. حالته خطيرة، ولكن الأطباء يقولون أن هناك أملاً في إنقاذه ".

قامت الفتاة من جلستها، ولفت كتفي المرأة بذراعها كأنها تريد أن تحتضنها. واجهه الوجه الأبيض المذبوح من جديد. الملامح لم تعد ملامحها، كأن ألمًا حادًا مفاجئًا جعلها تلتوي، وتتبدل، وتغير خطوطها الطبيعية.

ندت منها آهة ضعيفة مستسلمة كأن الحياة أخذت تخبو في الجسد المعذب. عيناها فقط تنطقان بالدوامة التي تعتصرها، الحدقتان مفتوحتان تكشفان عن دائرتين من الرعب، كأنها ترى يدًا مرفوعة بسكين، وتنتظر طعنتها. دائرتان مظلمتان امتزج فيهما الرعب، والتوسل، والتساؤل، كأنهما تصرخان في صمت:

" لا ... لا ... لا ... لا تفعل هذا. ارحمني ".

أحس عزيز بقبضة حديدية تمسك بقلبه وتعتصره. نظر إلى الفتاة الواقفة بجوارها، وقد اقتربت برأسها منها، وضمتها إليها بذراعيها، ثم استطردت بصوت هادئ:

" أصيب في حادث سيارة أثناء مظاهرة اليوم. ونقلناه إلى المستشفى".

صرخت في وجهه:

" ابني أسعد، أين هو؟ أريد أن أراه ".

أحس عزيز باليأس القاتل يزحف عليه، وكأنه يموت هو أيضًا في تلك اللحظة. التفت إلى الفتاة فلمح وجهًا أسمر، أصبح جامدًا كالحجر

المنحوت بدقة، وعينين تلمعان بطبقة رقيقة شفافة من الدموع تجمدت فوق المقلتين، وكأن شيئًا يمنعها من السقوط. خيم صمت القبور في الحجرة الصغيرة، كأن كل شيء توقف فجأة عن السريان، صمت لا يقطعه سوى صوت المنبه تك ... تك ... تك يملأ الفراغ بضربات تبدو عالية كالطبل في سكون الحجرة، ضربات لا تريد أن تتوقف، تزحف كالقدر، بطيئة، منتظمة، قاسية تسحق كل شيء أمامها.

أطرقت برأسها إلى الأرض، وبقيت هكذا مدة طويلة، كأنها نسيت وجودهما، والحجرة، ونفسها، وكل ما يدور حولها، أو كأنها تبذل جهدًا عنيفًا لتجمع شتات قواها وأفكارها. ثم رفعت رأسها إليه، وسألت:

" أين هو الآن "؟

" في مركز الإسعاف ".

" لابد أن أراه. خذوني إليه ".

قالتها كأنها تصدر أمرًا نهائيًا.

التقت عيناه بعيني الفتاة في تساؤل حائر.

" السيارة تنتظرنا أمام باب العمارة. سنذهب سويًا ".

وقفت على قدميها، ونظرت حولها، تبحث عن شيء، ثم دخلت مسرعة إلى الحجرة المجاورة، وعادت بعد لحظة تحمل على ذراعها حقيبة يد من الجلد الأسود.

" أنا جاهزة ".

قالت الفتاة في رفق:

" يستحسن أن ترتدي معطفًا. فالجو بارد ".

قالت:

" لا داعي للمعطف. هيا بنا ".

هَمَّ عزيز بالوقوف، ولكن أوقفه صوت الفتاة الهادئ الصارم.

" لا. لابد من المعطف. أو شال صوف، أو أي شيء. فالجو بارد جدًا ".

تنهدت في استسلام، ودخلت إلى الحجرة ثانية. خرجت وقد ارتدت معطفًا سميكًا من الصوف الأسود.

تقدم عزيز إلى الباب وفتحه. مدت الفتاة يدها إلى الأم وأمسكت بذراعها. سارا إلى الباب وخرجا معًا يتبعهما عزيز.

سأل عزيز:

" أمعك المفتاح "؟

" نعم ".

" ناوليني إياه ".

دفعت بيدها داخل الحقيبة وأخرجت المفتاح. أخذه منها عزيز. أغلق الباب وأدار المفتاح فيه ثم أعاده إليها.

هبطوا السلالم الضيقة الملتوية، والفتاة ممسكة بذراعها، تقود خطواتها على الدرجات المتآكلة. خرجوا من باب العمارة، وتقدموا على الرصيف نحو السيارة. لمحهم الشاب الجالس فيها فقفز منها، وكأنه أصيب بصدمة كهربائية. دار حول السيارة وفتح الباب الخلفي. دخلت الأم وهي تسند نفسها بيد وضعتها على ظهر المقعد الأمامي وجلست. دارت الفتاة حول السيارة وفتحت الباب المقابل لتأخذ مكانها بجوارها.

استقر الشاب خلف عجلة القيادة وإلى جواره عزيز. قال:

" إلى أين "؟

أجابت الفتاة.

" إلى مركز الإسعاف الذي كنا فيه يا مصطفى ".

ألقى عليها نظرة متسائلة، ثم هز كتفيه بحركة خفيفة غير محسوسة، وأدار المحرك.

مضت بهم السيارة عبر الشوارع. مر الوقت دون أن يتكلم أحد، الأم تنظر أمامها إلى شيء بعيد لا يرى. والفتاة تتابع الشارع من نافذة السيارة دون أن تراه. تحس وكأنها تنظر من نافذة أخرى، من خلف الزجاج المغلق لتطل على جمع من الناس يسيرون خلف صندوق طويل من الخشب، لفته أمواج الحرير الأخضر، تمتد إليه الأذرع السمراء من فتحة الأكمام العريضة، كأنها تحمل شيئًا غاليًا، محبوبًا، تخشى عليه من الأذى، وتتبدل تحته الأعناق القوية كجذوع الشجر، تتسابق لتدفعه إلى أعلى، وكأنها تحمل راية ظافرة لا يجوز لها أن تسقط. والزورق الأخضر يتوقف أحيانًا، ويتعثر أحيانًا، ويهبط أحيانًا ويعلو أحيانًا، ولكنه يستأنف السير دائمًا، بقوة متجددة على الدوام، تتخطى كل الصعاب. وطربوش أحمر ينتفض عند الرأس مثل القلب الأحمر ينبض في تحد. وأبوها يسير خلف النعش بقامته الطويلة يرتفع برأسه عاليًا فوق الآخرين، يتقدم بخطوة ثابتة، وعينين مفتوحتين لا تطرف جفونهما أو تدمع. والجلاليب الداكنة ترفرف في الهواء، وسحابة صغيرة من التراب تثيرها الأقدام، وبعض المارة يقفون في بله على قارعة الطريق، وامرأة بدينة تطل من فوق حبال الغسيل في شرفة المنزل المقابل بصدرها الأبيض المكتنز، وذراعين عاريتين، وكلب ينبح في إصرار كلما ارتفع الصراخ والعويل من الكتلة السوداء المحتشدة في الغرف الضيقة الصغيرة التي تبدو وكأنها ستنفجر أو تسقط جدرانها في أية لحظة من شدة الزحام، وقوة الأصوات.

وهي تقف خلف النافذة كالمتفرج لا تشعر بشيء إلا الخوف عل ى النعش المحمول فوق الأعناق، كلما تعثرت الخطوات أو بدا على الأكتاف أنها ستنوء بالحمل الثقيل. غريبة مسألة الحزن هذه. الحزن الحقيق ي ل م يأت إلا فيما بعد. عندما جلست على مائدة الطعام فلم تجده، وعندما لمحت كتابًا أسود على المنضدة بجوار سريره، فأخذت تقلب صفحاته وتحاول أن تفهم الملاحظات المكتوبة بخطه المنغبش غير المقروء. عندئذ، وعندئ ذ فقط أحست أنه مات، فسالت دموعها الصامتة، وهي تجلس وحدها عل ى حافة سريره النحاسي العالي، وأدركت أن جزءًا منها قد انتهى إلى الأبد.

أفاقت على عزيز يلتفت إلى الوراء ويقول:

" يا أماه. أرجو أن تكوني هادئة. فحالته ليست على ما يرام " ب دا وكأنه انتزعها من أعماق هوة سحيقة، وجاء صوتها ضعيفًا كأنه يصد عد من القاع.

" هادئة؟ هادئة؟ هل وصلنا؟ أين نحن "؟

" سنصل بعد قليل ... بعد دقائق ".

خيم الصمت من جديد، جنحت السيارة فجأة كأنه ا تف ادت ش يئًا أمامها.

التفت عزيز إلى جواره فوجد الشاب يحملق في الش ارع الممت د أمامه ويداه تقبض بشدة على عجلة القيادة، تبدو عظام أص ابعه بيض اء تحت الجلد.

" على مهلك ... على مهلك ".

لم يبد أنه سمع شيئًا. بقيت عيناه مثبتتين عل ى الطري ق، وخ يم الصمت من جديد. توقفت السيارة خلف ذراعي عسكري المرور الممت دة

كذراعي صليب أسود. مرت اللحظات طويلة ثقيلة، ثم استأنفت سيرها بقفزات صغيرة مختنقة. قال الشاب.

" آسف. المحرك فيه خلل ما ".

انحنت السيارة عند تقاطع شارع فؤاد والملكة نازلي ثم انحنت ثانيًا وتوقفت أمام باب حديدي مطلي بلون أحمر فاتح. برز رجل يرتدي معطفًا أبيض، ومال على أذن الشاب:

" إلى أين "؟

" هناك مصاب في الداخل. والسيدة "، مشيرًا إلى الخلف، " والدته".

تردد الرجل لحظة وألقى عليهم نظرة سريعة ثم قال:

" تفضلوا ".

توقفت السيارة في أحد أركان الحوش الصغير، ونزلوا منها. ظلت أم أسعد تنتظر. تقدم نحوها عزيز وقال:

" يا أماه قبل أن تدخلي أريد أن أقول لك شيئًا ".

حملقت فيه بنظرة متسائلة تفيض بالحيرة، وشيء كالتوسل الصامت.

" لقد بذل الأطباء جهودًا كبيرة، ولكن حالته كانت سيئة ".

همست بكلمات تكاد لا تسمع، وكأن صوتها تغيب فجأة، ورأى عينيها دائرتين كبيرتين من السواد في الوجه الأبيض.

" ماذا تريد أن تقول "؟

تردد كأن كلماته لا تريد أن تخرج من حلقه.

" أسعد ... أسعد ... مات ".

جاء صوتها هامسًا لا روح فيه.

" مات ... مات ... آه يا ولدي ".

مدت يدها كأنها تبحث عن شيء تستند إليه لتجلس. فأسرعت الفتاة إليها، ووضعت ذراعها حول ظهرها.

" أريد أن أراه. مستحيل ... لم يمت ... ابني لم يمت. أريد أن أراه. خذوني إليه ".

وقف عزيز على جانبها الآخر ووضع يده تحت إبطها. لمست يده يد الفتاة، فأحس بها باردة كالثلج. سار إلى جوارها بخطوات بطيئة حتى وصلوا إلى مبنى صغير. توجهوا إلى الباب الجانبي. أوقفهم رجل آخر يرتدي معطفًا أبيض.

" أين أنتم ذاهبون "؟

" السيدة والدة الطالب المتوفى. تريد أن تراه ".

تراجع الرجل خطوة إلى الخلف. وحملق في وجهها بإشفاق. ثم نظر إليهما وهز رأسه.

نظر عزيز إلى الفتاة في تردد قالت: " سأدخل معكما ".

دخلوا إلى الحجرة الصغيرة الباردة بجدرانها العارية، وأحواضها الطويلة البيضاء، يصب فيها صف من صنابير المياه. وسط الحجرة، فوق منضدة من الرخام بأرجلها السوداء الحديدية المثبتة في الأرض كانت ترقد الجثة مغطاة بملاءة بيضاء. رأى عزيز قدميه العاريتين تبرزان من تحت طرف الملاءة كطفلين يتيمين.

تقدموا نحو المنضدة. رفع الملاءة من فوق الوجه واقتربت الأم منه. حملقت فيه لحظة طويلة ثم مالت برأسها على صدره وأخذت تبكي بكاءً لم يسمع عزيز مثله من قبل.

* * *

عاد الموكب الصغير الصامت في السيارة عبر الشوارع المظلمة. توقفت عند المنزل ونزلوا منها. سألت الفتاة:

" أليس لديك أقارب "؟

" ليس هنا. تركناهم في لبنان ".

" إذن أنت وحدك ".

" وحدي ... وحدي ... " في يأس فظيع " نعم الآن أصبحت وحدي".

" إذن سأبقى معك حتى الصباح ".

لم تعلق كأنه لم يعد يهمها شيء.

قال عزيز:

" لا أعرف ماذا أقول يا أماه، سوى أننا سنكون بجوارك دائمًا ".

" لا تقل شيئاً. لم يعد هناك ما يمكن أن يقال ".

تقدم نحوها، وأمسك بيدها ثم قبلها على جبهتها. التفت إلى الفتاة وسأل:

" ستبقين هنا "؟

" نعم ".

" إذن سأنصرف الآن، لأقوم ببعض الإجراءات. لا بد من دفنه غدًا. يوجد تليفون هنا. سأتصل بك تليفونيًا من أي مكان حيث إنني لن أبيت في منزلي الليلة. ألا تريدين أن تبلغي أهلك بشيء "؟

" مصطفى " مشيرة إلى الشاب " سيقوم باللازم ".

نظرت إلى عزيز بملء عينيها ثم مدت يدها وقالت:

" مع السلامة. إلى اللقاء ".

التفتت إلى الشاب: " تصبح على خير يا مصطفى. أرجوك مر على البيت وطمئن والدتي ووالدي ".

هز الشاب رأسه مودعًا السيدة، ثم الفتاة دون أن يتكلم. ثم دار حول السيارة وجلس خلف عجلة القيادة. انتظر عزيز حتى دخ لا م ن ب اب العمارة ثم ركب في السيارة.

سأل الشاب:

" إلى أين "؟

" إلى العتبة ".

مرقت السيارة عبر شارع فاروق حتى ميدان العتبة. لـ م يتب ادلا الكلام أثناء السير. عندما وصلا إلى الميدان خرج عزيز مـ ن صـ مته، وندت عنه تنهده كأنه يبذل جهدًا ليتكلم:

" أرجو أن تقف أمام مكتب البريد " ثم استطرد:

" لم نتعرف ... أنا عزيز طالب بالسنة النهائية كلية الطب ".

" وأنا مصطفى ابن عم نادية وطالب بكلية الحقوق ".

توقفت السيارة أمام مكتب البريد. قال عزيز:

" أشكرك جدًا. أرجو أن نلتقي ثانيًا ".

" لا داعي للشكر. مع السلامة ".

مد يده ليسلم ثم فتح الباب. نزل من السيارة مغلقًا الباب خلفه برفق. صعد فوق الرصيف، وأخذ يمشي بخطوات بطيئة ازدادت سرعتها بعـ د قليل، وكأن النبض يعود إلى جسمه بالتدريج. عبر شارع عبد العزيز ثـ م شارع المساحة. وصل أمام مبنى الأهرام. صعد السـ لالم أمـ ام عامـ ل التليفون الجالس في الكابينة الزجاجية، ثم اخترق الصالة الداخلية.

فتح أحد الأبواب المطلة على الصالة واختفى داخل الحجرة. خرج بعد قليل، واستقل سيارة أجرة أوصلته أمام دار الحكمة. عبر الشارع ودخل عند أحد محلات الحانوتية. تحدث قليلاً مع الرجل الطويل الرفيع الذي يشبه جذع شجرة جفت فيه الحياة منذ مدة، ثم انصرف.

* * *

في تلك الليلة ألقى صدقي باشا القبض على عدد كبير من أعضاء اللجنة الوطنية للعمال والطلبة. تفادى عزيز أن يذهب إلى بيت أحد منهم، ولكن عندما كانت تشير عقارب ساعته إلى الثانية صباحًا كانت قد تحققت لديه أغلب أسماء من قبض عليهم. انشغل بالتنقل من مكان إلى آخر حتى يجمع كل التفاصيل الممكنة. ثم عاد إلى الأهرام، ومعه ورقة واحدة مكتوبة بخط اليد. تركها عند أحد أصدقائه، وانصرف عبر الشوارع الخالية من المارة، يستنشق الهواء البارد الرطب كأنه يدخل صدره لأول مرة منذ أن وقف في الميدان الكبير يحملق في الجسد الراقد على جنبه فوق الأسفلت. تذكر فجأة أنه لم يتصل بنادية، فتوجه مسرعًا إلى سنترال العتبة. أيقظ الموظف النائم فوق البنك الخشبي المستطيل. رفع رأسه بعد جهد، ونظر إليه بعينين مثقلتين بالدم، وبمزيج من الضجر والفضول، وغمغم شيئًا عن " الأفندية الذين يتسكعون في الشوارع طوال الليل ". ناوله قرش صاغ وأخذ منه القطعة النحاسية المثقوبة. ثم دخل كابينة التليفون. أدار القرص بإصبعه المتجمد من البرد ٧٣٧٥١. رن الجرس ثلاث مرات ثم رفعت السماعة، وسمع صوتًا نسائيًّا يرد بنبرات خافتة " ألو ".

قال: " أنا عزيز ".

" عزيز. أنا نادية. كيف حالك؟ أين أنت "؟ بدا له كأن كلماتها فيها شيء كالقلق.

" أنا أكلمك من العتبة. أنا بخير. ماذا فعلت "؟

" بقيت معها طوال الوقت. أعددت لها قدحًا من القرفة منذ قليل. شربتها ودخلت إلى حجرتها. كنت أهم بالدخول معها ثم سمعت جرس التليفون فعدت ".

" وهي ... كيف حالها "؟

" كالمذهولة، تبدو وكأنها لا تدرك ماذا حدث ".

" لا تتركيها. امكثي إلى جوارها. حتى أحضر إليكم في الصباح ".

" أين ستذهب "؟

" سأنام عند أحد أصدقائي هنا في العتبة ".

" هل عندك أخبار "؟

" نعم ألقوا القبض على عشرين من أعضاء اللجنة. ولكن غدًا سيصدر بيان في جميع الصحف ".

" متى ستحضر في الصباح ".

" في الساعة التاسعة. أتريدين شيئًا "؟

سكتت قليلاً ثم قالت:

" لا. سأنتظرك ".

" حسناً. تصبحين على خير ".

كان يهم بوضع السماعة عندما سمع صوتها يقول:

" عزيز ".

قال: " نعم ".

" انتبه لنفسك ".

بقيت السماعة معلقة في يده. بحث عن شيء يقوله ولك ن قب ل أن يتكلم جاءه صوت الخط يغلق من الجانب الآخر.

خرج من الكابينة. كان الرجل قد عاد إلى نومه فوق البن ك. لم ح صلعته تلمع في الضوء الخافت. خرج من الباب، وعبر الميدان الخ الي من كل حركة بخطوات بطيئة ترن في صمت الليل الموحش.

ساعة الجامعة تدق دقاتها النحاسية العميقة. ومع كل دق ة ترتف ع أسراب العصافير ترفرف أجنحتها الصغيرة في اضطراب مصطنع، كأنها تلعب لعبتها المعتادة قبل النوم، وتزقزق أصواتها بنغم ة متص لة لآلاف الأوتار الرفيعة المرحة، تودع قرص الشمس الذهبي قبل أن يسقط خل ف الأفق. سار بخطوات طويلة مسرعة عبر فناء الجامعة، واخترق الفج وة المفتوحة في السور، ثم اتجه عبر الأرض الفضاء الممتدة حتى مب اني " الخرطة " المنخفضة التي أخذت مصابيحها الكهربائية تضيء الواحدة تلو الأخرى خلف النوافذ المغلقة دون برد الشتاء، كأن يدًا س حرية تض غط على أزرارها قبل أن يجيء الظلام. كان يتفادى الحجارة الكبيرة وت لال الحصى، والرمل، والنباتات الشوكية الشيطانية بخطوة م ن س ار عل ى الطريق عشرات المرات حتى حفظ أدق تفاصيله. اشتد ن بض الش ريان عميقًا في فخذيه، وأحس بلذة المجهود العضلي يصعد منهما إلى جس مه، وبأنفاسه ساخنة تخرج من أنفه في سحابة رقيقة من البخار. مر أمام بائع الخضروات فلمح كرات الطماطم الناعمة، بقع ة حم راء ف ي الظ لام المتراكم ... كالدماء فوق س واد الأس فلت. ارتع ش له ذا الخ اطر، وللإحساس الفجائي بأنه أفلت من الموت بأعجوبة ... تنهد في ارتي اح، وتذكر وهو يدلف من باب المنزل إلى بئر السلم أنه لم يأكل منذ الصباح.

صعد السلالم اثنين اثنين، ثم طرق الباب بنقرات ثلاث متتالية. سمع صوتها يقول:

" من يدق على الباب "؟

قال: " أنا عزيز يا عمتي ".

فتحت الباب، وحملقت فيه بعينيها الواهنتين يشوبهما بياض خفيف يطل من عمق المقلتين.

" من أين جئت "؟

قال:

" من العتبة ".

سألت في لهفة:

" أليس لديك أخبار عن عماد؟ لماذا أخذوه؟ ... لماذا؟ ... ماذا سيجري له؟ ارحمني، أرجوك، لم أعد احتمل هذا الانتظار ".

" هو في سجن مصر يا عمتي. اطمئني. سيخرج قطعًا في الأيام القليلة القادمة ".

" ومن أين جاءك هذا اليقين "؟

" خرج أغلبهم، ولم يبق سوى عدد قليل ".

" ولماذا يحتفظون بهم إذن "؟

" سيخرجون هم أيضًا بالتأكيد ".

" وكيف حاله "؟

" على أحسن ما يرام. قابلت أحد المفرج عنهم اليوم، صديقًا اسمه خليل، أظن أنك رأيتيه مرة. طمأنني على ظروفهم ".

" وكيف ينام "؟

ضحك وقال:

" ملتحفًا بالبطاطين الصوف ذات الوبر الناعم ".

تنهدت وقالت:

" أنت تسخر مني، لأنك لا تعرف قلب الأم ".

" أنا لا أسخر. أنا أقول الحقيقة ".

" وكيف يأكلون "؟

" جمعنا لهم نقودًا من الطلبة وأرسلنا إليهم ما يكفيهم ".

صمت قليلاً ثم قال:

" لابد أن أتركك الآن ".

" هكذا بسرعة يا عزيز. لم أعرض عليك أن تجلس، ولا أن تشرب كوبًا من الشاي، ياللكسوف "!!

" أرجوكِ ... لا تعيري أهمية لذلك ... كوني مطمئنة على عماد ".

مد إليها يده وقد أمسك بين أصد ابعه بجنيهي ين. لمح ت الأوراق الخضراء فتراجعت إلى الوراء خطوة وقالت:

" ما هذا "؟

" هذا ما جمعناه من الطلبة للعائلات ".

" ولكنني لا أحتاج إلى هذه النقود ".

" لست أنا الذي يمكن أن تقنعيه بهذا الكلام. أرجوك خذيها ".

مد يده ثانيًا فأخذت الجنيهين بشيء من التردد، ووقفت حائرة وسط الحجرة تنظر إليه في ارتباك خفيف.

" أتريدين شيئًا مني "؟

" لا. أريد فقط أن تطمئنني على عماد ".

" إن شاء الله، قريبًا. تصبحين على خير ".

" وأنت من أهله. يا بني ".

سمع الباب يغلق خلفه. هبط السلالم مسرعًا فشم رائحة العفن الرطب في بئر السلم، وشيئًا كالطبيخ الحامض. منذ الصغر كان حساسًا لأدق الروائح. كانت أمه تنظر إليه عندما تضع الأطباق الساخنة على المائدة لترى حركات أنفه عندما يتصاعد إليها البخار، فتعلم كيف يسد كتها إذا لم يعجبه شيء من رائحتها. ملأ رئتيه بالهواء البارد، وأخذ يجري بخطوات سريعة منتظمة، وأنفاس هادئة من كثرة المران. سرح بذهنه وهو يجتاز الحوانيت والأضواء المتلألئة، والبيوت الصغيرة المتلاصقة كأنها تتعانق من شدة البرد، ورآها تصعد وتهبط مع خطواته المتلاحقة. سرح مع الحركة الآلية المتكررة تحمله عبر الشوارع المظلمة، كأن قلقًا دفينًا يدفعه نحو حجرته الصغيرة المطلة على الحديقة المجاورة، والمكتب العريض المغطى بالكتب، والأقلام، والورق الأبيض المتناثر تحت الضوء الساطع الشفاف، والسرير العريض بملاءاته الناصعة ترتفع من ثناياها رائحة الصابون، ووجه أمه الهادئ تحيك جوربًا أزرق بجوار المذياع.

وصل إلى محطة الأوتوبيس دون أن يشعر بالدقائق التي مرت، أو بالطريق الذي اجتازه. وقف لحظة قصيرة على المحطة، ورأى كشافين كالعينين الواسعتين تقتربان في الظلام، وجسدًا ضخمًا يدفعهما أمامه، وقد أطلت من نوافذه المصابيح الباهتة الصغيرة، والرؤوس المتراصة كالعرائس الساكنة المتشابهة، اختفت ملامحها في الضوء الخافت الضعيف فبدت كلها شاحبة مريضة. صعد إلى الجوف المنتفخ، وألقى بجسده المتعب على أحد المقاعد الخالية بجوار رجل عجوز مال برأسه الأشيب على عصاه، وراح في سبات متقطع، يفتح عينيه عند كل محطة بحركة غريزية، ثم يغلقهما من جديد. عبر الأوتوبيس كوبري أبي العلا تبدو عواميده الحديدية كالضلوع العارية في صدر حيوان ضخم رقد فوق المياه

الداكنة المنسابة بين الشاطئين. ثم انطلق بهديره العالي المتصل أمام الجامع لا يبالي بالجموع الهاربة أمامه.

عاد بذهنه إلى لقائه مع خليل في المنزل ذي الحجرات الفسيحة المتهدمة المطل على سيدي أبي العلا. جلسا سويًا على كنبة بيضاء طويلة بجوار الحائط، يشربان الحلبة الساخنة، ويتبادلان الحديث.

كان قد قرأ الكثير عن الباستيل، وسجون القيصرية، والحياة في معسكرات الاعتقال، فرسم في خياله المشتعل صورته الخاصة عن ذلك اللقاء الأول مع أحد الذين ألقي بهم خلف القضبان. تطلع إلى خليل ينتظر كلماته كالظمآن يرى الماء أمامه، فيكاد لا يتمالك نفسه من شدة العطش.

" كيف حالك يا عزيز؟ كانت لكم وحشة غريبة في نفوسنا ".

" وأنتم أيضًا ".

" ولكن ليس إلى نفس الدرجة ".

" ومن أين لك هذا يا خليل "؟

" تركناكم في المعركة، وكنا نتوق إليها. ونفكر فيها باستمرار ".

" نحن الذين افتقدناكم. فقد أدى اعتقالكم إلى شل أشياء كثيرة كان يمكن عملها. وانتهز صدقي هذه الفرصة ليثير البلبلة. كون لجنة سماها " اللجنة القومية " بمساعدة الأحزاب الرجعية والاتجاهات الطائفية ووضع تحت تصرفها الإذاعة والصحف الحكومية، وأخذت تذيع البيانات داعية إلى الهدوء. فأصبح الناس حائرين بين توجيهات اللجنة الوطنية ونداءات اللجنة القومية، وعجز الكثيرون عن التمييز بينهما معتقدين أنهما شيء واحد. وحاولنا أن نمد نشاطنا إلى الأقاليم وإلى الأرياف فلم ننجح ".

ابتسم ابتسامة خفيفة، راضية، وهز رأسه ببطء كأنه مستغرق في التفكير.

" والآن "؟

" الآن يحتاج الأمر إلى مضاعفة المجهودات لكشف مناورات السراي والحكومة وإحباطها ".

خفض خليل عينيه إلى الأرض، فوجد عزيز نفسه يحملق في البروز الصغير البيضاوي يشبه كيسًا من الدهن المضغوط. وفي الوجه الذي يكسوه جمود كالقناع الخالي من كل تعبير.

" ينبغي أن نتدبر أمورنا على أسس من التفكير السليم ".

" ماذا تقصد "؟

" أقصد أنه يجب ألا ننساق ".

" ننساق؟ وراء ماذا "؟

" وراء التيار، وراء عواطفنا ".

" عواطفنا يا خليل. وما العيب في عواطفنا؟ عواطفنا لبلدنا ".

صمت لحظة وتطلع إلى النافذة، كأنه رأى شيئًا لفت نظره.

" أنت لم تفهم ما أهدف إليه. يجب أن نتحين الوقت المناسب والظروف المناسبة، وأن نبني خطواتنا على خط سياسي واضح، وأيديولوجية محددة ".

جاءت كلمات عزيز يتخللها شيء من الضيق.

" الوقت المناسب؟ هل هناك وقت أنسب من الآن. البلد كلها مجمعة على ضرورة الاستقلال، والناس يتحركون من تلقاء أنفسهم، بل ويضحون بحياتهم. ليست اللجنة الوطنية هي التي أثارت كل هذا، أنها لم تكن سوى تعبير عن حركة الشعب وإشارة البدء. ثم الخط السياسي السليم من أين يأتي؟ من الدراسة أنا معك في هذا. ولكن من الكفاح أيضًا، من العمل وسط الناس ".

صمت خليل لحظة طويلة، وتناول رشفتين من كوب الحلبة يلمع كالذهب الصافي في أشعة الشمس المتدفقة عبر النافذة المفتوحة وفوق المنضدة الرخامية البيضاوية.

" كل هذه المسائل تحتاج إلى تفكير أعمق، لنا عودة على كل حال. فلن نحل كل شيء الآن. المهم كيف حالك أنت؟ وكيف حال المذاكرة "؟

" أنا ... أنا مشغول، وهذا الانشغال يسعدني. تأخرت في المذاكرة هذه السنة، ولكنني أعوض الوقت المفقود بالسهر الطويل. لحسن الحظ يستطيع جسمي أن يكتفي بساعات قليلة من النوم. ومع ذلك أشعر أحياناً بإرهاق شديد ".

" ما رأيك في أن نذاكر سويًا، لأعوض أنا أيضًا ما فاتني "؟

" لا مانع. سنكون ثلاثة، حسين وأنت وأنا. ويمكننا أن نتبادل البيات في المنازل الثلاثة بالدور. أو إذا شئتم يمكننا أن نتخذ منزلنا مكانًا دائمًا للمذاكرة ".

" لنتفق على ذلك فيما بعد. المهم أن نبدأ ".

" من باكر. سأنتظرك في البيت الساعة السادسة مساء إذا كان الميعاد يناسبك ".

" وهو كذلك ".

خرج خليل بالصينية والأكواب الفارغة وعاد بعد لحظات.

" يا خليل لم تحكِ لي شيئًا عن السجن. كانت تجربة جديدة ".

" جديدة ومفيدة ".

انتظر عزيز حتى يكمل كلامه ولكنه صمت.

" ماذا استفدت "؟

" أشياء كثيرة يا عزيز. أشياء كبيرة ".

" ألم تشعر بالخوف "؟

" الخوف أبدًا. طالما أن الإنسان له هدف فلماذا يخاف "؟

" الهدف شيء والخوف شيء آخر. هكذا يبدو لي على الأقل ".

" الإنسان القوي لا يخاف ".

أحس عزيز بشيء من الارتباك. كاد أن يقول ولكنني أشعر بالخوف أحيانًا ولكنه سكت.

" ولكن ماذا استفدت؟ وما هي أحاسيسك بعد أن خرجت "؟

" هذا موضوع طويل. سأقص عليك التفاصيل عندما نلتقي. عندي الآن مقابلة مهمة وسأضطر إلى أن أتركك لأرتدي ملابس الخروج " مشيرًا إلى روبه الأحمر الداكن.

" إذن سأنصرف الآن – إلى اللقاء باكرًا إن شاء الله في الساعة السادسة ".

أوصله خليل حتى الباب الخارجي، ومد يده إليه مسلمًا بنظرته الجانبية المعتادة. على عتبة الباب رنت منه ضحكته البسيطة كالطفل وهو يقول:

" أمعك دراجتك الشهيرة "؟

" لا تركتها في المنزل ".

" مع السلامة. سلامي إلى حسين ".

" الله يسلمك ".

هبط على السلم وقد أدخلت ضحكات خليل الطيبة على قلبه شيئًا من الدفء القديم.

تململ في جلسته على المقعد، وأحس بوخزات الدماء المحبوسة تسري كالإبر في ساقيه. أطل من النافذة فوق رأس العجوز النائم بجواره.

بعد دقيقة سيكون في العتبة. لماذا هذا القلق الدفين الذي انتابه الليلة؟ لماذا خرج من المقابلة مع خليل وقد تملكه شعور غامض بعدم الارتياح؟ هـ ل هي تلك النظرة الغريبة من خلف النظارة، كأنك تواجه شخصًا أعمـ ى لا يرى، يتحدث معك وقد أزاح بوجهه بعيدًا عنك؟ هل هي البشرة السمراء المشوبة باصفرار خفيف يبدو معها أنه ليس سليمًا ولا عليلاً، كالذي مـ ر بفترة النقاهة بعد مرض طويل، وتلك الملامح الجامدة تشعر معهـ ا أنهـ ا كاللحم البارد للملمس لا ينتفض تحتها شريان ساخن، أو شـ علة الغريـ زة والعاطفة؟. أم الفم المفتوح والصوت العالي ينطـ ق بالكلمـ ات الكبيـ رة والصغيرة، العظيمة والعادية كبوق فونوغراف عتيق تدار عليه أسـ طوانة قديمة ملتها الآذان من كثرة التكرار؟ أم هو الفتور الذي خيم على الجـ و، وردوده الغامضة عما أحس به في السجن، وعمـ ا ينـ وي عملـ ه فـ ي المستقبل؟ أيا كانت الأسباب فقد أحس بخيبة أمل عميقة.

توقف الأوتوبيس فجأة كأنه ارتطم بحاجز ما، فحشر نفسـ ه بـ ين الناس وهبط إلى المحطة. دار بعينيه يبحث عن الأوتوبيس الآخر الـ ذي سيستقله. وجده قرب الرصيف تدور محركاته بصوت متحشـ رج، كأنـ ه سيختنق في أي لحظة. صعد إلى جوفه وجلس على المقعد الأول، ثم دخل بعده نفس الرجل العجوز وأخذ مكانه إلى جواره. نظر إلى ساعته فوجـ د العقارب تشير إلى العاشرة والنصف ... بعد ربع ساعة يكون في البيـ ت ... الليلة سيأوي إلى الفراش فور وصوله. ليست بـ ه رغبـ ة لعمـ ل أي شيء. تنهد من جديد، ثم تلفت إلى الرجل الجالس بجواره، فوجد عينيـ ه تنظران إليه بحنان مستطلع. أزاح بوجهه وحملق أمامه كأنـ ه يريـ د أن يتفادى حديثًا محتملاً. مضت الدقائق والأوتوبيس يهتز تحت أجسامهم كأنه

ينتفض بعلة عميقة، ثم تحرك بقفزة واحدة إلى الأمام. أحس بالهواء البارد يندفع من الباب المفتوح، وبالجسد النحيل يرتعش بجواره.

* * *

رن جرس قيام القطار بضربات متتالية تكاد لا تسمع وسط ضجيج الأرصفة، والعربات الصغيرة المحملة بالحقائب تحتك عجلاتها الحديدية بالأرض الصلبة المتعرجة، وكلمات الوداع، وصياح باعة السميط والسجائر والجرائد، ومصمصة القبلات، وبخار القطارات المضغوط يندفع في سحابات بيضاء مبللة، وعويل الأطفال وضحكاتهم، وصراخ الصفارة الممطوط إيذاناً بالرحيل. أحس بالعربة تتحرك تحت قدميه بدفعات متقطعة مترددة، فانحنى فوق وجه أم أسعد الأبيض الحزين وقبله: " مع السلامة يا أمي. أرسلي بخطاب فور وصولك إلى بيروت ".

انحنت نادية بدورها في صمت، وقد ترقرت في عينيها دموع حبستها عن السقوط. ثم هرولا بخطوات سريعة حتى باب العربة مخترقين طريقهما بصعوبة عبر الواقفين في الممر. قفز إلى الرصيف، ومد يده إليها متطلعًا إلى وجهها كسته حمرة الشتاء الخفيفة، وعينين واسعتين تلمعان ببريق كالحياة. أحس بجسدها يلمسه لحظة ثم سارا ببطء فوق الرصيف وسط الجموع، وقد سكنت يدها الدافئة في كفه. سارا في صمت مثل صديقين قديمين يشعران بالألفة، والارتياح لمجرد وجودهما سويًّا، دون حاجة إلى الكلام، يدوران بعينيهما على المحطة الكبيرة، يتطلعان إلى المسافرين الذين أخذوا أماكنهم داخل عربات الدرجة الأولى يجلسون على المقاعد الوثيرة تبدو عليهم علامات الاطمئنان، والرضى، وهم يتحدثون في هدوء ويلوحون بأيديهم لتأكيد كلمة أو أخرى، ويدخنون، ويقرءون صحف الصباح، أو يكتفون بمجرد النظر من خلال النافذة.

مرت عليهما عربات القطار بنوافذها المتتالية مثل فيلم من الصور الصغيرة الملفوفة حول البكرة تبسطها أمامك في ضوء النهار لتراها. شاب طويل ينحني من النافذة ويهمس في أذن الفتاة الواقفة على الرصيف: " لن أنساك أبدًا " التقت عينا نادية بعينيه في نظرة امتزج فيها الحنان بالتساؤل. كلمات الوداع في المحطة يا ترى إلى متى يمكن أن تعيش؟ رجل عجوز أبيض الرأس يداعب طفلة صغيرة تحملها أمها الشابة: " لا تبرحي المنزل حتى أعود، ولا داعي للنظر من النوافذ ". والشابة تنظر إليه بعينين واسعتين كساهما الضحك، وشيء كالسخرية المستترة المستنكرة. وصلا في سيرهما أمام عربات الدرجات الثالثة تبدو كحظائر الماشية، اكتظت بالناس، وقد حشرا نفسيهما بطريقة ما في الصناديق الرمادية المستطيلة بفتحاتها المنتظمة، كتل اختلط فيها البشر بالسلال، بأقفاص الفراخ، بالأطفال المحمولين على الأكتاف، أو على الحجر يرضعون من الثدي، ويتطلعون حولهم بعيون يسيل منها خيط رفيع من الصديد، ويلتصق بها الذباب الأسود كأن حياته تتوقف على هذا الالتصاق. عويل الأطفال يختلط بصوت الرجال يتشاجرون، ببكاء امرأة تصرخ كأنها في مأتم، وبالطنين المستمر العالي لمئات الأصوات، تلقي بالكلمات الخشنة، وكأنها ترجم بالحجارة. فهنا في المحطة لا يفصل بين قمة المجتمع وقاعه سوى بضع خطوات، سوى المسافة القصيرة التي تفصل بين الدرجة الأولى والدرجة الثالثة. ومع ذلك فهذه المسافة تقوم كالجدار العالي، أو كالهوة السحيقة بين عالمين، بين مقاعد القطيفة، والأجساد المسترخية فوقها، يلفها الحرير والصوف، وتحتسي السوائل الساخنة، وتدخن السيجار، وتتحدث عن آخر فضائح السراي، وتهمس بكلمات الغزل في الأذن البيضاء الرقيقة يتدلى منها الحلق وتومض

أحجاره تحت أشعة الشمس الطويلة كالأصابع، وبين كتلة هلامية تغطي المقاعد الخشبية والأرض، وكل شبر من المساحة يمكن أن تمتد فوقها، كتلة هلامية من أجساد البشر ألقى بها في الجوف المظلم للعربة حتى تكاد لا تميز بين الوجوه، بين الرجل والمرأة، وبين الطفل والعجوز، وبين الإنسان أو السلة. والعربة مغلقة تتصاعد منها رائحة العرق، وتراب الحقول، والحطب، والدجاج، والبصل، وبراز الأطفال، وكأنها أنفاس تتصاعد من الجسد الضخم الذي يرقد داخل العربة.

وصلا إلى حاجز التذاكر، ثم اخترقا الفناء الواسع الداخلي وخرجا إلى ضوء النهار الساطع فجأة من خلال أحد الأبواب. وجدا نفسيهما يهبطان الدرجات وما زالت أصابعهما تتشابك. توقفت نادية قبل آخر السلم فترك يدها وخطا على الدرجة الباقية ثم استدار ليواجهها. أطلت عليه من أعلى تنظر في عينيه بثبات كأنها تبحث عن شيء يختبئ في مقلتيه.

تنهدت وقالت:

" تركنا المحطة بسرعة. كنت أود أن أجلس فيها قليلاً ".

" لماذا؟ هل أنت متعبة "؟

" لا أنا أعشق المحطات ".

" غريبة. وأنا أيضًا. هناك رائحتان فيهما جاذبية خاصة. دخان القطار، والأسيتون في المطابع ".

" لا أعرف رائحة المطابع. ولكنني أحب دخان القطار، عندما يصعد كثيفًا إلى السماء، وتسمع دفعاته المضغوطة تنطلق في الهواء بصوتها المنتظم المتلاحق، يزداد سرعة كلما دار العجل فوق القضبان ومنظر المسافرين يجرون هنا، وهناك، والحركة الدائبة التي لا تنقطع ... المحطة مثل الحياة، يدخل إليها الناس ويغادرونها، يتركون الماضي

وراءهم بأحداثه، وأشخاصه، وعلاقاته، ورتابة الأيام المتشابهة المتكررة، وينطلقون إلى أماكن، وتجارب، وعلاقات، جديدة، إلى حياة جديدة فيها لذة الاستكشاف، والخوض في المجهول، والتغيير ... وربما المغامرة ".

" هل سافرت من قبل "؟

" لم أذهب أبعد من الإسكندرية في الشمال وقنا في الجنوب ".

ضحك وقال:

" من أين جاءتك إذن كل هذه الأفكار "؟

قالت بصوت حالم فيه شيء من الحزن، وقد أزاحت بوجهها عنه " لا أعرف بالضبط، ربما من الكتب، أو الخيال، أو الرغبة في تمزيق السلاسل. ولكن على أية حال هذا هو ما أشعر به ".

تطلع إلى وجهها بشيء من الاندهاش. هذه الفتاة ليست مثل الأخريات اللاتي عرفهن من قبل. لم يلتق بها إلا قريبًا. ومع ذلك أثارت فيه أشياء مختلفة، نوعًا من الفضول، والرغبة في أن يفهمها، الإحساس بالراحة في وجودها، فهي بسيطة، صريحة، واثقة من نفسها، تخترق الحواجز وتفكر بجرأة. فيها جاذبية قوية لا تعلن عن نفسها، ولكنك تحس بوجودها مستترة، طاغية. عيناها الواسعتان يعبر بريقهما عن حيوية متدفقة في أعماقها. والشعر الأسود القصير الناعم فيه تمرد، والخصلة البيضاء كشعاع الفجر يخترق ظلمة الليل، ويدها الصغيرة الدافئة ترقد فوق كفه في اطمئنان، وساقان ينتقلان فوق الأرض في خف كالغزال يقفز برشاقة على رمال الصحراء، وخصرها النحيل تستطيع أن تحيطه بأصابع اليدين، تنحدر خطوطه في استدارة سخية كالأمواج الهادئة تختبئ تحت الثوب الأزرق البسيط، وتوحي بعطاء الحياة، وسخائها، وبنوع من الدفء لا ينضب.

قطعت تأملاته وكأنها لا تريد منه أن يسترسل فيها.

" فيم تفكر "؟

مرت عيناه على وجهها الصارم الرقيق بنظرة خاطفة وقال في شيء من الارتباك:

" أشياء كثيرة. الجو صافٍ، والشمس ساطعة، وأحس برغبة في التنزه إلى جوار النيل. فما رأيك "؟

" كم الساعة الآن "؟

" التاسعة والنصف ".

" وعدت إحدى صديقاتي بأن أمر عليها ".

أخفى خيبة الأمل التي أحس بها وقال في خفة:

" هذا من سوء حظي. كنت أتوق إلى النزهة وإلى حديث معك ولكن " ...

قاطعته بسرعة.

" أفكر في وسيلة للاعتذار. هي تسكن في المنيل بجوار منزلنا. يمكنني أن أمر عليها لأعتذر ".

" جميل. إذن لنتوجه إلى المنيل فورًا. أين منزلها بالضبط "؟

" على بعد قليل من كوبري عباس ".

" سأنتظر عند بداية الكوبري حتى تعودين من عندها ".

لوح بيده إلى إحدى سيارات الأجرة المنتظرة عن قرب.

اقترب منهما السائق بسيارته، ورمقهما بنظرة جانبية مستتكرة كأنه قرر بينه وبين نفسه أنهما عشيقان.

تركا السيارة عند أول كوبري عباس من ناحية المنيل. وألقى عليهما السائق نظرة أخيرة ارتفعت فيها درجة الاستتكار إلى ما يشد به

الازدراء، وتناول الأجرة من عزيز بحركة يد توحي بأنه غير راض عما قبضه من مال " حرام " وكأنه شارك في عمل مشبوه يخشى منه على رزقه. ثم انطلق بعد أن غمغم ببضعة كلمات غير مفهومة عن أخلاق الشبان في هذه الأيام الغبراء. أحس عزيز بالضيق، وابتسم في وجه نادية كأنه يريد أن يخفف عنها وطأة الشعور السخيف الذي خيم على الجو لحظات، فقالت له كأنها قرأت أفكاره.

" لا تهتم. هكذا هي حياتنا. لا مجال لأبسط الأشياء الطبيعية. أما في الخفاء فكل شيء مباح ".

لم يجب. وقف أمامها ينتظر بوجه متجهم كأنه ما زال يفكر في سائق التاكسي فاستطردت:

" انتظر هنا. سأعود بعد ربع ساعة ".

أشرق وجهها الأسمر بابتسامة مرحة. لمست كتفه بيدها ثم ابتعدت بخطواتها الرشيقة السريعة. تابعها وهي تسير كالغصن ينثني في نسيم الصباح، تبدو كالصبي النشيط لولا الاستدارة الممتلئة تحت خصرها. نظر في ساعته وأخذ يروح ويجيء عبر مسافة قصير فوق كوبري عباس، يتوقف بين الحين والحين ليتأمل المياه المنسابة حول القوائم العريضة الغارقة تحت السطح، ويستنشق دفعات الهواء المنعشة تتدفع من الشمال فوق المساحات المفتوحة. بعد قليل رآها تقدم عليه بنفس الخطوات المرنة تقفز بخفة فوق الأرض. سار نحوها وعندما اقترب منها رأى عينيها الصافيتين، وشعرها الأسود يطير كالأجنحة الناعمة في الهواء. وقفت إلى جواره، وسمع أنفاسها تتردد بسرعة كأنما كانت تجري.

قالت:

" كنت أجري حتى لا أتأخر عليك ".

" ولكنني كنت سأنتظر على أية حال ".

" أكره ما علي أن أتأخر في ميعاد وأن أترك الناس ينتظرونني ".

" وأنا مثلك تمامًا. يبدو أننا متشابهان في كثير من الأشياء ".

" متشابهان ومختلفان ".

" مختلفان؟ فيم "؟

" لا أعرف. نحن لم نلتق إلا قريبًا. ولكن يبدو لي أنك تحكم العقل في كل شيء ".

" ربما، ولكن ليس دائمًا. وأنت ".

" ولكن هل يمكن أن نفصل بينهما. أليست العاطفة في كثير من الأحيان إحساس نابع من التجربة. صمت قليلاً ثم استطرد: أنت على حق، ومع ذلك أشعر أنني مقدم في الأيام المقبلة على أشياء لا صلة لها بالعقل "

" ماذا تقصد "؟

" لا أعرف بالضبط. أشعر وكأن حياتي أصبحت في مفترق الطرق وأنني سأفعل شيئًا لن يفهمه العقلاء ".

" لم أفهم ماذا تقصد "؟

" ما علينا، هذا موضوع طويل. أنا لا أريد أن أتحدث عن نفسي. أريد أن أسمع منك أنت. ولكن إلى أين نذهب "؟

" أريد أن أمشي ".

" فكرة رائعة " أمسك بذراعها وقال: " هيا بنا. حدثيني عن نفسك يا نادية. لا أعرف عنك إلا القليل ".

" كيف أتحدث عن نفسي؟ لا أستطيع ".

" إذن سأسلك وعليك أن تجيبي ".

سارا بخطوات بطيئة منحدرين على الرصيف العريض. كانت تمشي إلى جواره، قريبة منه، دون أن تلتصق به، تاركة ذراعها بين أصابعه ببساطة كأنها تأنس إليه، ترفع وجهها إلى الشمس، مستمتعة بدفئها، وبلمسات النسيم تلعب في خصلات شعرها الناعم المقصوص، ملقية بجسدها قليلاً إلى الوراء وكأنها تقدمه دون تحفظ للحياة، وللطبيعة النابضة حولها. استغرق في تأملاته ينقل عينيه بين المياه العميقة، بأمواجها الصغيرة، وسطحها المرتعش في ضوء الشمس، والأشجار الفارعة ترفع رؤوسها إلى السماء، والزهور الحمراء والصفراء أخذت تتفتح في الحدائق الواسعة المنسقة الممتدة حول البيوت بطول الطريق، والفتاة التي تمشي إلى جواره بخطواتها المرنة المنسابة كأنها جزء من الطبيعة. فوجئ بها تقول دون مقدمات:

" ما رأيك يا عزيز في المرأة "؟

تساءل بشيء من التحفظ.

" لماذا تسألينني "؟

" أريد أن أعرف رأيك أنت بالذات ".

كاد أن يسألها " لماذا أنت بالذات " ولكنه استسخف الفكرة. فاستبدلها كعادته بسؤال آخر.

" من أية ناحية "؟

" موقفك. ما هو موقفك منها في الحياة عمومًا "؟

" هذا يتوقف على موقفها هي ".

ضحكت ضحكة طويلة مسترسلة كالنغم في الجو الصافي، ولمعت عيناها بشقاوة الطفل.

" متعب أنت. بتعقلك، وحذرك. أنا لا أطلب منك تصريحًا رسـ ميًا ولا عاطفيًا. أريد أن أفهمك ".

" رأيي أن المرأة كالرجل. لها نفـ س الحقـ وق إذا تحملـ ت نفـ س الأعباء. ولا أميل إلى الفتيات اللائي لا يفكرن في الدراسـ ة، أو العمـ ل، وينشغلن فقط بالملابس، والشبان، والزواج، وأنت "؟

" أنت تتحدث عن هذه المسائل بسهولة، وأنا أعيش مشاكلها في كل يوم، بل في كل لحظة ".

" ولكنني لاحظت أنك تتمتعين بقدر كبير من الحرية عجبت لها ".

" الحرية. أين هي هذه الحرية التي أدفع ثمنها منذ سنين؟ لا أحـ د يريد أن يعترف بأنني إنسانة أفكر في المستقبل، وأريـ د أن أفعـ ل شـ يئًا بحياتي ".

ولكنني رأيتك أول مرة في اللجنة في اجتماع وسط عدد كبير مـ ن الشبان، وبالمناسبة، كانت كلمتك قوية ومؤثرة. ظلت معنا حتـ ى سـ اعة متأخرة من الليل. وكانت معك زميلة اسمها سعاد أظن ".

" وعدت في تلك الليلة لأواجه العاصفة. وعندما مكثت إلى جوار أم أسعد، وعدت في اليوم التالي، واجهت عاصفة أشد ".

" أشياء متوقعة يا نادية. أتريدين أن تبيتـ ي خـ ارج المنـ زل دون مشاكل "؟

" أنا أكره المبيت في الخارج ولو حتى عند الأقـ ارب. ولا شـ يء يسعدني قدر العودة إلى المنزل، إلى حجرتـ ي المتواضـ عة الصـ غيرة، وكتبي، وصوت الموسيقا الهادئة في الراديو، وطعام العشاء تضعه أمـ ي على المنضدة، وعيناها تنظران إلي من فوق بخار الأطباق الساخنة. ومع ذلك هل كان يمكن أن أترك المرأة المسكينة وحدها في تلك الليلة؟ لماذا لم

تبق أنت معها وتعفيني من هذه المهمة؟ ألم تدرك أن مبيتي خارج المنزل سيسبب لي مشكلة "؟

قالت الكلمات الأخيرة في شيء من العتاب والغضب.

" لم يخف علي هذا الاحتمال. ولكنني كنت مضطرًا إلى النزول لأقوم ببعض الأعمال التي كلفتني بها اللجنة. ثم كان من الأسهل لك أنت كفتاة أن تتفاهمي معها وأن تواسيها في مصابها ".

" يستحيل أن تدرك أنت كرجل المتاعب التي تواجهها الفتيات مثلي. كل خطوة نحو الآدمية لا تتم إلا بمعركة ... التعليم، والخروج من المنزل، والاختلاط العادي مع زميلات وزملاء الكلية، والرحلات أو الاشتراك في النشاط الاجتماعي، ناهيك عن الاهتمام بشئون البلد ومستقبله ... فهذه جريمة كبرى. كل شيء طبيعي في الحياة، حتى العمل، يحول الفتاة إلى آثمة في نظر الناس ".

أحس بالمرارة تقطر في نبراتها، فنظر إلى وجهها من طرف عينيه. كانت تحملق أمامها وكأنها لا ترى شيئًا. أحست بعينيه تمران فوق وجهها خفيفة كالفراشة فالتفتت إليه. لمحت في وجهه ما يشبه الحنان ممتزجًا بشيء كالألم. فتوقفت عن السير وواجهته بعينين اسود لونهما وشفتين مفتوحتين قليلاً. سمع أنفاسها تتردد بسرعة وأخذ صدرها يعلو ويهبط تحت الثوب في اضطراب.

" أنا لا أريد منك أن تعطف علي. أنا أريد أن تفهمني. هل تدرك ما تعانيه الفتيات مثلي؟ أتعرف لماذا اختفت سعاد من اللجنة "؟

" كل ما أعرفه أنها لم تحضر الاجتماعات التالية ".

" عندما عادت إلى منزلها ليلة الاجتماع كان ينتظرها أبوها. ضربها بحزام من الجلد، وقال لها أنه لن يقبل أن تتحول ابنته إلى مومس تسهر الليل خارج المنزل في شوارع المدينة ".

صمت قليلاً ثم جاءت كلماته متأنية كأنه يقلبها في ذهنه قبل أن ينطق بها.

" من قال لك أنني لا أفهم "؟

" ألست شابًا مثل سائر الشبان، تنظر إلى الفتاة على أنها شيء يقتنى عند الزواج، ويوضع في المنزل، أو أداة للتسلية إن كان هناك سبيل إلى ذلك "؟

" أتشعرين أنني هكذا؟ " ... قالها بنبرة فيها عتاب.

سكتت لحظة طويلة كأنها تفكر ثم قالت:

" لا. أنا آسفة إذا كنت قد جرحت شعورك. ولكن هذا الموضوع يثيرني دائمًا، ويعيد إلي ذكريات أليمة. كأن أبي يضربني أيضًا ولكنه كف الآن بعد أن يئس. وكان لي أخ مات في سن الأربع والعشرين، أصيب بسرطان الدم، وبعد سنة انتهى كل شيء. علمني كيف أحب الكتب، والقراءة، ولذلك لن أنساه أبدًا. فتح عيني على عالم جديد خارج نطاق حياتي المحدودة. فالكتاب يضع في متناول عقلك كل شيء، الكرة الأرضية كلها، والبلاد البعيدة، وتاريخ الإنسانية، وتركيب المادة، وأعماق الإنسان بروحه وجسمه، وروائع الفن، وحتى النجوم، تعلمت منه كيف أحب وطني، وتعلمت منه كثيرًا من معاني الحرية ".

حملق فيها بشيء من الاندهاش. في بيته يخرج ويدخل كثير من الفتيات، معارف العائلة وأصدقاء أخته. ولكنه لم يقابل واحدة مثلها، فيها كل هذه القوة، والصراحة، والجرأة والرقة في نفس الوقت. كلماتها تبث

فيه شيئًا من الاضطراب، يشعر معه أنه لا يستطيع أن يرد. مرت عيذ اه على الوجه المرفوع إليه، وعلى قوامه ا الرش يق المنس اب ك االأمواج الممتلئة المتدفقة تحمل أشياء في أعماقها. أحس أنه يريد أن يس بح ف ي أعماقها المجهولة.

نظرت أمامها وصاحت في اندهاش.

" ها نحن قد وصلنا إلى كوبري الإنجلي ز دون أن نش عر. ه ل تعبت"؟

" لا إطلاقًا. لنجتاز الكوبري ونمشي في شارع الجبلايا. أنا أح ب هذا الشارع فهو جميل، وله عندي ذكريات ".

" ذكريات "؟ قالتها بنبرات اختلط فيها الفضول، بالحنان، بشيء من السخرية الخفيفة. رمقها بنظرة خاطفة فوجدها تنظر إل ى مي اه الني ل المتدفقة حول الجزيرة، كأن شيئًا آخر استحوذ على اهتمامها.

اختار الصمت كطريقة خبيثة لامتحان مدى اهتمامها.

سارا تحت القوس الأخضر تهتز أوراقه في الريح بصوت كالهمس، وتسقط من فجواته شلالات رفيعة من الذهب. سمعها تسأل من جديد:

" ذكريات "؟

أجاب بعدم اكتراث مفتعل.

" نعم ذكريات قديمة ".

قالت:

" قديمة "؟

" من أيام الطفولة ".

ضحكت وكأنها أحست بشيء من الارتياح.

" حلوة أم مرة ".

" لا أعرف بالضبط. حلوة بشكل عام. فالذكريات تفقد مرارتها الحادة مع الزمن ".

" هل كنت هادئًا هكذا وأنت طفل "؟

" أمي تقول أنني كنت هادئًا. ولكنني كنت أمطرهم بسيل من الأسئلة عن كل شيء. وأنت؟ "

" لست هادئة. فالهدوء عندي ظاهري، تحته تغلي وتتحرك طبيعتي الحقيقية ".

" إذن ينبغي أن أخاف منك، وأن أحتاط ". التفت إليها وابتسم. توقفا عن السير وبقيا هكذا واقفين. أحس أنه يريد أن يلمس صدرها الدافئ الناضج، وأن يكتشف ما يخبئه هذا الجسد النحيل السخي.

" الهدوء أخطر. أنا التي يجب أن تخاف منك وأن تحتاط ".

" وهل تخافين مني "؟

" لا على الإطلاق. أخاف من نفسي أكثر ".

" ماذا تقصدين "؟

" أقصد أنني لا أخبئ العواطف، واندفع في تيارها. فانتقل من قمة السعادة إلى قاع الحزن، ومن الحب إلى الكراهية. كائن بداخلي يتمرد على الدوام، ويبحث عن الانطلاق. والأشياء الصغيرة تسعدني، أو تنغص علي حياتي ".

" ومع ذلك أحس أنك قوية وثابتة. وأنك قادرة على التحمل ".

" هذا صحيح ".

" ولكن ما الذي جرك إلى السياسة "؟

" قراءاتي، ووضعي كفتاة ".

" كيف "؟

" أحسست أن هذا الشقاء لن ينتهي إذا لم يتغير مجتمعنا. وأدركت أن مجتمعنا لن يتغير إذا لم يخرج الاستعمار ولم يسقط من يساندونه. وهكذا دخلت إلى السياسة ".

" ولكن لا يوجد منك كثيرات ".

" يوجد، وفي كل مكان. المهم أن نصل إليهن ".

" ولكن السياسة تجر إلى أشياء كثيرة. هل أنت مستعدة لها "؟

" لا أعرف. أحس أنني مستعدة. وعندما أواجهها سأعرف ".

كانا قد وصلا إلى منتصف الجبلايا. نظر إلى ساعته فوجدها تشير إلى الثانية إلا ربع. لابد أن يعود إلى المذاكرة. الامتحان يقترب بسرعة مخيفة، وقد انشغل هذه السنة، ويجب أن يعوض ما فاته.

لمحت حركة عينيه على الساعة فقالت:

" ينبغي أن أعود إلى المنزل ".

" لا ... نمشي حتى كوبري الزمالك ".

وضع يده على كتفها وسارا تحت الأشجار. كان الشارع الطويل خاليًا من الناس ما عداهما. بديا وحيدين، تحت القوس العالي الأخضر، فتى وفتاة يسيران بهدوء فوق شارع الحياة، بعيدًا عن الضجيج، والأنين، وأصوات الرصاص، وصراع الأيام، والمخاطر المتربصة، والذين لا يرحمون شبابهما الغض. تسللت أصابع الشمس رقيقة ذهبية تلعب فوق رؤوسهما، وهمس الريح بأنغام ملايين الأوراق.

استيقظ على همس أصوات خلف الباب، كأنها تتحدث بحذر حتى لا يسمعها أحد، ودخل عويس من الباب تختفي عيناه الصغيرتان خلف جفونه المنتفخة من النوم.

" قم إلى دورة المياه ".

" هكذا مبكرًا "؟

" لست أنت الذي تحدد المواعيد، عندكم فسحة اليوم ".

عبر الفناء بخطوات متمهلة. المسافات هنا كلها قصيرة تجعل السجين يعيش ببطء. وعندما يجد نفسه في الهواء الطلق، تلفحه نسمات الصباح المنعشة، وفوقه زرقة السماء، والشمس تصعد بحرارة متزايدة تطرد من أمامها بقايا الشبورة البيضاء الخفيفة، وتطرد من جسده البرودة المتغلغلة في الأوصال، وعفن الزنزانة الضيقة المغلقة، يتعلم كي يطيل المسافة القصيرة الممتدة حتى دورة المياه تدفعه رغبة غريزية في أن ينهل من نقاء الطبيعة، كأنه يعوض ما فقده بشحنات جديدة. هنا كل شيء يتحرك في بطء، فلا داعي للعجلة. الزمن طويل، طويل، تمر الساعات تلو الساعات مثل خيط رفيع تفكه من البكرة الأصابع المتعبة لامرأة عجوز. والقدرة على البقاء هي خليط من الخضوع للظروف، والتحكم فيها، كالسباحة في الأمواج، أحيانًا تصعد فوقها، وتترك جسدك يسير معها، ولكنك تصارعها عندما تحملك نحو الصخور.

تسلل إلى دورة المياه، وخلع ملابسه، وترك المياه الباردة مثل الثلج تنهمر من الدش فوق جسده. أحس بأنفاسه، وبعضلاته تنتفض تحت الجلد المحبب، المشوب بزرقة خفيفة. ثم تدفق الدفء إلى داخله كالبئر الارتوازي. تذكر أمه، ورأى ابتسامتها المشرقة تضيء الوجه المتغضن، وتمسح التجاعيد المرة حول الشفاه. علمته كيف يتحمل البرد. بدأ يدرك قيمتها. غريبة كيف أننا لا نحس بمحبة القريبين منا الذين نراهم كل يوم، ونعيش معهم، إلا عندما نفقدهم. صغائر الحياة تشغلنا عن جوهر الأشياء والناس، والأنانية تجعلك تتقبل تضحيات الذين يحبونك كمسألة طبيعية لا

تستحق الاهتمام. عندما يخرج لابد أن يعوضها عن أشياء كثيرة. أحس بوخزات حادة من الضمير.

جفف جسمه المبلل بحركات قوية من المنشفة فوق جسمه. أحس كأنه ولد من جديد، وبقدرة على مواجهة أي شيء. خرج من الباب وعاد عبر الفناء ، وهو يدور بعينيه على الأبواب المغلقة. وصل إلى حيث كان ينتظره عويس. أدخله في الحجرة وأغلق الباب عليه.

" عندكم فسحة " إذن سيتغير البرنامج اليومي. هناك شيء جديد اسمه الفسحة. كلمة كالسحر تدخل على قلبك السرور كما كانت تفعل أيام الطفولة.

" اليوم إذا كنت مطيعًا ستخرج للفسحة " والفسحة آنذاك كانت في " الكاريته " عربة مربعة خفيفة على عجلتين كبيرتين، يجرها زوج من الخيل النحاسي اللون، تلمع أردافهما القوية في الشمس، وتتموج عضلاتهما تحت الجلد. " الكاريته " تنطلق بسرعة عبر الشوارع، كأنها في سباق، وهو يرى الحدائق والأشجار تمر بجوارها في لمح البصر.

الفسحة ... كلمة جميلة ... تعني هذا أن عينيك لن تصطدم بالجدران، وأنك سترى المساحات الواسعة الزرقاء تمتد أمامك فتتأملها، وأنك ستمد ساقيك وذراعيك في الشمس، وأن أنفك سيستنشق شيئًا آخر غير رائحة البول، والأنفاس المحبوسة، والعرق المتراكم في أغطية السرير.

وضع بطانية مطوية بعناية فوق الأرض، وأخذ يمارس تمريناته اليومية. مرت قرابة ساعة وهو ينتقل من تمرين إلى تمرين حتى يحرك كل عضلة من عضلات جسمه. أخذ العرق يتصبب منه ويبلل البطانية في شكل مستطيل تحت ظهره وذراعيه، ويسقط من فوق جبينه على الأرض.

أحس بآلام لم يألفها من قبل تستقر عند أسفل ظهره وتشع فـ ي فخذيـ ـه. خطر في ذهنه " بدايات الروماتيزم ".

اليوم سيتغير البرنامج. ربما استطاع أن يرى الآخرين، وأن يتحدث إليهم. انتفض قلبه لهذه الفكرة.

فوجئ بالباب يفتح عليه، وهو راقد علـ ـى الأرض، يرفـ ـع سـ ـاقيه الممدودتين في الهواء، ويحركهما كفكي مقص. رأى وجه حجازي مـ ـن بين الساقين المفتوحين، وعيناه الزرقاوتان الباردتان تطلان عليه في غيظ مكتوم.

وقف فوق البطانية على قدميه الحافيتين وانتظر.

" رجل رياضي أنت يا دكتور عزيز ".

آثر الصمت.

" مفيدة الرياضة على أية حال. تجعل الإنسان ينهي حياته في صحة جيدة. أنا أيضًا أحب الرياضة. التنس مثلاً أمارسه يوميًا ".

استمر في صمته.

" ما لك لا تتكلم اليوم "؟

" ليس لدي ما أقوله ".

" هه. ارتد ملابسك ".

" إلى أين هذه المرة "؟

" إلى الفسحة، يا دكتور عزيز. قررنا أن نسمح لكم بالفسحة. تركه وخرج. رنت كلمة الفسحة في أذنه هذه المرة بوقع مختلف، وتراءت إلى ذهنه فكرة لم تخطر له من قبل. فالسماح بالفسحة يعني شيئًا جديدًا. لابـ ـد أنهم اتخذوا قرارًا ما في شأنهم. أدرك بتلك الحاسة الخاصة المدفونة فـ ـي أعماق كل سجين أن المحاكمة تقترب.

ارتدى ملابسه: القميص الأبـ يض الجديـ د الـ ذي أرسـ لته أمـ ـه، والسروال، وخفاً من الصوف، وفوق القميص سـ ترة صـ وفية زرقـ ـاء اشترتها له زوجته. تذكر البحيرة الصافية، والجبال ترتفع قممها البيضـ ـاء في سماء بلون البنفسج الشفاف. كانت تقف في ثوبها الأبـ يض الناصـ ـع وسط الكروم، ووجهها تكسوه سمرة ساخنة من لفحة الشـ مس، وسـ ـاقاها الملفوفتان الناعمتان كالعنب، وصدرها النافر يرتفع في غرور، ودعـ ـوة مستترة تلمع في عينيها. أحس بشيء كالزجـ ـاج المكسـ ـور يمزقـ ـه مـ ـن الداخل. طرد الصورة من ذهنه. لا داعي لهذا العذاب الآن.

أطل محمد بوجه مبتسم من الباب وقال:

" صباح الخير ".

" أهلا بك. صباح النور ".

" كيف الحال اليوم "؟

" في تحسن ".

رمقه بنظرة ضاحكة وقال:

" ضبطت متلبسًا بعمل خطير ".

قطب عزيز جبينه متسائلاً:

" اتضح أنك تمارس الرياضة في الزنزانة. وقد غضبت السـ ـلطات من ذلك ".

ضحك عزيز.

" حجازي "؟

هز محمد رأسه وقال:

" ومطلوب أن أمنعك من هذا ".

" كيف "؟

ابتسم.

" لا أدري، ولكنني سأحاول. سأفتح عليك الزنزانة عدة مرات اليوم لأضبطك متلبسًا ".

" أرجو أن تكون متيقظًا، وألا تكف عن فتح الزنزانة كل خمس دقائق لو لزم الأمر ".

" هيا بنا، وإلا سأجد نفسي في زنزانة إلى جوارك ".

اجتاز نفس الطريق الذي سارا عليه من قبل. انتهز عزيز خلو الحوش من الناس وسأل:

" يا محمد. لماذا الفسحة الآن "؟

" ماذا تقصد "؟

" أقصد أنهم استقروا على رأي بالنسبة إلينا ".

" محتمل ".

" محتمل أم أكيد؟ لا تخفي عني شيئًا ".

" أكيد ".

" متى ستكون المحاكمة "؟

" بعد أسبوعين ".

" والمحكمة "؟

" والمحكمة "!

" أقصد أي نوع من المحكمة "؟

" محكمة خاصة ".

" من أين عرفت "؟

" من الجرائد. ومن أحاديثهم ".

" والتهمة "؟

" التآمر ضد الدولة. ومحاولة قلب نظام الحكم ".

" والعقوبات المطلوبة "؟

تردد لحظة ثم قال:

" الأشغال الشاقة المؤبدة ".

" بسيطة ... ولكن لم تقل كل شيء ".

" قلت كل ما عندي ".

" لا، بقي شيء في العقوبة ".

أطرق في الأرض.

" تكلم. الأفضل أن يعرف الإنسان كل شيء حتى يستعد له كما ينبغي ".

صمت وكأنه يبذل جهدًا ليخرج الكلمة من مكان عميق دفنها فيه.

" الإعدام ".

في السكون سمع وقع أقدامهما تزحف بصوت خشن منتظم فوق الرمال، مثل القدر يزحف إلى نهاية محددة.

" لمن تدق الأجراس ".

" ماذا تقول يا دكتور "؟

جملة. قالها قسيس أسكتلندي. ثم أصبحت رواية، ثم فيلمًا عن معركة الشعب الأسباني ضد الفاشية.

" ما هي الفاشية "؟

" كل ما يسعى إلى قتل الإنسانية في الإنسان ".

تنهد محمد وقال:

" والفيلم ماذا حدث فيه "؟

" أشياء كثيرة تتعلق بعظمة الإنسان ونذالته ".

" سأدخله إذا عاد إلى السينمات ".

" ستتذكرني عندما تراه. أليس كذلك "؟

صمت محمد كأنه فوجئ.

" ولا تنسى أن تتبع المرأة بدقة. إنها كالصبي، كالغزال، ساقاها طويلتان، وشعرها مقصوص يجعل يدك تسعى إليه. فيها رقة الحياة، وسخونتها، وحزنها ".

حملق فيه باندهاش. ثم أطرق برأسه.

" يا دكتور عزيز. أنا رجل بسيط. لا أفهم ما تقوله. مرأة كالغزال، كالصبي، فيها حزن. ماذا دهاك اليوم؟

ضحك عزيز للوجه الحائر أمامه وقال:

" معك حق. ليس هذا وقت الشعر. هل لديك أخبار أخرى "؟

" أريد منك أن تهتم بعماد ".

" عماد؟ لماذا "؟

" إنه يتحدث مع العصافير ".

" أنت تمزح ".

نظر إليه في عتاب.

" أنا لا أمزح. إنه يتحدث إلى العصافير فعلاً ".

أحس عزيز بحيرة شديدة.

" هل رأيته "؟

" نعم ".

" وهل رآه أحد غيرك "؟

" لا أظن ".

" ربما هيئ لك ذلك "؟

قال في شيء من الغضب:

" أنا لا يهيأ لي شيء. أنا أعرف ما أقول ".

" وماذا لاحظت عليه أيضًا "؟

" توقف عن الأكل ".

" تمامًا "؟

" تقريبًا ".

كانا قد اقتربا من حديقة واسعة مغطاة بمربعات كبيرة من الحشائش، وبعض أحواض من الزهور جفت من شدة البرد. كانت محاطة بجدار عال من الطوب الأحمر، وضعت فوقه صفوف كثيفة من الأسلاك الشائكة، عند الأركان ثبتت كشافات كبيرة، وعلى طول الجدران تدلت أعمدة قصيرة مزودة بلمبات كهربائية. بطول الأربعة جدران صفت بعض الكراسي، المسافة بين كل منها لا تقل عن ثلاثين مترًا، والجالس عليها ظهره للحديقة ووجهه للجدار.

كانت أغلب المقاعد خالية، ما عدا مقاعد في الطرف البعيد. رأى أشخاصًا يجلسون عليها. اقتاده محمد نحوهم، وأجلسه على أحد المقاعد الخالية. لمح الرجل حجازي يقف في أحد أركان الحديقة، متكئًا على عصاه من البوص الطويل، يتحدث مع الرجل الأسمر ذي الوجه الغريب الذي التقى به عزيز في الإدارة من قبل.

نظر إلى يمينه فالتقت عيناه بعيني سيد ترسل إليه بشعاعها الدافئ. أومأ برأسه، وابتسم، فرأى أسنانه البيضاء تشرق عبر المسافة. مط جسده على المقعد، وترك الشمس تتسلل إليه عبر الملابس. أحس بحرارتها تسري فوق بطنه وفخذيه عبر السروال، وتلفح جبهته، ووجهه، وتتسرب خلال الصوف إلى صدره. خلع السترة الصوف. رفع ذراعيه خلف رأسه

وترك الهواء ينساب من فتحة الكم إلى إبطه، ومن فتحة الياقة إلى رقبته، وبين أزرار القميص إلى صدره. فك مشبك السروال ليخفف الضغط على وسطه، وأسلم نفسه للذة الدفء، والرياح الخفيفة تنفخ القميص، وتلمس جلده من تحته. خلع الخف الذي كان يرتديه، وترك قدميه العاريتين لأشعة الشمس، وأخذ يحرك أصابعهما حتى تنفذ إلى الفواصل بينها، وكأنه يريد لها أن تصل إلى كل جزء من أجزاء جسمه. غرق بكل أحاسيسه في نسمات الربيع المستيقظ.

من وقت إلى آخر كان الجدار المنتصب أمامه ينتزعه من نشوته إلى الواقع الذي يحيط به. أدار كرسيه قليلاً حتى لا تقع عيناه على الجدار، وحتى يطرد الشعور بالمهانة الذي انتابه إزاء هذا الوضع الغريب. لم ير من قبل إنساناً يجلس ووجهه إلى الحائط. هنا كل شيء يسعى إلى قتل الإنسان. سمع أقدامًا تقترب من المقعد الخالي إلى يساره. تلفت ناحية الصوت، فوجد عماد يتقدم بخطى بطيئة يتبعه أحد الرجال. جلس على المقعد دون أن يلتفت حوله. انسحب الرجل وتركه. دار عزيز بعينيه حول الحديقة، فلاحظ أن حجازي والرجل الأسمر لم يغيرا وقفتهما. كان يبدو عليهما وكأنهما منهمكان في الحديث، ولكنه أحس أنهما يتتبعان الرجال الجالسين على المقاعد بطريقة مستترة. رمق عماد بنظرة جانبيه. ما له قد تغير هكذا؟ جسمه أصبح نحيلاً، تلتف حوله الملابس الواسعة كأنها صنعت لشخص آخر. عظام وجهه أصبحت أكثر بروزًا، وعيناه مدفونتان في القاع، كأنهما قد سقطا إلى الداخل. بشرته يكسوها شحوب غريب، يختلط على الفكين بزرقة الذقن. السحنة أصبحت كالقناع، كالمومياء في متحف الشمع، والوجه فقد حركته، وحيويته، كأن شيئاً ما مات في الداخل إلى غير رجعة.

مال عزيز بوجهه ناحيته وابتسم. ثم لوح له بحركة مستترة مخفيًا يده أمام جسمه. ولكنه لم ينظر إليه ولم يرد، كأنه لم يتنبه إلى وجوده. كان يبدو كالغائب عن الدنيا. عما يدور حوله، وعلى وجهه حزن عميق، حزن طويل لا نهاية له ولا بداية، شيء منذ قديم الزمان، لا أمل في أن ينقضي أبدًا، كالأم عندما تفقد طفلها الوحيد بعد أن كبر وترعرع، وإعياء الشخص الذي امتص كل قواه، كل حيويته، فلم يبق منه شيئًا سوى مجرد هيكل يكسوه اللحم والجلد. كرر عزيز محاولاته ليجذب انتباهه دون جدوى. استمر يحملق في شيء بعيد لا يراه أحد سواه، كرجل ضاعت روحه في الأغوار وما زال يبحث عنها وسط الصخور، أو كالبحار القديم في القصص الأسطورية سافر في رحلة طويلة بحثًا عن كنوز البلاد البعيدة فعاد فاقد الذاكرة، فاقد العقل.

* * *

انقلب عزيز على جنبه فوق السرير. رأى عماد يحملق في شيء بعيد غير موجود. ذلك الفاصل الدقيق بين العقل والجنون أين يبدأ؟ ... أين ينتهي؟ سؤال ربما يستطيع أن يجيب عليه عماد. كل ما يعرفه عزيز هو أنه يشعر أحيانًا وكأنه يسير فوق ذلك الفاصل بقدم هنا وقدم هناك، يحتفظ بتوازنه كالبهلوان فوق حبل مشدود. جاءه نفس الشعور للمرة الأولى منذ سنوات. عندما اختفى محمود من الزنزانة المجاورة. كانت الأفكار تدور في رأسه كالدوامة ترهقه، وتمتصه، وتشده إلى أعماقها المظلمة. ولم تكن لديه في ذلك الوقت تلك الخبرة التي اكتسبها فيما بعد، والتي جعلته يعرف كيف يملأ الفراغ.

ولكن شيئًا آخر أنقذه تلك المرة. فقد فوجئ بهم يقتحمون عليه الباب في الصباح الباكر.

طلب منه السجان أن يعد ملابسه. سلمه تذكرة السد جن الصد فراء، ورافقه حتى الإدارة وهو يلفح كيس ملابسه الأبيض على كتفه، ويحـ ـاول بكل جهده، أن يجيب على السؤال الحائر الذي يدور في ذهنـ ـه كـ ـالترس الذي يطلق شرارات في كل اتجاه، تندلع، ثم سرعان ما تنطفـ ـئ دون أن تصل إلى هدفها.

مرت عليه أشهر منذ أن أودعوه فـ ـي سـ ـجن الحضـ ـراء. انتهـ ـى التحقيق إلى لا شيء، وتضخمت آماله في الإفراج حتى أصـ ـبحت يقينـً ـا راسخًا لا يتزعزع، إلا في اللحظات القليلة من اليأس التي يشعر فيها أنـ ـه ليس من السهل أن يطلقوا سراحه ببساطة. ثم جاءت المفاجأة فـ ـي ذلـ ـك الصباح البارد الغارق في الغمام عندما دار المفتاح في الباب وطلبوا منـ ـه أن يعد ملابسه تمهيدًا لشيء ما. هبط السلالم الحديدية العريضـ ـة وسـ ـط ضجيج السجن المستيقظ، والهمهمة الصاعدة من آلاف الحناجر الخشـ ـنة، ورنين المفاتيح تصطدم بحديد الكوالين وتدور بصرير صارخ، وأشـ ـباح زرقاء تخرج من الفجوات المظلمة للزنازين، كالأموات بعثت من القبور، تترنح في ضوء الصباح الباهت، وتحمل معها الجرادل المعدنية تطلق في القفص الكبير بقضبانه السوداء رائحة الفضلات الآدمية. أخذ يشق طريقه كالحالم عبر الأجسام المسرعة المرتعشة من البرد، والجرادل المحمولـ ـة أمامها، تفيض بسائلها الداكن الكريه على أرض العنبر فـ ـي مسـ ـتنقعات صغيرة، وهو يتسلل بخطوات تعرف طريقها بين الزحام المتـ ـدفق مـ ـن الأبواب، وكأنه يذوب في الفجوات بين الأجسام المندفعة في سباق جنوني نحو دورة المياه، تزعق بصوت واحد كأنين الحيوان الغاضب الجريح.

كانت تتنازعه المشاعر المتناقضة المتأرجحة، كالبندول السريع، ما بين الرهبة من المجهول ينقض على القلب بقبضـ ـة ثقيلـ ـة كالرصـ ـاص،

والأمل المفعم بالخيال كالفراشة الزاهية تطير على جناحين من السعادة القلقة فوق شوارع المدينة وحدائقها، ومياهها وأزهارها وتهبط مسرعة على البيت الأبيض القابع وسط الأشجار، وتندفع عبر الباب إلى السلم، إلى الدور الأول ثم الثاني ثم الثالث، والجرس يدق، والشراعة تفتح ... لا ... الباب يفتح ... فلا وقت للانتظار ... ويجد نفسه أمام الوجه المتغضن، الحزين، المندهش، المضطرب وهو يضحك ويضحك ويضم جسدها النحيل إلى صدره.

خرج من الباب الحديدي للعنبر يتبعه السجان، وتوجها إلى مكتب الضابط النوبتجي. وجد نفسه وسط الحجرة الصغيرة حشرت فيها ثلاثة مكاتب، وكنبة جلد بنية اللون، وبعض الكراسي، وهو يقف أمام اثنين من الضباط أحدهما يرتدي ملابس الشرطة السوداء.

" صباح الخير يا دكتور عزيز. يبدو أنك ستتركنا اليوم ".

" إلى أين "؟

" لا أدري ".

إذن لم يطلبوه للإفراج. اختفت الفراشة الملونة خلف السحاب المتراكم في السماء. إلى أين؟ لا داعي للتساؤل. سيعرف عن قريب. الأماكن، في هذه اللحظة بالذات، تستوي كلها.

" ألديك أمانات "؟

" نعم ".

" اذهب لاستلامها من المكتب ".

ذهب مع السجان. سلمه الموظف الشاب ساعته ومحفظته مطلقًا نحوه ابتسامة مشجعة. فتحها ووجد فيها الجنيه اليتيم الذي كان معه يوم أن التقطوه عند مدخل البيت. عاد إلى مكتب الضابط النوبتجي، كاذ ا

منهمكين في حديث طويل عن آخر حركة تنقلات، وعندما دخل من الباب لم يلتفت إليه أحد. وقف منتظرًا ومن خلفه السجان ... مرت الدقائق ثم أطلق السجان سعلة خفيفة. استدار نحوهما ضابط الشرطة وقال:

" جاهزين "؟

أجاب السجان:

" نعم يا فندم ".

" هل فتشته "؟

" نعم يا فندم ".

مر الضابط على جسمه بحركة سريعة من يديه تحت الإبطين، وفوق الصدر، ثم حول وسطه وبطنه. ثم دسهما بين فخذيه حتى كاد أن يصل إلى فتحة الشرج، وهبط بهما على ساقيه حتى الحذاء.

" اخلع الحذاء. فتش قدميه وحذاءه أمامي يا شاويش ".

وجه عزيز إلى الحارس نظرة خاطفة تقول: " ما عليك ".

أشاح عنه بوجهه في حرج ثم انحنى. فتش قدميه، وقلب الحذاء كأنه سيسكب منه شيئًا، ووقف من جديد مؤديًا التحية:

" تمام يا فندم ".

" نادِ العسكري الذي ينتظر بالخارج ".

دخل العسكري يرتدي ثوبًا من الصوف الأسود الخشن مزودًا بأزرار نحاسية لامعة، وطربوشًا واسعًا يصل فوق حاجبيه. توقف وسط الحجرة منتصبًا مثل كتلة عريضة من الجرانيت.

" ضع في يده الحديد ".

وضع عزيز كيس الملابس على الأرض بين قدميه، ومد يده بحركة من يعرف المطلوب منه. أحاطت الأساور الحديدية السوداء بمعصميه.

" جاهزون. هيا بنا ".

سلم ضابط الشرطة على زميله وخرجوا إلى فناء السجن الخارجي ثم من الفتحة البيضاوية الصغيرة في البوابة الخشبية الضخمة، تشبه مدخل قلعة في العصور الوسطى. كانت السيارة البوكس الرمادية تنتظرهم في الخارج. صعد إليه عزيز ومعه الشرطي وابتعدت مسرعة. لمح من طرف عينيه المباني المستطيلة الصفراء بنوافذها المتراصة في صفوف منتظمة فوق بعض، تبتعد من الفتحة الخلفية للسيارة.

عندما استقر في سجنه الجديد لم يكن يعرف ما الذي أدى إلى نقله. مرت الأيام تلو الأيام دون أن يحدث جديد، يأكل الوجبات الثلاث، ويقضي حاجته داخل حجرته الضيقة، وينام، ويفكر كثيرًا فيما مضى، وقليلاً فيما سيأتي. ولكن في أمسية إحدى الليالي فتح الباب ودخل عليه ضابط عريض المنكبين يرمقه بنظرات نافذة باردة، ثم التفت إلى الوراء وقال مشيرًا إلى أحد الحراس:

خرج من الباب وأحس بيده تمتد إلى ذراعه وتلتف حولها بعنف. سارا عبر مساحات من الأرض الرملية وسط بعض المباني المنخفضة تبدو كالثكنات الخالية ثم دلف من أحد الأبواب الضيقة المفتوحة في جدار عال ليجد نفسه في بهو مظلم. انفتح باب آخر أمامه ودخل إلى حجرة جدرانها الرمادية الخشنة العارية يغرقها ضوء أبيض من لمبة كاشفة مثبتة في السقف. وقف وسط الحجرة وقد أطبق جفونه أمام الضوء القوي المفاجئ، المؤلم.

مرت بضع دقائق قبل أن يتمكن من فتح عينيه بالتدريج، ولكنه ظل يشعر بشيء كوخزات الإبر الرفيعة الحادة تخترق عظام وجهه، وتثير موجات من الألم الخفيف المتوتر في رأسه.

كانت الحجرة خالية تمامًا. أخذ يدور حولها وقد انتابته أول الأمر مشاعر الدهشة، والقلق المتزايد، انقلبت بالتدريج إلى شعيرة رفيعة من الخوف تسللت إليه في الصمت المطبق، وأخذت تنمو بالتدريج إلى أن أصبحت كالحشرة السوداء النهمة تمد أطرافها الطويلة إليه، وتحملق بعينين مستديرتين مسطحتين فيهما قسوة اللاإحساس. حاول أن يفكر في أشياء أخرى، واستجمع قواه ليدوس عليها ويسحقها فهربت منه واختفت في ركن قصي، فلم يعد يراها، ولكنه أحس بعينيها ترمقانه، ثم أخذت تقترب من جديد، وعيناها تتسعان كلما اقتربت منه. ضغط على قبضتيه، وعلى أسنانه، وبذل جهدًا مستميتًا ليتخلص منها. ركلها بقدميه، وضغط فوقها بكعب حذائه، وانهال عليها بقبضة يده، فأسرعت بالهروب دون أن تحدث صوتًا.

شيء ما في الحجرة العارية يبعث على الرعب، كأن قوة سوداء تتربص به، لتنقض عليه في أية لحظة. وشيء ما في عقله الباطن، في طبقات الخبرة المتراكمة تحت قشرة المخ، في أرشيف الأحداث المسجلة طوال السنين الماضية تجعله يدرك أنهم انتظروا هذا اليوم طويلاً، وأعدوا له لكي يدفع ثمن التحدي.

انفتح الباب فجأة ودخل منه ثلاثة رجال. دلفوا إلى الحجرة في صمت، الواحد خلف الآخر، كأنهم قرروا شيئًا وجاءوا لينفذوه. أحس كأن قوة خارقة تدفعه إلى أن يتقهقر ليلصق ظهره بالجدار، ولكنه قاوم هذه الرغبة الملحة وظل واقفًا مكانه لا يتحرك. حدث كل شيء بسرعة خاطفة جعلته حتى اليوم لا يستطيع أن يحدد ملامح الرجال الذين وقفوا أمامه في نصف دائرة صغيرة تلتف حوله، وتضيق، حتى أحس بأنفاسهم الساخنة اللاهثة على وجهه، ورأى عيونهم تقترب منه قاسية، مسطحة، كعيون

الحشرة التي كانت تطارده منذ لحظات. حتى اليوم ما زال يشعر أحياناً أن كل ما حدث كان مجرد حلم، مثل تلك الأحلام المزعجة التي حملها معه في عقله الباطن منذ أيام الطفولة. فالصورة تأتيه عبر السنين غارقة في الغيوم، كشيء هلامي، غير محدد المعالم يسبح في الفراغ. كحيوان غريب له ثلاثة رؤوس، إحداها صلعاء تلمع في الضوء الأبيض كلحم العجل المذبوح، ملساء، طرية، وله ست عيون، أو عشر، أو عشرون تطل من بين الجفون، صغيرة حادة، تغلق عليه الدائرة، وتحاصره، وتجعله يبحث عن منفذ يفلت منه فلا يجده، وله أذرع كثيرة طويلة تمتد إليه وتمسك به بأياد تكسوها شعيرات سوداء، وأصابع غليظة مفرطحة تغوص في لحمه بأطرافها المدببة الصلبة.

سمع صوت ملابسه تتمزق في خشونة متكررة يقشعر لها الجلد، وأحس بالهواء البارد الرطب فوق جسمه تختلط به سخونة الأنفاس اللاهثة، ولمح ذيلاً طويلاً أسود كالثعبان الجبار معلق فوق رأسه، وهو يحملق فيه كالمشلول، يرى كل شيء، ولكنه عاجز عن الحركة، عاجز عن النطق. والثعبان يشق الهواء بصوت كالفحيح ليختفي خلف رأسه ... وشريط من النار يمتد فوق ظهره ... وجسده يتلوى في قبضة الأيدي القوية.

جثم على ركبتيه فوق البلاط، والصوت، كالفحيح يتكرر في أذنيه، ولسعة من النار تسقط من جديد على ظهره. رفع رأسه ليرى الأصابع الغليظة تغطيها شعيرات سوداء ملفوفة حول نفسها، وثعبان أسود يتدلى من بينها. الأصابع تتكاثر وتنتفخ، والثعبان ينمو وينمو، والفحيح الهامس أصبح صفيرًا حادًا يرن في طبلة أذنيه، ويضغط الهواء ويفرغه بصوت

يكاد يمزقه. والشريط اللاسع المشتعل يرقد فوق ظهره، شريطًا بعد شريط، ويلتئم في مساحة عريضة من النار الموقدة.

لم يعد يرى شيئًا سوى تلك اليد الماردة التي ترتفع وتنخفض. وقد زاد حجمها حتى ملأت الحجرة كلها. والكرباج الطويل يتلوى كالثعبان. ولم يعد يسمع سوى ذلك الصفير الحاد المتصل يكاد يمزق طبلة أذنيه، ولم يعد يحس بشيء سوى تلك المساحة العريضة المشتعلة من النار يسقط فوقها الذيل الأسود اللامع فلا يضيف للألم ألمًا. والنار تسري في جسمه، في شرايين الدم وشعيراتها كنهر من الزجاج المنصهر الملتهب يسقي كل عضلة من عضلاته وكل عظمة من عظامه، يتسلل إلى الرأس، ويسقط إلى القدمين، ويغزو أحشاءه، وصدره، وقلبه، وكل خلية من خلايا جسمه المعذب.

الجدران الرمادية العارية تلف، وتدور، وتتأرجح كأنها ستنشق لتقع فوقه. والعيون نقط مستديرة كالخرز الأسود. والأنوف، والأفواه والشفاه تسبح حوله معلقة على خيوط رفيعة لا ترى، كالدمى تتحرك على مسرح من الجحيم. وبقع صغيرة حمراء تسقط فوق البلاط المربع. واللمبة القوية تنتفض مع كل طرقعة كرباج، وتتكسر إلى عشرات من قطع الزجاج الأبيض المدبب يشعر وكأنها تخترق عينيه.

لم يعد جسمه يحتمل لسعات الكرباج، وركلات القدم، وقبضات تنهال عليه من كل جانب. فنام فوق البلاط كالمصلوب، لا يعي ما يدور حوله، ولا يفهم ما تعنيه تلك الكلمات التي يصرخون بها:

" تكلم. أين عماد "؟

لم يعد جسمه يحتمل لسعات الكرباج، وركلات القدم، وقبضات تنهال عليه ... أطبق فكيه ... وضغط على شفتيه إلى درجة توارت معها

فتحة الفم ... فأصبح عاجزًا عن فتحهما ليتكلم. وتخدرت خلاياه وفقدت إحساسها بالألم وكأن كل شيء في جسمه تلاشى، ذاب، انتهى ما عدا تلك الدائرة الهلامية الصغيرة تختبئ في أعماقه، كالنجمة في الليل، تنبض، وتتنفس، وتراقب من بعيد، ويختبئ هو فيها منكمشًا على نفسه، يرى كل شيء في صفاء غريب، ويحلق بروحه فوق الجسد الممزق كالطائر يحلق فوق عشه المهدود.

في تلك الدائرة الهلامية المحدودة قبع في مأمن وكأن عقلاً آخر، وقلبًا آخر، بل وجسدًا آخر ولد فيه وانفصل عنه ليعلو فوقه وفوق الآخرين، يراقب في اشمئزاز وفضول ما يصنعه الرجال بالجسد الممدود. فالدماء التي تسيل على الأرض ليست دماءه، وهو يتابع باهتمام خيوطها الرفيعة تتعرج في بطء تحت رقبته، وتنتهي في بركة صغيرة حمراء تتسع بالتدريج وتتجمد في قشرة داكنة فوق البلاط الأبيض. والجسم الذي يضربونه الآن ليس جسمه، وإنما جسم رجل آخر، يرقد فوق الأرض عاريًا كالمصلوب، تنهال عليه ضربات الكرباج الطويل يتلوى كالثعبان الأسود، وركلات الأحذية المدببة الغليظة، جسم ينتفض بشحنات من الكهرباء تسري عبره، ويئن بصوت خافت ليس صوته.

إنه يتابع حركات الرجال الثلاثة من بين عينين نصف مغمضتين حتى لا يراه أحد، كالحيوان الصغير الماكر يتصنع الموت في لحظة الخطر، ويتطلع إليهم من مكمنه البعيد في الدائرة الهلامية التي انسحب إليها، وتحوصل فيها، يبتسم بخبث مستتر عندما تصله أنفاسهم اللاهثة من التعب، وعندما يرى أحدهم يتحسس عضلات ذراعه المرهقة، وينطر العرق الغزير بأصابعه من فوق جبهته.

" تكلم سنقتلك ... أين عماد؟ ... أين عماد "؟؟.

ولكنه لا يسمع ماذا يقولون، ولا يدري ماذا يفعلون به الآن.

اليد الغليظة ترتفع وتنخفض، والكرباج يهبط على اللحم العاري الذي لا يحس بشيء. تملكته نشوة غريبة، كالسكران يسبح في عالمه الخاص، ويطل على الناس عبر الغيوم، من ذلك المكان البعيد المدفون في قاع المخ. من الدائرة الهلامية الغريزية الصغيرة المختبئة في الأعماق، وحيث تنتهي كل خيوط الحياة، كل الأسلاك الرفيعة القوية التي تربطه بالماضي، بعماد، بالآخرين، بالذكريات، بالمعارك، بوجه صبي صغير يتطلع إليه في ثقة، بالعينين الواسعتين اللتين لا يعرف لهما قرار، بكل الأحلام التي تخلت عنه، وبكل الأحلام التي تمسك بها.

" اضرب. اضرب "

اضربوا. اضربوا. فالجسد الممدود على البلاط لم يعد يشعر بشيء. يمكنكم أن تضربوا فيه كما تشاءون ... ساعة أو ساعتين ... يومًا، أو يومين أو ثلاثة، الرجل الراقد أمامكم لم يعد موجودًا. فقد انسحب إلى مكان بعيد. إلى أعمق الأعماق، إلى تلك الدائرة الهلامية النابضة التي تتركز فيها إرادة الإنسان المنتصر على الألم، المنتصر على نفسه.

* * *

مد ساقيه بحذر في الظلام. يستطيع حتى الآن أن يحس بلسعة النار على ظهره حيث رقد الكرباج، ورقد، حتى حول الجلد كتلة من اللحم المذبوح، وحول الأعصاب إلى خيوط رفيعة من الألم، تنتفض وتتوتر مع كل حركة يؤتيها بجسده الممدود فوق السرير. ما الذي جعله يسترجع تلك الليلة الرهيبة التي عاشها منذ سنوات عديدة؟ والتي أعادت إليه تلك اللحظات المرة تلو المرة بكل تفاصيلها، يسمع صوت الكرباج كالفحيح في الهواء، وينتفض تحت وقع اليد الكبيرة المتورمة ترتفع، وتنخفض، لترتفع

من جديد، ويتذوق طعم الدم المالح في فمه، ويشعر بالجسم المضروب حتى الثمالة، والممتهن حتى القرار؟.

لأنه حاول أن يتخيل نادية طوال الأشهر الماضية فامتنعت عنه، وأدارت ظهرها، وتركته يعاني وحده؟ ألأنه يشفق على نفسه ويبحث عن يدها تلمس جبهته وتواسيه؟ أم لأنه يرى عينيها عميقتين لا قرار لهما، ويرى في أعماقها أشياء يشعر أنه لا يعرفها، أشياء تفصل بينه وبينها كالجدار الصامت الذي يفصل بينهما الآن؟.

كانت تقول. " أنت لا تحبني، كما أحبك. أعطيت لك نفسي وروحي من أول لحظة. أعطيت لك قلبي وعواطفي دون تردد، دون حساب، كان عقلي هو قلبي، وقلبي هو عقلي وكل شيء في الحياة يهون ويصبح سهلاً، وبسيطًا، ومنسابًا كالهواء عندما أشعر بك إلى جواري، وأسمع كلماتك، وأحتضنك وتحتضنني. ولكنك أنت لست مثلي. عقلك يفكر ويحسب الأشياء، ويحيط بقلبك ويحكم نبضاته ".

لم يكن يعرف ماذا يقول إذ ذاك. ربما تكون على حق، وربما تكون مخطئة. وهل يمكن أن يخطئ قلب امرأة في الحب؟ كانت ترى الحياة عبر منظار الحب. وكان يرى الحب عبر منظار الحياة. أشياء كثيرة في داخله كالحواجز، أشياء ولدتها الحياة، أحزان الحياة، وأحلام الحياة، وذلك الصراع الذي جذبه واحتواه.

وهو يراها الآن عند كوبري الزمالك. بعد لحظات لابد أن يفترقا. أمامها مسافة لتصل إلى منزلها في المنيل. إنه يتخيلها وهي تسير فوق الرصيف وحدها، عائدة عن طريق الجبلايا الذي كانا يجتازانه سويًّا منذ لحظات. ترى ما الذي كانت تفكر فيه؟ انتابتها رغبة في أن تعود إلى منزلها بسرعة، إلى حجرتها الصغيرة التي عرفها فيما بعد، والمقعد

الأسيوطي القديم بأغطيته الباهتة، والمنضدة، والكتب المكومة فوقها في غير نظام، والسرير الخشبي ذي الظهر العالي، والوسادات الطويلة التي تستند عليها عندما تريد أن تسرح، أو تقرأ في رواية قبل النوم، وكأنما يوجد في هذا الركن الضيق بتفاصيله المألوفة، والأشياء البسيطة التي اعتادتها عيناها ولمسات يديها، أمان من عواصف الحياة، وراحة من متاعبها.

* * *

لوحت بيدها إلى سيارة أجرة كانت تسير متسكعة بحثًا عن زبون، واستقرت في الركن الخلفي كالقط المتكور على نفسه متفادية نظرات السائق المحملقة في وجهها، وجسمها بفضول أبله. مرقت السيارة الصغيرة بسرعة عبر الشوارع الخالية. وتنهدت بارتياح عندما توقفت أمام باب البيت الأبيض ذي الثلاثة طوابق الذي تسكنه دست الأجرة في اليد المعروقة بآثار الشحم الأسود، وصعدت الدرجات اثنتين اثنتين، تتعجل لحظة الوصول، فتحت الباب بمفتاحها ... أحد الحقوق التي انتزعتها بعد عناء طويل. وتسللت إلى حجرتها في هدوء حتى لا يلتفت إليها أحد، فليست عندها رغبة للثرثرة مع أمها ... تريد أن تخلو إلى نفسها ... أن تلتقط أنفاسها وسط الأحداث التي تجري بها كما يندفع غصن الشجرة محمولاً فوق سطح النهر، دون أن يدري أين سينتهي به السير.

وضعت محفظة الكتب فوق المنضدة، وفكت حزامها من حول خصرها. الآن يستطيع أن يراها بوضوح، بل يكاد أن يلمس شعرها بأصابعه وهي تقف أمام المرآة تتطلع إلى وجهها، إلى عينيها الواسعتين تلمع ببريق أقوى من بريقها المعتاد، وأهدابها الطويلة تحيط بعينيها في

خط أسود كثيف مقوس، والجفنان الرقيقان إلى درجة الشفافية تنسدلان فوق المقلتين وتفصلان بين العالم الخارجي، وبين ذلك العالم الخاص الذي تحمله في داخلها، والذي لا يملكه أحد سواها. أنفها الصغير المدبب ترتعش فتحتاه مثل الأرنب الأليف، أنف مرهف الحس، ولكنه ينم عن تحد، وعن إرادة حادة قاطعة مثل الذقن المنسابة في موجة حانية قوية حول الوجه، كأنها تحدده في اعتزاز. والشعر الأسود المقصوص يرقد فوق رأسها في صفوف ناعمة، تتمرد عند الأذنين، وحول عنقها، والخصلة البيضاء تعطي للوجه نضوجًا مبكرًا، وللشعر شعاعًا من النور. وفوق كل هذا سحابة خفيفة من الإرادة لا ترى، ولكنك تحس بوجودها تغلف الوجه بغلالة شفافة، وتحميه.

إنها تقترب منه وتلتصق به حتى يكاد يشعر بأنفاسها الدافئة فوق جلده، وبأصابعها تلمس أصابعه، ويستطيع أن يحدد ملامحها بوضوح، وهي تفلت من بين يديه كالرمال الناعمة، كقطرات الزئبق الفضية، تهرب أمام أصابعه كلما اقتربت منها، كالغزال يقفز بعيدًا عن الصياد. يحاول بكل جهده أن يرى ملامحها، وأن يحددها، ولكنها تذوب أمام عينيه، وتتوارى خلف غيوم كثيفة، كالجنية في قصص الأطفال، ويحاول بكل جهده أن يلمسها، فلا يلمس سوى الفراغ.

إنه يجلس على الكرسي الأسيوطي القديم ذي الأغطية الخضراء الباهتة يغذي روحه التعيسة بهدوء الحجرة الصغيرة، ويتابع من طرف خفي تموجات جسدها الرشيق. خلعت حذاءها الأسود المتآكل عند طرف النعل. جلست على حافة السرير. أنزلت الجورب الطويل مارة بأطراف أصابعها فوق نعومة الجلد الساخن. ثم وقفت وتخلصت من بقية ملابسها بانثناءات مرنة سريعة، وكأنها ترقص. أحست بلفحة البرد فأسرعت نحو

الدولاب لتأخذ منه قميصًا من الصوف. لمح جسمها العاري يمر أمامه، الخصر الرفيع، والساقين الطويلتين، واستدارة النهد تحت الإبط. أحس فجأة بشيء كالعويل الصامت يصعد من أحشائه، وبتلال من شظايا الزجاج المكسور الملتهب يسقط فوق بطنه. غابت عنه لحظات ثم عادت إليه، تفرض نفسها، ورائحتها، ووجودها العذب الدافئ عليه. رأى مساحة العين السوداء، وسط البياض العريض، والشفتين الممتلئتين المفتوحتين قليلاً، وصدرها تحميه بكف يدها. فتسلل إليه من جديد ذلك الشعور بالعذاب اللذيذ الذي يريده ويرفضه في نفس الوقت، شيء كالنبض الدافئ المؤلم يتركز في نقطة واحدة، وينتشر في موجات متتالية عبر الشرايين والأعصاب. وهو يرى خطوط جسمها المستديرة تختفي، ثم تعود، ثم تتحدد معالمها، مثل قلم الرسام يخط على الورق الأبيض شيئًا لم يكن موجودًا من قبل، في حركات سريعة حاذقة، تمر من اللاوجود، إلى الوجود الغامض، إلى الشيء المحدد الذي تحس به ساخنًا فوق جلدك، تحتويه ويحتويك، وتلتصق به حتى لا يفصل بينك وبينه شيء، وكأن خطوطه أصبحت من خطوطك، وحرارته من حرارتك، تتلوى في عذاب النشوة المحرمة، وتستولي عليك رغبة مجنونة في أن تصدم رأسك بالجدار الصامت، البارد، لتتخلص الآن وإلى الأبد من صورة ذلك الجسد الساخن المنتفض الذي يقترب منك، ويقترب، ولكنك لا تستطيع أن تلمسه أبدًا.

* * *

مرت أكثر من أربعة أشهر الآن، ولا شيء يتغير. خلق لنفسه نظامًا صارمًا للحياة لا يحيد عنه وابتكر أنواعًا من النشاط يملأ بها الساعات الطويلة. فلابد من حركة مستمرة للجسم، وحركة مستمرة للعقل

حتى يحفظ لنفسه توازنًا. لم يعد يشعر الآن بالأيام تجثم على صدره بكل ثقل الوقت الذي لا يتحرك، والفراغ المتصل الذي لا ينتهي.

العيون التي تطل من الثقب الصغير المفتوح في الباب، وتسجل في صمت كل ما يدور داخل الحجرة الضيقة المغلقة قد تشك في بعض اللحظات أنه قد أصيب هو أيضًا بالجنون. فعماد يتحدث إلى العصافير عندما يخرجونه في الحوش تحت الشمس مع الآخرين، ليجلسوا في صمت، ووجوههم للحائط، تفصل بينهم مسافات طويلة حتى لا يتبادلوا كلمات يصعب على حراسهم سماعها. يتحدث إليهم حديثًا متصلاً، ويبتسم بينه وبين نفسه، ابتسامة هادئة فيها تعال، وكتمان، وخبث، كأنه أصبح فوق مستوى البشر العاديين، يعلم ما لا يعلمون، ويدرك ما لا يدركون. يبقى جالسًا فوق كرسيه، نحيل الجسد، شاحب الوجه، ساهمًا في أشياء بعيدة، محملقًا في الأفق دون حركة، كمن رأى ظاهرة جذبت انتباهه ولم يعد قادرًا على أن يحيد عنها بعينيه.

وعزيز يتحدث إلى الذباب. يحييه في الصباح عندما يستيقظ، ويبثه أفكاره وأحاسيسه، وهو راقد فوق السرير ليستريح من عناء الرياضة، وينقض عليه ليقتله في الظهيرة عندما يتسلل عدد كبير منه عبر القضبان، مستخدمًا يده كمصيدة، قافزًا فوق السرير، أو المنضدة، أو المقعد، في حركات تشبه حركات المصارع يواجه خصمًا عنيدًا ماكرًا.

وعزيز لا يتحدث إلى الذباب فقط، بل يتحدث إلى الجدران، والقضبان، وأثاث الحجرة، وأشباح الذكريات. وعندما تنظر إليه من ثقب الباب ترى إنسانًا غريبًا في أطواره. إنسانًا يغني وحده، ويبتسم وحده، ويبكي وحده، ويتحدث إلى نفسه بصوت عال عن أشياء تبدو معقولة في بعض الأحيان، غريبة شاذة كالهذيان في أحيان أخرى. ويرقص الساعات

الطويلة، رقصة هادئة منسابة حالمة كالذي يستعيد لحظات من النشوة عاشها ومضت، أو رقصة سريعة عنيفة مضطربة كأنه يحمل في جسمه شيطانًا مكبوتًا.

يتحدث إلى العصافير، ويستقل سيارة " بوكس " رمادية تحمله كل يوم عبر البوابة الخشبية الضخمة هناك، إلى حيث المبنى الكبير، والطرقات الطويلة الهادئة، ورجال يرتدون معاطف بيضاء، يضعون أصابعهم الناعمة فوق معصمه، ويحملقون في عينيه، ويفحصون لسانه، ويضربون فوق ركبته بمطرقة صغيرة معدنية تلمع في ضوء النهار، ويضعونه فوق منضدة من الجلد الأخضر ويثبتون أسلاكًا في رأسه، تجعل عضلاته تنتفض، وأسنانه تصطك، كأنهم ألقوا به عاريًا في الصقيع، وتحمل عقله بعيدًا هناك، ليضيع في ثنايا الغيوم.

وعزيز يتحدث إلى الذباب، ولكنه يدرك تمامًا ما يفعل، بل يفعله بإرادته ولغرض يعرفه. فرغم الباب المغلق على الدوام، ورغم الجدران الأربعة التي لا يبارحها، ورغم كل الظروف التي تحيط به وتكاد في بعض الأحيان أن تعتصر عقله إلى آخر قطرة فيه، لم يتمكن أحد منهم من أن ينفذ إلى القشرة الدقيقة المتناهية الرقة التي يتركز فيها الوعي، وتتركز فيها الإرادة. لم ينفذوا إليها من باب الزنزانة، أو من النافذة، أو من العين الصغيرة المغطاة بالجفن المعدني والتي تراقبه ساعات الليل والنهار، أو في قلم المحقق يسطر فوق الورق الأبيض مصيرًا محتومًا، أو في كلمات حسين يسقيها له كالسم البطيء، أو في رائحة العفن، أو في لسعة الحشرات الزاحفة. فقد حافظ على الوعي الذي يحكم العقل والجسد.

الشعرة الرفيعة التي تفصل بين العقل والجنون. حدود غامضة تثير أسئلة كثيرة ... أسئلة تلح وينبغي أن يجيب عليها الآن حتى يمشي إلى

آخر الطريق. فهنا في أعماق الظلام والوحدة يواجه الإنسان حقيقة نفسه دون قناع ... لا مجال للمراوغة، أو التهرب، أو الاكتفاء بنصف الحقيقة. حياته الماضية تمتد وراءه من أولها إلى آخرها عارية مكشوفة يراها بعين فاحصة وتطرح عليه السؤال الكبير ... السؤال الوحيد الذي تنتهي الإجابة عليه كل الأسئلة: هل أخطأ أو أصاب؟. هل يتوقف أو يستمر؟

الجنون؟ ... الجنون أنواع ... نوع يقود إلى المستشفى ... ونوع آخر يقود إلى السجن ... السجن ... متى يجلس معهما على مائدة الطعام ويسقي طفله الحساء الساخن بالملعقة الفضية الصغيرة؟ متى يرقد إلى جوار نادية في الليل تضع رأسها فوق ذراعه، ويتحدثان بهدوء حتى تتسلل أضواء الفجر الباهتة خلال زجاج النافذة، ويصيح الديكة في حديقة الجيران. كانت تقول: " لحظات الجنون في الحياة لا بد منها ". لم يفهم آنذاك ما كانت تعنيه ... مرت السنوات الطويلة قبل أن يدرك أشياء كثيرة. يعرف الآن معنى كلامها ... ففي الأيام الأولى عندما استولت على خياله أحلام مشتعلة عن المساواة بين البشر، عن حياة أخرى للمعذبين في قريته، عن غطاء من الصوف لأطفال ينامون على أرصفة المدينة، فترك المهنة المربحة، والطمأنينة، والدفء، ليمشي فوق مسالك وعرة مجهولة، في تلك الأيام مصمص الناس شفاههم على المصير الذي اختاره. قالوا عنه أنه واهم، وأنه لن يستطيع، لا هو ولا غيره، أن يغيروا شيئاً. بل قالوا عنه أنه مجنون.

نعم ... لا شك أنه مصاب بنوع من الجنون ... فالسعي إلى تغيير العالم في عرف الناس جنون ... والتمرد جنون ... والثورة جنون ... وحتى العبقرية تبدو أحياناً ضرباً من الجنون ... بل كل عمل عظيم قد يدمغه المجتمع بأنه جنون لأنه يرتقي بك فوق المقاييس المألوفة للحياة

اليومية، فوق مستوى الأشياء الطبيعية العادية، ويقود خطواتك خارج الضروب المعتادة التي يسير فوقها الناس.

الطرقة التي تمتد أمامه عريضة طويلة لا يرى آخرها، كالنفق المحفور تحت البحر. وهي تخترق المستشفى الضخم الرابض على شاطئ النيل كالشريان، يغذي الأقسام المتتالية، عبر الأبواب الواسعة المفتوحة على مسافات متساوية، بسيل لا ينقطع من المرضى، يروحون كالأشباح اليائسة أرهقها البحث عن شيء مفقود. وهو يسير معهم يرتدي معطفًا قصيرًا من التيل الأبيض الرفيع، وتتدلى حول رقبته سماعة طويلة سوداء، يتراقص رأسها المعدني المستدير مع خطواته المسرعة فوق مربعات البلاط الصفراء المتسخة.

منذ ثلاثة أشهر وقف أمام لوحة الإعلان وقرأ اسمه عند رأس القائمة. شق طريقه وسط جمع غفير من الطلبة، يضغط في اعتداد على الأيدي الممدودة، ويسمع كلمات التهنئة في زهو يحرص على إخفائه، وكان ما جرى شيئًا عاديًّا ومتوقعًا بالنسبة إليه.

ثلاثة شهور متواصلة من السهر حتى الفجر ليعوض الوقت الذي ضاع منه في اجتماعات اللجان، والمقابلات، والجري عبر شوارع المدينة إلى ساعة متأخرة من الليل كانت قد أرهقته وتركت عنده تقلصات عصبية في أصابع اليد اليمنى كلما أمسك بالقلم ليكتب. جاءت عليه أيام كاد اليأس أن يستولي عليه. أليس من الأفضل أن يؤجل الامتحان بحجة الحالة التي أصابت يده؟ ولكن التحدي كان أقوى من كل شيء. لا بد أن يستمر ... ولابد أن يتصدر اسمه قائمة الناجحين.

كانت أمه تدخل حجرته قبيل الفجر وترجوه أن ينام قليلاً قبل أن يذهب إلى الكلية، فيرفع إليها عينيه المتعبتين، ترقص أمامها الحروف

السوداء فوق الصفحات البيضاء اللامعة، ويلقي ناحيتها ابتسامة هادئة ثم يستمر. اكتشف في نفسه قدرته الخارقة على الاحتمال، واكتشفت أمه فيه ذلك العناد الصلب الذي أورثته إياه. نسي الأصدقاء، وأضواء الشوارع، وضوء القمر فوق النيل، واجتماعات اللجان، وأحرف المطبعة. نسي كل شيء. كان كالمدمن تعلق بالمخدر، وعاش في عالم من صنعه الخاص.

لم يكن أحد من الذين أحاطوا به حول لوحة الإعلانات يعرف ما كلفه صعود اسمه على رأس القائمة. ولم يحس أحد بالسعادة الطاغية التي استولت عليه ذلك الصباح.

الآن يستطيع أن يستريح. أن يسير وحده تحت الأشجار بجوار النيل، أن يستمتع بالهدوء، بهمسات الريح في الأشجار العالية، بشمس الشتاء تدفئ العظام. يستطيع أن يسير وحده وأن ينسى كل شيء، سوى لذة الإحساس بأنه يذوب بالتدريج في الطبيعة.

استقر به المقام في حجرة ضيقة داخل بيت أطباء الامتياز أزال منها التراب المتراكم من قاطنها السابق، ودهن الأرض بطبقة من الورنيش، ووضع الراديو بجوار السرير، وثبت فوق أحد جدرانها صفوفًا من الأرفف تحمل كتبه، ثم دخل بملء قلبه في حياته الجديدة.

الطرقة الطويلة تمتد أمامه ولا يرى آخرها، كأنه ما زال عند البداية، تمامًا مثل حياته، ما زال في البداية يكتشف كل يوم أشياء جديدة، ويلقي بنفسه في خضم المستشفى المترامية الأطراف بذلك الحماس المستغرق المتفاني الذي تعود أن يأخذ به الأشياء، يسهر الليالي بجوار المرضى يئنون من آلامهم العميقة، ويبحث بأصابعه الرفيعة عن الحصوة المختبئة في جوف المثانة، ويدفن الإبرة المدببة برفق في الوريد الأزرق المتعرج تحت الجلد، ويضع سماعته المستديرة فوق القلب يسمع خرير

الدم يتدفق عبر الصمامات العليلة، ويرى اليأس، والأمل، وصلاة صامتة مستسلمة في العيون المتطلعة إليه من فوق الوسادة، ويجيب في هدوء على الأسئلة الحائرة، ويدخل في الصراع المستمر العنيد ضد الموت المحلق فوق الأسرة والرؤوس، ويستقبل الرأس الصغيرة الناعمة تنزلق في رفق من الفجوة المفتوحة فوق كفيه، ويسرع الخطى بين العنابر الغارقة في صمت الليل، يسمع شخير النائمين في إعياء، ويرى العيون المحلقة الساهرة تتبعه في رجاء، وهو ينتقل من سرير إلى سرير. هنا، في كل ساعة من ساعات النهار، وفي كل لحظة من لحظات الليل يلتقي بالإنسان، الإنسان المغلوب على أمره، العاري، الجوعان، المنسحق تحت وطأة الحياة، تحمله أمواجها كالقشة في مهب العاصفة.

الطريق طويل ... ما زال في بدايته ... ليس في البداية تمامًا فقد عاش أشياء كثيرة. طفولته أغرقته في إحساس عميق بالوحدة وجعلته ينظر إلى العالم بعيني طفل كبر قبل الأوان ... سنين الدراسة والتنقيب في الكتب وفي أعماق الجسم الإنساني ... القرية والساعات التي قضاها إلى جوار جدته العجوز ... البحث عن معنى للحياة وخطواته الأولى يتحسس طريقه خارج النطاق المحدود الذي عاش فيه من قبل ... الأستاذ وايت وصفوف الطلبة يجلسون في المدرج كالتماثيل ... المشرحة الخالية والجمع الصغير جاء يخرجه من عالمه الخاص إلى هدير الجموع المتمردة في الخارج ... خليل، وحسين ومناقشات تمتد بهم إلى الفجر، وكتب صغيرة خضراء مطبوعة على ورق أصفر رخيص، تحمل أفكارًا جريئة لها صدى في نفسه ... الدماء الحمراء فوق الأسفلت. وقدما أسعد كالطفلين اليتيمين فوق منضدة من الرخام الأبيض البارد ... اجتماعات اللجان والمنشورات تطير في الهواء فوق رؤوس المتظاهرين ... أزيز

الرصاص، والعصي، والدروع، والجدار الأسود يسحق ويقتل ... الكوبري، والميدان، وفيضان من البشر يتدفق عبر الشوارع.

الطرقة تمتد أمامه ... كاد الآن أن يصل إلى آخرها. عاش السنوات الماضية أمام الكتب، والجثث وأنابيب الاختبار، يحملق عبر عدسة الميكروسكوب في الشرائح الملونة، أو في الكائنات الحية الصغيرة تتراقص في ذبذبات منتظمة تحت بصره، ويضع سماعته فوق الصدر النحيل بعظامه البارزة. عاش لكي يصبح طبيبًا، ويعالج الناس في قريته. عاش لليوم الذي يرتدي فيه المعطف الأبيض، وينتقل بين أسرة المرضى بخطوات هادئة لا يسمع وقعها فوق الأرض البلاط ... ومع ذلك منذ أن استقر به المطاف في الحجرة الضيقة ذات السرير الأبيض، ودخل المستشفى الكبير طبيبًا للامتياز، استبد به قلق غريب. أحس بشعور المسافر في الصحراء، يرى واحة بعيدة في الأفق تلوح أشجارها الوارفة أمام عينيه، ويتصور في خياله نبع مياه نقية تروي ظمأه، وفواكه طرية يأكل منها، وظلالاً يستريح تحتها فإذا ما اقترب وجد سرسوبًا ضعيفًا من المياه العكرة، وبضعة جذوع جفت تحت الشمس الحارقة.

حاول ألا يفكر كثيرًا فيما يحسه. استغرق في العمل بكل كيانه، كأنه يهرب من حقيقة تختمر في داخله وتطارده. يا دكتور عزيز أنت مطلوب في الاستقبال ... يا دكتور عزيز أرجو أن تبقى إلى جوار هذا المريض، فالعملية كانت صعبة، وهو يحتاج إلى رعاية دقيقة ... يا دكتور عزيز هل يمكن أن تأخذ نوبتجية إضافية؟ ... يا دكتور عزيز لا تنسى الحقن والغيارات. هكذا يومًا بعد يوم، وليلة بعد ليلة دون توقف ألقى بنفسه في دوامة المستشفى الكبير ينهل من طاقة معينها لا ينضب.

ولكن بعد ساعات العمل الطويل، كان يستكشف عالمًا آخ ر ...
عالمًا فتح أمامه في الكتب الجديدة ... والمجلة ... ولقاءاته مع حسد ين، وعماد والآخرين ... وجولاته في الحواري الضد يقة المكتظ ة بالبشد ر يعيشون في بيوت كالكهوف ... والمنشد ورات، والخط ب، وصد يحات المتظاهرين ... وهدير الإضد رابات ... وصد وت السد لاح ... ووق ع الحجارة تنهال فوق أرصفة الشوارع ... والكلمات الجريئة ... والأشعار ترن في أذنيه بأنغام عاصفة تتحدى أصحاب العيون الزرق اء، وفوه ات المدافع عند القنال، والقصور الشاهقة تتلألأ أضواؤها ف ي ظ لام الليد ل البارد الموحش.

أسرع الخطى عبر الطرقة الطويلة، ودلف إلى اليمين مخترقًا ب اب قسم ٩. لمح الممرضة تقف في الفناء الصغير فنادى عليها:

" يا ست زينب صباح الخير ".

" صباح الخير يا دكتور ".

" هل انتهيتم من توزيع الدواء "؟

" نعم. منذ نصف ساعة ".

" أريد أن أمر على المرضى قبل بداية الدرس ".

دخلت وراءه العنبر الطويل. سارا سويًّا من سرير إلى سرير، يقلب الأوراق المعلقة بشريط أبيض، ويتوقف بين الحين والحد ين عند د أحد د المرضى ليفحصه بسرعة. وجد نفسه عند آخر العنبر أمام مصد اب ف ي الثلاثينيات. عينان سوداوتان واسعتان، ورموش طويلة. وفوق الد وجنتين حمرة خفيفة تنم عن الحرارة التي تحترق ببطء في الأعماق.

" صباح الخير يا علي. كيف الحال اليوم "؟

" الحمد لله يا دكتور ... أحسن ".

" والحرارة يا ست زينب "؟

" ما زالت ترتفع، وعلى الأخص في الليل ".

" والسعال يا علي "؟

" خف كثيرًا ".

" هل أرسلت عينة بصاق جديدة للتحليل "؟

" أرسلت أول أمس، ولكن النتيجة لم تأت بعد ".

" والأشعة يا ست زينب "؟

" سأحضرها حالاً ".

غابت بضعة دقائق، ثم عادت مسرعة تحمل مظروفًا أصفر.

رفع الأفلام السوداء إلى نور النافذة، هذه المساحة البيضاء مثل قطعة من القطن ... ما زالت تتكمش ببطء شديد، ولكن آثار المياه في الصدر اختفت. أدخل الأفلام في المظروف، ووضعه فوق السرير. ثم التفت إلى المريض.

" ارفع ملابسك يا علي ".

وضع القرص المعدني المستدير على الصدر النحيل ذي العظام البارزة، كالقفص العاري من الغطاء، وأحس بالجلد الساخن تحت أصابعه. أرهف سمعه وهو ينقل القرص من مكان إلى مكان.

حملق فيه المريض بعينين متسائلتين. قال في صوت هادئ مطمئن:

" تحسن ملحوظ. إن شاء الله ستشفى قريبًا ".

" متى يا دكتور "؟

" تحتاج إلى شهر أو اثنين. ثم يمكنك مواصلة علاجك في البيت ".

" والأولاد من أين يأكلون "؟

فوجئ بالسؤال. وارتبك قليلاً، ثم سأله:

" ألا تستطيع أن تتحمل الفترة القليلة الباقية "؟

" شهران يا دكتور ...؟ من أين؟ لقد بعنا كل ما يوجد في المنزل. وأولادي الآن لا يجدون قوت يومهم ".

" انتظر قليلاً. إن شاء الله تفرج ".

" من أين تفرج ...؟ طرقنا كل الأبواب دون جدوى ".

" وماذا تريد إذن يا علي "؟ ...

" أريد أن أخرج ".

" تخرج ...؟ ألا تدرك أن خروجك معناه أن تعود إلى الحالة التي كنت عليها عندما أدخلناك المستشفى، بل ربما إلى أسوأ "؟

" أعلم هذا ".

" وتريد أن تخرج مع ذلك "؟

" أولادي ... أولادي يا دكتور يجوعون الآن ".

" وماذا ستفعل أنت لهم "؟

" سأفتح الحانوت من جديد ".

" وستعمل فيه بنفسك "؟

" سأحاول أن أقلل من العمل قدر الإمكان. وأستعين بعامل أو اثنين".

" أنت مكوجي أليس كذلك "؟

" نعم ".

" ستقف أمام البنك، وتحرك المكواة طوال النهار، وتتعرض للحر في الصيف قريبًا من الموقد، وتخرج إلى البرد في الشتاء. ليس هذا بالعقل يا علي ".

" لم يعد في عقل يا دكتور. أريد أن أخرج ".

" انتظر حتى الصباح، وفكر في الأمر مرة أخرى ".

" فكرت كثيرًا ووصلت إلى قرار ".

" هل أنت مصر "؟

" نعم أنا مصر. وأنت لا تملك أن تبقيني هنا ضد إرادتي ".

تردد عزيز لحظة وهو يحملق في العينين اليائستين، والخطين السوداوين الغائرين المحددين تحتهما. ثم أمسك بالأوراق المتدلية عند قدم السرير وكتب عليها بخطه المربع الكبير:

" خروج ويعرض على الدكتور عادل نديم ". ثم التفت إلى المريض وقال:

" عندما تخرج. لا تنسى أن تمر علي بين الحين والحين ".

ثم انتقل إلى الصف المقابل من الأَسِرَّة بخطوات زاد ثقلها فوق الأرض.

عاد إلى حجرته آخر النهار. خلع معطفه الأبيض، وذهب إلى الحمام ليغتسل ثم توجه إلى حجرة الطعام بحثًا عن شيء يأكله. حملق بشيء من التقزز في المشمع ذي المربعات الزرقاء المغطى ببقايا الأكل، وقطع الخبز ودوائر صغيرة مبعثرة من الصلصة الحمراء، وتجمعات سوداء من الذباب التفت برؤوسها المتلاصقة النهمة فوق مساحات متفرقة من المنضدة. أشار إلى رجل قصير القامة، مكتنز البطن ثبتت رأسه في كتفيه بغير عنق، ويرتدي سترة بيضاء قذرة تتصاعد منها رائحة الدهن، والطبيخ الحامض.

" ماذا عندك اليوم "؟

" فراخ ".

صمت لحظة ثم قال:

" أعطني بيضًا مقليًا، وسلطة، وخبزًا ".

التهم الطعام بحركات آلية خالية من الشهية، ثم عاد إلى حجرته. خلع حذاءه ومد جسده فوق السرير. أدار مفتاح الراديو. جاءته أنغام الكمان عذبة حزينة في وحدتها. سمع صوتًا كالحجارة الصغيرة تصطدم بالنافذة، فتلفت ناحيتها ليرى قطرات خفيفة من المطر تسقط فوق الزجاج. أغلق الراديو، ووضع يديه خلف رأسه محملقًا في الظلام الذي أخذ يتراكم بالتدريج.

" أطفالي يا دكتور يجوعون الآن ".

الصوت الواهن يتردد في أذنيه، ويأبى أن يبارحه. رأى في مخيلته ثلاثة وجوه صغيرة نحيلة تتطلع بعيونها الست إلى طبق من البيض المقلي، ورصة من الخبز. الحد الفاصل بين العقل والجنون شعرة رفيعة لا ترى. فعماد سبع سنوات من سهر الليالي والتعب والعناء. أجهزة الأشعة، وحقن، وميكروسكوبات، وأسرة، وممرضات، وأطباء، سبع سنوات من العلم. وأنت عاجز عن أن تفعل شيئًا للرجل المريض الذي جاء إليك. واليوم، وقعت على حكم بإعدامه.

" الناس يمرضون في البلد المستذل وأنا سأعالجهم ". هكذا قال لحسين في يوم من الأيام. لماذا لا تعالج عليًّا إذن؟ ... لماذا ...؟ لماذا ...؟ سمع طرقات على الباب. قال " من أنت "؟

جاءه الصوت مخنوقًا:

" يريدونك في الاستقبال يا دكتور عزيز ".

" سأنزل حالاً ".

قام من رقدته. أضاء النور الكهربائي، ومشط شعره أمام المرآة، ارتدى معطفه الأبيض، وأخذ كيسًا مستطيلاً من الجلد البني من فوق

المنضدة. سار أمام صف من الأبواب المغلقة، وصعد درجتين ليجد نفسه في الطرقة الطويلة التي لا يرى آخرها. أسرع الخط ى. شـ يء مـ ا، لا يدرك كنهه، يجعله يكاد يجري في البهو و العـ ريض المضـ اء بلمبـ ات كهربائية قليلة، تعطي نورًا يشبه الشفق. قابلته ممرضـ ة بـ رزت فجـ أة كالشبح في ثوبها الأبيض من نصف الظلام. هبط السلالم اثنتين اثنتـ ين، وقفز عبر الباب المفضي إلى الاستقبال، ليجد نفسه وسط جمع من النـ اس يسدون الطريق إلى حجرة الكشف الكبيرة. أحس بحركة غيـ ر عاديـ ة. الممرضات يجرون هنا وهناك، والأطباء يصـ يحون بأصـ وات متـ وترة عصبية: " بسرعة محلول ملح ". " اتصل فورًا بالدكتور غنايم والـ دكتور الأعسر. اطلب منهما أن يحضرا فورًا ". سمع صوتًا نسائيًّا يبكي متشنجًا، وطفلاً يقول: " ماما ماما أنا خايف. أين ذهب أبي ". شق طريقه بصعوبة بين الناس، ودلف من الباب. تلفت بعينيه حول الحجرة، وتسمرت قـ دماه عند المدخل أمام المنظر الذي رآه.

فوق خمسة نقالات أوقفت في أماكن مختلفـ ة مـ ن الحجـ رة رقـ د المصابون. في الهواء رائحة تشبه البارود المحترق. الوجوه كلها شاحبة، ومن تحت البطاطين الداكنة سال الدم الغزير يغطي الأرض ببرك حمراء قانية. رأى رأسًا يغطيها شعر أشعث، ومن تحته وجه في بياض اللـ بن. اقترب من إحدى النقالات. قويت رائحة البارود في أنفه، سمع أنينًا خافتًا ارتفع فجأة إلى صراخ مفزع، مفعم بالألم، والعذاب. ثم سـ كت الصـ وت فجأة كأن يدًا خفية وضعت فوق الفم المفتوح، والشـ فاه المرتعشـ ة تبـ دو زرقاء اللون في الضوء القوي المنسكب من الكشاف الضخم. تسلل بيـ ده تحت البطانية ووضع أصابعه على المعصم. أحس بالنبضـ ات الضـ عيفة الواهنة كأنها تأتي من بعيد. رفع الغطاء برفق. الجسد يرقد كجذع شجرة

ينتهي عند الفخذين، وتحتهما لا شيء، تعلقت عيناه بكتلتين مستديرتين من اللحم الأحمر وبطرفين منتفخين في لون الفحم الأسود. التفت إلى الشاب والتقطت أذناه أنينًا يائسًا يرتفع من الفم المفتوح، وكأنه يأتي من فراغ مدفون في أعماق الجسد الممزق.

سأل:

" من أنت "؟

جاءه همس ضعيف:

" طالب فلسطيني. اسمي عمر حداد ".

" ماذا جرى "؟

" كنت في السينما، وسمعت صوت انفجار في الظلام. ولا أدري ماذا جرى بعد ذلك. أشعر بألم فظيع ".

حملق عزيز في الوجه المشدود وقال:

" اطمئن. سنسعفك حالاً ".

" قل لي يا دكتور. هل سأعيش "؟

" طبعًا ... طبعًا ... ماذا دهاك ".

" أشعر بألم فظيع عند الساقين. ما الذي جرى لهما ".

" شيء بسيط. سننقلك فورًا ... لا تقلق ".

بحث حوله عن أحد التمورجية. لم يجد سوى أناس يجرون هنا وهناك في اضطراب، وأصوات صياح وبكاء. رأى ممرضة تقف كالمشدوهة في ركن من الحجرة، فجرها من ذراعها وأوقفها بجوار المريض.

" جهاز محلول ملح بسرعة، وحقنة كورامين. سأذهب للبحث عن زجاجات دم أو بلازما ".

التفت إلى النقالة المجاورة. رأى امرأة نحيلة مستلقية على ظهرها. لمح ثوبًا آخر ممزقًا عند البطن، وجرحًا كالفجوة الكبيرة، وأحشاءً تلمع بسطحها الأملس تحت الضوء الأبيض. جرى ناحية التليفون. دق عليه بأصابع مجنونة. جاءه صوت نصف نائم:

" نعم ".

" ألو. أعطني غرفة العمليات بسرعة ".

" حاضر " سمع الصوت يتمتم كلمات غير مفهومة عن الحرمان من النوم. ثم جاءته رنات متتالية طويلة لجرس خافت يتردد صوته من بعيد. رفعت السماعة.

" ألو غرفة العمليات ... من أنت "؟

" أنا الدكتور عزيز. من يتكلم "؟

" وأنا كوثر حكيمة العمليات السهرانة يا دكتور ".

" أعدوا غرفتين للعمليات بسرعة ".

" خير إن شاء الله ".

" حادثة. حادثة كبيرة. الدكتور غنايم والدكتور الأعسر سيحضران حالاً. وابحثوا عن أكبر كمية ممكنة من زجاجات الدم ... عشر زجاجات على الأقل ".

عاد وهو يجري إلى غرفة الاستقبال. اندفع نحو الباب نحو الطالب الفلسطيني. رأى العينين تحملقان في السقف بنظرة جامدة لا ترى شيئًا. الوجه في لون الرماد، والشفتان الزرقاوتان مفتوحتان تكشفان عن الأسنان البيضاء. وضع يده فوق المعصم وبحث عن النبض دون جدوى.

التفت حوله. لم يبق الآن في الحجرة سوى نقالة واحدة وضعت بجوار النافذة. اقترب منها بخطوات مترددة. رأى وجه صبي صغير يرقد

في هدوء مستسلم. رفع الغطاء من على جسده. مرت يداه برفق فوق الساقين، والبطن، والصدر، والرقبة. لا شيء ... تنفس في ارتياح. مر بعينيه على الرأس. جرح صغير فوق الأذن اليسرى. نادى على إحدى الممرضات:

" يا فتحية. أعدي غيارًا، وغرز خياطة، وأحضري أوراقه. سنضعه تحت الملاحظة لمدة يوم ".

خرج من باب الاستقبال الخارجي إلى الليل البارد. أخرج علبة السجائر. سحب منها واحدة وأشعلها. أخذ نفسًا طويلاً وأسند ظهره على أحد العواميد.

اقتربت منه امرأة عجوز ترتدي ثوبًا أسود يصل إلى الأرض، وحول رأسها شال من الصوف السميك. قالت بلهجة غريبة على أذنيه:

" يا دكتور. هل كنت معهم بالداخل "؟

" نعم يا سيدتي ".

" كيف حال ابني "؟

خطر في ذهنه. أموعود أنا بالأمهات؟

" من ابنك يا سيدتي "؟

" الطالب الفلسطيني عمر حداد ".

تردد قبل أن يجيب. جاءه الشعور بأنه عاش هذه اللحظة بكل تفاصيلها من قبل.

" حالته تحتاج إلى عملية. وهو الآن في غرفة العمليات ".

" عملية كبيرة يا دكتور "؟

" عملية كبيرة ولكنه بين أيد يمكنك أن تطمئني إليها ".

سكتت ثم قالت:

" هل سيعيش يا دكتور "؟

" إن شاء الله ".

" الله يبارك كل خطواتك يا ابني. أنا غريبة وليس لي أغلى منه في الدنيا ".

" غريبة. لست غريبة. أنت أمنا. ونحن أولادك. فأنا لي أم مثلك، بل هي تشبهك تمامًا ".

" كل الأمهات يشبهون بعضهن في مثل هذه الظروف يا ابني ".

ساد الصمت بينهما لحظة ثم قال:

" هل ستقفين هكذا؟ تعالي معي ".

" إلى أين "؟

" إلى حجرتي ".

سارت بجواره عبر البهو الغارق في الظلام. لم يقابله أحد، أحس بالجو الموحش الصامت يجثم على صدره، وسمع خطواتها كالأرنب الصغير تجري فوق البلاط. صعدا السلم وفتح باب الحجرة. أجلسها على المقعد وقال:

" سأذهب إلى غرفة العمليات. سأرسل إليك كوبًا من الشاي ".

خرج وأغلق الباب وراءه على الجسم المنكمش في ثوبه الأسود.

* * *

جلست نادية على الجانب الآخر من المنضدة البيضاوية الصغيرة وضعت فوقها أطباق البيض المقلي، والفول، والجبن الأبيض، ومربة المشمش، والزيتون الأسود، وسلة من القش الملون ارتفع منه تل عال من الخبز الرفيع الجاف. رأى عينيها دائرتين من السواد يشرقان بضوء عميق فوق سطح من الشاي يتصاعد منه بخار خفيف في ضوء الصباح.

كانا يجلسان في الشرفة الواسعة، يستمتعان براحة يوم الجمعة وبالش مس تغرق أجسامهما في دفء لذيذ. مد ساقيه تحت المنض دة، ونظ ر إل ى أشجار الكافور الشاهقة ترتفع في سياج أخضر كثيف بين الشرفة وحديقة المنزل المجاور. اعتدل في جلسته، وأخرج سيجارة من العلب ة الخش بية الموضوعة فوق جرائد الصباح أشعلها ونفت خيطًا طويلاً م ن ال دخان، ارتفع في رفق، سحابة خفيفة تحت ضوء الشمس الس اطعة. ب دا علي ه الاستغراق في شيء يشغله.

قالت:

" لماذا لا تأكل "؟

تنبه إلى أنها تحدثه، فالتفت إليها وابتسم، ملقيًا عليها نظرة طويل ة من عينيه المسحوبتين كثمرة اللوز. أحست بنظرته تتلكأ بحنان مس تطلع كأنها تلمس وجهها، فاضطربت قليلاً، وأعادت السؤال لتكسر الصمت.

" لماذا لا تأكل "؟

" ليس لي شهية إلى الأكل ".

" لماذا؟ اليوم راحة. وأنت تهمل نفسك طوال الأسبوع. لقد أوصتني والدتك بأن أتولى إقناعك بالقضاء على كل هذه الأطباق " أشارت بي دها إلى المنضدة.

" ولكنك أنت لا تأكلين أيضًا ".

" سآكل إذا أكلت ".

" لا أستطيع. سأشرب الشاي فقط " تناول الكوب الساخن ورش ف منه رشفتين.

قالت بصوت ينم عن شيء من القلق:

" ما لك "؟

" رأيت أشياء في الأسبوع الماضي تطاردني. كلما حاولت أن أنساها عادت إلي ".

صمتت في انتظار كلماته. ولكنه استغرق في التفكير من جديد.

قالت في رفق كأنها تذكره بوجودها.

" ماذا رأيت يا عزيز "؟

" رأيت ضحايا قنبلة السينما. ألم تقرئي عنها في الجرائد "؟

" نعم "؟

" كنت نوبتجيًا في تلك الليلة. واشتركت في إسعاف المصابين ".

" شيء فظيع. كيف تحملت المنظر؟ جسمي يقشعر عندما أفكر في الدماء والجروح والمرضى. أشياء تفزعني، ولذلك لم أفكر أبدًا في أن أكون طبيبة ".

" الإنسان يتعود على كل شيء. أنا لا أنزعج بسهولة. ومع ذلك انقلب كياني منذ تلك الليلة. أشعر بشيء كالغثيان المستمر، وبثقل في قلبي لا يريد أن ينصرف ".

" ولكنك تقول أنك تعودت مثل هذه المناظر "؟

" نعم تعودتها. ولكن هذه الحادثة بالذات ... منظر الأجسام الممزقة. والطالب الفلسطيني يصرخ كالمجنون ... صراخ طويل يرتفع من الأعماق، صراخ فيه عذاب الإنسان كله، ومأساته واحتجاجه على الفعل البشع، صراخ البريء المطعون يشكو قسوة الجلاد، ويسأل لماذا؟ لماذا؟ عندما أنام أرى عينيه مفتوحتين، بركتين من اليأس، والألم، والفزع، ووجهه شاحبًا كالرماد، وجذعًا بلا ساقين، وأشم رائحة البارود ... ".

اهتزت كتفاها برجفة مفاجئة، وهرب احمرار الشمس من وجنتيها.

" آسف ... كان يجب ألا أتحدث إليك هكذا ".

تنهدت بعمق وأمسكت يداها بمسندي المقعد الذي تجلس عليه ثم قالت:

" لا ... أريد أن أسمع. يجب أن نرى ونجرب كل شيء. ليتني كنت معك ".

" أناس أبرياء. شباب، وأطفال، ونساء راحوا ليرفهوا عن أنفسهم بضع ساعات. ثم قنبلة. قنبلة تضعها يد غبية آثمة تمزقهم. لماذا؟ وبأي غرض؟ وفيم تفيد "؟

صمتت قليلاً ثم قالت في صوت تخللته نبرة عتاب.

" ومع ذلك تذهب إلى اجتماعات الإرهابيين ".

ألقى ناحيتها بنظرة خاطفة وضحك.

" من أين جاءك هذا الكلام "؟

" رأيتك تدخل مقرهم العام ".

" متى "؟

" منذ أسبوعين أو أكثر. كنت عائدة من عند إحدى صديقاتي ورأيتك ".

" فعلاً. حضرت عدة اجتماعات، وعرضوا علي أن أنضم إليهم، ولكنني انقطعت عن الحضور ".

" ولماذا ذهبت إذن "؟

" أريد أن أرى، وأن أفهم ماذا يفعلون. فلعل يكون عندهم شيء يستحق الاهتمام ".

" وماذا وجدت "؟

" كلامًا جميلاً وبليغًا عن الإسلام. وأفعالاً لا تمت بصلة إلى ما يقولون ".

" مثلاً "؟

" مثلاً تواطؤهم مع صدقي في اللجنة القومية ".

" أنا شخصيًا لا أميل إليهم إطلاقًا. حاولوا معي كثيرًا في الكلية ولكنني رفضت. ينظرون إلى المرأة كشيء تحت مستوى البشر. ويريدون لها أن تذبل خلف الأبواب المغلقة ".

ساد الصمت بينهما ثم سألت:

" أهذا كل ما يقلقك ".

سكت كأنه يفكر في سؤالها.

" أحيانًا أشعر أنه ليس ما يقلقني في الواقع. ربما أخفي على نفسي السبب الأساسي ".

" وما هو "؟

" علي "؟

رفعت حاجبيها في استغراب. فابتسم وقال:

" أحد مرضاي. وضعني أمام سؤال لم أستطع أن أجيب عليه ".

" عم "؟

" عن فائدة العلم ".

" تتكلم بالألغاز ".

" ليست ألغازًا في الواقع. أطرح عليك سؤالاً. ما فائدة الطب إذا عجز عن أن ينقذ إنسانًا "؟

" ولكن الطب يعجز في كثير من الأحيان ".

" أنا معك. يعجز عن قصور في المعرفة. وهذا مؤلم ولكنه طبيعي. ولكن هذا ليس ما أقصده ".

تناول سيجارة أخرى وأشعلها في استطراد:

" المرضى الذين أعالجهم في المستشفى. لماذا يمرضون "؟

قطبت جبينها كأنها لم تفهم سؤاله ثم قالت:

" تصيبهم عدوى وميكروب. أليس كذلك "؟

" نعم. هذا هو السبب العلمي. ولكن هناك أسباب أخرى ".

" ما هي "؟

" الفقر. البيوت المهدمة، والجوع، والأقدام المغروسة في الطين ".

" وبعد ".

" وليست عندهم فرصة حقيقية للعلاج، لأنهم، إذا ما شفيت أمراضهم، عادوا إلى نفس الظروف فيمرضون من جديد. وفي كثير من الأحيان لا يشفون لأن ليست لديهم مصاريف العلاج، أو فرصة للراحة ".

" صحيح ... ولكن هذا ليس ذنبك ".

" ليس ذنبي ... ولكن ما فائدة العلم الذي حصلت عليه إذا لم أعالج به الناس ".

" ولكنك ستعالج بعضهم ".

" سأعالج قلة لن تعجز عن إيجاد العلاج على أية حال ".

" قلة ... من هي القلة؟ ".

" الأغنياء ".

صمتت كأنها تفكر فيما يقول ثم سألت:

" ألم تكن تعرف هذا "؟

" كنت أعرفه بشكل غامض. ولكنني أعيشه الآن ".

" ثم ماذا "؟

سكت كأنه يتخذ قرارًا صعبًا.

" ثم ... يجب أن نقضي على الفقر أولاً ".

" ألا تحاول هذا فعلاً "؟

" تقصدين نشاطي السياسي ".

" نعم ".

" ولكن ما هو الأهم. الطب أم السياسة؟ العلاج أم القضاء على الفقر "؟

" سؤال صعب ".

" ليس صعبًا ... ولكن الرد عليه يحتاج إلى شجاعة ".

" لماذا "؟

" لأن على الإجابة تترتب أشياء كثيرة ".

" ما الذي تريد أن تصل إليه "؟

" لم أصل بعد، يا نادية، وهذه هي المشكلة ".

ساد الصمت بينهما فترة طويلة. نظرت إلى ساعتها وقالت:

" ينبغي أن أعود إلى المنزل. لست مثلك. أنت محظوظ فقد انتهيت من الامتحانات. أما أنا، فما زال أمامي آخر امتحان ".

وقف وقال:

" سأوصلك حتى البيت. أتريدين أن نمشي قليلاً اليوم "؟

" كان بودي ذلك. ولكن الوقت سرقنا ".

" إنني لا أراك إلا نادرًا هذه الأيام ".

" يبدو أنك مشغول بأشياء كثيرة ".

" ولكنني أريد أن أراك "؟

" لماذا "؟

" لأنني عندما أراك أشعر بالسعادة ".

صمتت في شيء من الارتباك. ثم وقفت وقالت:

" هيا بنا ".

هبطا السلم. أمسك بيدها وسارا في الشارع تحت الشمس. تردد كأنه يريد أن يقول لها شيئًا.

" يا نادية ".

" نعم ".

" انضممت إلى تنظيم ".

" أعرف هذا ".

قال في اندهاش:

" كيف "؟

" أخبرني عماد بذلك ".

" وهل تعرفين عماد "؟

" نعم أعرفه ".

" منذ متى "؟

" منذ أكثر من سنة ".

قال بشيء من الضيق:

" صديق العائلة "؟

" لا، عضو معي في نفس التنظيم ".

نظر في عينيها نظرة طويلة ثم فجأة رنت ضحكاتهما صافية كالنغم يتصاعد في الربيع. وضع يده فوق كتفها وسارا سويًّا عبر الشارع الطويل.

❋ ❋ ❋

تململ في نومه، وفتح عينيه في الظلام، ثم أغلقهما من جديد. الحلم لذيذ وهو لا يريد أن يستيقظ. سمع ضحكاتها الصافية ترتفع ف ي ه دوء الصباح كالنغم في جو الربيع. مدت يدها وناولته حقيبة جلد صفراء اللون انتفخت على الجانبين من كثرة محتوياتها، وكأنها قد تنفجر في أية لحظة. أحس بها ثقيلة على ذراعه فاستغرب كيف حملتها الفتاة النحيلة كل ه ذه المسافة. قالت:

" متى تعود من المحلة؟ "

" سأعود في الأسبوع القادم ".

" يا عزيز ".

" نعم ".

رأى عينيها تفيضان رقة وشفتيها مفتوحتين قليلاً. أح س بش يء كالشحنة الدافئة تمر بينهما. ترددت ثم قالت:

" لك وحشة ".

" ليس مثل وحشتك عندي ".

أشرق وجهها في ابتسامة راضية سعيدة. ورأى أنفها يرتعش ك أن نبضًا دفيناً يهز كيانها. استولت عليه رغبة عارمة في أن يض م جس مها بين ذراعيه، فانحنى وانشغل بربط حذائه، ثم وقف أمامها وقال فجأة:

" ينبغي أن أتركك الآن ".

مرت سحابة خاطفة فوق وجهها. ثم مدت يدها وقالت:

" إلى اللقاء ".

" أمسك بيدها لحظة، فسكنت في كف ه دافئ ة مستس لمة. أطل ق صراحها، وابتعد بخطوات سريعة. عند منحنى الش ارع التف ت وراءه، ولوح بذراعه، ثم اختفى خلف سور عال.

مرت ثلاثة شهور منذ أن ترك القاهرة واستقر في حجرة صغيرة تطل على الحقول الخضراء عند الأطراف الخارجية لمدينة طنطا. عندما يفكر فيما جرى، يشعر أنه شيء طبيعي كان لابد أن يقع. فالأحداث كلها كانت تتجه به كالنهر الهادئ العميق الذي ينساب إلى البحر بقوة وإصرار لا تحول بينه وبين الوصول سدود أو عقبات. والصراع الذي كان يدور في نفسه أخذ يحتدم بالتدريج حتى نقطة اللاعودة.

العنابر الفسيحة، والطرقات العريضة، والأسرة المتراصة تصرخ بعذاب إنساني لم يعد يحتمله، ويشعر بالعجز إزاءه. يمر أمام عيون المرضى، ويقرأ فيها شيئًا كالاتهام الصامت.

وفي الليل عندما ينتهي عمله كان يجوب شوارع القاهرة متنقلاً بين أحيائها المترامية. يحمل في جيبه منشورًا صغيرًا، أو تقريرًا عن الإضرابات التي أخذت تهز الضواحي العمالية، أو لفة من المجلات ليوصلها إلى أحد البيوت. كانت خطواته تقوده أكثر إلى أعماق المدينة إلى طبقاتها السفلى، إلى الأحياء المكتظة حيث يعيش الناس في كهوف تشع جدرانها رطوبة عفنة، وتتراكم فيها رائحة الأنفاس المكتومة، وينام الأطفال صفوفًا على الأرض، ويتصاعد الدخان الأسود من وابور الجاز. يجلس على الحصيرة، أو على كنبة خشبية تمزقت أحشاؤها، يحتسي الشاي الساخن، ويحملق في الوجوه السمراء المنحوتة، تبرز ملامحها وسط الظلام في ألسنة النيران المنتفضة. سمعهم يتحدثون بلغة، أخرى، تسمي الأشياء بأسمائها، وتعبر عن عالم غير العالم الذي عرفه، المعاني فيه واضحة صريحة، عنيفة عنف الحياة التي يعيشونها، والتعبيرات فيها تقطر مرارة ما بعدها مرارة، ودفئًا ما بعده دفء.

في ليلة من ليالي أغسطس الساخنة، حيث تتعلق أنفاس المدينة كالسحابة الثقيلة الرطبة فوق الرؤوس والصدور، قادته خطواته إلى بيت صغير من الطوب العاري في ضاحية شبرا الخيمة. كان يشعر بإعياء شديد، وهو ينقر على الباب بأصابعه، ويلقي عليه بجسده ليستريح. فتح الباب فجأة حتى كاد أن يقع في الداخل، واصطدم برجل قصير القامة، مربع الجسد، تراجع خطوة إلى الوراء وهو يرفع ذراعه ليسنده.

قال في صوت عميق تخلل نبراته شيء من القلق.

" من أنت "؟

" عزيز ".

" آه ... أهلاً ... أهلاً كنت أنتظرك، تفضل " وأشار إلى باب خشبي عار من الطلاء.

دخل عزيز، وجلس على الكنبة الوحيدة في الحجرة الصغيرة. كانت جدرانها بيضاء، خالية من كل شيء، سوى صورة كبيرة لرجل فلاح ذي شوارب مفتولة، يرتدي طاقية، وجلبابًا مشقوقًا عند الصدر. على الأرض حصيرة مربعة تآكلت أطرافها، وأمام الكنبة منضدة مغطاة بقطعة من القماش الأحمر.

تبعه الرجل وجلس إلى جواره على الكنبة.

" أهلاً بك ... نورت البيت يا زميل ".

" الله ينور عليك " ...

" واضح عليك التعب. ما رأيك في كوب من الشاي؟ "

" هذا ما أحتاج إليه فعلاً ".

" تأكل لقمة صغيرة. عندنا خبز أبيض، وجبنة بيضاء ".

" أجمل حاجة. كأنك قرأت أفكاري ".

ضحك الرجل في سعادة، وخرج من الباب ليعود بصينية صغيرة وضع عليها الطعام.

حملق عزيز في الوجه. أين رأى هذه الجبهة السمراء العالية، والوجنتين البارزتين، والفم الكبير بأسنانه البيضاء القوية تلمع تحت الشارب الأسود الغزير؟

" أين رأيتك من قبل "؟

" لا أذكر أننا تقابلنا ".

" ولكنني متأكد أننا التقينا في مكان ما ".

" ربما. لقاء عابر في الشارع ". قالها بشيء من التحفظ.

" لا ... لقاء لم يكن عابرًا ".

التفت الرجل إلى صينية الأكل، كأنه يريد أن يتفادى الموضوع.

" الاحتمال الأكبر أنه ليس أنا، فنحن جميعًا متشابهون ".

" ماذا تقصد؟ ".

" أقصد أن العمال يشبهون بعضهم ".

ضحك عزيز وقال:

" كيف "؟

" كالنقود التي تصكها الآلة ".

" الإنسان له ملامح ".

" النقود ليست لها ملامح، يا دكتور عزيز. إنها قروش ".

" لم أسمع أحدًا يتكلم مثلك ".

ابتسم الرجل. لمعت أسنانه البيضاء في الظلام.

" جئت من عالم آخر ".

" أحس عزيز بشيء من الضيق. هذا الرجل، لماذا يعامله بجفاء؟

" ولكنني دخلت بيتك ".

التفت إليه الرجل بعينين تسللت إليهما رقة ساخرة.

" ولكنك لم تدخل عالمي، فما زلت تقف على العتبة ".

" لماذا تضع بيننا الفواصل؟ "

" أنا لا أضعها. إنها موجودة ".

صمت عزيز، وحملق في قطعة القماش الأحمر، وكأن اللون قد جذب انتباهه.

" يا دكتور عزيز. لا تغضب. فأنت زميلي. وقد جئت تبحث عني، ولكنك لم تقف أمام الآلة ".

" الآلة ... الآلة ... ماذا تفعل الآلة "؟

" تمسح الملامح، وتسحق الإنسان ".

" الإنسان لا يسحق. فأنت التي تديرها ".

" لا ... هي التي تملكني، وتحركني، وتمتصني ".

" لكنك في يوم ما ستملكها ".

" متى؟ "

" لا أعرف ... فأنت الذي ستحدد هذا اليوم ".

" لا أستطيع ".

" لماذا؟ "

" لأنك ما زلت تحجب عني ما تعرفه ".

" أنا لا أحجب شيئًا. لقد جئت إليك ".

" لا. أنت تحجب عني ما احتاج أن أعرفه ".

" اسألني، وسأجيب عليك ".

" لن تستطيع ".

" لماذا؟ "

" لأنك تفكر في أشياء أخرى. في النيل المنسـ ـاب تحـ ـت القمـ ـر، وسترة من الصوف الناعم، وحجرتك الوثيرة ".

" وما العيب في هذا؟ "

" ينبغي أن تختار؟ ".

" أختار؟ "

" بين ما تملكه أنت، وبين ما تريد أن يملكه الآخرون ".

" ولماذا أنت بالذات؟ ".

" لأنك جئت إلي تبحث عن معنى الحياة ".

" وهل تعرفه أنت؟ ".

" ربما ".

ساد الصمت بينهما. نظر عزيز في وجهه كأنه ينتظر منـ ـه شـ ـيئًا. تردد الرجل لحظة ثم قال:

" أعرف أن البذرة التي تقع تحت الشجرة تختنق في ظلها ".

" انتقلنا إلى الزراعة ... ".

ندت منه نظرة عتاب. استطرد كأن عزيزًا لم يتكلم.

" وأن من عاش في ذاته مات ".

" الذات أغلى ما يملك الإنسان. فهي جوهره ".

" لست محور الدنيا ".

" ولا أنت ".

" أنت محور. وأنا محور. وكلنا محاور ".

" وكل منا يشد ناحيته ".

" لماذا لا نسير سويًا؟ ".

" والذين يسبقون؟ "

" عليهم أن يمدوا أيديهم ".

" هل هذا ممكن؟ "

" ما رأيك أنت يا دكتور عزيز؟ "

حك عزيز جبهته بأصابعه من جديد.

" ينبغي أن نحاول ".

قام الرجل، وغاب دقيقتين ثم عاد بكوبين من الشاي. " لم نأكل شيئًا ... ألا يعجبك الأكل؟ "

" سآكل الآن يا زميلي حلمي ".

" كيف عرفت اسمي؟ ".

" رأيتك من قبل ".

" أين؟ ".

" في اللجنة الوطنية. أليس كذلك؟ ".

ضحك الرجل في سرور. مد عزيز يده إلى الخبز وأخذ يأكل.

* * *

تلك الليلة الساخنة من ليالي أغسطس. هل كانت بداية الطريق. إنه لا يعرف. كل نقطة كانت بداية، بداية لنقطة أخرى على الخـ ط الطويـ ل المتصل الذي قاده حيث يرقد الآن في الظلام. ولكن عنـ دما ينقـ ب فـ ي أعماقه باحثًا عن أشياء كثيرة يلوح له وجه الرجل ذو الجبهـ ة العاليـ ة، والفم الكبير تطل منه أسنان بيضاء، والقامة العريضة، ونظرة نفاذة تنتقل بسهولة من التحدي، إلى الغضب، إلى الرقة المتناهية التي لا تنبع إلا من أعماق الإنسان القوي.

واللوري يحمله الآن فوق الطريق الأسفلتي، ينحني بين صفين من الأشجار ويلمع في ضوء الشمس. السائق يغمض عينيه بين الحين والآخر ويغرق في لحظة خاطفة من النوم تحت الجفون المثقلة بتعب الليالي والحقيبة المنتفخة تقبع على المقعد إلى جواره، يمر عليها بيده كأنه يريد أن يطمئن على وجودها أو أن يحس من جديد ملمس الأصابع الناعمة التي كانت تحملها من قبل. أطل من النافذة على بساط الأرز الأخضر، يتموج في رقة تحت لمسات النسيم المنحدر من الشمال. رأى الوجوه السمراء ترتفع وتنحني فوق الثوب الأبيض المربوط عند البطن، ليكشف عن الساقين مثل عمودين من الخشب المحروق، تخوضان الأمواج الخضراء. هنا وهناك أثواب ملونة زاهية، وقبعة عريضة من القش، ويدان تغوصان في الطين وخصر مثل الغصن اللدن، وقامة ترتفع في اعتداد. بؤس الإنسان وجمال الطبيعة، توءمان في هذه الدنيا الخضراء الممتدة حتى الأفق، والتي ينتقل بين قراها منذ ثلاثة شهور فوق الأسفلت والتراب.

نظر إلى ساعته. بقي ربع ساعة حتى يصل إلى المحلة. سيبقى هناك حتى آخر النهار. ويعود محشورًا بين الأجساد البشرية ترتفع منها رائحة العرق والتراب. سيستمتع بمنظر الأشجار كالأشباح في ضوء القمر، وسطح الترعة يلمع مثل خيط من الفضة ينساب بين الضفتين، وسيرفع ذراعيه إلى الريح الرطب المنعش بعد حرارة اليوم الطويل، وسيختبئ في قاع اللوري مع الآخرين، كلما وقف السائق أمام كشك المرور ليخرج قطعة لامعة من النقود، ويدسها في كف العسكري المنتصب عند الحاجز.

سيعود إلى طنطا الليلة ويسهر حتى الصباح في حجرته الصد غيرة عند أطراف المدينة، يدق على الآلة الكاتبة التي حملها معه من القاهرة. ففي الصباح لابد أن يستقل القطار إلى " شبشير " حيث ينتظره أخو حلمي ...

" شبشير " قرية صغيرة على خط السكة الحديد لا تبعد عن طنطا إلا بضعة كيلومترات. قال له حلمي ذات يوم أن الفلاحين هناك قاموا بأول تجربة لزراعة الأرض سويًّا، جمعية تعاونية للإنتاج. ولكنه الآن لا يذكرها بهذا. شيء آخر يلعب في خياله، ويجعله يبتسم كأنه مقدم على لحظات من السعادة. فعندما يهبط من القطار يعرف أنه سيلمح جسدًا صغيرًا يلتف حوله جلباب أبيض، ازرق لونه من كثرة الزهر، ووجهًا أسمر تشوبه صفرة خفيفة، وعينين خضراوتين واسعتين تلمعان ببريق من الابتسام لا يغيب عنهما، وأنفًا صغيرًا مدببًا ينم عن فضول، وفمًا يضحك للحياة في مرح يعجز عن إدراك منبعه. وستمتد إليه يد الطفل الصغير في سلام مثل الكبار، وتنزل على الملامح الدقيقة سيماء الجد، ويخرج صوت لم تغلظ نبراته بعد ليقول:

" معاك المنشورات "؟

وسيعطيه اللفة الصغيرة، فيجري أمامه بخفة أرنب فوق الجسر الصغير وعبر المدك المتعرج المنحدر إلى القرية، ليعود إليه بعد دقائق، يلهث بأنفاس مسموعة، ويقول في اعتداد:

" خبأتها ".

وسيسيران سويًا بخطوات بطيئة بين أحواض الفجل، والجرجير، تجري بينها قنوات المياه السمراء، وشمس الأصيل تضيء الكون،

والعصافير تحلق فوق رأسيهما عائدة من مكان بعيد. وسيتبادلان الحديث الذي لا يتغير، والذي يبدو جديدًا ورائعًا في كل مرة.

" كيف حالك يا مصطفى؟ "

" الحمد لله ".

" أخوك في البيت "؟

" لا ... في الغيظ. سيعود آخر النهار ".

" وأنت ... لماذا تركته؟ "

" جئت أنتظرك ".

" أفرح عندما أراك تنتظرني على الجسر يا مصطفى ".

الوجه الصغير يشرق بابتسامة، ويرفع عينيه الخضراوتين إلى عزيز في نظرة متأملة، تختلط فيها الطفولة بالحكمة المبكرة.

" أخي قال لي انتظر الدكتور اليوم، فجئت أجري من الغيط ".

" ألم تذهب إلى المدرسة؟ "

" لا ... ".

" لماذا؟ "

يقولها بفخر:

" لأنه يجب أن أعمل حتى أعول والدتي وأخواتي البنات ".

" ولكنك قلت لي أنك تريد أن تقرأ ".

" أخي يعلمني عندما نعود آخر النهار ".

" وماذا تقرأ يا مصطفى "؟

" أقرأ في القرآن ".

" ستقرأ لي الليلة "؟

" بعد العشاء ".

" وهل تقرأ أشياء أخرى "؟

" أقرأ في الصحف قليلاً ... وفي المنشورات التي تحملها إلينا ".

" في المنشورات؟ ... وما رأيك فيها؟ "

" لا أفهمها جيدًا. ولكن أخي يشرح لي ما فيها ".

" وهل تعجبك "؟

" نعم ... عندما يشرحها أخي تعجبني ".

" وماذا يعجبك فيها؟ "

يصمت قليلاً كمن يبذل جهدًا في التفكير.

" يعجبني أنها تتحدث عن حياتنا ".

" عن حياتك؟ "

" نعم عن أخي، والرجال الذين يشقون في الأرض ".

" وماذا تعرف أنت عن هذا؟ "

يتخلل صوته شيء من العتاب، والكبرياء المجروح.

" إنني أشقى معهم ".

يصمت عزيز وتقع عيناه على الملامح المشدودة في حزن مفاجئ. هذا الشحوب – عقل الطبيب يدرك معناه.

يستطرد الطفل:

" وعن المالك الذي أخذ أرضنا وتركنا نجوع " يشير بيده إلى دوار ضخم من الطوب الأحمر، يحيط به سور عال، وحديقة ترتفع أشد جارها خلف السور.

" ولكنها لا تقول لك أكثر مما تعرفه يا مصطفى ".

" صحيح. ولكنها تجعلني أفكر فيه ".

" وما فائدة التفكير؟ "

يصمت كأنه يبحث عن جواب:

" أخي يقول أن الذي لا يفكر مثل الجاموسة في الزريبة، يضعون فوق عينيها غمامة ويربطونها في الساقية ... تروي الأرض وتدر اللبن".

" وأنتم يا مصطفى ".

ينفخ صدره في اعتزاز وينطق الكلمات في بطء:

" بدأنا نفهم ".

" وماذا فهمت يا مصطفى؟ "

" ماذا فهمت؟ ... فهمت أنه يجب أن نتعاون ".

" ومع من تتعاون أنت؟ "

" لم أعد أتشاجر مع أخوتي، ولا مع أولاد الجيران ".

" وماذا بعد ذلك؟ "

" فهمت أن الأرض لمن يفلحها ".

ساد الصمت بينهما. خطواتهما تقودهما حول الطرف الشمالي للقرية. على يسارهما تمتد بيوت متلاصقة من الطين، تنبح أمامها الكلاب، وعلى يمينها حقول الأرز الواسعة تجتازها نسمات منعشة بين الحين والحين.

" قل لي يا مصطفى ".

" نعم ".

" ألا تريد أن تذهب إلى المدينة "؟

" مع من؟ "

" معي ".

يتوقف عن السير فجأة، كأنه نسي نفسه.

" كنت أود ... ولكن ".

" لكن ماذا؟ ".

" لا أستطيع أن أتركهم الآن ".

" يمكن أن تعود إليهم بين الحين والآخر ".

في جدية وبشيء من الحزن:

" هم محتاجون إلي ".

" ولكنك محتاج إلى العلاج ".

" ولماذا لا تعالجني أنت يا دكتور؟ "

" لا أستطيع. لا بد أن تدخل المستشفى ".

" مستشفى؟ لماذا المستشفى؟ أنا أخاف المستشفى. سأكون وحدي هناك ".

" ولكنني سأزورك باستمرار ".

" لا ... عالجني هنا ... "

" قل لي ... أما زلت تتبول دمًا؟ "

" دم "؟

" أقصد أما زال بولك لونه أحمر؟ "

" إنه أحمر على الدوام. وما العجب في ذلك؟ كل الصبيان بولهم أحمر ".

" كل الصبيان؟ "

" نعم كل الصبيان في القرية. رأيتهم يتبولون وبولهم أحمر ".

" ولكن هذا مرض ".

" مرض ... أمي تقول أنه دليل صحة. وأن البول الأصفر ينم عن الضعف ".

يشعر عزيز بيد قوية تقبض على قلبه. وبالغضب يرتفع في صدره. أبشع ما فيهم هذا الجهل، والاستسلام للبـ ؤس ... سيضـ يع عمـ ره دون جدوى ... ما الذي جعله يترك المدينة؟ ... الغباء ... والخيال الساذج. لا فائدة مما تفعل ... سنين ... سنين طويلة قبل أن تتغير عقولهم.

يرتفع صوت الطفل صافيًا من جديد كبصـ يص النـ ور الأبـ يض يومض في الظلام.

" هل ستقرأ لي من المنشورات الليلة؟ "

" نعم سأقرأ لك الليلة يا مصطفى ".

" وستكشف علي؟ "

" نعم ".

" أمي أعدت لك فطيرًا ساخنًا، ومشًّا من جبن الأغنام، قالت أنـ ك تحبه ".

" هذا صحيح. أكثر من أي أكل آخر ".

" وأنا أحضرت جرجيرًا وفجلاً من الغيط ".

يصلان الآن قرب كوخ صغير من الطـ ين، تقـ ف أمامـ ه امـ رأة عجوز. سترحب به، وستدخل إلى حجرة صغيرة فيهـ ا صـ ندوق مـ ن الخشب، ولمبة جاز، وحصيرة. سيخلع حذاءه ويجلس علـ ى الحصـ يرة مسندًا ظهره على الوسادة الصلبة التي وضعتها له عند الجدار.

يغيبان في الداخل قليلاً، ويعود الطفل ومعه صينية وبـ راد أزرق، وكوبان صغيران لهما خصر. يصب قليلاً من الشـ اي ويتذوقـ ه بشـ فتيه وطرف لسانه، ثم يملأ الكوبين.

" يا مصطفى. نم على الأرض. أريد أن أكشـ ف عليـ ك قبـ ل أن ننشغل".

ينام على الأرض، ويرفع جلبابه كاشفاً عن جسمه العاري. الـ بطن منتفخة ضخمة ترفع الضلوع إلى أعلى، وعندما يضع يديه فوقـ ـه يشـ ـعر بكتل صلبة " الكبد والطحال " تسبحان فوق السائل المتراكم. ينقر بأصابعه فوق الجدار المتورم. الصدى مكتوم، وحول السرة تتابع عيناه تعرجـ ـات الأوردة المنتفخة تحت الجلد. يسرح بذهنه لحظة ... فـ ـات الأوان ... لا فائدة الآن.

يسند ظهره على الوسادة من جديد، ويقوم الطفل من رقدته لـ يجلس إلى جواره. العينان الخضراوتان تتطلعان إليه في صمت، ولكن الطفل لا يسأل.

يا ألله! لماذا ينظر إليه هكذا كأنه يعـ ـرف؟ سـ يقول لـ ـه الكلمـ ـات التقليدية.

" الحال أحسن من المرة السابقة. هل تأخذ الدواء؟ "

" نعم ".

" حسناً. إن شاء الله ستشفى قريبًا ... أين مصحفك "؟

" أحضره؟ "

" نعم ".

" أريد أن أرى كيف تقرأ ".

الجسدان ينامان الآن فوق سطح الكوخ على أعواد الـ ذرة. يشـ ـعر بجسم الطفل ملتصقاً به. كيف ينام وسط أسراب الناموس التي تلسع وتلسع لتحول الجلد إلى مساحة من الحبوب البارزة الصغيرة، إلى مسـ ـاحة مـ ـن الاحتراق البطيء. لن يستطيع أن ينام، فليفكر في شيء يشغله عـ ـن هـ ـذا الجحيم. القمر يضيء فوقه ويتحرك في هدوء كأنه على سفر طويل. ترى ماذا تفعل نادية الآن؟ كاد يحتضنها اليوم. إنه يشعر بجسمها فوق جلده.

الموجات الساخنة تصعد من أحشائه أعلى، وأعلى. يشعر بنفسه وكأنه ينام فوق أمواج دافئة مرتعشة تحمله بعيدًا إلى عالم النسيان، إلى عالم الفناء حيث يصبح الجسدان جسدًا واحدًا.

* * *

مواكب البق تتجول بوخزاتها الرفيعة فوق جسمه، تاركة لسعاتها النافذة عند كل خطوة. فتح عينيه في الظلام وشعر بعقله وحواسه متيقظة، وبأعصابه هادئة كمن أفرغ همومه، وتوتره المخزون، في النوم العميق. تحت البطانية الخشنة شيء كالبلولة الباردة يلتصق ببطنه. قام من رقدته وتحسس كيس الملابس الأبيض المربوط عند أسفل السرير. أفرغ محتوياته. خلع ملابسه بسرعة، وهو يرتعش قليلاً من تيار الهواء البارد الهابط من النافذة. ارتدى غيارًا وبيجامة، فأحس بملمس الثوب النظيف، ورائحة الصابون تنفذ إليه وتنعشه. تملكه شعور من الارتياح وكأن الدنيا على ما يرام. رقد على السرير ثانية ينتظر قدوم الصباح.

كان هاربًا في تلك الأيام، لا يمكث في مكان واحد أكثر من يومين أو ثلاثة، ولا في مدينة واحدة أكثر من شهر. في تلك الليلة كان يركب الأوتوبيس، يطل من النافذة على الشوارع، والأضواء اللامعة تنعكس على الأسفلت المبلل بمطر غزير. تلكأ الأوتوبيس أمام سينما " ريفولي " فلمح الإعلان الملون الكبير تحت اللمبات الكهربائية تدور حوله في حركة بطيئة: " أضواء المسرح " قصة، وموسيقا، وإخراج، شارلي شابلن.

جاءته فكرة مجنونة. لماذا لا يدخل الفيلم، تردد لحظة. إنه يشتاق لساعة أو ساعتين يحيا فيها في عالم آخر غير عالم المطاردة، والهروب، والشوارع الضيقة، والحجر المدفونة في جوف الحواري المظلمة، تحيط بها المباني المتهدمة، والأسطح المغطاة بعشش الفراخ، وأكوام التراب،

والفضلات، وصفوف من الغسيل ترفرف في الريح. يشد تاق لسد اعة أو ساعتين بعيدًا عن الاجتماعات في الجو المعبأ برائحة الدخان، والأقدام، والعرق، والمناقشات التي لا تنته ي، والتق ارير، والمنش ورات تق رأ وتراجع، والوجوه المتعبة المشدودة، والمهام التي تجعل ه يج ري هن ا وهناك. ساعة أو ساعتين، بعيدًا عن السياسة ... السياس ة ... السياس ة التي أرهق منها، وتشبع بها إلى درجة الغثيان، والقرف، إلى درجة يشعر بها أن مسام جسمه أصبحت تنضج بالألفاظ التي يلوكها صد باح مس اء، ساعة أو ساعتين يسمع فيها نغمًا حلوًا، أو يرى جسمًا جم يلاً ي رقص، ويحيا في قلب الإنسان، وعواطفه، ويذوق طعم الفن المشبع الذي يجعل ك تحلق كالسحاب.

ترك مقعده في لحظة، وقفز في الأوتوبيس الذي أخذ ينطلق بسرعة متزايدة، ملقيًا بجسده إلى الوراء، وتاركًا قدميه تجريان ف وق الأس فلت بحركة الذي تعود هذا القفز. ثم خطرت له فكرة. ناديـ ة!! ... لم اذا لا يتصل بها؟ يشتاق إليها بكل كيانه. يريد أن يغ رق نفس ه ف ي عينيه ا الصافيتين السوداويتين، وأن يحس بأصابعها المتوترة تسكن بين يديه، وأن يشعر بمرفقه يلمس نهدها عندما يمشيان جنبًا إل ى جن ب، وأن يس مع كلماتها تفكر معه، وتحتد، وتحسم، وكأن جسدها النحيل يخف ي مع دنًا لا ينثني.

اقترب من أحد الأكشاك بحثًا عن تليفون. أدار الق رص بأص ابع ترتعش من اللهفة. يا ترى ستكون موجودة؟ سمع السماعة ترفع ت لك ... ثم لحظة صمت.

" ألو ". خفق قلبه بسعادة طاغية. عن دما ج اء ص وتها اله ادئ الخصب " أنا عزيز ".

لم يسمع شيئًا. تملكه خوف مفاجئ ثم جاءت نبراتها ترقص عبر الأسلاك. " عزيز ... حبيبي " اختنق صوتها بشيء كالدموع الصاعدة.

" أين أنت؟ "

" في القاهرة ... "

" لا أصدق. هنا، هنا في القاهرة ... أريد أن أراك الآن ... أين أنت؟ ... كيف ألقاك؟ عزيز ... أريد أن أراك ... لماذا تتركني هكذا طوال هذه المدة دون أخبار منك. لماذا ... لماذا؟ ... ألا تدرك؟. "

" أدرك يا نادية ... ولكن ماذا أفعل؟ أخشى على نفسي إذا اتصلت بك. إنهم يأملون أن أقع في أيديهم عن طريقك. تذكرت أن اليوم الثلاثاء وأنك ستكونين عند سعاد. فجازفت واتصلت بك ".

جاء صوتها يائسًا:

" لن أراك إذن " ...

" لا سنلتقي ".

" صحيح؟ ... كيف؟ ... ومتى؟ ... أحبك يا عزيز أحبك ".

" وأنا أيضًا أحبك يا نادية ... لم أكن أتصور أنني سأحب أحدًا مثلما أحبك ".

" عزيز ... عزيز ماذا أقول. نسيت ما أريد أن أقوله ".

" آه ... متى سنلتقي؟ "

" الآن ".

" الآن ... أين؟ "

" التفتي إلى جيدًا، سأقطع تذكرتين لحفلة الساعة التاسعة في سينما ريفولي. سأنتظر حتى بداية الفيلم. ثم أدخل في الظلام. سأترك تذكرتك على الباب باسمك ... أقترح أن تدخلي قبلي وأن تكوني في انتظاري ".

" وكيف ستخرج؟ " قالتها في شيء من القلق.

ابتسم في سعادة. عقلها كالحجر المسنون. يقظ، وقوي، ومباشر.

" سأخرج في الظلام ".

" اتفقنا ... سآخذ التذكرة من الباب وسأكون في انتظارك ".

" إلى اللقاء يا نادية ".

" إلى اللقاء يا حبيبي ".

أنزل سماعة التليفون برفق. وضع النقود أمامه على لوح الزجاج وانصرف.

اندس وسط الطابور الطويل الواقف أمام شباك التذاكر مخفيًا وجهه في الزحام. اللحظة تمر كأنها ساعات.

لمح طفلاً صغيرًا يرتدي جلبابًا ممزقًا يكشف عن كتفيه. كان يقف على الرصيف المقابل للسينما يتطلع إلى الأنوار المتألقة، وصورة شارلي شابلن الكبيرة، ويرتعد. عيناه تبرقان من حفرتين في الوجه المبلل برذاذ المطر. أحس عزيز بشيء كالقشعريرة تهز أحشاءه. مرت بينه وبين الطفل امرأة تسير بوجه كقناع من الألوان، تهف رائحة العطر من حولها لتسكر الأنوف ... وتلتفت إلى الرجل الذي يصاحبها، ويمشي إلى جوارها بغرور منتفخ، واضعًا يده على كتفها كأنه يسوق شيئًا يملكه. والمعطف السميك ... والغليون المنطفئ في ركن الفم.

أخيرًا جاء دوره. قبض على التذكرتين وباقي النقود في يده، وأسرع خارجًا من الطابور. انحنى إلى اليسار في الشارع الضيق المؤدي إلى التوفيقية.

ما زال أمامه أكثر من ساعتين. رفع رأسه نحو السماء ليشعر بالمطر المنعش يسقط على وجهه. إنه يحب المطر منذ الطفولة. أحد

الأشياء التي كانت تبرز التناقض بينه وبين الآخرين. في القرية المطر يحول الحواري إلى برك من الطين، والبيوت إلى كهوف رطبة تنز بالمياه، والناس إلى أشباح مرتعشة. وهو يحب المطر. أشياء رفيعة تعذب ضميره أحيانًا ...

سار عبر الشوارع تحت المطر، وبين الأضواء، والناس، وعربات الفاكهة والسيارات الفارغة ككلاب الصيد تبحث لنفسها عن مكان وسط الزحام، وكأنه في حلم، تصل إليه الأشياء رقيقة واهنة من دائرة خارجية على أطراف وعيه، يراها دون أن ينظر إليها، وترن أصواتها في أذنيه دون أن ينصت إليها، كأنه شرب حتى الثمالة فأصبح يتأرجح على الحافة الفاصلة بين الإحساس واللاإحساس، بين الوجود والعدم. كان جسمه ساخنًا تحت المطر، وقلبه يشع دفئًا نابضًا تحت الضلوع، يحترق احتراقًا خافتًا بوقود من اللحظات التي عاشها معها، وخيال اللقاء الذي يقتربان منه كالقطبين يجذبهما تيار لا يقاوم.

دار حول السينما في اللحظات الأخيرة كالمحموم. عقارب الساعة تسمرت كأقدام الذباب في الصمغ، أفكاره تنتفض كالشظايا المجنونة الدقائق لا تريد أن تمر ... يكاد يكسر زجاج الساعة ليحرك العقارب بأصابعه، ويروح ويجيء في الشارع الجانبي كمن ينتظر ولادة طفله ... ترى هل ستأتي؟ ... ربما عطلها شيء ... أو ربما أخطأ؟ ... ماذا سيفعل إذا لم يجدها؟ ... سيبحث عنها في سينما أخرى ... ولكن كيف؟ ... ستنتظره في الخارج إذا لم تجد التذكرة ... ولكنه لا يستطيع أن يتجول أمام السينمات. نظر في عقارب الساعة للمرة المائة ... بقيت دقيقتان طويلتان كالدهر. حياته معلقة على هذا اللقاء ... سيموت إذا لم يَلْقَها ... نعم سيموت حقًا ... قلبه سيتوقف ... لمح العقارب الفوسفورية

... العاشرة إلا خمس دقائق ... يمكنه أن يدخل الآن ... أسرع نحو الباب ... أخرج التذكرة من جيبه ... أبطأ خطواته، وأشعل سيجارته، ثم دخل إلى دائرة النور بخطوة متسكعة، يلتفت حوله، ويفحص الناس من طرف عينيه بنظرة تبدو ملولة، غير مكترثة، ولكنها مشدودة في داخله ا بأعصاب تسجل كالفيلم الحساس، لتلتقط وجهًا يعرفه في عشر اللحظة.

الآن يسير في الظلام خلف دائرة الضوء تتأرجح على الأرض. يرى بصعوبة. شيء من عشى الليل ... قصر النظر منذ الصغر ... لا يحب الظلام في هذه الحياة لأنه لا يرى جيدًا ... يخاف أحيانًا أن ينقضوا عليه دون أن يراهم ... الأيدي التي تمسك بذراعيك من الجانبين فتعرف أنك وقعت. مر بين المقاعد أمام الركب تصطدم بساقيه من الخلف ... ركب مدببة، وركب ناعمة ممتلئة ... أسقط نفسه في المقعد الخالي بين شبحين في الظلام.

" انتظر قليلاً حتى ترى جيدًا ... تمعن النظر حتى لا تخطئ ". رائحة النرجس الخفيفة ورأس مرفوعة في اعتزاز ... " هي ".

همس " نادية ".

" عزيز ".

مد يده واحتوى يدا صغيرة كقطعة من الثلج. سرت الحرارة تيارًا قويًا. ذاب الثلج المتراكم في لحظة القلق والخوف من عيون مجهولة، ذابت السدود، والقيود، وحسابات العقل، وحسابات الزمن، والتحم الجسمان والروحان عبر الأصابع المتشابكة في لحظة تلاشت فيها الدنيا من حولهما ... لحظة ممتدة لانهائية، قائمة بذاتها، منفصلة عن الأمس والغد، عن الماضي والمستقبل، منفصلة عن الحياة نفسها، وكأنها لحظة من حياة أخرى.

" نادية أحبك ".

" أحبك يا عزيز. أين كنت طوال هذه الأشهر؟ "

" في كل مكان. ومعك على الدوام ".

أحس بالجالسين خلفهما يتململون.

مال على أذنها ولمس بأنفه طرف شعرها كنسيج من الحرير المستتر، همس " نادية " ثم صمت.

الشاشة تضيء أمامهما. ينظران هناك إلى حيث الرجل العجوز. وعيناه بئران من الحنان تضيء في الوجه، وتنفذ إليهما، والأنغام تحلق في الظلام الصامت. إنهما وحدهما الآن وسط زحام الأشباح، لا يسمعان شيئًا سوى النغم، ولا يريان شيئًا إلا تلك الدنيا الواسعة التي تمتد أمامهما على الشاشة، تنتهي عند أطرافها، ولا تنتهي، مثل الحياة تمامًا بلا حدود ولا قرار. والرجل عجوز ولكنه ليس عجوزًا، يشتعل كالجمرة الأبدية التي لا تنطفئ، ويضحك ويبكي، ويحب ويرفض الحب لأن حبه أكبر من ذاته، أكبر من تلك الفتاة الغضة الحلوة ترقص كالفراشة البيضاء. يرتفع بهما فوق أمواج الأمل وينزل بهما إلى أعماق اليأس والضياع ... ولكنه يعود دائمًا وهما كالمسحورين، يحلقان كجسد واحد بعيدًا عن نفسيهما، عن الأيام، عن الزمن الذي يعيشانه، خارج حدود الذات الصغيرة. والصور تتلاحق على الشاشة، والأنغام تتردد في الصالة كالشوق المكتوم. وتيار يسري بين أيديهما في شحنات تروح وتجيء عبر أطراف الأصابع.

لم يدر ماذا جرى. أحس فقط أنه عند باب الصالة يتابع المنظر الأخير. الرجل العجوز ذو الشعر الأبيض يرقد في جوف الطبلة الضخمة كالطفل الهادئ، والفتاة تنطلق كالفراشة من الشرنقة، كالحياة تخرج من

الفناء، وعيناه كبيرتان فيهما حزن وفيهما عذاب ... وفيهما آمال الدنيا كلها وحكمتها.

خرج وحده مارقًا أمام شباك التذاكر المغلق بمربع من الكارتون الأسود، في قلبه حزن، وعذاب وآمال الدنيا كلها وحكمتها، وعلى كفه لمسة الأصابع الدافئة. رفع رأسه إلى السماء فرأى نجومًا تومض بيضاء بعد المطر. سار فوق الأسفلت المبلل بخطوات بطيئة كالذي لا يعرف لنفسه هدفًا ... يريد أن يمشي ويمشي حتى الصباح.

* * *

إنه يمشي، ويمشي دون توقف. الآلام تصعد في خطوط طويلة من القدم، عبر الساق إلى الفخذ. والنبض يتردد في أعماق اللحم بصدى طعنة مكتومة. وهو يريد أن يتوقف ولكن ساقاه تحملانه إلى الأمام، وكأنهما انفصلتا عن جسمه، وأصبحتا تتحركان بقوة ذاتية. يمشي ويمشي فوق التلال، وعبر الوديان الضيقة والمدقات، وشارع أسفلتي طويل يمتد عبر الرمال حتى الأفق. يمسك فخذيه بيديه حتى تتوقفان، دون جدوى. ويحاول أن يجلس على الأرض، ولكن عضلاته لا تستجيب يسير كالرجل الميكانيكي يوجهه مركز بعيد في عالم العلم الخرافي.

فجأة لم يعد وحده، فإلى جواره ظهر رجل، يرتدي عفريتة زرقاء، وأزرارًا في لون النحاس اللامع، وحذاءً، أسود غليظًا. الرجل وجهه غريب، كلما التفت إليه بطرف عينيه رأى ملامح جديدة يحس أنه رآها من قبل ولكنه لا يعرف أين. والعينان تتبدلان في الوجه أسرع من الملامح. فالعينان الآن كعيني أمه فيهما زرقة عميقة، يطل منهما سؤال قلق، والوجه أبيض متشح بالسواد. أحس بملابسه ترفرف في الهواء بيضاء واسعة، وقرص معدني يصطدم ببطنه كلما ارتفع أو هبط على

الطريق. العالم الخالي من كل شيء، سوى الطريق، والسماء، والأفق الممتد، لم يعد خاليًا. امتلأ بالناس يروحون، ويجيئون، ويمرحون أمامه، ويتطلعون إلى وجهه، في فضول ملح، وعلى الأسفلت جثة تنام في بركة من الدماء، والناس يصيحون ويرفعون قبضاتهم في الهواء، وجمع صغير يدفع بسرير على عجلات من مطاط ينام عليه جسد ناحل تطل منه عينان سوداوتان تملآن المحجرين، وطفل يجلس على الأرض بـ بطن منتفخة يسيل منها سائل أصفر من ثقب صغير، ورجل عملاق يحاول أن يلحق به رافعًا في يده شيئًا كالثعبان الأسود، ووجه غريب لا تعرف إن كان وجه رجل أو امرأة، إنسان أو حيوان، يشير إليه ويضحك بملء شدقيه، ورنة العصا على طبلة المسحراتي، وصوت امرأة نبراته معدنية قاسية تصرخ مع كل دقة:

" اقتلوه " ... " اقتلوه " ... ودنانير من الذهب تطير في الهواء وتسقط عند قدميه.

أحس بيد تهز كتفه، ففتح عينيه بشعور من يسبح في نهر من العسل الأسود اللزج. أعماه ضوء الكهرباء، ففرك عينيه بقبضته، وهز رأسه من ناحية إلى أخرى، كمن يطرد شيئًا ثقيلاً يجثم فوق عقله. التفت حوله، فرأى محمدًا واقفًا بجوار المنضدة.

" ما لك تصرخ هكذا؟ "

" أصرخ؟ "

" نعم سمعتك وأنا أمر أمام الباب. ففتحت ودخلت ".

جلس عزيز على حافة السرير.

" وما الذي جاء بك الليلة "؟

" أنا نوبتجي " ... صمت لحظة " لماذا كنت تصرخ؟ "

" كابوس ... كابوس ... غريب ... ومفزع ... قطعة من حياتي عشتها كأنني أتحرك على مسرح من صنع الشيطان ".

" يا دكتور عزيز ... "

" قل لي يا زميل ... أنا أحتاج إلى من يقول لي يا زميل ".

" يا زميل " ... تردد لحظة ... "سأخرج الآن دون أن أغلق الباب، وسأعود إليك بعد قليل. يستحسن أن أطفئ النور حتى لا يلاحظ أحد أن زنزانتك مضاءة ".

خرج من الباب، ورده وراءه دون أن يغلقه. سقطت الحجرة في الظلام من جديد. عاد بعد قليل. لمحه عزيز في فتحة الباب يدفعه بقدمه، وهو يحمل في كل يد شيئًا التفت أصابعه حوله. أعاد الباب إلى وضعه بكعب قدمه.

" خذ ... كوبًا من الشاي ".

مد عزيز يده وتحسس طريقه حتى اصطدمت أصابعه بالزجاج الساخن.

" سيجارة ".

" شكرًا لم أعد أدخن ".

" سيجارة واحدة. لن تضر ".

وضع كوب الشاي على المنضدة أمامه، وأخذ منه السيجارة. رأى ملامحه المنحوتة في دقة تظهر وتختفي في ضوء الشعلة. نفث نفسًا عميقًا بملء صدره.

" متى توقفت عن التدخين؟ "

" منذ لحظة القبض علي ".

" لماذا ...؟ "

" حتى لا أحتاج إلى شيء يمكن أن يمنع عني ".

" منعت عنك أشياء كثيرة تحتاج إليها ".

" الدخان متعب عندما تحرم منه ".

" أريد أن أتحدث معك. هل لديك مانع؟ "

" بالعكس، ولكن ألا تخشى أن يراك أحد؟ "

" ربنا يستر " سكت كأنه يسترق السمع ثم قال:

" يا دكتور عزيز، أقصد يا زميل عزيز، فيم تخصصت "؟

" لست متخصصًا. أنا ممارس عام ".

" ولماذا لم تتخصص؟ "

" اعتقلت ".

" هكذا مبكرًا؟ "

" نعم. أول مرة كان سني ٢٤ سنة ".

" ووالداك ماذا فعلا "؟

" ماذا سيفعلان؟ تعودت أن أختار طريقي ".

" ولكنهما يتألمان ...؟ "

" طبعًا يتألمان ".

" وماذا يقولان لك "؟

" أحيانًا لا شيء، وأحيانًا عندما يفيض بهم الكأس يقولان أنني لا يهمني أحد. وأنه في سبيل ما أريد أضحي بهما. ومع ذلك أحس أحيانًا أنهما يبذلان جهدًا لكي يفهما. عندما تركت المستشفى وذهبت إلى الإسكندرية، ودعني والدي على المحطة. كان يمشي إلى جواري على الرصيف يتحدث عن أشياء أخرى. مددت يدي من النافذة وسلمت عليه، فلم أتعود طوال عمري أن أقبله، قال:

" يا بني أتمنى لك التوفيق ". ثم استدار ومشى دون أن يلتفت وراءه.

" بالمناسبة رأيته منذ أسبوع ".

" أين "؟.

" هنا ... كان يحضر إليك الملابس ".

" وكيف عرفت أنه والدي "؟

" يشبهك تمامًا على كبر ". ضحك في الظلام وقال " أنيق، ووسيم، وشعره أبيض ".

سأله عزيز في قلق:

" وكيف حاله "؟

" بدا لي عاديًا ".

ساد الصمت بينهما. اعتدل محمد في جلسته على المقعد فقال عزيز:

" اجلس على السرير، فهو أكثر راحة ".

لم يلتفت إلى كلامه كأنه انشغل بشيء آخر.

" قل لي يا زميل. ما الذي أتى بك إلى هنا "؟

" أنت تعرف أكثر مني ".

جاءه الصوت معاتبًا في الظلام.

" لا تسخر مني، أنت تعرف ما أقصد. أريد أن أعرف ما الذي جعلك تترك كل شيء لتعيش هذه الحياة. شيء يشغلني منذ مدة أفكر فيه وأتحين الفرصة لأسلك ".

" لا أعرف بالضبط يا محمد ".

" لا تعرف بالضبط!! تتحمل كل هذا دون أن تعرف بالضبط؟! ".

صمت عزيز كأنه يفكر فيما يقول. جاءت صوت أنفاسهما في الظلام عميقة، طويلة، تختلط بدفء.

" أشياء كثيرة يا محمد. أشياء كثيرة تقودك من خطوة إلى خطوة كالمصير، كالقدر المحتوم ".

" القدر إذن "؟

" لا ليس القدر ".

" لا أفهمك. إنه القدر، وليس القدر ".

" في كل خطوة كان يمكن أن أتوقف ".

" ولماذا لم تتوقف؟ "

" لأنني أردت أن أسير "؟

" ولماذا أردت أن تسير "؟

" لأن شيئًا في داخلي رفض أن يتوقف ".

" شيء في داخلك؟ أنت تحيرني ".

" أحيانًا أحتار أنا نفسي ".

" قل لي. ما هو هذا الشيء؟ "

" نطفة ... نطفة تنبض، وتشتعل، وتتوهج. بذرة حية، بذرة لا ترضا بالسكون، والسكوت على ما يجرى. بذرة الله ".

" أنت إله إذن. فهمت ".

" لا تغضب. أنا لا أهزأ منك. أنا أبحث معك ".

" تبحث. أما زلت تبحث؟ "

" وسأظل أبحث عن إله فينا ".

" وهل فينا إله "؟

" ليس كلنا "؟

" إذن البشر نوعان "؟

" إذا أردت ".

" أناس فيهم إله. وآخرون ليس فيهم ".

" لا ليس بالضبط. أناس فيهم إله، وآخرون مات فيهم الإله فأصبحوا عبيدًا ".

" وهذه النطفة الإلهية. ما هي؟ "

" نطفة عذاب ".

" نطفة عذاب ؟".

" نعم نطفة عذاب، نطفة تتمرد على السكون، والجمود، والأشياء المألوفة في الحياة. والمعاني المتداولة، والحقائق الأبدية التي ليست حقائق، والأنظمة التي تسحق الإنسان، وتقضي على الإله فيه ".

" وماذا أيضًا "؟

" شيء يدفعك إلى البحث عن الألم، إلى اختراق الحصار المضروب حولك، إلى تمزيق ستار وراء ستار، وقناع خلفه قناع لتصل إلى الحقيقة ".؟

" ولكن أغلب الناس في دنيانا يتألمون ".

" ويهربون منه إلى النسيان، والزيف، وراحة المخدرات، والتمني بحياة أخرى في السماء ".

" ألا تؤمن بالحياة الأخرى "؟

" أومن أن هذه الحياة ملكنا. والحياة الأخرى ملك السماوات ".

" حدثني يا عزيز. حدثني عن الإله في الإنسان ".

" يجعلك تتحدى، وتقاتل، وتخترق سجن الحاضر إلى مروج المستقبل، لتستكشف وتعرف ".

" تعرف ماذا "؟

" لتعرف أين نحن ذاهبون ".

" وما الفائدة "؟

" حتى لا يكون كالقشة في مهب الرياح ".

" وهل هذا ممكن؟ "

جاء صوت عزيز هادئًا حزينًا:

" ليس بعد ".

" متى إذن "؟

" عندما يتحقق حلم الإنسان ".

" وما هو هذا الحلم "؟

" حلم غريب، وعظيم، يحلق في خيال مجنون ".

" لم أعد أتتبعك ".

" عندما ينتقل الإنسان من عهد الضرورة إلى عهد الحرية "؟

" أنت تقول كلامًا جميلاً لا أفهمه ".

" لست أنا الذي قلته ".

" من قاله إذن "؟

" رجل كان يحلم ".

" وما فائدة الأحلام ".

" إذا عاشت، وإذا مات الناس من أجلها، تحققت ".

" وهل أنت على استعداد أن تموت من أجل الأحلام ".

" أنا ربما ... ربما ... الآن لا أخاف الموت ".

" أنت وحدك. ماذا تستطيع أن تفعل ".

" لست وحدي. إنهم كثيرون ".

" أين "؟

" في كل أنحاء العالم، في الوديان، والمروج وعند قمم الجبال. في أزقة المدن، وفوق أرض الحقول ".

ساد الصمت طويلاً. خرج صوت محمد من أعماق الظلام.

" أنا ... لم أعد كما كنت منذ عرفتكم ".

" لماذا "؟ ...

" لا أعرف ".

" ستعرف في يوم من الأيام ".

" كيف "؟

" لأنك تبحث عن المعرفة ".

" وأين أجدها "؟

" في كل مكان ".

" في كل مكان "؟

" نعم ... في الحياة وفي الناس ... وفي الكتب ".

ردد محمد الكلمات في صوت خفيض.

" الناس والكتب ... الناس والكتب ... "

لم يعد أحدهما يتكلم. رقد عزيز فوق السرير وأغلق جفنيه في إعياء.

جاءه صوت محمد كأنه يأتي من بعيد.

" هذه النطفة يا عزيز، في الجسم، أليس كذلك "؟

" في الجسم؟. نعم إنها في الجسم ".

" أين بالضبط؟ ... في البطن؟ ".

" لا بين القلب والمخ ".

" ما اسمها "؟

اعتدل عزيز في جلسته واقترب منه.

" اسمها "؟

" نعم اسمها ".

" اسمها مركز الصدق ".

رقد على السرير من جديد. أغلق عينيه، وأسند ساقه اليمنى على الجدار. جاءته خشخشة خفيفة كأن شخصًا يتحرك خطوتين في الحجرة. ثم سمع صوت الباب يغلق في هدوء، والمزلاج يبيت في مكانه بصدمة خفيفة تكاد لا تسمع. مد أصابعه إلى جبهته ليزيل عنها جسمًا صغيرًا طريًا يلسعه.

* * *

أشعل عودًا من الثقاب، وأضاء الشمعة. التيار الكهربائي انقطع ويأبى أن يعود.

جلست أمامه على المكتب. رأى عينيها واسعتين تبرقان في اللهب الصغير الهادئ. الموسيقا تصل إليهما خافتة من الراديو المختفي في الظلام، بأنغام حزينة حلوة تكاد لا تسمع، كدقات القلب تحس بوجودها ولا تسمعها، والكمان يحدثه بأنغام لا يمل من سماعها. الكتاب مفتوح أمامها، والورق الأبيض لا زال أبيض لم يسطر عزيز عليه كلمة. أزاح القلم جانبًا وقال:

" ليست بي رغبة إلى العمل ".

رفعت رأسها عن الكتاب ولمعت خصلتها البيضاء، كالضوء المفاجئ:

" لماذا يا عزيز "؟

" لا أدري ".

" شيء يشغلك "؟

" نعم ".

" ماذا يا ترى "؟

ارتبك قليلاً وصمت. قالت في صوت رقيق:

" ماذا يا عزيز "؟

" أنت ".

" أنا " ندت منها الكلمة بشهقة خفيفة.

ساد الصمت بينهما، ظلت ساكنة لا تتحرك، وانشغل هو برسم دوائر صغيرة على الورق الأبيض. ثم نظرت إليه كأنها قررت شيئًا وقالت:

" لماذا سكت "؟

ظل صامتًا كأن حاجزًا في داخله يحول بينه وبين الكلمات. قال:

" أريد أن أمشي. ما رأيك في أن ننزل "؟

أغلقت الكتاب وقالت:

" هيا بنا، سئمت الحجر المغلقة. أريد أن أرى السماء المفتوحة ".

جنبًا إلى جنب في الجو الدافئ المشحون بنسمات الصيف ورائحة الياسمين تقود خطواتهما كأنهما مدفوعين برغبة مجهولة نحو لقاء محتوم.

" يا عزيز لماذا أنت صامت "؟

" إنني أعيش اللحظة ".

" بالصمت "؟

" بالوجود ".

" بالوجود "؟

" بالليل، والأشجار، وإحساس بأنك معي ".

" أتسمع صوت الكروان "؟

" جميل وحزين ".

" لماذا "؟

" لأنه وحيد ".

" وما هي الوحدة "؟

" قولي لي أنت، ما هي الوحدة "؟

" أشياء كثيرة ".

" مثلاً "؟

" أن تحيا وسط الزحام، ولا تجد من يفهمك ".

" وهل أنت وحيدة "؟

" نعم. أشعر أن الناس لا يفهمونني ".

" لماذا "؟

" لا أدري. ربما لأنني أريد شيئًا جديدًا في الحياة ".

" وماذا تريدين "؟

" أن أعيش بقلبي، وعقلي دون قيود ".

" وما الذي يمنعك ".

" الناس ".

" لماذا "؟

" لأنني امرأة ".

" ولهذا تشعرين بالوحدة "؟

" نعم ".

" ولكنك مخطئة ".

" مخطئة؟ لست مخطئة. أنت لا تعرف حياة المرأة ".

" المرأة والرجل سواء ".

" ليس صحيحًا. النظرة إليهما تختلف ".

" إلى حد ما. ومع ذلك فهما سواء ".

" أنت لا تعرف " قالتها في شيء من الضيق.

" بل أعرف ".

" ماذا تعرف؟ المرأة وحدها تعرف ما تعانيه ".

" ربما. ومع ذلك أعرف أنك مخطئة ".

" مخطئة ... مخطئة ... كلمة ترددها بسهولة ".

" ليست كلمة، بل اقتناع ".

" اقتناع بماذا "؟

" بأنها ليست مشكلة رجل وامرأة ".

" ما هي المشكلة إذن؟ ".

" إنها مشكلة صدق ".

" الناس لا يحبون الصدق إذن "؟

" ليس كل الناس ".

" أغلب الناس إذن ".

" أغلب الناس يحبون الصدق. قد يخافونه، وقد يجهلونه، ولكنهم يبحثون عنه ".

" عن الصدق ".

" نعم عن الصدق، عن الحقيقة ".

جلسا على سور منخفض من الحجر الأبيض. النيل ينساب صد امتًا في ضوء القمر، أحس بها قريبة منه تلمسه ولا تلمسه. اس تطرد ف ي هدوء:

" المعذبون في الأرض أجسادهم عارية وبط ونهم خاوي ة. وه م يبحثون ".

" أعرف هذا أكثر منك ".

" لماذا إذن تتحدثين عن الوحدة "؟

" لأنني أشعر بأنني وحدي. بأن لا أحد يفهمني ".

" أنا أفهمك ".

" ولا حتى أنت ".

" أنا أعرف حقيقة واحدة ".

" ما هي "؟

" أنني كنت وحيدًا. أعيش خلف جدران مغلقة داخل نفسي ".

" جدران ... من صنعها "؟

" ليس أنا ".

" من إذن "؟

" الأصل، والتقاليد، والأشياء الموروثة. والذين يملك ون أش جار الفواكه، وأحواض الزهور، والمداخن العالية ".

" ولكنني لست مثلك. لم نعرف لحظة من الراحة في حياتنا. والدي يكدح منذ الصبي ".

" ومع ذلك نحن من فصيلة واحدة ".

" فصيلة واحدة؟ ماذا تقصد "؟

" ضحك وقال:

" أنا بورجوازي كبير، وأنت بورجوازية صغيرة ".

" أكره هذه الألفاظ ".

" لماذا؟ أليست حقيقة "؟

" لا ليست حقيقة. طوال عمري كنت ثائرة ضد أسلوب حياتنا ".

" ثائرة أم متمردة "؟

صمتت كأنها تفكر.

" لا أعرف الفرق بالدقة ".

" التمرد ثورة على وضع الإنسان الذاتي. والثورة تمرد من أجل الآخرين ".

صمتت من جديد. جاءهما صوت صياد يغني في الظلام: " على بلد المحبوب وديني " وضع يده على كتفها وتلاقت عيناهما في نظرة طويلة. لم يعد يشعر بشيء سوى أنها معه، وأن قلبه يدق دقات سريعة. أحس بشعرها يلمس وجهه، وبرائحة خفيفة من النرجس تملأ أنفاسه. قالت في اضطراب:

" يا عزيز ... لا تصمت هكذا. فيم تفكر "؟

" فيك ".

" أنت لا تفكر في. أنت تفكر فيما أقول "؟

" ماذا تقصدين "؟

" لا شيء. لا أقصد شيئًا. هيا بنا. لقد تأخرنا ويجب أن أذهب ".

" انتظري قليلاً. لا تذهبي الآن. أريد أن أعرف ماذا تقصدين ".

" اتركني وشأني. لا أقصد شيئًا. أنا متعبة وأقول أي شيء ".

تسلل إلى صوته نبرة رجاء.

" نادية " ...

سكتت ولم ترد. ضغط على كتفها، وأحس بها تلتصق به لحظة، ثم ابتعدت وقالت في صوت حاسم:

" ينبغي أن ننصرف الآن حتى أعود إلى البيت " وقفت على قدميها. أمسك بيدها وقال:

" يا نادية انتظري قليلاً. هناك ما أريد أن أقوله لك ".

" الوقت متأخر. سنلتقي باكرًا في الاجتماع ".

" ولكنني لن أستطيع أن أتحدث معك في الاجتماع ".

" لماذا؟

" لأنه أمر يخصنا نحن الاثنين فقط ".

" يخصنا "؟؟

" نعم ".

بدا عليه التردد.

ضحكت بعصبية وقالت:

" ماذا دهاك؟ لم أعهد فيك التردد. أهي مسألة خطيرة إلى هذه الدرجة؟ يا عزيز ... لا نستطيع أن نبقى هكذا طول الليل. قم ولنتكلم أثناء الطريق ".

سارا جنبًا إلى جنب متباعدين، وبدا على كل منهما أنه منشغل عن الآخر. كانا ينظران إلى الطريق، وإلى السماء، وإلى الأشجار كأنهما يتفاديان النظر إلى بعضهما. مرت الدقائق مفعمة بالتوتر البارد، كالجدار يفصل بينهما. عبرا كوبري الملك الصالح، ومستشفى فؤاد الأول، وانحنيا إلى اليسار في اتجاه النيل. رنت خطواتها الحزينة بصوت أجوف على الرصيف. كان الشارع خاليًا من المارة ما عدا جمعًا صغيرًا من الرجال أخذوا يحملقون فيهما بفضول مستفز. أسرعا الخطوات حتى وصلا إلى

باب المنزل الصغير ذي الطوابق الثلاثة. دلفا في البهو الطويل نحو بئ ر السلم. مد يده إليها في صمت فسلمت عليه بحركة سريعة متعثرة كأنه ا تريد أن تتفاداه. استدارت لتصعد السلم. قال:

" نادية. تصبحين على خير ".

قالت نادية بنبرة فيها مسحة من الحزن:

" تصبح على خير يا عزيز ".

اقترب منها، وفجأة وجد نفسه يحتضنها بذراعيه. أح س بجسد دها أمواجًا حارة ترتعش، وتقاوم ذراعيه المغلقتين حولها. قالت في صوت فيه أسى عميق:

" عزيز أرجوك اتركني ".

فك يديه من حول خصرها، ووضعهما فوق كتفيه ا. رأى عينيه ا السوداوتين الواسعتين في وجه شاحب أبيض، مرف وعتين إل ى وجه ه كالفريسة تنتظر الطعنة.

قال في صوت هادئ تخللته نبرة من الاندهاش، كمن يكتشف ش يئًا لأول مرة.

" ولكن ... نادية ... أنا أحبك ".

تجمدت في مكانها فجأة. رأى عينيها واس عتين تض يئان بحن ان عميق. اقتربت منه في حركة مندفعة، سريعة، وأحس بشفتيها الملتهبت ين على وجنته، ثم استدارت وصعدت السلم كأنها في سباق. توقف ت عن د الدور الأول ... مالت فوق الحاجز ورأى ملامحها المشرقة. قال ت ف ي صوت هامس دافئ النبرات:

" وأنا أحبك أيضًا يا عزيز ".

ثم انطلقت إلى أعلى بعيدًا عن أنظاره واختفت. سمع صوت الباب يفتح ويغلق، فخرج من بئر السلم، إلى البهو ثم إلى الشارع، وأخذ يمشي بخطوات سريعة كأنه يطير.

* * *

هذا الشعور بأن جسمه أصبح خفيفًا، وكأنه يطير، من أين يأتي؟ كيف يمكن للإنسان أحيانًا أن يفقد الإحساس بثقل جسمه، أن يصبح كالروح بلا جسد؟

رقد على السرير واضعًا يديه خلف رأسه، ورأى صدره يعلو ويهبط في حركته المنتظمة. لمح جذعه، وساقيه الممدودتين فوق المرتبة المشقوقة عند جزءها الأسفل، كاشفة عن أحشاء من القطن الزهر، تتدلى في انكسار. إنه يستطيع أن يلمس لحمه عند الفخذ، وعند البطن، وأن يجس عضلات ذراعيه بيديه. ومع ذلك لم يعد يشعر أن لجسمه ثقلاً، وكأن روحه تحلق بعيدًا عن الجسم، بل كأنها خرجت من لحمه، كما تخرج الفراشة من الشرنقة لتطير في الهواء. فلم تعد لجسمه أهمية الآن. لم يعد يشغله الأكل، أو النوم، أو الملبس أو مشاكل الحياة اليومية، أو مصير الذين تركهم، أو حتى مصيره.

كل ومضة من ومضات العقل، وكل قفزة من الخيال، تتركز الآن للتنبؤ بما هو آت، والاستعداد له. لا شيء يهم سوى أن ينتصر، وأن يسيطر على نفسه، أن يسيطر على جسمه، ليصبح خفيفًا في ميزان الصراع. هذا الشعور بأن جسمه لم يعد له ثقل، ولم يعد له وزن ليس جديدًا عليه، أحس به من قبل وهو يسير عبر الطريق الطويل الذي جاء به من البيت الكبير بحجراته الوثيرة، إلى هذه المساحة الصغيرة من البلاط الخشن بين أربعة جدران. أحيانًا كان يفقد الشعور بثقل جسمه

تمامًا، وأحيانًا كان يفقده جزئيًا، لم يعد يذكر كل المرات التي انتابه فيها هذا الشعور، كل المرات التي حلقت فيها نفسه حرة طليقة يحملها الهواء، فهناك لحظات طواها النسيان.

ولكنه يرى في ذهنه الآن صورًا كثيرة، سلسلة طويلة من اللحظات قادته لحظة بعد لحظة إلى هذا المكان، يرقد فوق سرير بين أربعة جدران، هذا المكان حيث يشتد الصراع ويحتدم، ويفرض عليه أن يختار بين جسده، بين ذاته، وبين ما يؤمن به ويعيش من أجله، بين احتياجات الحياة ورغباتها، وبين النفس القوية التي تأبى وترفض، بين الأشياء التي ستحيا من بعده وبين الجسد الذي يشتاق، ويتعطش إلى الارتواء، بين الأمل في حياة له، وبين الأمل في حياة للآخرين، بين الذين يحبهم لأنهم جزء من ذاته، وبين الذين يحبهم لأنه جزء من ذاتهم، بين معاني الحياة العادية، وبين معان أخرى كبيرة لا يستطيع أن يلمسها بيديه، أو يراها بعينيه، ولكنها موجودة في قلبه وعقله، تنبض بشيء أقوى من ضربات القلب، وأقوى من ومضات العقل، لأنها دخلت في صلبه وكيانه، وتغلغلت إلى غريزته وإحساسه، لأنها اجتازت الطريق الطويل، من المخ، إلى القلب إلى الإحساس، إلى النقطة الهلامية الصغيرة التي لا يستطيع أن يحدد مكانها، ولكنه يعرف أنها موجودة، ويشعر بها تنتفض كالخلية الضوئية عندما يشتد العذاب، ويضيق حصار كلاب الصيد حوله.

لحظات كثيرة على الطريق قادت إلى هذه اللحظة التي يشعر فيها أنه سيد نفسه، سيد جسمه، يتحكم فيه كما يريد، يطلب منه أن يصمت فيصمت ويطلب منه أن يتحمل فيتحمل، ويطلب منه أن يجوع فيجوع، ويطلب منه أن يثور فيثور، ويطلب منه أن يتكلم، فيصرخ بأعلى صوته.

طريق طويل يمتد إلى الوراء. وهو لا يعرف بدايته، كالشريط الأسود يختفي خلف التلال الصفراء. سلسلة طويلة من اللحظات سارت به خطوة بعد خطوة إلى اللحظة الحاسمة التي يشعر فيها أنه فقد جسمه، ليجد نفسه أنه استغنى عن كل شيء، ليعيش كما يريد هو لا كما يريد الآخرون. إن حياته ينبغي أن يصنع منها شيئًا لا يفنى عندما يفنى هو، شيئًا يؤمن به، وينسى من أجله كل شيء آخر.

عندما وقف وحده في المشرحة أمام الجثة الممدودة فوق الرخام الأبيض يحيط به الجمع الصغير، ويرى العيون مصوبة إليه كنصل السيوف، ويسمع الجموع في الخارج، تتلاطم موجاتها كالبحر، وترتفع أصواتها في غضب عميق، كان جسمه ثقيلاً فوق الأرض، باردًا فوق مربعات البلاط، تمامًا كالجثة الممدودة أمامه. فسار عبر العنبر الكبير يجر قدميه، ويحس قلبه كالحجر تحت الضلوع.

لم يكن يعرف أين هو ذاهب، بل لم يكن يريد أن يذهب، ولكنه خرج من الباب إلى الزحام، فالتصق جسمه بأجسام الآخرين. ترك العنبر الكبير بسقفه العالي، والجثث تمتد في صفوف داكنة فوق الرخام الأبيض، والجدران العالية والنوافذ المغلقة، والصمت، ولم يعد ثانيًا. ومنذ ذلك اليوم قادته خطواته لحظة بعد لحظة إلى لحظة الاختيار الحاسمة.

الحجرة الصغيرة كما هي لم تتغير، وعماد كما هو لم يتغير. والشمس ساطعة تنساب من النافذة المفتوحة، وتلمع فوق المرآة وتغرقه بإحساس لذيذ من الدفء. وأوراق الشجر ترتعش تحت أشعتها المضيئة كالأسماك الصغيرة الحمراء أو الصفراء.

كانا جالسين على السرير يناقشان في جد وهدوء:

" يا عماد أراك في هذه الأيام وكأن شيئًا يشغلك ".

تنهد والتفت بعينيه الساهمتين إلى عزيز:

" أشياء كثيرة يا عزيز ... وصور من طفولتي تلح علي ".

" طفولتك "؟

" كنا في ميت غمر. والدي كان تاجر غلال. أفلس، ثم مات فجأة وتركنا لا نملك سوى البيت الذي عشنا فيه. فباعت أمي البيت، وجاءت بنا إلى القاهرة. تحملت وحدها أعباء العائلة طوال هذه السنين. أخي الكبير أصبح طبيبًا. بعد أن تخرج، نفض يده عنا وتركنا ولم يقدم أدنى مساعدة إلى والدتي ".

" ما الذي فكرك بكل هذا "؟

" جاء دوري أنا ".

" ماذا تقصد "؟

" سأترك البيت ".

" إلى أين "؟

" لا أعلم ".

ابتسم عزيز وقال:

" أنت تمزح ".

" لا. لا أمزح. المستقبل مجهول بالنسبة لي ".

" ومن منا يعرف المستقبل "؟

" أقصد أن حياتي ستتبدل تمامًا ".

" لماذا "؟

" سأعطي كل جهودي للحركة ".

صمت عزيز، والتفت ناحية النافذة المفتوحة. أوراق الشجرة ما زالت ترتعش كالأسماك الملونة في ضوء الشمس، وأشياء رفيعة كأرجل النمل تتحرك في داخله، وتنمو كالدبيب المنتظم.

التفت إلى عماد وقال:

" ولكن يبدو عليك الحزن ".

" لست حزيناً. ولكنني أفكر في أشياء ".

" فيم؟ ".

" في أمي ".

" ماذا ستفعل "؟

" سأتركها، أمر لابد منه ".

" وماذا تقول هي "؟

" لا شيء. إنها تفهم ماذا يحدث في هذا العالم الغريب. فهي تعيش في عالمها الخاص. تخشى علي من البرد، ومن المرض، وتسألني من سيرعاني. وتخشى علي من رجال يأتون في الفجر ومعهم قيود من حديد ولا تفكر في غير ذلك ".

" ليس هناك حب مثل حب الأمهات. الحب الوحيد الذي يسمو فوق كل شيء ".

ضحك عماد ضحكة لم يعد فيها رنين الطفولة، كأنه يريد أن يطرد أحزانه وينساها. استطرد عزيز:

" والشعر يا عماد "؟

تنهد من جديد وقال:

" لا أعرف ... لا أعرف ... " صمت لحظة ثم قال:

" وأنت يا عزيز. ستكون لك وحشة ".

" ألن نتقابل "؟

" ربما عندما أحضر إلى القاهرة ".

" إذن ستسافر "؟

" نعم ".

قام عزيز ووقف إلى جانب النافذة يحملق في الخارج، ساد السكون في الحجرة الصغيرة كأنهما يحلقان بأفكارهما إلى مكان بعيد.

التفت فجأة إلى عماد وقال في هدوء:

" ولماذا لا أذهب معك "؟

" أتظن أنها فسحة "؟

" فسحة؟! ... أعرف أنها ليست فسحة ".

" أم مغامرة "؟

" وما العيب في المغامرة؟ ... المغامرة هي التي تكسر قيود الحياة العادية ".

" ليس دائمًا ".

" طبعًا ... ولكن الخوف من المغامرة، من الخسارة يحول دون أن تحقق أي شيء ".

" ولكن روح المغامرة ليست كافية ... قد تكون مجرد نزوة ".

" أنت تعرف أنه لا ينقصني شيء ... كيف يمكن أن أنسـ ـاق وراء مجرد نزوة ".

" على العكس، أمثالك يبحثون عن الهروب ".

" مم؟ ".

" ربما من رتابة الحياة ".

" وما العيب في هذا "؟

" لا يصلح كدافع عندما يطول الزمن ".

" إذن أنت معترض على الفكرة "؟

نظر إليه عماد في شيء من الدهشة.

" أجاد أنت فيما تقول "؟

أجابه في شيء من الحدة:

" ماذا تظن؟ أنني أتسلى؟ ".

" هل فكرت فيما تقوله ...؟ هل فكرت في الثمن الذي ستدفعه "؟

" وهل يعرف كل منا ما هو الثمن الذي سيدفعه. هل تعرف أنت ما هو الثمن الذي ستدفعه؟ ".

صمت عماد، وانشغل في تتبع نحلة أخذت تطن حولهما.

" الجو في الخارج جميل. ألا تريد أن تخرج قليلاً "؟

" لا ... لم تجب على سؤالي "؟

" أنت مصر ... نعم أعرف الثمن ... "

" ليس صحيحًا. تعرفه إلى حد ما ... ولكن ... "

" وأنت "؟

" أعرف شيئًا واحدًا. أبحث عن آفاق أوسع ".

" ولكنك لم تجرب قسوة الحياة ".

" صحيح. إذن يجب أن أجربها ".

" وهل ستتحملها "؟ ...

" هذا أمر متروك للأيام ... ولكنني أعتقد أنني أستطيع ".

" والجوع ... والمطاردة ... والبعد عن البيت المريح ... والأهل".

" أنت لا تفهم ".

نظر إليه عماد بشيء من الغضب.

" ما الذي لا أفهمه؟! لقد جربت كل هذا ... مرت علينا أيام لم نكن نجد فيه ما نأكله ".

" الفقراء لن يخسروا شيئًا سوى القيود " قالها عزيز في شيء من السخرية.

" بالضبط. قيود الاستعمار ... والاستغلال ".

" وأنا سأخسر الكثير أليس كذلك "؟

" حتمًا ".

" ومع ذلك لا أشعر بما تقوله ".

" أنت لا تشعر لأنك لم تجربه ".

" ربما. ولكنني جربت أشياء أخرى. أقابل الموت في كل لحظة ... وأتساءل عن جدوى الحياة ".

" تأملات فلسفية ".

" لكل منا طريقه. فالبعض يدفعهم الجوع، والآخرون تدفعهم ما تسميه أنت التأملات الفلسفية، أو أحلام الحياة. ولكنني أسألك ماذا ينبغي أن يفعل الإنسان بحياته؟ يأكل، ويشرب، ويستمتع، ويكسب مالاً، ويربي عيالاً، ثم يموت "؟

" لا يجب أن يفعل أكثر من هذا ... أن يترك شيئًا من بعده، أن يغير فيما حوله ".

" هل تأملت عيون الأطفال الذي يجرون في الحواري "؟

" أراها كل يوم ".

" وهل رأيت طوابير المرضى أمام القصر العيني "؟

" أحيانًا أمر أمامهم. لماذا تسأل "؟

" وهل رأيت شابًا طارت ساقاه من قنبلة غادرة "؟

" لا ... ماذا تريد أن تقول "؟ ...

" وهل رأيت أسعد جثة فوق منضدة المشرحة "؟

" أسعد؟ ... من هو أسعد هذا ... ماذا تريد أن تصل إليه " ...؟

" أشياء لم أعد أطيق أن أراها وأسكت ".

" ولكنك لا تسكت ... أنت تعمل ".

" ولكنني أريد أن أعمل أكثر. قل لي هل يمكن أن ينتهي عذاب الإنسان في بلدنا "؟ ...

" سينتهي ... في يوم ما ... وفي كل مكان ".

" إذن لماذا لا تريد أن نسافر سويًا "؟

" أنا؟! على العكس ... ولكن لماذا لا تنتظر حتى تفكر "؟

" ومن قال لك أنني لم أفكر "؟

" رمقه عماد بنظرة طويلة.

" متى ستسافر يا عماد "؟؟

" الأسبوع القادم ".

" سأكون معك ".

" لا، الأفضل أن أسبق أنا ... وأنتظرك ".

" أين "؟

" في الإسكندرية ".

* * *

إنه يسير الآن في سهولة غريبة ... بل يشعر أنه يطير ... جسده خفيف ... وهو لا يشعر بثقل الحقيبة التي يبدلها بين يده اليمنى واليسرى اشترى رواية ليقرأها في القطار ... " عناقيد الغضب ". والده يسير إلى جواره ساهمًا. هذا الابن ... كان يحلم بأن يراه طبيبًا معروفًا ... وها هو

يترك كل شيء جريًا وراء حلم مجنون ... يمشي الرجل محني الظه ر، ويجر قدميه على الرصيف كأن ثقلاً مفاجئًا ألم بجسده. هم كبير لم يك ن يتوقعه في يوم من الأيام. يتفادى النظر إليه ... لم يرد أن يسبب له ألمًا، ولكنه يعلم الآن أن الرجل يحمل في صدره ألمًا كالطعنة يجاهد حت ى لا يفصح عنه ... الناس يتزاحمون حولهما، رائحة الدخان والباعة، والنساء يطللن من النوافذ، آخر مرة كانت نادية معه. رائح ة الن رجس، وي دها الساخنة في كفه.

ركب القطار وسار عبر الممر باحثًا عن مقعد خال. وضع الحقيبة فوق الرف. أطل من النافذة على الرأس الأشيب، وعينين مرهقتين، ويدين ترتعشان قليلاً، وهو يشعل سيجارته ... اللحظات تجر نفسها جرًا وك أن الزمن توقف ... وعقارب الساعة تزحف ببطء. لماذا لا يق وم القط ار اللعين ويعفيهما من هذه الدقائق المفعمة بكلمات تثقل صدريهما وينبغي أن تبقى محبوسة؟ لم يتعودا أن يظهرا عواطفهما. شيء كالجدار الأصم ف ي داخله. دق الجرس وتحرك القطار في قفزة مفاجئة غير متوقعة.

قال الأب:

" لا تغيب طويلاً يا ابني، نريد أن نراك " ...

لحظات كثيرة على الطريق ... ساعات من التنقيب البط يء ف ي جسم الإنسان والمشرط الحاد اللامع في يده ... ساعات البحث الطويل ة في الكتب تحت ضوء اللمبة الخضراء وفي الحجرة الباهتة فوق الس طح وصوت البحر يأتيه من بعيد ... لحظة أن وقف وح ده ف ي المش رحة وزحام الطلبة يهدر في الخارج ... ولحظة أن سار بينهم، كتفاه تحتك ان بأكتافهم، وجسده محمول على قدمين عملاقين تسيران إلى الأمام وتزيحان عن الطريق أشباح الخوف، والتردد، والص فوف الس وداء المدرع ة،

والعصي، والبنادق ... الفتاة النحيلة وعلى رأسها خصلة بيضاء مثل خيوط الفجر تخترق ظلام الليل ... ورجل قصير ذو وجنتين بارزتين ينطق كلمات حادة صلبة كالحجارة المسنونة تستقر في أعماقه، وتثير حولها موجات الاضطراب التي تبدد بقايا السكون ... الدماء الحمراء فوق الأسفلت الأسود، وقدمان كالطفلين اليتيمين يطلان من تحت غطاء من المشمع الرمادي في لون الوجه الشاحب الجامد، بعينيه المغلقتين إلى الأبد ... السيارة المسرعة في ضوء القمر، وجسده المحشور وسط أجساد غطاها التراب وأثقلها إرهاق العمل الطويل، تفوح منها رائحة العرق والحلبة ... الصبي الصغير ينام بجواره فوق أعواد الذرة، وعيناه الخضراوتان المتسائلتان.

كان أستاذ الطبيعة يشرح لهم قانون الجاذبية، والكثافة والوزن. ولكن أستاذ الطبيعة لم يشرح لهم شيئًا غير ذلك. كان عليه أن يكتشف وحده مصدرًا آخر للوزن لا صلة له بكل ما تعلمه في سنين الدراسة، مصدرًا آخر ينبع من النفس، ويجعل الجسم خفيفًا كالفراشة التي تطير في الهواء، أو يجعله ثقيلاً مثل الجبل، مثل كرة من الحديد تجرها الأقدام ... عندما سار في المظاهرات أحس بنفسه كالزورق محمولاً فوق الأمواج الجبارة، فالجسم ليس جسمه، والثقل ليس ثقله ... ولكن عندما سار وحيدًا في الحياة كان الجسم ثقيلاً والقلب كالحجر بين الضلوع، والأذرع والسيقان كالقيود، كالأوتاد المنغرسة في طين الأرض. كان عليه أن يسير بين الناس، أن يمد يديه، وأن يفتح ذراعيه أن يعرف معنى الشقاء والبؤس، والعذاب الصامت الطويل الذي يعيشه الآخرون، ليصبح جسمه خفيفًا، وقلبه خفيفًا تحت الضلوع، ليكتشف هذا المصدر الآخر للوزن،

والكثافة، والجاذبية والذي لا صلة له بقوانين العلم الذي أرهق عيونه في البحث عنها بين الكتب السميكة ذات الورق المصقول اللامع.

ولكنه لم يدركه من قبل بكل الوضوح الذي غمره فجأة وهو راقد فوق المرتبة تتدلى أحشاؤها البيضاء المتسخة، وعلى سطحها بقع رفيعة من الدماء، ومساحات مشرشرة من الصدأ القديم. فهذا الشعور بخفة الجسم يستطيع الآن أن يستكشف أعماقه. هنا يستطيع أن يتأمل الأشياء خلال الساعات الطويلة ... فرصة ينبغي ألا تضيع ... عزلة وهو بين الجدران لينتهي ويضيع ... ولكنه اكتشف ما لم يكن قد اكتشفه من قبل ... ووجد نفسه كما لم يجدها من قبل ... رحلة إلى الأعماق ينبغي أن يكتب عنها في يوم من الأيام ... ولكن هل سيستطيع؟؟ الكتابة ليست حرفته ... سيكتب عنها غيره ... زملاؤه الذين يكتبون.

اليوم الثالث والعشرون من إضرابهم عن الطعام ... غريب هذا الشعور بالشفافية، بأن الجسم لم يعد له وزن ... كأنه تبخر بالتدريج، فأصبح كالسحاب ينساب في الفضاء بعيدًا عن جاذبية الأرض ... يترنح بإحساس لذيذ من السكر، مصدره ليس الوهن الذي أصابه فحسب ولكن الإحساس بالانتصار على الجسم، على الجوع، على كل احتياجات الحياة، وكأنه يحلق عاليًا فوق الأشياء، متحررًا من كل القيود، أقوى من كل الرغبات.

أبواب الزنازين كلها مفتوحة على طول الدور الثاني في العنبر الطويل الذي يمتد كالهيكل المصنوع من الجدران والقضبان، كالقفص الضخم المعلق تحت السماء، السماء التي يراها زرقاء صافية، ويتطلع إليها، ويشتاق إلى السير تحتها دون أن تصطدم عيناه بتلك الأصابع المغلقة بإحكام. ولكنه يبقى هنا، كالحيوان، يدور ويدور في دوران لا

يتوقف، وسط الأشباح النحيلة بملابسها الزرقاء، تتحرك في هذا العالم الغريب الذي صنعه الإنسان منذ فجر التاريخ.

أبواب الزنازين كلها مفتوحة فلم يعد هناك داع لأن يخاف الحراس، ولم يعد هناك داع لأن يحتاط الرجل البدين القابع في مكتبه أمام المدخل الكبير، ولم يعد هناك داع لأن تتوجس السلطات من قوة هؤلاء الرجال عندما تتجمع. صرعهم الضعف، والوهن، فناموا فوق الأسفلت. خمسة في كل حجرة، خمسة فوق المربع الصغير، أربعة أجسام بالطول وواحد بالعرض، يرقد عند أقدامهم، خمسة رؤوس بيضاء حليقة تبرز عند حافة الأغطية الداكنة، وكأنها مزروعة في جسم كبير. شيء كالفطر العملاق صنعته يد عالم مجنون، يحقن الكائنات بمادة سرية فتتورم، وتتضخم وتبزغ منها رؤوس جديدة. الأجسام الراقدة تحت الغطاء اختفت حدودها، وذابت معالمها، فأصبحت كتلة واحدة ملتصقة تتنفس بحركة بطيئة لا ترى، وتطلق رائحة العفن الداخلي من خمسة أفواه مفتوحة يتجمد حولها اللعاب، وتحيط بها الشفاه الجافة كاللحم المقدد. الوجوه محفورة والعظام بارزة، والآذان تبدو كبيرة مفرطحة، والملامح الذابلة تشبه الشمع الأبيض المصبوب تحت الجلد الرفيع، تحيط بها هالة سوداء من الشعيرات الطويلة المتشابكة.

بين الحين والحين يخرج ذراع نحيل من تحت الأغطية ليطرد الذباب المتكاثف كالغربان السوداء فوق الرؤوس، أو ينفصل جسم من الأجسام، ويتقرب من جردل البول، ليطلق من جوفه سائلاً أصفر مرًا كالعلقم، وليرتفع في صمت الحجرة عواء التقلصات الطويلة المعذبة.

قد تسمع ضحكة رنانة تتذبذب حولها موجات الابتسام وتسري من حجرة إلى حجرة، ومن فم إلى فم، أو أصواتًا تهمس في ركن من

الأركان، أو كلمات تتدفق في حيوية غريبة لتبدد صمتًا غدا ثقيلاً، أو صراخ ألم في ظلام الليل، أو غناءً عذبًا تلتفت إليه الآذان، أو نشيدًا قويًا كانتصار الحياة. ولكن الساعات تمر والأيام تمر، والأجساد تزداد ضعفًا ووهنًا، والأصوات تزداد همسًا وخفوتًا، والصمت الثقيل يزحف بثقله فوق الرؤوس، ومع الوقت، ومع الضعف، ومع الإحساس بضربات القلب تخفت، ومع الصمت، تتسلل خيوط رفيعة من الشك، والشك ينمو لحظة بعد لحظة، ومع الشك يتولد اليأس، واليأس يزحف خطوة وراء خطوة، ومع اليأس يتحرك الخوف مستترًا، منزويًا، مختبئًا في الأعماق عند البداية، واضحًا، صريحًا، ثائرًا، مندفعًا عند النهاية.

العيون وحدها هي التي لا تصمت أبدًا. والعيون هنا دوائر سوداء، وعسلية، وخضراء، في البياض الأصفر المحمر، تطل من المحاجر العميقة الداكنة، تشتعل، وتخبو، وتشتعل من جديد. ويشتد فيها الصراع بين الأمل واليأس، بين القوة والضعف، بين الإرادة والاستسلام، وتقرأ فيها سؤالاً حائرًا: إلى متى. إلى متى نستمر؟؟

عشرة عيون في كل حجرة تبدو كعيون القطط المتوحشة في الكهوف المظلمة، ترى العدو يقترب وتنتظر.

لم يكن يريدون إلا القليل ... صفحات مطبوعة يقرءون فيها ماذا يحدث في بلادهم وفي العالم ... وأقلام، وأوراق بيضاء يكتبون فيها حتى لا تنطفئ شعلة الفكر التي يخشون عليها من الظلام، والجدران، وحياة البهيم التي يحيونها، ولمبة نور خافتة تبدد الظلام، وتضيء ساعات الانتظار الصماء حتى الصباح، وقطعة من اللحم أو الجبن، أو قليل من اللبن تحمي العضلات الذابلة، وتملأ الأنسجة الضامرة، وتسكت أنياب الجوع المسنونة التي تنهش في المثلث الصغير عند أسفل الضلوع،

وغطاءً إضافيًا يقي من البرد الذي ينفذ إلى أجسادهم كالسكين، ويرتفع من الأرض السوداء الملساء التي ينامون عليها، ويسقط من الجدران الرطبة، ومن النافذة المفتوحة على الفراغ الخارجي. فالنافذة المغلقة بالقضبان، تحول بينهم وبين الناس، ولا تحول بينهم وبين تيار الصقيع، ينسكب فوقهم كالماء المثلج عند الفجر.

وعزيز يمشي بخطوات بطيئة بين الأجساد، يشعر بدوار خفيف، وبركبتيه تنثنيان تحته أحيانًا، كأن مفاصله وعظامه تحولت إلى نوع من العجين، ويتعثر فوق ذراع ممدودة، أو قدم تبرز من تحت الغطاء، أو جسم ملفوف حول نفسه في نصف الظلام. يشعر أنه عاد إلى المستشفى التي تركها وراءه عندما طوى صفحة جديدة في حياته، تلك المستشفى بمرضاها الراقدين على الأسرة تلفهم أثواب بيضاء مفتوحة عند الصدر، والتي تبدو قريبة منه الآن، يكاد يلمسها بأطراف أصابعه، ويشم رائحتها المميزة بأنفه، رائحة الليزول، والغيارات القديمة والطعام، وأجسام المرضى، يستطيع أن يتعرف عليها إذا أغلق عينيه، رائحة تعيد إليه سنين طويلة من الحياة قضاها في الكلية، والمستشفى الكبير الرابض في حزن ثقيل على شاطئ النيل. وهو يسير من حجرة إلى حجرة كما كان ينتقل من عنبر إلى عنبر، ويمر على زميل وراء زميل، كما كان يمر من مريض إلى مريض، ويخطو بعناية بين الأطراف الممدودة. تصطدم خطواته بالبطون، والصدور، والأذرع والسيقان، والرؤوس السوداء والبيضاء، يتلمس الطريق في المساحات الصغيرة بين الأجساد بأصابع قدمه العارية حتى لا يدوس عليها، ويقف هنا وهناك ليفحص ويسجل، ويلمس بأصابعه حركة النبض ... ويسمع بأذنيه ضربات القلب ... ويمسح بيده النحيلة فوق الجباه الباردة الندية ... ويضع كفه المنكمشة

تحت الجلد على البطون، فيحس بزغولة الأمعاء الفارغة، وبرنينها الأجوف كالطبل.

توقف عند الكاتب النوبي فأطل عليه من تحت الغطاء، بوجهه الأسود الفاحم، وعينين صغيرتين تحملقان بنظرة ضعيف البصر الذي تعود الاقتراب من الأشياء ليراها.

" كيف حالك يا زميل نور "؟

" حالتي طيبة يا دكتور " قالها بغريزة المريض يخاطبه بلفظ يا دكتور.

تردد ثم استطرد:

" اكشف علي ".

وضع يده فوق النبض. الضربات تضعف، وتسرع كالحصان الجامح. وضع أذنه اليمنى فوق القلب ... الأصوات مخنوقة كأنها تأتي من خلال غشاء سميك.

نظر إليه، ولمعت أسنانه البيضاء في ابتسامة قلقة.

" ألم أقل لك أن حالتي طيبة "؟

" هي طيبة، ولكنك بدأت تضعف قليلاً. من الأفضل أن تقلع عن الإضراب ".

جمدت ملامحه فجأة، وتململ في رقدته.

" مستحيل ".

" ولكنني أتحدث إليك الآن كطبيب ".

" أنت لست طبيبًا فقط ".

" الآن أنا طبيب، ومسئول عن صحتك ".

" أنت طبيبنا ونحن نسمع نصيحتك. ولكن الإضراب ينبغي أن ينجح ".

" الإضراب سينجح، ولكن لابد من المحافظة على الناس. قيمتك كبيرة عندنا يا نور ".

" ولهذا السبب لا أستطيع أن أقلع عن الإضراب. ماذا سيقول الآخرون. إنهم لن يفهموا ".

" نحن لا ننتحر بل نقاوم ".

" ولكن التخلي عن الإضراب يسرى كالعدوى. كالجندي المذعور يهرب من المعركة فيتبعه الآخرون. أنت تعلم هذا يا عزيز ".

" وإذا أصدرنا قرارًا يمنعك من الاستمرار ".

ابتسم في هدوء وقال في حزم:

" لن أنفذه. وافعلوا ما تشاءون ".

صمت عزيز، وحملق فيه بنظرة صارمة.

" لا تطلق نظراتك المهنية علي يا دكتور. إنها لن تؤثر في ".

ألقى عزيز برأسه إلى الوراء، وأطلق ضحكة طويلة رنت بصفاء في الجو القاتم، ثم ضغط بيده على كتفه ونهض واقفاً وهو يقول:

" طول عمرك عنيد يا نور ".

استأنف سيره عبر الممر الطويل وهو يجر قدميه العاريتن فوق البلاط، يحس بهما ككيسين من القطن الخفيف، تشدهما العضلات الرفيعة كالحبال. منذ اليوم العاشر، لم يعد يشعر بالجوع، ولم يعد يعذبه خياله بصور الأطباق الشهية. فكل الأطباق عند المضرب عن الطعام تبدو شهية، حتى العدس الأصفر الكئيب يرقد في استسلام باهت فوق طبقة من الحصاوى الصغيرة الصلبة تاهت تحته في قاع " القروانة " القذرة

المصنوعة من الألومنيوم. وحتى الفول بحباته الداكنة المغلفة في جلدها السميك، وبنواتها التي لا تلين أبدًا، والسوس الأسود يمد أقدامه الرفيعة حول الجسد المكتنز، ويسبح في سائل لونه مثل التراب. نعمة من الطبيعة ألا يشعروا بالجوع بعد اليوم العاشر، وأن تموت الرغبة المشتعلة للطعام، أي طعام.

سمع صوتًا مثل العواء المتصل يزدد في حجرة عند آخر الصف، فأسرع الخطى ليجد جسدًا نحل حتى الجلد والعظام، وعينين تصرخان بنداء صامت، يائس، معذب، خلف النظارات السميكة. لف الكتفين المرتعشتين بذراعه، وأحس بالجسد ينتفض كأنه أوشك أن يتقيأ الأحشاء الفارغة من كل شيء. سقط سرسوب رفيع من السائل الأصفر من ركن الشفتين الجافتين اللتين تراكمت فوقهما طبقات من الجلد واللعاب اللزج في قشور بيضاء.

هتف في انزعاج:

" ما بك يا ماهر "؟

جاءه الصوت واهنًا يائسًا.

" القيء لا يريد أن يتوقف، ولم أعد أستطيع أن أتحمل الانقباضات التي تنتابني دون انقطاع ".

أشار بإصبع طويلة نحيلة كالطباشير الأصفر إلى معدته.

" رأيي أن تكف عن الإضراب إذن ".

" أرأيك هكذا؟؟ " ... قالها في شيء من الارتياح.

" نعم وفورًا ".

" هل ستبلغ "؟

" سأذهب الآن لتبليغهم. لا تأكل شيئًا الآن. سـ أطلب نقلـ ك إلـ ى المستشفى. وهناك عليك أن تطلب حقنة شرجية، وأن تبدأ بشرب بعـ ض السؤال الساخنة ".

" مثل "؟

" الشاي ومعه قليل من اللبن. استرح الآن ولا تقلق ".

عاد إلى رقدته وأخذ يتتبع عزيز بعينين عاد إليهمـ ا بريـ ق مـ ن الاطمئنان.

خرج من الحجرة. لابد أن يكمل الدورة. بقيت حجرتان. ألقى نظرة سريعة على الحجرة الأولى. أصوات التنفس المنتظمة ترتفع في الهـ واء في وسط رائحة غريبة، رائحة العفن المتصاعد مـ ن الأفـ واه، والبـ ول، والعرق، والبطاطين التي لم تنظف منذ أسابيع. الحالة هنا هادئة. استأنف السير حتى الحجرة المجاورة وعندما ظهر من فتحة الباب قوبل بأصوات الترحيب تتصاعد دفعة واحدة من الدائرة المبتسمة الراقدة علـ ى الأرض، مسندة ظهرها على الحائط وعيونها إلى الباب.

" صباح الخير ... يا زميل اجلس معنا قليلاً. أهكـ ذا أنـ ت دائمًـ ا تروح وتجيء صامتًا لا تتكلم؟ اجلس وتحدث معنًا قليلاً ".

قالها شاب نحيل طويل الجسم، تطل عيناه العسليتان الضاحكتان من تحت حاجبين كثيفين. صدمته الكلمات ... لماذا يتكرر هذا العتاب دائمًا. صحيح أنه لا يتكلم كثيرًا. تعود الصمت منذ الصغر. شيء كالجدار يرتفع في داخله ... يجعل الكلمات صعبة عسيرة ... الأفكار تطن في رأسـ ه، والكلمات موجودة ولكنها لا تخرج إلا في لحظة معينة، في اجتمـ اع، أو في محاضرة يلقيها عليهم، أو في حديث هادئ طويل مع من يطمئن إليه، عندئذ تتدفق الكلمات سهلة بسيطة مفعمة بالحرارة، فيها قوة إقناع تجعـ ل

الآخرين ينصتون، وفيها عواطف ... عواطف مختزنة تضطرب في أعماقه، وتسري بتيارها القوي في كيانه.

ولكنه لا يجيد الأحاديث العابرة السريعة وكلمات المجاملة، والنكت والسؤال عن الأشياء الصغيرة. تذكر أمه ... لابد أنها السبب ... تعود منها العمل المستمر الذي لا يكل ... واحتقار الثرثرة ... ولكنه يشعر أن طبعه هذا يعزله عن الآخرين ... وبالذات عن الذين لا يعرفونه.

تنهد في صمت ... أفسحوا له مكاناً بينهم فجلس ... دار بعينيه على الوجوه. اللحى الطويلة، والعظام البارزة، والجلد الرفيع المتغضن تشوبه صفرة مريضة. والعيون ... أحس بالنظرات الدافئة وهي تستقر على وجهه. إنهم يقدرونه ولكنهم يريدون منه أن يكون أقرب إليهم. مرت ابتسامة خفيفة ساخرة على شفتيه ... إذا طالت الحبسة سيعرفونه.

استطرد الشاب الذي دعاه إلى الجلوس:

" لماذا الابتسامة الغامضة يا عزيز "؟

" لا شيء ".

" قل لي يا أخي. نريد أن نعرف " دار بعينيه على الآخرين فهزوا رؤوسهم الشعثاء.

" تذكرت أمي ".

وجمت الوجوه ثم سرى فيها شيء كالرقة أطلت وسط خشونة الملامح. كل منهم يتذكر أمه الآن ... ترى فيما يفكرون؟؟

قال أحدهم في صوت خافت:

" أنا أمي ماتت ".

" التفت إليه عزيز ".

" متى "؟

" منذ زمن بعيد. كنت صغيرًا ".

" ألا تتذكرها "؟

" أحيانا أرى ملامح وجهها. ولكنني لست متأكدًا ".

" صفه لنا ".

" كانت شابة ... أسمع ضحكاتها حتى الآن ... عيناها غريبتان ... أراهما حتى الآن في أحلامي ... وفي الصباح عند دما أس تيقظ. دائ رة سوداء صغيرة في بحر من الرماد الصافي، كانتا تلفتان الأنظ ار وه ي تمشي في الشوارع. الناس ينظرون إلى عينيها، ويتلفتون وراءهم عن دما تمر ".

ساد الصمت. الأنظار ساهمة الآن ... تس بح ف ي ع الم خ ارج الجدران ... عالم لا تراه ولكنك تستنتجه ... البيت ... ربما تكون حجرة ليس بها إلا سرير، وحصيرة، وشماعة، وطبلية ... ولكنها تض م أع ز الناس إليك ... أمًّا، أو زوجة، أو طفلاً يحبو ... أو بنتًا تجلس معك آخر النهار عندما تعود ... تستقبلك عند المدخل بوجه مشرق ... وتع د ل ك الطعام ... وتلف حولك في رقة هادئة، مشغولة بك ... سعيدة بوج ودك ... ترى نهديها يبرزان تحت الثوب، وتقول لنفسك ... لابد أن تستمر في التعليم.

فاجأه أحدهم بسؤال:

" أمك إنجليزية أليس كذلك يا عزيز "؟

" نعم ".

" ماذا تقول عن كل ذلك "؟

" تشفق علي ... وتبكي أحيانًا من ورائي ".

" وما رأيها في أفكارك ".

" لم تكن تفهمها أول الأمر ... ولكنها قالت لي ... أنا أثق فيك ... ومهما قال الناس فأنا أعرف أنك لا يمكن أن تسعى إلى الشر أو أن تكون مجرمًا. لا يمكن أن أقتنع أن ابني مجرم ينبغي أن يوضع في السجن لأنه يدافع عن الفقراء، أو يطلب أن يخرج جنود الاحتلال " ...

" ولكن جنود الاحتلال إنجليز ".

" قالت لي ... الشعب الإنجليزي ممتاز ... أما الاستعمار الإنجليزي فهو شيء آخر. فهمته عندما جئت إلى مصر ".

" متى جاءت "؟

" منذ ثورة ١٩١٩ ".

تدخل رجل أشيب الشعر حاد التقاطيع ظل صامتًا منذ أن دخل الحجرة.

" والإضراب يا زميل عزيز "؟

" ما له الإضراب "؟

" متى ينتهي "؟

" عندما ننال المطالب ".

" وهل سننالها "؟

" إذا صممنا على نيلها ".

تدخل الشاب في حدة:

" ألم نقل أن الحديث عن الإضراب ممنوع؟ ناقشناه قبل الدخول فيه طويلاً. أما الآن فينبغي أن نصمت ".

" المسألة ليست مسألة حماس. أنت شاب، وقوي، ولا تفكر في الآخرين. ولكني قاربت على سن الخمسين وجسمي لم يعد قويًا. ولكن عقلي ... عقلي يعرف كيف يفكر ...

" ألم توافق على الإضراب "؟

" وافقت ".

" والآن تريد أن تناقش؟ ... أثناء المعركة " التفت الشاب إلى عزيز متسائلاً:

" ما رأيك يا زميل عزيز "؟

" المناقشة أثناء الإضراب ممنوعة. هذا ما قررناه. وأنتم تعرفون أن القرار سليم ومبني على تجارب الماضي " التفت إلى الرجل الأشيب. " إننا لا نريد أن نحتد فليس هذا وقت النزاع. ولكنني أريد أن أقول لك شيئين: أحيانًا يكون الصمت أعقل من الكلام. أليس كذلك يا عجوز؟؟ "

ابتسم ناحيته ثم استطرد: " والسن يا عجوز يزيد عليك التبعات ".

خفض الرجل عينيه إلى الأرض مفكرًا، وساد الصمت لحظات وكأنهم ينتظرون. ثم نظر إلى عزيز وقال:

" وهو كذلك يا زميل ".

اختلطت الأصوات في حديث مرح " أسمعت آخر نكتة ". نهض عزيز منتهزًا فرصة الهرج، ودلف من باب الحجرة إلى الخارج، وهو يقول بصوت عال: " السلام عليكم ".

عاد أدراجه أمام صف الأبواب المفتوحة. جاءته نتف من الأحاديث.

" أنا ابني أصبح في أولى ثانوي ... رأيته في الزيارة منذ شهر، ودهشت. لقد فاقني طولاً " ... " يا سلام على طبق لحمة مشوية وأرز بالخلطة " ... أما زال يشعر بالجوع؟ ... غريبة. مسكين صاحب الجسم الكبير والشهية القوية ... ضحكة مجلجلة صافية تشيع الضحك حولها ... ثم " آه " يا بطني الغازات ستقتلني " ... إلى متى يستمر الإضراب؟ ...

لم يعد بينهم الآن سوى عدد قليل قادر على المشي. سيد، وحلمي، وثلاثة أو أربعة. الباقون يرقدون في الحجرات وينتظرون. أنت يا عزيز ولـ دت من أبوين قويين وأكلت اللحم، والفراخ، والزبدة ... ولكن أهذا يكفي؟ ... العزيمة، ونهر الحياة يسير فيك قويًا بطاقاته المختزنة المندفعة ... إلـ ى متى يستمر الإضراب؟ العيون تحملق وتسأل وتنتظر ... النهاية تقتـ رب ... لقد حاولوا المستحيل ... أعدوا لكل شيء جيدًا ... ناقشوا الإضراب مع الجميع قبل البدء ... وأرسلوا خمسـ مائة خطـ ـاب إلـ ى الصـ حف، والهيئات، والأصدقاء والأقارب، وتحركت عائلاتهم في وفـ ود لا تنقطـ ع ... وكتبت الصحف عما يعانون ... وانهالـ ت برقيـ ات الاحتجـ اج ... المواكب تطلب الإفراج عنهم ... وقدم نواب من الوفد أسئلة في البرلمان ... فشدوا على أعصابهم وعضلاتهم المنهكـ ـة مـ ن سـ وء التغذيـ ة ... المحرومة من الشمس والهواء والحركة ... شدوا حتى آخر ما فيهم مـ ن طاقة ... حتى آخر قطرة ... حتى آخر ذرة مـ ن ذرات الإصـ رار ... ولكن الجدران الصماء لا تريد أن تستجيب ... والآذان الصماء لا تريـ د أن تسمع ... والقلوب الصماء لا تريد أن تحس ... " لابد أن يلقنوا درسًا " هكذا قال الرجل البدين ذو الشفاه الرفيعة، والعيـ ون الجامـ دة، وقطـ ع النحاس اللامعة على الكتفين. " لابد أن تكسر الحلقة في أولها ... فهؤلاء القوم لن يرضوا أبدًا ... لن يسكتوا أبدًا. أعطهم إصبعك، يأخذون يـ دك، وأعطهم يدك، يأخذون الذراع ... وأعطهم الذراع، يبتلعونك كلـ ك " ... هكذا قال ... قالها للجالسين فـ ي الحجـ رة الكبيـ رة بـ ذقونهم الحليقـ ة، وشواربهم الرفيعة المهذبة، وملامحهم المرتاحة، وأحذيتهم اللامعـ ة فـ ي شمس الصباح، وقطع النحاس على أكتافهم ترسل بريقًا متقطعًا مع حركة الجسم فوق المقعد. فأومأت الرؤوس إلى أسفل أمـ ام المكتـ ب العـ ريض

والجسد المكتنز الجالس خلفه، كما تعودت أن تفعل منذ سنين طويلة. وانطلقت الألسن تقول " تمام يا فندم ... بالضبط يا فندم " ... أنت تفهمهم جيدًا. قوم مخربون ... يعشقون الشغب ... لا دين لهم ولا خلق " وتطلعت العيون إلى مصدر الحكمة المنتفخ خلف المكتب، يشع منها الإعجاب، ويلمع فيها بريق الصيد المنتظر، الراقد في إعياء في صف طويل من الزنازين تشبه الكهوف.

خطوات سيد تتعثر في حبال مستترة تلف حول ساقيه وقدميه ... وحلمي يسير مسندًا يديه على الجدران، والأبواب، وأسوار الحديد ... كالطفل ما زال يتدرب على المشي. تجمع الثلاثة في الزنزانة رقم (١) وجلسوا القرفصاء في دائرة صغيرة فوق البطانية المفروشة على الأرض.

" يا سيد ... وأنت يا حلمي ينبغي أن ترقدا ".

التفت إليه حلمي في حركة متوترة وقال:

" ونترك الناس هكذا دون أن يمر عليهم أحد ".

" سأمر عليهم أنا "

" يا عزيز ... أنت وحدك لا تكفي. الأفضل أن نكون ثلاثة أو أربعة. كلما زاد العدد، في حدود معينة، كلما زاد اطمئنانهم ".

أومأ سيد موافقًا.

" يا سي عزيز كف عن المكابرة. أقوي أنت إلى هذه الدرجة "؟

" أنا طبيب، وأعرف حالتي جيدًا. النبض منتظم، والغريب أن أمعائي ما زالت تعمل بانتظام. أغتسل كل يوم في الصباح، ولا أشعر بشيء سوى قليل من الضعف ".

حملق فيه سيد بشيء من الدهشة.

" أمجنون أنت!؟ تغتسل وتروح وتجيء دون انقطاع "؟؟

" أشعر أنني أحسن حالاً عندما أتحرك. وأنني أستطيع أن أستمر أسبوعًا آخر ".

" من أين تعرف "؟

" لا أعرف من أين ... ولكنني أعرف ".

قاطعهما حلمي.

" دعونا من هذا الكلام. السؤال المهم. ماذا نحن فاعلون الآن "؟

صمت الثلاثة وبدا على وجوههم شيء من الوجوم، أسند سيد جسمه على مرفقه، مادًّا جسمه الطويل فوق البطانية، وأخذ يخط رسومًا مستترة فوق النسيج الداكن بأصابع ابيض لونها. ثم اعتدل في جلسته وقال بصوته الدافئ:

" ينبغي أن ننهي الإضراب. ما رأيك يا عزيز "؟

" لا أوافق ".

" طبعًا لأنك لم تتعب بعد ... ولكن المعركة معركة الجميع، وليست معركتك أنت وحدك ".

" ننسحب بعد كل هذا "؟ قالها عزيز في استنكار واضح.

" نعم ننسحب ... فإذا لم نقرر الانسحاب سيفرض علينا اليوم، أو باكر من الذين نفدت قدرتهم على الاحتمال ".

" ولماذا لا يستمر الباقون "؟

" إذا بدأ الانسحاب ستدور البكرة حتى نهاية الخيط ".

" ومن أين تعرف "؟

" رأيت البكرة تدور من قبل ... هل رأيتها أنت "؟؟

" لا ".

" إنك لا تعرف إذن ماذا يمكن أن يحدث. الانسحاب المنظم أفضل من الانهيار. يجب أن تتعلم مرة أخرى كيف تتحمل الهزيمة ".

" ولماذا لا نتعلم كيف ننتصر "؟

" الانتصار ليس عمل فرد واحد أو حتى مجموعة من الأفراد ".

صمت عزيز. حملق فيه سيد بشيء من الغضب. ثـ م لان صـ وته الدافئ من جديد.

" ماذا بك "؟

" أشعر وكأنني سأبكي ".

" ابكِ إذا كان هذا يريحك. ولكنه لن يفيدك في شيء ".

قال حلمي:

" ما لكما ... تتاكفان بعضكما؟ أنا أوافق على رأي سيد. يجـ ـب أن نفكر إذن في طريقة الانسحاب ".

" أمصممان أنتما "؟

هزا رأسيهما في اقتناع هادئ.

" إذن أغلبية. لي اقتراح أخير ".

قال حلمي:

" ما هو "؟

" أن تتركا لي فرصة أخيرة ".

" فيم "؟

" في أن أتصل بالإدارة. محاولة أخيرة لن نخسر فيها شيئًا. نهايـ ـة المعركة اقتربت، ولكن ينبغي أن نحاول حتى آخر لحظة لننتزع أي شيء ... قطعة من اللحم ... أو غطاءً إضافيًا ... أو ربما لمبة صغيرة تضيء في السقف ".

قالا في صوت واحد.

" موافقان ".

نهض عزيز وخرج من الباب. اقترب من الحارس.

" أريد أن أقابل رئيس السجن ".

" لماذا "؟

" قل له أنني أريد أن أقابله ".

" سآخذك معي وأتركك في الخارج بدلاً من النزول والصعود مرتين فإذا وافق أدخلتك إلى مكتبه ".

أغلق درج مكتبه الرمادي الصغير. وهبطا السلم جنبًا إلى جنب. ما زال متحكمًا في قدميه. لم يتعثر مرة واحدة ... وجسمه كالطائر، يتحرك جناحيه، وينساب على متن الهواء. لم يفكر في الموت لحظة ... يشعر أنه لن يموت أبدًا ... أنه لا يمكن أن يموت ... خلق لكي يعيش ويتحرك ... قلبه ثقيل وخفيف في آن واحد ... يشعر بشيء غريب ... نوع من الانتصار وسط الهزيمة.

الأشباح الزرقاء تمشي ببطء ... البطء هنا سمة الحياة ... الزمن بطيء. زمن بلا مضمون، بلا أشياء تحركه ... والخطوات بطيئة ... خطوات بلا هدف ... بلا دافع. قبل الإضراب كان يسير مسرعًا ... عادة لم يفقدها ... البحث عن عمل ... عن عمل مستمر ... عن حركة لا تنقطع.

ولكنه الآن يسير مثلهم ببطء. أول مرة تحدث له. عندما كانا يتنزهان على شاطئ النيل كانت نادية تشد على ذراعه وتقول: " لا أفهم لماذا تجري هكذا. نحن نتنزه ... نتنزه. ألا تكف عن هذا السباق ". كانت

ساقاه تبطئان لحظات، ثم تنطلقان من جديد وكأنهما تتحركان وحدهما بقوة مستترة.

تركه الحارس في الصالة الخارجية، ودخل إلى المكتب. خرج وقاده إلى حجرة بابها مغطى بالجوخ الأخضر. دخلا منه. تقدم عبر المساحة الواسعة التي تفصل بين الباب والمكتب الكبير، وتوقف أمام الرجل البدين والعينين الجامدتين. أحس بملمس السجادة الناعمة تحت قدميه العاريتين.

جاءه الصوت باردًا مستفسرًا:

" ماذا تريد "؟

" أريد أن أتحدث معك ".

" فيم "؟ ألقى السؤال في هدوء تتخلله نبرة من الاندهاش، ورفع حاجبيه الرفيعتين كأنه لا يعرف فعلاً ما دفع الرجل النحيل الواقف أمامه برأسه الحليقة، وقدميه العاريتين، إلى طلب هذه المقابلة.

أجاب عزيز بنفس الهدوء.

" في الموقف ".

" موقف؟ ماذا تقصد "؟

" في الإضراب ".

" آه " كأنه تذكر " ما له الإضراب؟ وما صنعتك أنت لتحدثني عن الإضراب؟ يمكنك أن تقلع عنه إذا أردت ".

" لم آت لهذا ".

" لماذا أتيت إذن "؟

" لنتفاوض ".

" ومن عسى أن تكون أنت لنتفاوض "؟؟

" مندوب عنهم ".

" لا يوجد شيء اسمه مندوب. على كل واحد أن يتكلم عـ ن نفسـ ـه فقط ".

" كيف؟ هل ستطلبهم واحدًا واحدًا "؟

" سأتحدث إليهم جميعًا في العنبر ".

" لن يسمعوك ".

" أواثق أنت؟ أعتقد أنهم سيسمعونني الآن ". ضغط على آخر كلمة، وارتفعت شفتاه الرفيعتان في ابتسامة خاطفـ ـة ... مجـ ـرد حركـ ـة فـ ـي عضلات الوجه لم تغير شيئًا في جموده الراسخ.

" يمكنك أن تجرب " صعدت نبرة تحد إلى صوت عزيـ ـز. أحـ ـس بالحجرة تدور حوله في حركة بطيئة متموجة. ضـ ـغط علـ ـى أصـ ـابعه المتشابكة خلف ظهره، وثبت عينيه على المكتب ليتوقف الـ ـدوران. رأى ذبابة زرقاء منتفخة تزحف فوق السطح الخارجي.

تردد الرجل لحظة، ثم ألقى نحوه بنظرة خاطفة.

" لا تبدو عليك علامات الإضراب. إنكم قطعًا تأكلون سرًا ".

" أنت تعلم جيدًا أننا لا نفعل هذا ".

" وكيف أعلم "؟ هز كتفيه المكتنزتين، وبسط كفيـ ـه فـ ـي حركـ ـة متشككة.

" عيونك كثيرة، أليس كذلك "؟

ابتسم في رضا، ومال فوق المكتب. لاحظ عزيز أن عينيه خاليتان من الرموش.

" متى ستنهون الإضراب "؟

" عندما نحصل على المطالب ".

" ولكنكم لن تحصلوا عليها. ستموتون هنا كالكلاب " جاءته الكلمة الأخيرة في حقد لاسع.

أحس عزيز بالدماء تصعد إلى رأسه، وبطنين في أذنيه. اهدأ ... اهدأ هذا الخنزير الأجوف يريد أن يستفزك. ليس هذا وقت الاصطدام. مرة أخرى، سيمكنك أن تصفي الحساب. انتظر لحظة طويلة ثم أجاب في كلمات بطيئة كأنه يقرر شيئًا نهائيًا.

" إذن ... سيستمر الإضراب ".

اعتدل الرجل البدين في جلسته، ولمعت قطع النحاس على كتفه الأيسر في الضوء المتساقط من النافذة.

" افعلوا ما تشاءون ... لا نقبل التمرد ".

" ليس تمردًا. وإنما مطالب عادية، مشروعة، من حقنا أن نتمتع بها".

" حق؟! ليست لكم حقوق. نحن نمنحكم ما نريد، ولكن ليست لكم حقوق. أنا أريد أن أكون واضحًا تمامًا. أنتم مجموعة من المخربين، ولن تقفوا عند حد. وعندي تعليمات بأن أعاملكم بمنتهى الشدة " ... صمت لحظة كأنه يستطعم الكلمات الأخيرة ثم أعادها مرة أخرى " بمنتهى الشدة " ... أنا أعرفكم جيدًا ولن تقفوا عند حد ".

" نحن أصحاب رأي ".

" أصحاب رأي؟؟! " مط صوته في سخرية. " أنتم مأجورون ... عملاء ... أدوات تحركها الأيادي الأجنبية " أصبح صوته مفعمًا بكراهية مسنونة.

حملق عزيز في وجهه بنظرة ثابتة تخفي موجات الغضب المتصاعدة في صدره.

كان يجب أن ينهال بقبضاته على هذا الوجه المكتنز ككتلة من اللحم المذبوح، ليستريح مرة من عناء، من عذاب السيطرة على نفسه، تقدم خطوة إلى الأمام. أحس بالأرض تميد تحت قدميه فانتصب بقامته ووقف. رأى الوجه الجامد يبتسم كالحيوان الساخر في حلم مزعج. أنت مندوب ... تمالك نفسك ... إنهم ينتظرونك فوق.. هناك في العنبر، ينتظرون نهاية العذاب البطيء ... ويترقبون عودتك ... أنت مندوب ... كم يكره هذه الكلمة ... كم مرة تحمل الإهانات التي تنفذ إلى أعماقه كالسيخ المشتعل.

مال الرجل إلى الوراء، كأنه يتقهقر أمام هجوم منتظر.

" أنا أرفض التهديد. أرفض أن أتعامل معكم كجماعة ".

" ونحن نرفض أن نتعامل كأفراد ... ونرفض الموت البطيء ... أنت يد تبطش ... تحركها أوامر عليا ... يحركها آخرون ... وإذا ما حدث شيء لن يقف معك أحد ... أليس كذلك "؟!.

صمت كأنه يقلب الفكرة في ذهنه. وبدا عليه شيء من التردد.

" لن تنالوا ما تريدون ".

" بل سنناله ... نحن نعرف ما يحدث في الخارج ".

" لا شيء في الخارج ".

" بل أشياء ... وفي كل يوم يتصلون بك من الوزارة ويسألون ".

" أنتم تتخيلون أشياء لا تحدث " ...

" لا ... نحن نعرف. ليس الأمر خيالاً ".

" وكيف تعرفون "؟!

" نعرف ".

" لا شيء في الخارج ".

" بل أشياء كثيرة. لن يمر الإضراب بسهولة وأنتم قلقون ".

ضحك ضحكة قصيرة متكررة كصوت منشار يقطع في الخشـ ـب، وحرك جسده كالحيوان البليد. زحف بصدره وذراعيه فوق المكتب، ولان صوته في نبرة تريد الإقناع.

" يا دكتور عزيز ... لماذا تتعب نفسك هكذا؟! أنـ ـت مـ ـن عائلـ ـة ويمكننا أن نريحك ".

النغمة المعتادة ... في الأول كان يرتضي سماعها، ويرتاح قلـ ـيلاً لهذا التمييز ... ولكن الآن يثير الصوت اللزج شيئًا كالغثيان.

" لم آت هنا لذلك ".

" هكذا أنتم دائمًا. رؤوسكم جامدة " صمت لحظة طويلة كأنه يفكـ ـر في الخطوة القادمة ثم سأل:

" لماذا أتيت إذن "؟

" قلت لك ... لنتفاوض ".

" ماذا تريدون "؟

" إذا أعطيتمونا جزءًا من المطالب يمكنني أن أقنعهم بالعدول عـ ـن الإضراب ".

" أهذا ما اتفقتم عليه "؟

" لا ".

" لست مندوبًا إذن ".

" بل أنا مندوب عنهم ".

" مندوب في شيء لم تتفقوا عليه ".

" فوضوني في الأمر ".

" وكيف أضمن التنفيذ "؟

" سأعود إليهم بعد الاتفاق ".

" إذن لا ضمان ".

" الضمان هو أن يكون العرض مقنعًا ".

رمقه بنظرة سريعة كأنه يريد أن يقرأ أفكاره.

" ماذا تطلبون إذن "؟

" إجابة المطالب ".

" كلها "؟

" أغلبها ".

" مستحيل ".

" قل لي أنت إذن ما الذي تستطيع الإدارة أن توافق عليه "؟

" غطاء إضافي، وقطعة من اللحم ".

" وباقي المطالب "؟

" مرفوضة ".

" ولماذا لا تضيفون اللبن، والجبن "؟

" شيء غريب ... تريدون اللحم، والجبن، واللبن، هكذا مرة واحدة".

" ولم لا "؟

" لسنا لوكاندة ".

" نعلم هذا. ولكن ليس من المفروض أن نجوع ".

صمت قليلاً كأنه يحسب شيئًا ما. كلما زاد الأكل زادت إكراميات المتعهد. لكل شيء فوائده.

" لا بأس غطاء إضافي ثم اللحم، والجبن، واللبن ". قالها كالأب يغدق على أبنائه. أحس عزيز بالغثيان ينتابه من جديد ...

" والمطالب الأخرى "؟

" اصرفوا عنها النظر تمامًا ".

" ألا يمكن أن نتقابل في نصف الطريق "؟

" كيف؟ ... ومن أنتم حتى أتقابل معكم في نصف الطريق "؟

أحس بوهن شديد، وبالدوار يزداد في رأسه. لو ك ان يسد تطيع أن يسند يده على المكتب!! ... شد على جسمه، وثبت عينيه عل ى ط رف المكتب. لا بأس ... فيلقي الكلمات الجوفاء، يستر بها تراجعه. لا تتسد اق في أشياء جانبية ... ركز على المهم ... النهاية تقترب.

" وافقوا على الكهرباء ".

" اللائحة تمنع هذا ".

" اللائحة تسمح به مقابل عشرة قروش في الشهر ".

ساد الصمت، وكأن كلا منهما ينتظر الآخر. قال عزيز:

" ما رأيك ... سندفع عشرة قروش للحجرة "؟

" ممكن ... ولكن هذا آخر ما أستطيع أن أوافق عليه ".

" لا ... بقي شيء واحد لا صعوبة فيه " ...

" وما هو "؟

" الجرائد ".

" لا هذا مستحيل تمامًا ... تساهلت في الأشياء الأخرى ... ولك ن هذا مستحيل ... السلطات لن توافق عليه أبدًا ".

" وما دخل السلطات في الأمر "؟

" لست مستعدًا للمزاح ... يجب أن تدرك وضعك وحدودك. أن ت طبيب في الخارج، ولكنك هنا مسجون ".

" أعلم هذا وأنا لا أمزح ".

" ماذا تقصد إذن "؟

" أن تغمض الإدارة عينيها إذا ما اكتشفت أننا نقرأ الجرائد " ...

" سأضع كل من يقرأ الجرائد في التأديب ... وسيجلد ست جلدات".

" والسلطات "؟

" ماذا تقصد "؟

" سمعت أن الباشا يصاب بغضب شديد عندما يسمع أن الجرائد تصل إلينا ".

" ولكنها لا تصل ".

" ألم تضبطوها في التفتيش عدة مرات "؟

سكت لحظة ثم قال:

" ماذا تريد "؟

" اتركونا نهرب الجرائد بوسائلنا، ولا داعي للمحاضر، وللتأديب، وللجلد حتى يبقى الأمر في حدود هذا السور ". لوح عزيز بيده إلى خارج النافذة.

ظل الرجل صامتًا. فاستطرد عزيز:

" وفي مقابل هذا أيضًا نعدكم بأن نكف عن الأناشيد أثناء الليل. وأعتقد أن هذا أيضًا قد يريحك من بعض التساؤلات ".

ضاقت فتحتا العينين كأنه يزن الأمور بدقة. استقرت الذبابة الزرقاء فوق أنفه، فطردها بحركة عصبية.

" وفيم يهمني هذا "؟

" سيقولون أنك استطعت أن تسيطر على عنبر السياسيين. أليس كذلك "؟

رمقه في صمت ثم قال:

" وتعدلون عن الإضراب فورًا "؟

" فورًا، على أن يعمل محضر مكتوب ".

ضغط على الجرس فدخل إليه أحد الحراس. لوح إليه قائلاً:

" خذه إلى عنبره ".

خرج عزيز بخطوات بطيئة ... لابد أن يبدو كالمهزوم أمام الرجل ... فهذا أفضل ... إنهم يغوون النفخ ـة الكاذب ـة ... أرضِ غ رورهم تستطيع أحيانًا أن تحصل على أشياء تعني الكثير في هذا الصراع اليومي من أجل البقاء. عبر الحوش محني الكتفين، يجر قدميه جرًا. كان يريد أن يطير، وأن يقفز، وأن يصرخ للراقدين في الحجر الضيقة من باب العنبر، وكأن قوته عادت إليه ... عبر الـ دور الأول فـ وق الـ بلاط ... أحـ س بالبرودة كدبيب النمل في قدميه ... صعد السلم الحديـ دي، وقفـ ز فـ وق الدرجات الأخيرة ... جسمه خفيف كالريشة تطير في الهواء، وقلبه يغني. دلف إلى الزنزانة الأولى مسرعًا. رأى حلمي، وسـ يد، واثنـ ين آخـ رين يسندون ظهورهم إلى الحائط في صمت. هتف:

" ماذا بكم "؟

التفتت ثماني عيون إليه في حركة واحدة، وأطلت منهـ ا الـ دوائر السوداء العميقة بنظرة واحدة. نظرة غريبة فيها حزن، وتأهب لصـ راع مقبل ...

قال حلمي في صوت خافت ما زال قويًا.

البكرة بدأت تدور. حجرة ٦ تطالب بإنهاء الإضراب فورًا.

ابتسم عزيز.

" ولكن الإضراب انتهى فعلاً ".

قالوا في نفس واحد:

" كيف "؟

" قطعة من اللحم، والجبن، وقليل من اللبن للضـ عفاء ... غطـ ـاء إضافي ... لمبة كهرباء، ووعد بعدم مساءلتنا عن الجرائد المهربة ".

وجد نفسه فجأة محاطًا بالأحضان ... أحضان لم تعـ ـد واهنـ ـة ولا ضعيفة.

* * *

يوم آخر يقترب من نهايته ويستسلم أمام الظلام الزاحـ ـف. جلـ ـس عزيز على المقعد الصغير مسندًا ظهره إلى الجدار، وممسـ ـكًا فـ ـي يـ ـده بقصاصة صغيرة من الورق حاول أن يقرأها في بقايا الضوء المنحدر من النافذة. وقعت عيناه على مربع صغير في طرف الورقة " الأهـ ـرام أول مايو " توقف عند التاريخ " أول مايو " ترى كم من الأيام مرت على أول الربيع؟

قام ليعد الثقوب الصغيرة التي حفرها في الجدار، ثم عاد إلى جلسته من جديد. ساعات اللقاء بين الليل والنهار تتلون بلون واحد، وتضغط على صدره بثقل واحد، وتصبغ الحياة بكآبة تسري في كل شيء. يـ ـوم آخـ ـر ينتهي ... لماذا يتجمع الحزن كله في آخر النهار؟ تغلق الأبواب أمام الليل الطويل، وتتوقف حركة الحياة والخطـ ـوات، وتختفـ ـي الأصـ ـوات كلهـ ـا بالتدريج إلا صوت الصمت في أذنيه كالمحيط البعيد. وأنفاسه تعلو وتهبط فوق السرير. السنين الطويلة تمتد أمامه رمادية جرداء ... لا شيء سوى الأشباح الزرقاء، والأحاديث المكررة عند المساء، والكلمات تموت فـ ـوق الشفاه فلا يوجد ما يمكن أن يقال، والوجوه أصبحت كلها جامدة، وكـ ـأن الزمن توقف عندها، والعيون غدت كلها عاجزة فالجدران تكبت الرغبات العارمة، لا شيء ... لا شيء سوى الأبواب المغلقة على الأجساد النائمة،

وصفوف الرجال يجلسون القرفصاء في دورات المياه، ورنين الحديد فوق الحديد كالمنبه يحول دون النسيان، والأيام تمضي كالسبحة بين أصابع الزمن.

أخيرًا انتهى الإضراب. وقف أمام باب زنزانته وهو يميل بنصفه الأعلى فوق الحاجز الحديدي الممتد بطول الممر، ويتطلع إلى جموع المساجين تروح وتجيء في حركة لا تنقطع عند الدور الأرضي للعنبر الكبير. من حين لآخر كان يتناول رشفة قصيرة من كوب الليمون الذي وضعه بجانبه، فيمر بلسانه الجاف فوق شفتيه مستمتعًا بطعم السكر، ويحس بالسائل الرطب ينساب بالتدريج من الحلق إلى البلعوم، إلى المعدة. جاءه صوت الحارس الأجش يناديه من بعيد، من المساحة الصغيرة المربعة حيث تلتقي السلالم السوداء العريضة الصاعدة إلى الدور الأعلى، والهابطة إلى الدور الأسفل، وحيث يصب الممران الطويلان الممتدان أمام الزنازين. تغافل عن النداء قليلاً. كانت به رغبة إلى أن يبقى وحده، يستمتع بتيار الحياة يتدفق من جديد، مع كل رشفة يتناولها من الكوب، ومع كل قطرة من الماء المسكر تسري في نبض الشرايين، ويتأمل حركة الناس في العنبر الكبير مثل أسراب من النمل يدبرون شئون الحياة في انهماك عميق. ولكن الصوت الأجش اقترب منه وهو يناديه من جديد " يا دكتور عزيز، يا دكتور عزيز ".

التفت إلى يساره فرأى حارس الدور يقترب حتى أصبح على بعد خطوات قصيرة منه. قال:

" خير ماذا تريد يا عم عبد الغفار "؟

الدكتور أرسل في طلبك ".

" من منْ الدكاترة "؟

" الدكتور فؤاد ".

شرب بقية كوب الليمون برشفات سريعة متتالية، ثم ناوله لأحد المساجين الواقفين إلى جواره والتفت إلى الحارس قائلاً:

" هيا بنا ".

هبطا الدرجات العريضة سويًا وخرج من باب العنبر. عبرا فناء السجن وهما يتحدثان في ألفة. كان يسير ببطء، وكأنه يحافظ على قواه من الضياع. صعد السلالم بين جموع المساجين والحراس ينتظرون عند الباب الحديدي. ضرب الحارس على القضبان بالمفتاح الكبير وهو يصيح:

" افتح يا جدع ".

ظهر أحد التمورجية من الداخل على رزنة الحديد، وصيحات الحارس المتكررة، وأخرج مفتاحًا من جيبه، ثم فتح الباب نصف فتحة ليحول دون اندفاع المساجين الواقفين إلى الداخل. فتح عزيز لنفسه طريقاً بينهم وهو يقول: " عن إذنكم يا رجال " ودلف من الباب إلى الطرقة الصغيرة المطلة على السلالم عبر مساحة عريضة من القضبان الحديدية الطويلة تمتد إلى الأرض، وكأنه قفص كبير مغلق على الذين يتحركون داخله. انحنى في الطرقة إلى اليمين، وفتح بابًا أبيض وجده أمامه ليدخل إلى حجرة العمليات الصغيرة، يتبعه الحارس العجوز. الحجرة تبدو واسعة للعين التي تعودت على الجدران والحجز الضيقة، بيضاء لامعة كبؤرة من النور بين ظلمات الزنازين بقضبانها السوداء، وأبوابها الرمادية الداكنة، وأرضها المصنوعة من الأسفلت الأسود. أشعة الشمس المشرقة تخترق زجاج النوافذ، وتنعكس في بريق ساطع على السطح المعدني لعلب الغيار الأسطوانية، وأوتوكالفين كبيرين لتعقيم الغيارات، وأدوات الجراحة

المصفوفة بنظام في دولاب من زجاج، والصواني المربعة المتحركة فوق عجلات صغيرة من المطاط، وتمتد قوية عريضة فوق منضدة العملي ات الطويلة الموضوعة وسط الحجرة، تتدلى فوقها لمبة كبيرة، كتلة مستديرة ضخمة من المعدن اللامع، تغطيها طبقة سميكة من الزجاج المصنوع في مربعات صغيرة.

كان عزيز يحب هذه الحجرة. فهي تخرجه من ظلام الزنازين، إلى جو من الدفء والنور، ومن حياة السجن والحراس، إلى أحاديث الط ب والعلاج. يرتدي معطفًا أبيض، ويقف بين الأطباء حول المنضدة الطويلة، يساعد أحدهم في عمليته، أو يكشف على م ريض، أو يغس ل ج روح العائدين من " الأوردى " أو يناقش معهم حالة استعصت على التشخيص، أو يقلب صفحات كتاب سميك، ويس تعيد معلوم ات طواه ا النس يان، ويستغرق في لوحاتها الملونة. ساعة أو ساعتين يجلس بينهم في الشمس، ويشرب كوبًا من الكاركاديه الأحمر، ويدخن سيجارة من العلبة المفتوح ة أمامهم، ويسمع الكلمات البسيطة، ويضحك بملء قلبه، ويم ارس حي اة الإنسان من جديد.

هذه المرة كانت الحجرة خالية، إلا من رجل واحد، جلس على مقعد صغير، ذي قرص معدني مستدير، وأرجل حديدية مطلية باللون الأبيض، وقد وضع مرفقيه على منضدة العمليات بغطائها من المش مع الأحم ر، مسندًا وجهه بين كفيه، وكأنه مستغرق في تفكير عميق، كان يحملق ف ي النافذة المفتوحة تكشف عن مساحة من السماء، وسحابة صغيرة معلقة في سكون، موليًا ظهره إلى الباب، فلم يشعر بالرجلين يدخلان إلى الحج رة. اقترب عزيز من المنضدة إلى أن أصبح على بعد خطوات قليل ة من ه. ولكنه لم يلتفت إليه، فوقف صامتًا وسط الحجرة يستمتع بالدفء المف اجئ

ويتأمل الرجل الجالس أمامه. جسد نحيل منزو في المعطف الأبيض الواسع، ووجه مستطيل أسمر عظامه بارزة. الفك مدبب، والفم عريض، يختفي تحت الشارب الغزير يتخلل سواده الداكن شعيرات بيضاء متناثرة. الجبهة عالية، والرأس مكورة كبيرة، يرتفع فوقها شعر كثيف خشن، يعلو عند الأطراف كأنه يرفض أن يستكين تحت لمسات الفرشاة، وتمر عبره خطوط من الشيب رمادية في الوسط، بيضاء حول الأذنين الكبيرتين المبتعدتين عن الرأس قليلاً. الحاجبان بارزان والعينان مختفيتان خلف النظارة السميكة، تطلان منها بصفاء غريب وأصابع اليد التي تمسك بالسيجارة سمراء رفيعة، مصبوغة بلون النيكوتين البني، والأظافر مقصوصة يبدو عليها التهذيب.

طالت وقفة عزيز وهو ينتظر أن يلتفت إليه الرجل، ولكنه ظل مستغرقًا، وحواسه في مكان آخر. فتقدم نحوه خطوة أخرى وقال في صوت هادئ:

" يا دكتور فؤاد. صباح الخير ".

التفت إليه بعينين امتزجت فيهما الطيبة بشيء كالحزن العميق الصامت، العاجز عن الاحتجاج.

" أهلا بك يا دكتور عزيز. متى جئت "؟

" منذ لحظات. كنت أقف هنا مستمتعًا بالدفء ".

" لم أشعر بدخولك ". تنهد ثم خاطب الحارس قائلاً:

" يا عبد الغفار انصرف أنت وعد بعد ساعة ".

" حاضر يا فندم " أدى الحارس التحية ثم انصرف.

ابتسم الدكتور فؤاد كاشفًا عن أسنان مصبوغة بلون أصفر من كثرة التدخين، وأشار إلى مقعد بجواره.

" اجلس يا عزيز ... هنا في الشمس ".

جلس على المقعد الصغير موليًا ظهره للنافذة، حتى تقع أشعة الشمس على ظهره. إنه يعرف الآن كيف يستفيد من كل نسمة هواء، وكل بقعة شمس، وكل سعر من الغذاء، وكل لحظة استمتاع، كالنبات الشتوي الذي يضرب بجذوره في الصخر، أو كالأشواك التي تعيش في الصحراء وتختزن المياه القليلة التي تصل إليها. سرح بذهنه إلى المساحات المفتوحة تحت السماء، ثم عاد بعد لحظة على صوت الدكتور فؤاد الخافت يقول:

" سيجارة يا عزيز "؟

مد يده إلى العلبة المفتوحة الممدودة إليه، وسحب سيجارة. أشعلها الدكتور فؤاد بولاعة عتيقة صدر عنها لهب طويل. نفث نفسًا عميقًا في استمتاع، وتبع الخيط الأزرق الرفيع حتى انتشر كالسحابة الخفيفة في ضوء الشمس.

" متشكر يا دكتور فؤاد ".

" كيف حالك بعد الإضراب "؟

" على ما يرام. لم أشعر بالتعب. فقط شيء من الضعف ".

" ولكنك فقدت وزنًا كثيرًا. كدت ألا أعرفك عندما وقعت عيناي عليك يوم أن زرتكم في العنبر ".

" سأستعيد الوزن المفقود بسرعة ".

" ولكنني قلق عليك. لقد أجهدت نفسك كثيرًا أثناء الإضراب. أنا أعرف أنك لم تسترح لحظة ".

" الحركة هي التي جعلتني أتحمل أكثر من غيري ".

" هكذا تقول أنت. ولكنك كالعادة لم تفكر في العواقب ".

" لن تكون هناك عواقب. قلبي كقلب الحصان ".

ابتسم في رقة، واختفى الحزن لحظة من عينيه. ثم عادت قسماته إلى جمودها المعتاد من جديد. نظر عبر النافذة المفتوحة إلى سطح المبنى المجاور وقال:

" قل لي يا عزيز ... ما أنتم بالضبط "؟

" ماذا تقصد "؟

" أقصد أنه قبل أن تأتوا إلى هنا، سمعت عنكم كلامًا كثيرًا ".

" كيف "؟

تردد لحظة كأنه يشعر بالحرج.

" لا تتردد ... لقد تعودت أن أسمع كل شيء ... فكيف لا أسمع منك "؟

" سمعت عنكم أنكم أناس لا أخلاق لكم، ولا دين، أنكم لا تؤمنون بشيء، لا الأسرة، ولا الزوجة، ولا الوطن ".

" والآن "؟

" لست على صلة وثيقة بأحد منكم سواك يا عزيز. كنت أتتبعك وأنت تروح وتجيء هنا في المستشفى، تساعدنا أحيانًا، وترعى المرضى، وأراك تدافع عن زملائك وتسعى إلى خدمتهم. كنت أسمع كلماتك، فأجدك رقيقًا مهذبًا. كنت أناقشك فأجد مثقفًا، فقلت لنفسي أول الأمر: خسارة أن يربط هذا الرجل مصيره مع هؤلاء الناس ".

" ثم "؟

" بدأت أعرف الآخرين. أحسست بالعيوب التي فيهم، ولا أخفي عليك أن منهم من لا يعجبني. ولكن وجدت فيهم أشياء جذبتني، الإيمان بشيء أكبر منهم. والتحمل، والاستعداد للتضحية. التضامن فيما بينهم، عدم التفرقة بين الناس. " كل إنسان حسب عمله "، أليس هذا ما تقولون "؟

ضحك عزيز وقال:

" سآخذ منك سيجارة أخرى بمناسبة هذا الكلام ".

أشعل السيجارة من الولاعة، ونفث الدخان الأزرق من أنفه في خيطين كثيفين ثم استطرد:

" أنت لا تدري يا دكتور فؤاد قيمة ما تقوله أنت بالذات عندي ".

" لماذا أنا بالذات "؟

" لأن الجميع هنا يحبونك ".

" يحبونني؟ ... لم أفعل شيئًا ".

" بل فعلت الكثير. أدخلت لمسة الإنسان في مكان تسود فيه القسوة ... "

" بل أنا عاجز عن عمل أي شيء ".

" لا ... ليس هذا صحيحًا ... أنت لا تستطيع أن تغير الكثير وحدك. ولكن هناك أشياء صغيرة لها قيمة كبيرة لأمثالنا، لكل الذين يعيشون خلف الجدران، ويعانون في أجسادهم، ونفوسهم، غلظة السجان. كلمة طيبة، ابتسامة، غطاء إضافي للذي يعاني آلام المفاصل، قليل من اللبن لمن وهن جسمه ... أشياء صغيرة ولكن كم هي كبيرة، تعيد ثقة الإنسان في الإنسان ".

نظر إليه في تأثر وارتعش صوته قليلاً.

" أتظن هذا؟ أنت تريد فقط أن تقول لي كلمة تدخل علي شيئًا من السرور ".

" لا ... أنا أقول لك الصدق ".

ساد الصمت لحظة. مد يده الجافة السمراء كيد المومياء وأشعل سيجارة.

" أنا لا أعرف كيف تتحملون كل هذا. أنا أعمل هنا، وأخرج وأدخل كما أشاء، ومع ذلك فالسجن قد حطمني. لم أعد أطيق أن أرى ما أراه كل يوم ".

" لأنك وحدك ".

" وأنت "؟

" لست وحدي ".

" كيف "؟

" هنا، وفي كل أنحاء العالم، يوجد أولئك الذين يعملون من أجل أن يحيا الإنسان إنساناً ".

" وما الفائدة "؟

قال عزيز في صوت متأمل:

" في يوم ما ... في يوم ما سيتحقق الحلم ".

" متى "؟

" لا أعرف. ولكنه سيتحقق ... ربما بعد أن نموت ".

" وهل مستعد أنت أن تعمل لشيء لن يتحقق إلا بعد أن تموت ".

" كلنا سنموت ".

" هذا صحيح ".

" بعضنا مات منذ مئات السنين، ولكنه حي حتى الآن، مثل النجوم تنتهي أحياناً وتنطفئ في الكون العريض، ولكن ضوءها يصل إلينا بعد ملايين السنين ".

" من أين هذا التشبيه "؟

" قرأته يومًا في رواية لم أعد أتذكرها. ولكن هذه الجملة عاشت معي عبر السنين ".

صمت الدكتور فؤاد، وخفض رأسه ثم رفعها ونظر إلى عزيز في شيء من الحيرة.

" أشعر بالإعجاب نحوكم أحيانًا، وأحيانًا بالخوف ".

" الخوف مم "؟

" من هذه الصلابة التي تصل إلى درجة التعصب، بل إلى درجة العنف ".

" المسألة ليست سهلة، والعدو لا يرحم ".

" ولكن ألا تخشى من فقدان روح الإنسان "؟

" ربما. حياتنا مزيج غريب من الإنسانية، ومن فقدان الإنسانية ".

" ألم أقل لك "؟

" إذا لم تفقد الإنسانية أحيانًا سنتحطم ... "

" لا ... لا أوافق على هذا ".

" ربما تكون على حق في رفضك، ولكنك كطبيب تستطيع أن تفهم هذا الشعور. عندما تشق بطن المريض بسكينك الحاد. ألا تنسى، ولو لحظات، أنه إنسان. وهل تستطيع أن تجري العملية بغير ذلك؟. هناك أطباء يفقدون الإحساس بالإنسان ... وهناك منهم من لا يفقده إلا عند الضرورة ".

صمت قليلاً كأنه يفكر.

" الإجابة عندك جاهزة دائمًا ".

" لا ... لا تقل هذا ... ليست مسألة شطارة " قالها عزيز في شيء من العتاب.

" لا تغضب ... ولكنها حقيقة ".

" أنت لا تعرف كم أشعر بالحيرة أحيانًا ".

" الحيرة ... أنتم لا تعرفون الحيرة ... ولا اليأس ".

" هكذا تظن ... ولكنك لا تعرف ... كلما مرت السنين جاءت أسئلة جديدة تنتظر الجواب ".

تنهد الدكتور فؤاد، والتفت بعينيه إلى النافذة المفتوحة.

" الجو جميل اليوم ... أليس كذلك "؟ جاء السؤال كأنه يريد أن يغير الحديث.

" نعم ... السماء صافية والشمس دافئة ".

" ألا تحب أن تمشي تحت هذه السماء المفتوحة " مشيرًا إلى النافذة.

" ومن لا يحب هذا "؟

" ولماذا تبقى هنا إذن "؟

" سؤال غريب ... لأنني محبوس ".

" ألديك أطفال "؟

" نعم طفل واحد ... صبي صغير ".

" ألا تريد أن تحتضنه "؟

رأى عزيز رأسًا صغيرة بجواره على الوسادة، وعينين مغلقتين بأهدابهما الطويلة السوداء، وأحس بقدمين كالعصفورين في صدره.

" وزوجتك؟ أين هي؟ "

" هنا في القاهرة ".

" ومع ذلك تبقى هكذا مستسلمًا دون أن تحرك ساكنًا؟ تترك الطفل والزوجة ... بل وتتنازل عن حريتك ببساطة "؟

نظر إليه عزيز بمزيج من الغضب والحيرة، فرأى ابتسامة صغيرة ترتعش عند ركني الفم.

" ماذا تريد مني أن أفعل "؟

" سأرسلك إلى القصر العيني ".

" لست في حاجة إلى ذلك. فحالتي الصحية طيبة ".

" هكذا تقول أنت. ولكنني أنا طبيبك أقول عكس ذلك. عندك هبوط حاد في القلب على أثر الإضراب. ستبقى هنا في المستشفى إلى أن أرسلك إلى القصر العيني ".

" لا أريد أن أترك زملائي ".

استطرد في حديثه كأنه لم يسمع:

" سأرسلك إلى القصر العيني، وأريد منك ألا تعود " حملق في عيني عزيز بنظرة طويلة.

ساد صمت عميق في الحجرة. أحس بشيء كالغصة في حلقه، تنحنح وقال:

" لماذا تفعل هذا "؟

" لا أعرف ... لا أعرف ... كان عندي ابن مثلك ".

" وأين هو الآن "؟

" مات وهو في الكلية. كان سنه تسع عشرة سنة ".

سالت دمعة واحدة على خده بطيئة هادئة ثم سقطت. قام من جلسته واتجه نحو الباب. دفع إحدى الضلفتين بيده ثم توقف كأنه نسي شيئًا والتفت إلى عزيز:

" لا تنسى ... ينبغي ألا تعود ".

رأى العينين تطلان بصفاء غريب من خلف النظارة السميكة، ورأى الجسم النحيل والظهر المنحني عند فتحة الباب. لحظة مرت، ثم اختفى الدكتور فؤاد، ووجد عزيز نفسه يحملق في باب أبيض مغلق.

الدكتور فؤاد ... يا عزيز ... أتذكر الدكتور فؤاد ... أين هو الآن؟ ... إنك لا تعرف ... هل ما زال على قيد الحياة؟ ... هل مات؟ إنك لم تره بعد ذلك. سمعت عنه الكثير ... قال البعض أنه كان يتعاطى الأفيون ... ربما ... وكيف لا يتعاطى الأفيون؟ ... وكيف ينسى؟ ... فليقل الناس ما يريدون ... عرفته أنت ... أنت وحدك الذي عرفته وربما لا أحد سواك ... فقد كان رجلاً وحيدًا ...

" يقولون عنكم أنكم لا تعرفون معنى الوطنية ". هكذا قال لك الدكتور فؤاد. ولكنه لم يعرف حقيقتك، أو ربما عرفها في آخر لحظة قبل أن تفترقا إلى غير لقاء. حقًا لم يكن لك وطن، ولم يكن لك شعب. عندما كنت في القصر الكبير ... وعندما كنت طالبًا تجلس أمام الجثث في المشرحة، وتعود إلى منزلك في قصر الدوبارة. لم يكن لك وطن آنذاك ... ولم يكن لك شعب ... ولكن فيما بعد ... فيما بعد عرفت معنى الوطن ... وأصبح لك شعب ... عرفته من الذين سماهم صدقي الهدامين ... وسماهم غيره المأجورين، عرفته من الذين سماهم عملاء الاستعمار بالعملاء. عرفته من عماد، وحسين، وخليل، وحلمي، ومن محمود الذي اختفى ولم يعد. عرفته من دماء أسعد، ومن محمد الحارس الذي يسير الآن أمام باب زنزانتك المغلقة تحت الشمس يبتسم في هدوء. عرفته في عيني الطفل الصغير ينتظرك في لهفة على جسر الترعة الصغيرة ... في الأجساد المنهكة تفوح منها رائحة العرق والتراب وهي تقف فوق سيارة النقل المسرعة في ضوء القمر ... عرفته من الطعام الذي اقتسمته مع الشرطي العجوز في كهف مظلم تحت الأرض ... ومن الأيادي الدافئة الممدودة في كل مكان ... عرفته من الدكتور فؤاد ... وعرفته أيضًا من نادية ...

والإنسان في وطنك يتعذب. والعذاب على أنواع. وهناك نوع اسمه " الأوردى ". ترى من يتذكر " الأوردى "؟ كلمة طواها النسيان ... ولكن عزيز لم ينسها ... وربما آخرون أيضًا ... عماد مثلاً ... فإذا كان عماد يتحدث إلى العصافير الآن، ويذهب في كل صباح إلى المبذ ى الأب يض الكبير ليتلقى صدمات الكهرباء في رأسه، ربما كان أحد الأسـ باب أنـ ـه عرف في يوم من الأيام معنى كلمة " الأوردى ".

العنبر الكبير كان صامتًا ذلك الصباح، صمتًا غريبًا لم يألفـ ـه مـ ن قبل. ألف من البشر محشورون في مائتي زنزانة، ومع ذلـ ـك لا يصـ در عنهم أي صوت. الأبواب مغلقة، والأقدام لم تعد تسـ ير فـ وق الـ بلاط، والأجساد لم تعد تتحرك فوق " الأبراش " الخشنة المفروشـ ـة تحتهـ ـا، أو تحتك بالجدران في صوت مكتوم، وأحذية الحراس الغليظة لم تعد تـ دب فوق الأرض، والمفاتيح الكبيرة لم تعد تدور بصـ ـريرها الصـ ـارخ فـ ي الأبواب. لا أحد يتحدث أو حتى يهمس، الكلمـ ـات توقفـ ـت، والمواويـ ـل الحزينة توقفت، والضحكات توقفت، والأنات توقفت، والنحيب الذي يرتفع أحيانًا توقف. الناس لم يعودوا يسعلون، أو يعطسون، أو يتنحنـ ـون، أو يتبولون بذلك الصوت المميز الذي يصدر عن اصطدام خيط مـ ـن المـ ـاء بجدار الجردل المعدني. والأنفاس، التي تسمعها تلهث في صمت الليـ ـل، اختفت، فالراقدون، والجالسون في الحجر الضيقة تعلقـ ـت أنفاسـ ـهم فـ ـي انتظار الحدث الرهيب. الصمت مطلق، عميق، بلا قرار، بـ ـلا صـ ـدى، يجعلك تعد الدقائق والثواني، ويحول الزمن إلى زحف بطيء يجثم فـ ـوق الصدور، ولا يريد أن تتزحزح. الصمت صمت انتظار المصير.

في كل زنزانة خمسة من الرجال، أجساد من اللحم العاري تحـ ـت الثوب الأزرق الرفيع، ووجوه جامدة تحملق بعيونها في الفراغ كأنها تريد

أن تخترق المجهول. عيون لا تلتقي، بل تتفادى الالتقاء. وسؤال ملح يطل من أعماقها. ولكنه يبقى في الأعماق. وقلق ملح كالتيار المشحون يـ دور في الهواء.

فهناك في الحوش الكبير تحت سماء كالرماد يقف الرجل البـ دين، بوجهه الجامد، وشفتيه الرفيعتين المرفوعتين في ازدراء، يـ دور بعينيـ ـه على الجدران الصفراء الصامتة، وصفوف النوافذ المرصوصة في رتابة عمياء، وصفوف الجند الواقفين في صمود أبله. كالقائد يستعرض قلعتـ ـه في غرور، ويستعد لمعركة مضمونة العاقبة.

وإلى جواره رجل كالعملاق، رأسه صلعاء، وشاربه الأسود يمتـ ـد إلى الجانبين كجناحي الغراب، يمسك بأصابعه الغليظة كشوفًا من الورق، ويقرأ فيها بإمعان بطيء، وكأنه يبذل جهدًا كبيرًا في فهم الكلمات. يمـ ـر بطرف لسانه المدبب على قلم قصير من الكوبيا، لـ يخط علـ ـى الـ ورق، علامات غامضة.

كل شيء في الحوش الكبير يتحرك في نظام ثقيل، كالآلة العتيقـ ـة البطيئة تفرز، وتختار، وتحدد المصير. والإنسان مجرد رقم، والأرقام بلا رحمة ولا إحساس.

ولكن خلف النوافذ يسقط الضوء المتسلل عبر القضبان على خمسة أجساد في كل زنزانة، والجسد له رقم، ولكن الرقم له اسم – والاسم هـ ـو إنسان، والإنسان أصبح سؤالاً يـ دور فـ ـي الهـ ـواء كالتيـ ـار المشـ حون بالكهرباء. على من الدور هذه المرة؟ على من الدور في الـ ذهاب إلـ ـى " الأوردي "؟. "

وكل واحد من الرجـ ـال الخمسـ ـة الـ ذين يرقـ دون، أو يجلسـ ـون القرفصاء، في كل زنزانة من المائتي زنزانة يتحسـ ـس جسـ ده بيديـ ـه،

ويتحسس أجساد الآخرين بعينيه ... ويقارن ... فخلال الساعات القليلة التي تسبق رنين " جرس الأوردي " يحلق الموت فوق رؤوسهم.

عاشوا طويلاً كالوحوش في الغابة. الأقوى، والأكثر دهاءً، والأكثر شراسة، والأكثر مالاً هو الذي يبقى. عرفوا هذا قبل أن يدخلوا السجن، وتأكدوا منه بعد أن دخلوه. هنا تتكمش المسافات إلى متر مربع أو أقل من البلاط، أو الأسفلت الأسود، ومترين مكعبين أو أكثر من الهواء لكل رجل، وتسمى البصلة " فرخة "، وقيروانة العدس بالبصل " فرخة بكشك". هنا يشترك خمسة من الرجال في تدخين سيجارة واحدة، وأربعة من الرجال في الاعتداء على عرض فتى واحد، فتسمع صرخاته تخترق سكون الليل مفزعة، مستغيثة. هنا في القفص الكبير خلال الساعات القليلة التي تسبق جرس الأوردي يرقد ألف من المساجين " السوابق " كالذئاب الخائفة.

وفي الحجرة رقم ٤٣ يجلس سيد منكمشاً في أحد الأركان، منتظرًا كالآخرين. وجهه الشاحب، بتقاطيعه الحادة البارزة، يتطلع إلى السقف. الأنف المدبب والفك المدبب، والوجنتين البارزتين، وعينين صغيرتين في لون العسل الأسود تلمعان بذكاء متقد، وتطلان من الوجه كالسهمين المشتعلين، وفم غليظ يعلوه شارب رفيع، ورأس مكورة صغيرة تلتصق بها أذنان صغيرتان، وتحس بصلابتها الشديدة تحت الشعر المقصوص الحليق.

والحجرة ٤٣ يتردد عليها عزيز، ويتردد عليها كثيرون. فأصدقاء سيد كثيرون، يأتون من الأدوار ليشربوا معه الشاي الداكن المسكر في أكواب من الصفيح، وليشربوا معه لفائف الدخان القوي تخرج من بين أصابعه القصيرة السريعة في استدارة متقنة، وليستمعوا إلى أقاصيصه

التي لا تنتهي. فسيد رجل عرك الحياة منذ الصغر، تربى في الحـ واري الضيقة، وفقد أبويه وهو لا يزال صبيًا صغيرًا، واشتغل في كل المهن إلى أن استقر في مهنة واحدة منذ عشر سنوات ... مهنة " الهجام ". ومهنـ ـة الهجام هذه لم يكن عزيز قد سمع عنها من قبل ... ولكنه عرفها من سيد. عرف أنها تعني سرقة المنازل ... وأنها تحتاج إلى ذكـ ـاء خـ ـاص، ... وقوة ملاحظة خاصة ... فلابد من دراسة المنـ ـزل ومنافـ ـذه، وعـ ـادات السكان ... ومواعيد خروجهم ودخولهم، وعدد الخدم، ونظـ ـام عملهـ ـم، ونومهم ... وعدد الكلاب والقطط، وأين يبيتون. ولابد مـ ـن الشـ ـجاعة، اقتحام المنزل ليس سهلاً، وقد يكون أصحابه مسلحين ... ولابد من خفـ ـة الحركة حتى يمكن تسلق المواسير، والقفز من الجدران والنوافذ، والتنقـ ـل دون إيقاظ النائمين. ولابد أولاً وقبل كل شيء من عصابة يمكن الاعتماد عليها. وسيد كان دائمًا رئيس العصابة ... فقد ولد لكي يكون رئيسـ ـًا ... والرجال يطيعونه، ويخافونه، رغم حجمه الصغير ... فهو العقل المـ ـدبر ... وهو المقتحم الأول ... وهو الرجل الذي إذا ما غضب لمعت عينـ ـاه ببريق أخضر غريب، ومخيف. وقد قبض عليه عديدًا من المرات، وهرب عديدًا من المرات. وفي أحد الأيام تمكن من أن يهرب من القطار. دخـ ـل دورة المياه ونشر الأرضية الخشب حول " السلطانية البيضاء الصـ ـيني " بمنشار رفيع كان يخبئه في ملابسه، ثم أسقط نفسه من الفجوة التي أحدثها عند آخر العربة ممسكًا " بالعفشة " الحديدية الممتدة بين العجل، وزحـ ـف بالتدريج تحت بطن العربة إلى أن استقر فوق الدنجل ... ومن هنا، عندما أبطأ القطار في أحد المنحنيات، قفز على الأرض متكورًا على نفسه.

وسيد يحب الألوان الداكنة، فقد تعود أن يعمل تحت جنح الظـ ـلام، ولذلك يصبغ ثوب السجن باللون الأسود، ويرتدي سترة طويلـ ـة أنيقـ ـة،

وسروالاً ضيقًا يضغط حول ساقيه ووسطه. وعندما يختال عبر طرق ات السجن، بوثبات مرنة قوية، وجسمه الصلب، يبدو كالفهد الأسود المغرور. ولكن عندما تجلس معه وتتحدث إليه تدرك أن هذا الرجل الأم ي، ه ذا اللص، إنسان يتميز بقدر كبير من الحكمة.

ولكنه الآن يقبع في ركن الزنزانة، وقد انتابته مشاعر لم يعرفها من قبل. فالأوردي هكذا ... يفعل بالرجل ما لا يفعله أي شيء آخر، ويخلق من الإنسان إنسانًا آخر. وسيد الآن يفكر في زوجته وأطفاله ... الذين لا يتحدث عنهم أبدًا، وأخيه الصغير الذي حافظ عليه طوال السنين الماضية بعيدًا عن حياته المضطربة، كم كان يتمنى لنفسه في هذا اليوم أن يك ون مصابًا بالسل ... مثل الراقدين في حجر المرضى ... أو حتى ب العمى، فما أخطر من أن تكون له عينان ثاقبتان ... لماذا لم يفق د ذراعً ا ف ي الحرب. أو ساقًا تحت عجلات القطار؟ فالمريض أفضل من الصحيح ... والأعمى أسعد حظًا من البصير ... والعاجز أحسن حالاً من الس ليم ... والعجوز أهدأ بالاً من الشباب ... فعندما يج يء الي وم " الأوردي " ... وعندما تستعد دفعة جديدة للرحيل ... يصبح الإنسان الس ليم تعيسً ا ... ويتمنى لنفسه كل الأمراض ... بل وحتى الفناء ... إلا ذلك الفناء ال ذي ينتظره هناك ... في المعمورة ... فوق كثبان الرمال الناعمة، عند شاطئ البحر الأبيض.

وفي الركن الآخر من الحجرة يقبع جسد ضخم ... الصدر عريض كالبرميل ... والذراعان عضلاتهما كعضلات الفخذين ... والعنق مفتول ... والساقان طويلتان تمتدان فوق نصف مساحة الحجرة. جسد مخيف في ضخامة، لولا الوجه الصعيدي الأسمر تح س في ه بالطيب ة. فالعين ان واسعتان هادئتان ... والابتسامة التي تشرق فجأة وتنطفئ فجأة، كابتسامة

الطفل ... والكفان الكبيرتان تراكمت فوقهما طبقات جافة من الجلد برزت عند جذور الأصابع، وتضغط على يدك عندما يسلم عليك. " فأبو الوف ا " رجل بسيط من قنا، يعمل حمالاً في محطة الإسكندرية ... تشاجر مع أحد زملائه فضربه بقبضة يده، وفوجئ به يسقط فاقد الحياة ف وق رصـ يف المحطة، بين ذهول المسافرين، وصرخات النساء، وبك اء الأطف ال ... وهو يقف بينهم كجذع شجرة عملاقة، يدور بعينيه عل ى الن اس ال ذين تجمعوا حوله يصيحون في وجهه، وكأنه يبحث عن منقذ، أو ع ن أح د يقف إلى جواره وسط الجمع الغاضب، والذي لا يفهم لماذا يعاديه كل هذا العداء.

هكذا استقر به المقام في الحجرة رقم ٤٣ إلى ج وار س يد. كان ا يكملان بعضهما كالعقل والجسد، ويسيران جنبًا إلى جنب كالأسد والق ط ... لم يكن أبو الوفا محدود الذكاء، ولكنه كان يفتقد تلك الحدة والس رعة في التفكير التي تميز بهما سيد. ولكنهما أص بحا ص ديقين حميم ين لا يفترقان، والوحيد الذي يسلم من سخرية سيد، ومن لسعات لسانه الح ادة أبو الوفا ربما خوفًا من قوته.

هكذا جلس الاثنان في الحجرة ينتظران. وبين الحين والحين تلتق ي نظرة العيون، وكأنما الموجات الهادئة تتكسر وسط الحجرة فوق الصخور الحادة المتحدية، وكأنما المسافات بينهما شاطئ يت أرجح ب ين الس كون والعاصفة.

وفي السكون الشامل رن جرس، كجرس القيامة، إذا كانت للقيام ة أجراس، لينهي الصمت المفزع، ويطلق ض جيجًا ك الجحيم. المف اتيح الضخمة تدور في الأبواب، وتطلق صريرًا عاليًا كالص راخ. والأب واب تفتح بأصوات كالانفجارات المكتومة، ليندفع منها س يل م ن الأجس اد

النحيلة، في أثوابها الزرقاء الممزقة، تسير فوق آلاف الأقدام العارية، نهر بشري شاحب، مستسلم، لونه باهت كالبحر تحت السحب الرمادية الكثيفة. مئات الرجال يهبطون درجات السلم العريض، كالمساقين إلى حتفهم، ويتزاحمون عند باب العنبر، ويخرجون منه إلى الحوش، ويصطفون في خطوط متعرجة. ومع خروج آخر واحد منهم يصبح العنبر خاليًا ما عدا دورًا واحدًا يسكن في زنازينه المرضى والسياسيون. وفي هذا اليوم تلقى نظرات الحسد على الأبواب المغلقة في دور ٦. فعند الحكام، لا فرق بين المرضى، وأصحاب الفكر. لابد أن يعزل الاثنان. لابد أن يبقوا هنا في دور واحد. صاحب الفكر، والمريض بالدرن. فإذا انتقل ميكروب الدرن إلى صاحب الفكر. لا بأس ... وإذا انتقل ميكروب الفكر إلى المريض بالدرن ... لا خطر، لأنه سيموت لا محالة.

وعزيز يسمع الضجيج الذي يرتفع في الحوش ... شيء بين الهدير والعويل ... مظاهرة تسير نحو الفناء. وقد رأى عزيز مواكب الأوردي من قبل ... رآها وهي تذهب ... ورآها وهي تعود.

في ذلك اليوم المعتم من أيام شهر ديسمبر كانت رياح شديدة تصفر في الخارج، وتلف حول جدران السجن، وتخترق فجواته المفتوحة بين قضبان النوافذ، وعبر شراعات الأبواب، وتسقط من السقف المفتوح تحت السماء، لتحول العنبر الكبير إلى سفينة في عرض البحر، والمساجين إلى كتل من اللحم المنكمش، المرتعش، تقبع تحت الأغطية في الزنازين المغلقة.

كان عزيز يجلس على دكة الحارس عندما سمع باب العنبر يفتح، فوقف، وتقدم إلى رأس السلم، مخفيًا نفسه عند أول الطرقة الطويلة الممتدة أمام الحجر، بحركة المسجون الغريزية الذي يستتر بعيدًا عن العيون

المدربة على التقاط كل مخالفة للنظام. فمن المفروض أن يكون خلف باب زنزانته المغلق.

عندئذ رأى الموكب ... هياكل من العظم فوقها جلد متهدل، أصفر، كأوراق الشجر الجافة، عيون ماتت في محاجر عميقة. خطوات مترنحة تحت الأجسام. سيقان بعضها بدون قدم ... ومكان القدم خرقة مصبوغة بلون الدم المتجمد الداكن، والتراب. رجال يسيرون وحدهم، ورجال يسندون الذين فقدوا قدمًا أو ساقًا ... فترى ذراعًا طويلة نحيلة تلتف حول عنق، أو كتفين، ليستطيع صاحبها أن يسير. ورجال لم يعودوا قادرين على السير، فدخلوا باب العنبر، وساروا عبر الدور الأرضي فوق مساحة البلاط الطويلة، وصعدوا على درجات السلم محمولين فوق أكتاف من لا يزال يستطيع أن يحملهم. الموكب يسير ببطء منكسر، كجيش مهزوم ممزق، منتهي، يسير زاحفًا في إعياء من الزمن ... الزمن الذي توقف ... كأنه لن يستطيع الوصول إلى الدور الأول الذي يقوده إليه ثلاثة أو أربعة من الحراس، يحملون العصي الطويلة التي كفت لأول مرة عن الضرب.

وعند أعلى السلم أخذ عشرات من الرجال يتجمعون. خرجوا من الزنازين ووقفوا ينتظرون. والموكب يصعد ببطء، على السلم. يصعد خطوتين ثم يقف، ليستأنف سيره من جديد. والأصابع النحيلة تمسك بالحاجز، وتسند عليه، لتحول بين الأجسام وبين السقوط ... لكن أحدهم يسقط ويتدحرج إلى أسفل، ويبقى الجسد ساكناً مثل كومة العظام ملفوفة في كيس من الخرق البالية. ويدفن الحارس طرف عصاته بين العظام، ويخرجه ليدفنه من جديد. وينفصل اثنان عن الجمع الصغير ويهبطان الدرجات العريضة. حركاتهما تشبه آلة تسير بإرادة غير إرادتها مع كل خطوة، كالعرائس المعلقة عند أطراف الخيوط.

نطق أحد الواقفين جملة رنت عالية في الصمت الثقيل " الأوردى يا جدعان ... راجعين من الأوردى ... لعنة الله على الظالمين " ... وردد الجميع في صوت عميق " لعنة الله على الظالمين " ... مرة واحدة ... بصوت واحد ... ثم ساد السكون. والرجلان يرفعان حملهما بذراعين تحت الإبط. وذراعين حول الساقين. والموكب الصغير المهزوم يصعد ... درجة بعد درجة ... وينسكب ببطء عند أعلى السلم. والأذرع المفتوحة تتلقى الأجساد ... والأكتاف المنتظرة تتلقى الرؤوس ... والأجسام الملتقية تصبح جسمًا واحدًا، باهتًا، ممزقًا ... ونحيب خافت يرتفع في السكون، ودموع هادئة تسيل فوق الوجوه ... وتسقط عند الأقدام، ورجل يسأل: " أنت يا سيد ... لم أعرفك ... ماذا بك؟ ألا تراني " وسيد يقول ... " أعطني يدك ".

والرجال المتجمعون يتفرقون الآن، هنا وهناك ... الزنازين المغلقة تفتح عند جناح المرضى، فالعائدون من الأوردى مرضى ... ومن كل ركن تأتي الأغطية ... والأبراش ... وأكواب الشاي ... ولفائف الدخان

... واللبن ... والجبن ... واللحم. كل شيء يجب أن يعطيه هؤلاء الرجال الذين لا يملكون شيئاً، كل شيء للعائدين من الأوردى ... إنهم " سوابق " ... حثالة القوم ... لصوص ... ونصابون ... وقتلة ... وقوادون ... ولكن عندما يعود " بتوع الأوردى " ... تذوب طبقات الحجر، والحديد ... ويندفع التيار السخي الساخن كلبن الأم بين الذين يجمعهم عذاب واحد ... عذاب الجدران.

جلس عزيز فوق البرش يتأمل قيراوانة العدس الموضوعة أمامه. كان يريد أن يذهب إلى جناح المرضى، إلى الزنازين التي استقر فيها العائدون من الأوردى ... ولكن كان عليه أن ينتظر. فالأوامر صارمة. لا اختلاط بين " السياسيين " والأوردى. والأوامر ستنفذ بكل شدة ... ولكن طالما أن عبد الغفار الحارس العجوز موجود، فكل شيء ممكن. وعبد الغفار يعرف أنه ينتظر لكي يصحبه إلى الرجال العائدين من الأوردى. وعبد الغفار سيحضر إليه بعد قليل دون أن ينادي عليه. فالحارس العجوز يدرك أشياء كثيرة وحده ... ويحس ... ويجيد فهم لغة السجن الصامتة التي لا تحتاج إلى كلمات. ولكن عليه أن ينتظر، فالساعات الأولى لابد أن تكون لهم ... للرجال الذين ينتمون إلى عالم واحد ... إلى عالم " السوابق " ... صحيح أن " السوابق " يدعونهم الآن " بالزملاء " وينشدون مواويلهم في سكون الليل. " يا زهرة الشباب نحييكم من القلب الحزين "، ويقتسمون معهم دخان اللفائف ... والشاي الأسود ... بل وغذاءهم أحياناً ... ويحملون رسائلهم داخل الجدران وخارجها ... ولكن لكل رجل عالمه الخاص ... ينبغي أن تعرف حدوده وأن تحترمها ... وبين عالم " السوابق " وعالم " السياسيين " توجد فواصل.

بقي منتظرًا في زنزانته معرضًا عن قيراوانة العدس، يحملق في الجدار الأملس. أدرك من ظلال النافذة التي زحفت حتى وصلت إلى أسفل الباب، ومن ضجيج الأصوات الذي أخذ يختفي حتى أصبح طنينًا بعيدًا، ومن توقف الأحذية الغليظة عن السير فوق الطرقات خارج الزنازين، وتوقف الأبواب عن حركة الفتح والغلق، أن الساعة قاربت على القيلولة. أسند ظهره على الجدار ودخل في نصف إغماضة، في حالة ما بين اليقظة والنوم، كالحارس الذي غلبه النوم، ولكنه لا يستطيع أن يستسلم له تمامًا. فوجئ بالمفتاح يدور في الباب، فرفع رأسه ليجد عبد الغفار واقفًا أمامه. نظر إليه الحارس بعينين صغيرتين عجوزتين وقال:

" هيا بنا يا دكتور، سيد يريد أن يراك ".

" سيد؟. أهو هنا؟ "

" نعم عاد مع دفعة " الأوردى " اليوم ".

خرج من الباب. سار عبد الغفار أمامه فوق الطرقة الطويلة إلى أن اقتربا من الطرف الآخر للعنبر، مارين أمام صف الأبواب حتى وصلا إلى الحجرة رقم ١٦٣. انتظره عبد الغفار وأشار إليه بالدخول فدلف من الباب ليجد رجلاً جالسًا القرفصاء، وقد توجه بنظره في ثبات جامد إلى شيء فوق الجدار المقابل له.

قال عبد الغفار:

" يا سيد ... الدكتور عزيز حضر ".

قام الرجل واقفًا بصعوبة، مسندًا يده على الجدار خلف ظهره، ثم التفت ناحية الباب بجسمه في حركة بطيئة حذرة. وقع الضوء الخافت على وجهه المتغضن، تبدو ملامحه غامضة في نصف الظلام. مساحة بيضاوية شاحبة، تحيط بها هالة سوداء صنعتها الذقن الطويلة الكثة الملتفة

حول الوجه. اقترب عزيز منه، مادًّا يده إليه، باحثًا عن العينين. رفع سيد رأسه المطرقة إلى الأرض، فوجد عزيز نفسه يحملق في دائرتين من البياض المشوب بالزرقة. أحس بيد سيد تبحث عن يده فأمسك بها. بقي الرجلان واقفين هكذا قرب باب الحجرة، متواجهين، صامتين وقد تشابكت أصابعهما كأنها لا تريد أن تنفك. التفت أصابع سيد الرفيعة كأسلاك من الصلب حول يده، وتعلقت بها بكل ثقل الجسم النحيل. تسمرت نظرة عزيز على العينين ... ماذا جرى ...؟! هاتان الدائرتان الحمراوتان كالإطارين من المطاط الأحمر، وكأن اللحم الذي تحتهما نما نموًا سرطانيًا ... والمساحة البيضاء المشوبة بالزرقة مكان المقلتين، كرتان من النار مدفونتان في المحجرين العميقين تشتعلان في السحنة البيضاء ... وتحملقان في الفراغ أمامهما ... كرتان لا تريان شيئًا، وتطلان من الوجه الناحل الرفيع، كوجه المومياء، بعظامه البارزة، يكسوها الجلد المتهدل. أحس عزيز بشيء ككتلة من الحجر تستقر تحت ضلوعه، وتتقلب ببطء. أسند يده اليسرى إلى إطار الباب وبرزت حبات العرق البارد على جبينه.

" اجلس يا سيد ".

جلس الرجل وهو ما زال يمسك بيده، وأخذ يجذبه حتى جلس إلى جواره.

" الحمد لله على السلامة ".

" الله يسلمك ".

أخذ عزيز يبحث عن الكلمات.

" متى حضرت "؟ ...

" اليوم ".

" عدت بسرعة ... أنا سعيد بأن أراك ثانيًا ".

" أشكرك ".

" كم من الوقت مضى منذ أن رحلت "؟

" ثلاثة شهور ".

" ثلاثة شهور فقط؟ " صمت سيد ثم نطق بصوت هامس فيه حشرجة غريبة وكأنه يختنق:

" نعم، ثلاثة شهور فقط ... لكنها لم تكن مدة قصيرة. كانت طويلة كالعمر كله ... بل أطول من العمر كله ".

صمت عزيز لحظة ثم قال:

" قل لي يا سيد ... ما رأيك في فنجان من القهوة "؟

" تقرأ أفكاري يا دكتور عزيز ".

التفت عزيز إلى عم عبد الغفار، فبادره الأخير بقوله دون أن ينتظر " في المخبأ عند متولي " سأذهب الآن وسأرسل لكما القهوة ".

رد الباب خلفه دون أن يغلقه وانصرف.

ساد الصمت في الحجرة الصغيرة. دار عزيز بعينيه حول السقف، والجدران، والنافذة، وعلى البطانية الداكنة المفروشة، ثم استقرتا على قدمي سيد. القدمان تبدوان كالخشب المحروق تحت التراب، والقذارة المتراكمة، والأظافر سوداء، طويلة كالأنياب. إصبعان من القدم اليسرى مبتورتان، وفوق ظهر القدم جرح غائر أخذ يلتئم.

" اقترب مني يا دكتور عزيز ".

زحف عزيز مسافة قصير فوق البطانية على قرافيصه حتى اقترب منه. الجسد الرفيع مختفٍ في الثوب الأزرق، الباهت، الممزق عند المرفقين، والركبتين، وفوق الصدر، وعند الكتف الأيمن، كاشفاً عن مساحات من اللحم الشاحب المتسخ. رفع عينيه إلى الوجه مرة أخرى ...

هذا المنظر البشع للعينين. أخذت كتلة الحجر تتقلب ببطء في جوفه من جديد، وأحس كأن شيئًا مرًا يصعد إلى حلقه ويفيض منه.

استطرد الرجل في صوته الهامس المتحشرج:

" كيف حالكم يا زميل عزيز "؟

ابتسم لاستخدامه كلمة زميل ...

" نحن بخير ... ولكن أنت ... كيف حالك "؟

" كما ترى ".

" أراك نحيلاً بعض الشيء. ولكن هذا أمره سهل. قليل من الغذاء وستعود كما كنت ".

ندت من الشفتين الغليظتين ضحكة ساخرة قصيرة.

" يا زميل عزيز ... لا تتحدث معي هكذا. لن أعود أبدًا كما كنت. أنا انتهيت ". قالها في يأس عميق وتنهد.

" انتهيت ... سيد يقول أنه انتهى ".

" نعم أنا انتهيت ... ألا ترى "؟؟

" ماذا "؟

" لا تثير غضبي ... ماذا يساوي الإنسان بدون عينيه ".

صمت عزيز بحثًا عن كلمات يقولها فلم يجدها.

" لماذا سكت "؟

انتزعه الصوت الهامس من صمته:

" كيف حدث هذا يا سيد "؟

تردد لحظة ثم أجاب وهو ينطق الكلمات في بطء متعثر كأنها تخرج من حلقه بصعوبة:

" وضعت الكوبيا في عيني ".

هتف عزيز في دهشة متسائلة:

" أنت وضعت الكوبيا في عينيك "؟

" نعم ".

" لماذا "؟

" حتى أعود من الأوردى ". سكت لحظة ثم استطرد. " أتعرف أنني لم أعد من الجحيم "؟

" لا أفهمك ".

" بعد أن رأيت الأوردى ... لم يعد هناك ما يخيفني في الجحيم ".

الكلمات تعود إليه الآن، وهو راقد فوق السرير، ووجه غريب يحوم في الهواء حوله ... وجه فيه محجران كبيران تملأهما كرتان من اللحـ م الأحمر المشتعل، ومساحة من البياض الأعمى.

" ركبنا القطار إلى المعمورة. أتعرف ما هي المعمـ ورة. مسـ ـاحة شاسعة من كثبان الرمل الأبيض تنغرس فيها الأقدام حتى السمانة. مساحة تمتد بطول البحر من المنتزه حتى " أبي قير " ... أرض جميلة بيضـ ـاء، ترقد في هدوء تحت السماء المفتوحة، تجتازها نسـ ـمات دافئـ ـة، ويأتيـ ـك عبرها صوت أمواج البحر وهي تسقط فـ ـوق الشـ ـاطئ. أراد الملـ ـك أن يحولها إلى حدائق للفاكهة. فتفتق ذهن حيدر باشا عن فكرة عبقرية. لماذا لا يستغل المسجونين في استصلاح الأرض. أيدٍ عاملة لن تكلف شيئاً.

كنا نسكن أكشاك طويلة من الخشب، غطيت بسقف مـ ـن الصـ ـاج. الصقيع والرياح تجعلها كالثلاجات في ليالي الشتاء، والشمس تحرقها فـ ـي الصيف ... لم يكن يصرف للمسجونين سوى بطانية واحدة عبـ ـارة عـ ـن خرقة بالية لا تكفي لتغطية الجسد، فننكمش في الشـ ـتاء حـ ـول بعضـ ـنا،

يحاول كل منا أن يمتص شيئًا من حرارة الجسد النائم بجـ واره. وتحـ ـت الأجسام لا شيء سوى الخشب.

قسمونا إلى مجموعات من ستة عشر. كل واحد من السـ ـتة عشـ ـر رجلاً وُضِع حول قدمه اليسرى قيد من الحديد، والقيود الحديدية متصـ ـلة في سلسلة واحدة تربط الستة عشر رجلاً. فإذا ساروا، ساروا سـ ـويًا ... وإذا توقفوا توقفوا سويًا. في ليالي الشتاء الطويلة إذا أراد أحدنا أن يذهب إلى دورة المياه كان يوقظ الباقين من نومهم، ويسحبهم معه، ولذلك كثيرًا ما أحسست وأنا نائم في الظلام برجل يتبول، أو يتبرز، إلـ ـى جـ ـواري، فتسيل فضلاته علي. كانت هذه وسيلة سلطات الأوردى في الحيلولة دون أن يهرب أحد من المساجين، في غفلة من الآخرين. فإذا هرب أحد منهم وقع العقاب الجماعي على الباقين. والعقاب الجمـ ـاعي فـ ـي " الأوردى " كفيل بأن يقنع أقوى الرجال، وأكثرهم شهامة، بأن يبلغ فـ ـورًا عـ ـن أيـ ـة محاولة، أو شبه محاولة للهروب.

كنا نستيقظ في الصباح الباكر قبل طلوع الشمس، صفوف مرتعشة في الضوء الباهت، تقف أمام دورات المياه، تنتظر دورها. الحيوان عندما يقضي حاجته يتوارى في ركن بعيد عن الأنظار، ولكن هنـ ـا، لا مجـ ـال للحياء. فالرجل يجلس فوق الفجوة المحفورة أمام عشرات العيون، أمـ ـام الجموع الغفيرة الملتفة حوله. ربما قلت لي، أنه في كل صباح، وفي كـ ـل السجون يتكرر هذا المشهد. مئات الرجـ ـال كالنيـ ـام، بعيـ ـونهم نصـ ـف المغمضة، وكأنهم لم يستيقظوا بعد، يقفون أمام دورات المياه المفتوحة في ثياب باهتة، ممزقة، ينتظرون دورهم، وصف من الرجال، تعـ ـروا مـ ـن سراويلهم، وجلسوا القرفصاء فوق مساحة مربعة من الصـ ـيني الأبـ ـيض تتوسطها فجوة سوداء، والأفخاذ المفتوحة تسقط من بينها الثعابين السود،

وأصوات البصاق، والتجشؤ، والغازات، والإخراج، وخرير المياه المتدفقة، والروائح النفاذة تنقبض لها عضلات المعدة، والبلعوم، فتشعر بسائل أبيض مر يصعد حتى الحلق، وبغثيان يكاد أن يصل إلى درجة التقيؤ. هكذا يبدأ يوم المسجون.

ولكن هنا في الأوردى تصبح الصورة أكثر بشاعة. فأقدام المسجونين تصل بينها سلسلة واحدة طويلة من حلقات الحديد. وبينما يجلس زميلك في دورة المياه، تجد نفسك مضطرًا إلى الوقوف بجواره، لأن قدمك اليسرى مربوطة في قدمه. وقدمك اليسرى هذه مربوطة أيضًا في باقي الرجال الذين يقفون خلفك في صمت، لا ترى وجوههم في الضوء الباهت، ولكنك تحس بعيونهم نصف المغمضة تحملق في الرجل الجالس القرفصاء، وقد أبعد ركبتيه قليلاً، وأسند ذراعيه ورأسه فوقهما، وكأنه يواصل النوم في وضع جديد.

كنت تقول لي أن الإنسان خلق لكي يعمل. أنا ابن المدينة لم أكن أعرف شيئًا عن الفلاحة. كنت أسمع فقط عنها، عن النبات الأخضر عندما ينبت، وعن المياه السمراء عندما تجري فوق الأرض، وتلمع في ضوء الشمس. وأحيانًا كنت أفكر في أن مثل هذه الحياة لابد أن تكون أكثر جمالاً من تلك الليالي المتوترة التي كنت أقضيها، منتظرًا الوقت المناسب لاقتحم المنزل الذي اخترته. حقًا كانت تجري النقود جريًا بين أصابعي، ولكن مهما كان المال، فإن الإنسان يحن إلى هدوء البال.

كنا نعمل يا دكتور عزيز ... في استصلاح الأرض. ولكن مهما حاولت أن أصف لك ما يجري هناك، فإنك لن تستطيع أن تدرك ماذا تعنيه كلمة " العمل " في " الأوردى ". المشروع كان يتطلب تسوية الأرض، وتغطيتها بطبقة من الطمي الأسمر على طول المساحة الممتدة

بين المنتزة وأبي قير. لا أعرف كم هي هذه المساحة. ولكنني كنت أحس أحياناً أنها بلا حدود، كالسماء المعلقة فوقها. أنشئوا خطين ضد يقين من القضبان، وفوق الخطين كانت تسير عربات من الصلب مثلثة تحمل في جوفها العميق أكداسًا من الرمل، والطمي الأسود. وكل عربة يدفعها أربعة من المسجونين، خلعت عنهم قيود الحديد. والمشي هنا ممنوع، فلا بد أن يتم العمل بسرعة. والسرعة تتطلب الجري ... الجري عبر المسافة الطويلة التي تمتد طولاً أو عرضًا. وعلى جانبي الطريق صف من الحراس، وفي يد كل حارس " شومة " أو كرباج. والمساجين يدفعون العربة فوق القضبان، ويجرون بين صفوف الحراس ... والحراس يضربون ... يضربون دون توقف طوال الطريق ... وحتى يستمر الجري لابد من أن يستمر الضرب طوال الطريق ... وطوال النهار ... من اللحظة التي ترتفع فيها الشمس عند الأفق ... إلى الساعة التي تسقط فيها خلفه.

كنا نجري حتى نسقط من الإعياء ... فإذا سقطنا زاد الضرب، وتجمع الحراس حول الجسد المنهك كالكلاب تنهش فيه ... وبدلا من عصا واحدة تنهال عشرات العصي ... ولا سبيل إلى الإفلات سوى بأحد أمرين. إما الجري من جديد ... أو الموت.

وكانت هناك فترة راحة ... عند الظهيرة. نأكل فيها ... كل أربعة قيراوانة من العدس، وأربعة أرغفة من الخبز العطن، وقليل من الملح ... ولكل مسجون كوز من البوظة ... إي والله كوز من البوظة حتى ننعش فالبوظة كالبنزين ... نوع من الوقود ... تعطي دفئًا كاذبًا ... فالمساجين كثيرون ... والمعين لا ينضب ... كل ستة شهور دفعة جديدة تأتي إلى الأوردى.

وعندما ترقد فوق الأرض في الليل ... بجسدك المنهك ... والألم ... وصوت الأنفاس ... ورنين الحديد عند قدم تتحرك ... تحلق أفكارك فوق الرؤوس ... وتطير ... عندئذ يبدو السجن هنا كالجنة ... والعودة إليه كالحلم اللذيذ ... فلا تستطيع أن تفكر في أي شيء إلا العودة ... العودة. كيف يمكن أن أعود؟!

وطريق العودة معروف ... الكل يعرفونه ... في صندوق من الخشب ... أو فوق نقالة ... ولا يوجد طريق آخر ... إذا أردت أن تعود حيًا لابد من أن تصبح عاجزًا عن العمل ... والوسائل كثيرة ... ومعروفة ... رأيناها جميعًا ... واستخدمها الكثيرون. يمكنك أن تضع يدك تحت العجل فتبتر ... أو قدمك ... أو حتى ساقك. ويمكنك أن تضع شيئًا في عينيك فتفقد البصر ... فالحياة بدون ذراع ... أو ساق أفضل ... الحياة بدون عينين أهون من هذا العذاب ... وأثناء النهار تسمع الصرخات ... صرخات الذين يضربون أو يسقطون ... أو يضعون أطرافهم فوق القضبان ... وعندما تجري خلف العربة، وتدفعها أمامك، تقع عينيك على بقع الدماء القانية ... فوق القضبان ... وعلى سطح الرمل الأبيض ".

صمت لحظة طويلة كأنه يسترجع ما مضى ... والتفت ناحية عزيز بوجهه الأبيض تحيطه الهالة السوداء وتشتعل فيه كرتان حمراوتان من اللحم المنتفخ.

" أما أنا فقد اخترت الكوبيا ... لماذا؟ لا أدري ... فجسدي صغير ... وأنا أخاف من الألم. ظننت أن الكوبيا أسهل ... أقل إيلامًا ... أو ربما ... ربما لأنني أردت أن أعود على قدميَّ ... أن أمشي بنفسي ... لا يحملني أحد ".

بقى عزيز صامتاً عاجزًا عن الكلام. أحس بالكتلة الحجرية تحت ضلوعه تتضخم وتزداد ثقلاً. أظلمت الحجرة، فالتفت إلى النافذة ليجد سحابة كثيفة معلقة فوق مساحة السماء كأنها لا تتحرك. مد يده ليضعها فوق كتف سيد، ولمست أصابعه العظمة الرفيعة البارزة تحت الثوب. فتح باب الزنزانة فجأة وأطل عماد من الفجوة يحمل قطعة مستطيلة من الصفيح، وُضع فوقها كوبان صغيران من القهوة، يتصاعد منهما البخار. قال:

" جئت بدلاً من متولي لأسلم على سيد ".

انحنى ليضع القهوة على الأرض في حرص، ثم انتصب من جديد، وتقدم داخل الحجرة. في تلك اللحظة لمح عيني سيد تحملقان فيه. توقف جامدًا مكانه، وشحب وجهه إلى أن أصبح في بياض الورق. أسند ظهره على حافة الباب بحثت يده عن الأكرة لتمسك بها.

جاءهما صوت سيد يهمس:

" من الذي جاء يا دكتور عزيز "؟

" عماد ".

" عماد؟ " قام واقفًا ومد يده.

" أهلا يا أستاذ عماد. أهلاً ... أهلاً ".

تقدم عماد داخل الحجرة ومد يده نحوه. بدا عليه الذهول، وتجمدت ملامحه كأنه يقاوم شيئًا أخذ يصعد من أعماقه.

جلس سيد من جديد، وقد جذب عماد ليجلس أمامه. قال عزيز كأنه يريد أن يقطع الصمت:

" ناولني القهوة يا عماد ... متشكر ".

وضع كوبًا في يد سيد.

" أساخنة هي يا سيد "؟

" لا " ... أخذ رشفة صغيرة ثم قال " الله ".

ساد الصمت في الحجرة لا تقطعه سوى رشفات القهوة تمر بين الشفاه. أخرج عزيز علبة سجائر من جيبه وأشعل واحدة منها ثم قال:

" خذ يا سيد سيجارة " التفت إلى عماد. " كان سيد يحكي لي ما حدث في الأوردى ".

* * *

وسيد في ذهنه يقترن دائمًا " بأبي الوفا "، فالاثنان لم يكونا يفترقان أبدًا. ذهبا إلى الأوردى سويًا، وعادا منه سويًا. عاد سيد وهو يمشي على قدميه. وعاد أبو الوفا جسدًا محمولاً على أكتاف الآخرين، فهذا العملاق الضخم أصبح، بعد ثلاثة أشهر، جسدًا واهنًا عجزت ساقاه عن أن تحملاه.

لقد كان محكومًا عليه قبل أن يذهب. هكذا قال الذين يعرفون، فللأوردى قانونه الخاص، أو تجسيده الخاص لقانون عام، قانون يسود منذ قديم الزمان، منذ أن أصبح على الأرض حكام ومحكومون، ملاك ومملوكون، سجان ومسجونون.

كان أبو الوفا رجلاً ضخمًا، والجسد الضخم في الأوردى يلفت الأنظار، ويثير اللعاب في أفواه الذئاب، ويشعل الأحقاد في القلب الجبان، ويستفز الجبار، ويبدو كالتحدي في عيون الطغاة. الجسد الضخم لابد أن ينهار، والقامة الطويلة لابد أن تركع، والرأس العالية لابد أن تسقط. هكذا يقول قانون الأوردى غير المكتوب. هكذا قالت الأقدار.

ولذلك منذ اللحظة الأولى لوصوله تكاتفت عليه كل قوى الحراس، دخل من الباب الكبير، فالتفتت حوله العيون، يطل منها نهم غريب، ويحيط السواد، احمرار البياض. وقف حوله الحراس في دائرة واسعة، ثم

أخذت الدائرة تضيق، وتضيق، حتى أصبحت كالجدار الأصفر، واختفى الرجل وراءه، فلم يعد يظهر منه سوى كتفان عريضان، والرأس العالية، وعينان هادئتان تطلان من فوق الجدار، ثم امتدت إليه عشرات الأيدي، كأن كل يد تريد أن تنهش قطعة من لحمه، ومال الجدار بشدة إلى الأرض.

بقي دقيقتين كشجرة الجميز يقاوم عاصفة عاتية، ثم اختفى تحت ضربات القبضات المرفوعة، والأحذية السوداء، تدوس عليه في غل دءوب. وقفت جموع المساجين بأقدامها العارية، وثيابها الباهتة، تشاهد ما يدور في صمت. ارتفع من الأجساد المتصارعة صوت غريب مرعب، كصوت وحش يفترس ضحيته بعد جوع طويل، شيء كالحشرجة النهمة، يتخللها إيقاع معدني كالأسنان تصطك في الأسنان بانتظام.

ظل أبو الوفا مختفيًا تحت الكومة الصفراء، تتحرك بانتفاضات فجائية، كأن قوة مستترة تموج في أعماقها، ثم ظهرت فجوة وسط الأجساد المتلاحمة المختلطة، وتناثر الرجال على الأرض حوله فجأة، ليظهر من جديد. استند على يديه وركبتيه، يبدو بجسمه الضخم، وثوبه الأسود، كالثور المصارع. ثم وقف على قدميه ببطء، ودار بعينيه الهادئتين على الحوش الكبير كأنه يبحث عن معين.

انقض عليه الحراس من جديد. ظهرت العصي الطويلة الغليظة في الأيدي المرفوعة، وأخذت تصفر في الهواء، وترتطم باللحم في صوت مكتوم. مال الرجل تحت الضربات، يحمي جسمه بذراعيه، ويخفي رأسه في الصدر العريض. ثم جثم على الأرض. ومال فوقه الجدار من جديد.

هكذا بدأ أبو الوفا يومه الأول في الأوردى. ومنذ ذلك اليوم لم يعرف لحظة من الهدوء. لم يكن يمر أمام حارس من الحراس دون أن

يناله شيء من الأذى. ضربة عصا، أو ركلة قدم، أو كف غل يظ ينه ال على وجهه المفتوح، أو رأسه الكبيرة. وإذا ما دفع العربة ف وق قضـ بان الحديد، وجرى عبر مساحات الرمال البيضاء، تربص به الحراس عل ى طول الطريق، ينتظره كل واحد منهم لينهال عليه بضربات من عصاه.

كانوا يسوقونه بسرعة إلى حتفه كالثور الكبير في حلبة المصارعة، ينتظر المتفرجون نهايته المحتومة في لهفة، ويتابعون بعيون جامدة الجسد الضخم في ثوبه الأسود، يجري بقفزات طويل ـة ف وق كثب ـان الرم ـال البيضاء.

كانت قيراوانة العدس الصغيرة، والأرغفة الثلاثة العطنة، والك وب المعدني من " البوظة " لا شيء بالنسبة للرج ـل العم ـلاق، ال ذي ك ان يصرف كل مرتبه على الأكل أيام عمله حمالاً في محط ـة الإس كندرية. فالأجساد الصغيرة مطالبها أقل. أما هو فأخذ يذوي بسرعة رهيبة، وتحول الجسم إلى هيكل من العظم، بقايا جبارة توحي بالجسد المفق ود، والق وى الضائعة، هيكل من العظم تهدلت حوله طبقات الجلد الأسمر الذي أخ ذت تشوبه صفرة مريضة.

لم يمر أكثر من شهرين حتى أصيب بإسهال مفاجئ، أمكنه التحكم فيه أول الأمر، ولكن سرعان ما أخذ يسيل منه حيثما سار، أو جل س، أو رقد.

وفي الفجر الباهت ليوم من أيام الربيع، بع د ثم انين يومً ا م ن حضورهم إلى الأوردى، استيقظ الصف المسلسل من الرجال، ونفض عن نفسه بقايا النوم، وبقايا الأغطية الممزقة، وأخذوا يدلكون الأقدام، والسيقان المتجمدة، تحت ضغط القيود. ثم انتصبوا واقفين الواحد تلو الآخر. ولكن عندما تحرك الطابور، أحس بثقل يمنعه من السير. تلفتت العيون حوله ا

لتجد جسدًا ممددًا تحت الغطاء، جسدًا يأبى أن يقوم. شدوا عليه بالسلاسل، والتفت حوله الأذرع، واندفعت أطراف العصي في ثنايا جسده. ولكن الرجل كان قد فقد قواه. وهكذا بقي أبو الوفا راقدًا فوق ألواح الخشب، جسدًا عاجزًا عن الحركة، تفوح منه رائحة العفن، والعرق، والبراز.

وهكذا وجده عزيز في ذلك الصباح الدافئ، من شهر أبريل، كان قد استأذن عم " عبد الغفار " في أن يتسلل عبر الطرقة الطويلة الممتدة أمام زنازين المرضى، وأن يفتح باب الحجرة رقم ٩٣ حيث يرقد أبو الوفا، بالمفتاح الكبير. فالتذكرة الخضراء الجديدة في درج مكتب " عم عبد الغفار " و التي قيدها بالأمس في دفتر دور ٦ تقول الآتي:

الاسم: أبو الوفا مصطفى الحراج.

السن ٢٧ عامًا. من مواليد قنا.

العمل: حمال، بمحطة الإسكندرية.

الحكم: ثلاث سنوات سجن.

الزنزانة: رقم ٩٣. ملاحظة.

أدخل المفتاح، في الثقب وأداره في الباب، ضاغطًا بيده على القبضة الحديدية لتدور مع المفتاح في نفس الاتجاه. ترك الباب مواربًا، وعاد مسرعًا إلى " عم عبد الغفار ". سلمه المفتاح، ثم جرى عبر الطرقة إلى باب الزنزانة. دفعه بيده ودخل.

صدمته رائحة قوية نفاذة كاد أن يتراجع أمامها. كان أنفه قد تعود كثيرًا من الروائح، وتعود أن يتقبلها، أو على الأقل أن يعيش معها. ولكن الرائحة التي صعدت إلى أنفه هذه المرة كانت مختلفة عن كل ما عرفه، رائحة كالزهور العفنة، جعلت أحشاءه كلها تتقلص، وتتقبض في حركة لا إرادية. رائحة الجسم عندما يفقد السيطرة على وظائفه الطبيعية بعد

مرض طويل، رائحة الأنفاس المعلقة في الحيز المحدود، والطعام، والعرق، والفضلات، والبول.

بدت الحجرة خالية أول الأمر. على اليمين، بجوار الجدار، رأى قيراوانة من اللبن، غطت سطحها الأبيض قشرة داكنة من الغبار، والذرات السوداء التي تتطاير من مدخنة المغسل المجاور، والحشرات الصغيرة، وتسبح وسطها ذبابة كبيرة مدت أطرافها وأجنحتها الشفافة حولها. وإلى جوار القيراوانة رقد في إهمال رغيف مستدير من الخبز الأسمر، كأنه لم يجد من يوليه اهتمامًا، فانزوى في كآبة عند أسفل الجدار. وعند الركن القصي انتصب جردل البول الفارغ يلتصق به جردل آخر من الماء بدون غطاء، تسبح فوقه ذرات كثيفة من التراب والدخان، كأن ساكن الحجرة لم يعد يهمه أن يفصل بينهما كما يفعل الآخرون، حتى لا يخلطوا بين الاثنين في ظلام الليالي الطويلة.

عند الجدار الأيسر لمح شيئًا مستطيلاً مرتفعًا عن الأرض، تغطيه بطانية قديمة ممزقة، تبدو كالخرقة البالية من كثرة الاستعمال. وفوق هذه البطانية أسراب من الذباب الأسود رؤوسها متلاصقة، استقرت في دوائر صغيرة، متعددة، حول البقع الداكنة التي تتخلل النسيج المتسخ، وانصرفت في انهماك نهم عما حولها، وكأن لا شيء يستطيع أن يبعدها عن الموقع الذي استقرت عليه.

من تحت حافة البطانية كان ينتشر سائل أبيض، غريب، يحيط بالشيء المستطيل الراقد تحته من كل جانب، ما عدا كومة صغيرة مستديرة انزوت في الركن البعيد، تبدو كأنها رأس إنسان. توقف عزيز وسط الحجرة مترددًا. أحس بأحشائه تتقلب بعنف في أعماق البطن، وبرغبة شديدة في القيء، كتمها بمجهود، محاولاً أن يفكر في شيء آخر،

غير تلك الرائحة التي تنفذ خلال أنفه، وفمه، ومنظر الذباب كجيش من الغزاة فوق السهول والجبال، والسائل الأبيض الغريب الذي يزحف من تحت حافة البطانية فوق أرض الزنزانة.

بذل جهدًا عنيفاً، واقترب في حذر من الجسد الممدود. رفع طرف البطانية عند الركن البعيد للحجرة، وتسمرت نظرته على الوجه الذي انكشف من تحتها. في تلك اللحظة تفتحت العينان فرآهما تحملقان بنظرة إنسان فقد الإحساس بكل شيء، فلم يعد يدرك ما يدور حوله، أو يحس به، ولو من بعيد، أو يعيره اهتمامًا. بل لم يعد قادرًا حتى على التمييز، أو معرفة الذين يقفون حوله. استمرت العينان تحملقان في عزيز بتلك النظرة البلهاء، الفارغة، دون أن تطرف جفونهما، وكأنهما عينا جسد ميت، تجمدت جفونهما، فلم تعد قادرتين على الحركة. الفم مفتوح قليلاً يسيل منه خيط رفيع من اللعاب الأبيض، وعند الركبتين تراكمت قشور من الجلد الجاف. الشفتان رفيعتان هرب منهما الدم الأحمر، وسيطر عليهما شحوب أزرق، والوجه متغضن، تخللته خطوط عميقة، ومئات التجاعيد، وتدلت فوق عظامه البارزة ثنيات الجلد لتسقط عند حافة الفك البارز. الرأس عارية من الشعر، ما عدا بعض الشعيرات المتفرقة البيضاء.

وجد عزيز نفسه أمام رجل عجوز يحتضر. رفع البطانية عن الجسم بحركة بطيئة فكاد أن يغمى عليه أمام بشاعة المنظر. لا شيء سوى عظام ضخمة تكاد أن تخترق أطرافها البارزة طبقات الجلد الرفيعة، وعشرات الجراح المفتوحة، وكأن الجسد أخذ يتشقق من فرط العذاب، وفي أعماق الجروح مئات الديدان الرفيعة البيضاء، تنثني وتتمدد، وتدور، في حركة مستمرة، وكأنها لا تريد أن تكف عن تعذيب الجسد الذي لم يعد يحس بالتعذيب. شد عزيز البطانية بحركة عنيفة سريعة ليعري الجسم

الممدود تحتها. الجزء الأسفل عارٍ تمامًا من أول السرة حتى أخمص القدمين. البطن عبارة عن فجوة عميقة تكاد تلمس الظهر، والمحاشم تبدو ضخمة مفزعة في الجسد النحيل الضامر. الساقان، ذاب لحمهما، ولم يبق فيهما سوى العظام الطويلة تنتهي عند الإليتين في كتلتين بارزتين، تغطيهما قرحتان كبيرتان مسطحتان من اللحم الأحمر، ينز منهما صديد عطن. ومن بين الآليتين، رأى السائل الأبيض يسيل في خيط رفيع، مستمر، يخرج من الشرج.

أعاد البطانية فوق الجسد، ومال فوق رأس الرجل. أمسك باليد الكبيرة النحيفة الواهنة وهمس:

" أبو الوفا ".

حملقت فيه العينان الفارغتان، وتحركت الشفتان، برعشة خفيفة، كأنه يحاول أن يتكلم.

" أبو الوفا. ألا تسمعني ".

كرر الجملة في إصرار يائس، المرة بعد المرة بعد المرة.

" أبو الوفا. أنا عزيز. ألا تعرفني "؟

جاءته همسة غامضة. اقترب بأذنه من فم الرجل. أحس برغبة شديدة في القيء. فضغط على نفسه، ليسكت التقلصات الصاعدة من بطنه إلى حلقه. حاول أن يفهم شيئًا دون جدوى.

" أبو الوفا أتريد شيئًا "؟

رن الاسم في الزنزانة بصدى أجوف، كالذي يطلق نداءً في مغارة مهجورة.

" أبو الوفا، أبو الوفا، أبو الوفا ".

انتصب عزيز واقفاً، وابتعد عن الجسد الرائد. التقت نظرته بنظرة العينين الفارغتين. أدرك أن كل شيء كاد أن ينتهي، فاستدار في الحجرة، وأسرع عبر الباب هاربًا.

* * *

في ذلك اليوم استيقظ مبكرًا. كانت شعاعات الفجر الأولى تنساب من بين القضبان على الحجرة بضوئها الباهت المشوب بزرقة خفيفة، عندما جلس فوق البطانية ملقيًا عن نفسه بقايا النوم المتقطع. كان قد قضى الليلة كلها على غير العادة، متقلبًا فوق البطانية الخشنة التي تفصل بين جسمه وبين أسفلت الزنزانة، متنقلاً بين اليقظة ونصف اليقظة، وفترات قصيرة من النوم القلق، اكتظت بصور الأحلام الغريبة، صور متناقضة مصبوغة بألوان حمراء، وزرقاء، وخضراء داكنة، صور متداخلة لا معنى لها، ولا صلة بينها، كأنه واقع تحت تأثير مخدر قوي.

أسند ظهره للجدار، ودس ساقيه تحت البطانية ينتظر قدوم الصباح. تبخرت بقايا الوجوه، والألوان، تاركة وراءها شعورًا من الإرهاق، والانتظار المشحون بالتوتر، كأن اليوم القادم يحمل نذير أحداث هامة.

منذ أسبوع أرسل في طلبه الدكتور فؤاد لينبئه أن السلطات قد وافقت على خروجه للعلاج في القصر العيني. وبالأمس نادوا على اسمه في العنبر الكبير، بعد أن أغلقت الأبواب، وسكتت الأصوات "الدكتور عزيز ١٧٣١ القصر باكرًا". رن الصوت القوي في الفراغ العريض، فوقف، وأخذ يروح ويجيء بحركة عصبية فوق المساحة الصغيرة لأرض الزنزانة.

حياة السجن، كالبحر الهادئ، مسطح لا جديد فيه، حركة رتيبة لا تتغير، تقتل الإحساس بالتدريج، وتغرق كل شيء في الأعماق البعيدة،

فينسى فيه الإنسان حتى العالم الخارجي، حتى الذين يحبهم، حتى الأم والزوجة والأطفال، فهو لا يستطيع أن يعيش على التخيل المستمر، ولا أن يتحمل الجوع إلى أشياء لم تعد في متناول يديه. لابد أن يرضى، ويستكين، وينسى إذا أراد أن يعيش. وحياة السجن انتفاضات فجائية. يشتعل فيها الخيال فجأة، وتصحو العواطف، ويتحرك التمرد الدفين، كالعاصفة الخاطفة تجتاز المياه الهادئة برياحها الهوجاء، وأمواجها العالية، تضرب بعنف تحت السطح. هنا كل جديد، كل تغيير يقلب الأشياء رأسًا على عقب، ويقضي على الهدوء الظاهري، ويحرك ما دفن في الأعماق.

عندما علم أنه سيجتاز البوابة الكبيرة، ليخرج من وراء الجدران، تحركت فيه الحياة كلها. أرسل خطابًا على ورقة صغيرة كتبها على عجل وطلب أشياء لم يفكر فيها من قبل؛ حذاءً جديدًا، وبدلة سجن من التيل الأزرق، مكونة من سروال، وسترة طويلة تغلق من أمام بصف من الأزرار، وترتفع إلى أعلى برقبة مستديرة، وأربعة أزواج من الجوارب لونها كحلي، ومشطًا، ومناديل بيضاء، وملابس داخلية، فمًا للسجائر، وزجاجة كولونيا. لم تكن أشياء مسموحًا بها، فتحايل ليدخلها عن طريق المستشفى بالاتفاق مع أحد الممرضين، ثم نقلها قطعة، قطعة، في كيس أبيض صغير، من المستشفى إلى العنبر، أثناء تجولاته اليومية مع عم عبد الغفار.

كان يتحرك طوال النهار كعادته، ليقوم بالأعمال المطلوبة، ولكن ذهنه لم يكن مشغولاً بما يفعل. ينفذ الأشياء كالآلة الدقيقة، ويتصرف بحكم العادة دون أن يدري تمامًا ما يفعل، كالذي يقود سيارة في شارع مزدحم وهو منغمس في الحديث. أدرك بالغريزة التي تكونت عنده أن مرحلة جديدة في حياته قد بدأت منذ حديثه مع الدكتور فؤاد، وتزاحمت أمام

عينيه خيالات الأحداث القادمة، فانطلق في أحلام تحطمت أمامها كل الحدود. لأول مرة منذ أشهر طويلة انتابته صور معذبة ساحرة، صورة الزوجة النحيلة السمراء تدفع عبر باب الحجرة صبيًا صغيرًا مشرق الوجه، تلمع عيناه السوداوتان الواسعتان في ضوء النهار.

وفي تلك الليلة، ولأول مرة منذ سنين طويلة هرب منه النوم الهادئ، وانتابته تلك الأحلام القلقة، المزعجة، التي لم يعرف لها معنى. هل يمكن أن يخترق الأسوار، ليرى الناس في الشوارع، ويمشي عبر ردهات المستشفى، ويتبادل الحديث مع الناس العاديين، مع طبيب، أو ممرضة، أو مريض، ويلبس ثوبًا " مدنيًا "، ويأكل مثل الآخرين ويستنشق هواء الصباح، وهو يجلس في الشرفة المفتوحة المطلة على النيل، وتزوره أمه فيتحدث إليها حديثًا طويلاً، متصلاً، عن أشياء صغيرة، عادية، نسيها منذ زمن طويل، ويرفع طفله بين ذراعيه، ويلمس وجهه نادية بشفتيه؟ سيحدث شيء ما في آخر لحظة ليحول دون خروجه!!.

تمطع بذراعيه وظهره، وأصابه تثاؤب عصبي. قام واقفًا في الحجرة. ليست به رغبة اليوم لممارسة تمريناته الصباحية. تلفت إلى النافذة المفتوحة. أمسك بالقضبان، ورفع نفسه إلى أعلى حتى أصبح وجهه عند جزئها الأسفل. رأى حافة الشمس الحمراء تطل عند الأفق، وأحس بنسمة خاطفة على جبهته. أسقط نفسه على الأرض من جديد. سمع جرس التمام يرن في الحوش. بعد قليل جاءه صوت المفتاح يصطك بباب العنبر، فأدرك أن يومًا جديدًا قد بدأ في السجن.

كان قد اتفق مع عبد الغفار أن يفتح بابه قبل الآخرين. أحس بضيق مشدود إزاء الباب المغلق. متى يجيء الرجل؟ لماذا تأخر؟ لابد أنه نسيه ... ولكن عبد الغفار لا ينسى.

" لن أنساكم أبدًا " هكذا قال في يوم من الأيام. هذا الفلاح القناوي، ذو الجسد المربع ككتلة من الحجر الصلب، والذراعين القويتين الذي يخافه كل المسجونين. كان في يوم من الأيام، اليد الباطشة، وأداة الانتقام والتأديب التي تستخدمها سلطات السجن. الوجه العريض بعينيه الصغيرتين، العجوزتين، تطل منهما الحكمة، والطيبة، وقدر غير قليل من الدهاء اليقظ. لم يكن من السهل أن تخفي عليه شيئًا، فعم عبد الغفار يرى كل شيء من طرف خفي، دون أن تدري. الباب المفتوح بغير إذن يراه من آخر العنبر الطويل، وأدق الممنوعات يكتشفها مهما حاولت أن تخفيها، حتى شفرة الحلاقة التي يستخدمونها كقداحة، يستطيع أن يخرجها من الشق في الجدار أو الباب.

قضى جزءًا كبيرًا من حياته كشاويش للتأديب، يرسلون إليه أعتى المجرمين، ومحترفي الشغب، والمتمردين. وهو رجل متدين، يؤدي الفرائض بانتظام دقيق، عفيف النفس، لا يمكن أن تمتد يده إلى أكل السجن، أو النقود المخفية في ثنايا الملابس، ولا يشترك كالحراس الآخرين في عمليات التهريب، وتجارة الدخان، والسوق السوداء، التي يحيا عليها الكثيرون. يتحدى الأقوياء، ورؤساء العصابات، والبلطجية، بقلب لا يلين.

كان ينفذ الأوامر في طاعة عمياء. فالله في السماء، وعلى الأرض المأمور. وأوامر الرؤساء شيء يجب أن ينفذ بغير تفكير. ولائحة السجن كالقرآن الكريم، كتابان مقدسان يحكمان حياته في صرامة. وكلمة النظام ينطقها في رهبة واحترام، وكلمة " التعليمات " لا تقبل النقاش، تمامًا كنظام الكون. فالتعليمات تهبط إليه من أعلى، من السماء، ومن الرؤساء، سواء بسواء.

وفي التأديب كان يمارس هوايته المفضلة. ينهال طوال النهار على أجساد الرجال بعصاته الغليظة. لم يكن يتعب من الضرب أو يمل. لم يكن يرحم أو يلين. يسيل الدم الأحمر من الجروح، وتتكسر العظام، وتتحول الأطراف إلى كتل من اللحم المنتفخ، ولكن لا شيء يوقفه عن الضرب. إنه كالكلب المطيع، ينهش في الضحايا، ثم يجري إلى رؤسائه ليسمع كلمات الثناء " حسناً فعلت يا عبد الغفار. السجن أصبح فوضى. لابد من شد النظام ". فيقف أمامهم منتصب القامة، نافخاً صدره، كأنه يتلقى نيشاناً. " اضرب يا عبد الغفار، ولا تبالي بالتحقيقات، سنحميك في كل الظروف".

هكذا أصبح مشهورًا. فمن لا يعرف عبد الغفار الجبار. وهكذا أصبح مكروهًا. فمن لا يتمنى له أفظع الكوارث؟ حاولوا الاعتداء عليه عدة مرات. ولكنه كالوحش المفترس، يتوقع الهجوم في كل لحظة، ويحتاط له، ويرد عليه في لمح البصر. ومع كل محاولة فاشلة، اكتسب حصانة جديدة، فلم يعد أحد يحاول من جديد.

وهكذا استدعاه الرجل البدين ذات صباح وقال له: " أنت تعلم يا عم عبد الغفار أننا نثق فيك، ونعهد إليك بالمهام الصعبة. وقد آن الأوان لكي تترك التأديب ".

ظهرت عليه علامات الارتباك، كالسمكة التي يطلبون منها أن تترك المياه.

" لماذا يا أفندم، هل أخطأت في شيء "؟

" لا، على العكس نريدك في مهمة أكبر ".

" أمرك يا أفندم ".

" نريد أن تشرف على دور السياسيين. فقد انتشروا فـ ي العنبـ ر، وخرجوا عن كل الحدود. ونريد منك أن تعيد الأمور إلى نصـ ابها، وأن تفرض عليهم احترام النظام ".

" تعليمات سيادتكم ".

" نظف الدور من الممنوعات، لا كتب، ولا جرائد، ولا أقـ لام، ولا ورق، ولا شفرات حلاقة، ولا دخان، ولا شاي، ولا أي شيء لا يسمح به النظام ".

" حاضر يا أأفندم ".

" وكذلك لا أريد أن تفتح الأبواب. إلا عندما يـ ذهبون إلـ ى دورة المياه، وعند توزيع الأكل. ساعة على الأكثر في كل يوم ".

" حاضر يا أفندم.

" اذهب، واستلم الدور من الشاويش عطا الله ".

دك كعب حذائه الغليظ فوق خشب الأرض محدثًا صوتًا كالانفجار، واهتزت يده في تحية مشدودة، ثم استدار وانصرف.

هكذا استيقظوا في صباح أحد الأيام على وجه حارس جديد يفـ تح عليهم الأبواب، ويدور بعينيه الصغيرتين حول الحجرة في نظرة طويلـ ة فاحصة ثم يغلقها من جديد. وعلى الفور توتر الجو، فهذا النظام الجديـ د أثار شكوكهم. كانوا قد تعودوا على أن تفتح الأبواب كلها فـ ي الصـ باح، وأن يخرجوا سويًا إلى دورات المياه. فلابد أن هناك شيئًا في الجـ و ... لابد أن أمرًا ما يدبر لهم. هكذا حدثتهم أحاسيسهم المرهفـ ة مـ ن طـ ول الصراع خلف الجدران، ومن المعركة اليومية من أجـ ل الحفـ اظ علـ ى أنفسهم. نفضوا بقايا النوم عن أنفسهم، وأخفوا في حركات سريعة مدربـ ة كل الممنوعات. فكل شيء معد لأسوأ الاحتمالات. الحفرة العميقـ ة فـ ي

الأرضية الأسفلت تقود إلى مخبأ عميق يمتد تحت السطح في دائرة واسعة، ويسع كل شيء. بدءوا بالكتب، أثمن ما عندهم، وامتدت أيديهم تحملها برفق، وتدخلها تحت الحافة بحرص شديد حتى لا تتمزق عند الفتحة الضيقة. وفي الزنزانة رقم ٥٣ تعلقت عينا عزيز بعناوين الكتب. وهو يضعها بعناية في صفوف منتظمة. " الثورة العرابية " للرافعي، " عيون الزا " لأراجون، " مختارات لينين " الجزء الثاني، " القاعدة والاستثناء " لبريخت، " قانون الإجراءات الجنائية "، " بداية ونهاية " ... عشرون كتابًا يكونون كنزهم الثمين. فوق الكتب وضعوا الورق، والأقلام، ودفاتر ورق البفرة التي يكتبون عليها رسائلهم، وتقاريرهم، زجاج حبر، ورقًا لاصقًا، دخانًا، شايًا، سكرًا، بعض الصور والرسائل الشخصية، ساعة يد، أمشاطًا، وشفرات حلاقة، ومطواة حادة.

أمسك بقرص مستدير من الأسفلت، قطع من الأرضية بالمطواة، ووضعه في الفجوة. ثم عجن قطعة من لباب الخبز بين أصابعه، ومسح به فوق الفاصل، بين القرص وحافة الفجوة، في خيط رفيع دائري. ثم سكب قليلاً من المازوت الأسود المستخدم في طلاء الأرض، حتى يخفي بياض اللباب. طووا البطاطين بحذق في صف منتظم عند الجدار، تاركين اثنين منها فوق الأبراش الخشنة، ثم جلسوا القرفصاء ينتظرون. جاءهم نداء دافئ قوي يرن وسط الطنين الخافت للأصوات المستيقظة في العنبر " صباح الفل ". تلاقت عيون الجالسين في ابتسامة خاطفة. ترى من الذي ألقى بالنداء الساخر كالسلاح، يشهره عبر القضبان.

هكذا بدأت المعركة بينهم وبين عبد الغفار. ربما كانت ميزتهما أن عبد الغفار كان يعتز بنفسه، ويترفع عن اللجوء إلى إدارة السجن. فهو قادر وحده على هزيمة أعتى الرجال، ولا يحتاج إلى عون من أحد، بل

طلب العون في رأيه اعتراف بالهزيمة. كان ينتصر على الدوام. ففي كل المرات وقف الخصم وحده في حلبة الصراع. ولذلك كان لابد أن ينتصر. فعند حزامه يعلق مفتاح الباب، والباب يمكن إغلاقه يومًا أو يومين، بل أسبوعًا أو أسبوعين، وإذا لزم الأمر فلا مانع من أن يبقى مغلقًا على الدوام. وهو يحمل في يده عصاته الغليظة يستخدمها عند اللزوم بكل قواه الجبارة. وهو الذي يتحكم في مياه الشرب، والغذاء، والخروج إلى دورة المياه. وهو يستطيع أن يفتش زنزانة واحدة بسهولة، وأن يخرج منها كل ما تحرمه اللوائح: الشاي، والدخان، والملابس الداخلية، والصابون، بل كل شيء تقريبًا ما عدا بدلة السجن الزرقاء، والبرش، وبطانية واحدة في الصيف، واثنين في الشتاء، وجردل المياه، وجردل البول. وهو يعرف تمامًا كيف يتصرف ليسحق من يقف أمامه: قليل من الدهاء، وكثير من القوة، ودراسة دقيقة لطبائع الرجال الذي يتعامل معهم.

هكذا في اليوم الأول لمجيئه بدأ الصراع. والصراع ليس جديدًا عليهم. عاشوه في كل الظروف، وفي مختلف أشكاله. من المقاومة الهادئة المستترة للحصول على أشياء صغيرة، إلى التمرد المفتوح في مواجهة البنادق المصوبة بفوهاتها السوداء.

وخلال التجربة الطويلة، وأخطاء دفع ثمنها غاليًا، عرفوا قواعد اللعبة خلف القضبان.

وفي اليوم الأول لمجيء عبد الغفار كان لابد أن ينتظروا، ليروا ماذا سيفعل لهم الحارس الجديد. كانوا قد تعودوا أن تفتح عليهم الأبواب دفعة واحدة في الصباح، يذهبون إلى دورات المياه، وينتقلون بين الزنازين، ويتبادلون أحاديث الصباح حول طعام الإفطار، وينتظرون آخر الأنباء من الحجرة المنزوية في آخر الصف، حجرة تبدو عادية ولكنها

ليست كسائر الحجر. فهي بعيدة عن حارس الدور، يستغرق قدومه إليها ربع دقيقة على الأقل إذا سار بالخطوة السريعة، وبابها نصف مفتوح، يقف أمامه أحد الزملاء، مسندًا مرفقيه على الحاجز الحديدي، وكأنه يتسلى بالفرجة على الناس. وعلى بعد قليل منها جمع من أربعة، أو خمسة، يتبادلون أطراف الحديث، ولكنهم يسدون الطرقة الضيقة بإحكام مدروس، وعلى الجانب الآخر من الباب عند الفتحة المربعة المغطاة، والمطلة على الحوش عند آخر العنبر، جمع آخر مماثل، بحيث يمكن عرقلة أي حارس أثناء سيره نحو الحجرة. وخلف الباب الموارب يجلس اثنان من الرجال في ملابس السجن الزرقاء، على بطانية تغطي أرض الحجرة، أحدهما يقرأ في صحيفة بصوت عال، والآخر يمسك بقلم صغير، ويدون في سرعة مندفعة على قصاصات من ورق الأرز الأبيض. هكذا كانت تعد نشرة الصباح، لتبقي على خيوط متينة بينهم وبين العالم الواسع في الخارج، لتبقي عليهم جزءًا من الكل.

انتظروا فتح الأبواب، ولكنها لم تفتح. ارتفع الضجيج في العنبر المستيقظ، واختلط صرير المفاتيح تدور في الأبواب عند الأدوار العليا والسفلى.

الأقدام العارية تدب بوقعها الطري فوق البلاط الأملس، وطنين آلاف الأصوات، وبورصة الشاي والدخان، وتحيات اليوم الجديد، ونداءات الحراس على المرحلين أو الخارجين للمحاكمة أو للعلاج، ولكن دورهم ظل صامتًا، مهجورًا، مغضوبًا عليه. صف من الأبواب المغلقة كالقبور.

مرت أكثر من ساعات، وأخذ مربع الضوء الذي تلقيه النافذة يزحف من أعلى الباب، إلى وسط الباب، ثم سمعت آذانهم المرهفة من

طول الاستراق مفتاحًا يدور في باب عند أول الصف. أخذ نفس الصوت يتكرر على فترات منتظمة، تسبقه صدمة مكتومة لباب يغلق، ويزحف بالتدريج على طول الطرقة الطويلة.

أدرك سكان الزنزانة ٥٣ أن الحارس الجديد يفتح كل زنزانة على انفراد. جلسوا صامتين تعبث أصابعهم بأطراف البطاطين. قال حلمي بصوت هادئ:

" يبدو أنه لن تصلنا أخبار الصحف اليوم ".

علق عليه شاب طول القامة، كان يجلس في ركن الحجرة:

" وأننا لن نرى الشمس ".

ضحك الآخرون، وارتفعت الأصوات " الشمس، الشمس. أنت عباد الشمس ".

" أليست زهرة جميلة "؟

قال عزيز:

" جميلة، وطويلة مثلك ".

صعد احمرار مفاجئ إلى وجه الشاب:

" أنت طبيب يا عزيز. أليست الشمس هي الحياة "؟

ابتسم عزيز.

" نحن نمزح معك. يا أخي، لا تأخذها جَدًّا هكذا ".

سمعوا صوت المفتاح في الباب المجاور، وزحف أقدام خفيفة تتحرك بالقرب منهم، تتلوها خطوة ثقيلة تدب فوق الأرض. قال حلمي:

" الدور علينا الآن. ألم ننس شيئًا خارج المخبأ "؟

فحص كل منهم المساحة التي يجلس فوقها، والملابس التي يرتدونها، ودفع الشاب نفسه حتى النافذة على ذراعين قويتين ليتأكد من

أنهم لم ينسوا شيئًا، ومر بعينيه على الجدار والقضبان، ثم أسقط نفسه على الأرض من جديد. نقل حلمي الجردلين من مكانهما، ووضع أحدهما فوق مكان المخبأ، ثم عادوا جميعًا إلى الجلوس.

مرت الدقائق. عادت الخطوات الخفيفة تحتك بالأرض البلاط، وتلاها الدبيب الثقيل للحذاء الميري، ثم صوت الباب المجاور يرتد مكانه. اصطدم المفتاح بالخشب السميك، كأنه يبحث عن فتحة الكالون. ارتفع الصرير المتقطع يخترق آذانهم كصوت المنشار فوق أعصاب مشدودة، وانفتح الباب واسعًا. وقف الرجل ذو الجسم العريض، وعينين صغيرتين تطلان في نظرة ثابتة، وتدور ببطء على وجوه الجالسين. تذكر عزيز لحظة وجه الأسد في قفص الحيوانات.

قال في صوت خفيض:

" تفضلوا ... دورة المياه ".

رمقه الجالسون في نظرة هادئة وقال عزيز كأنه لم يسمع:

" صباح الخير ".

ارتبك الرجل قليلاً، ثم أجاب في اقتضاب قاطع للحديث:

" صباح الخير ... تفضلوا دورة المياه ".

وقف عزيز وتقدم نحوه خطوتين ثم سأل:

" كم الساعة الآن "؟

" مالك ومال الساعة؟ "

" ومواقيت الصلاة ".

ظهر عليه شيء من الارتباك مرة أخرى، كأنه لم يتوقع الإجابة ثم قال:

" أتصلون "؟

أشار عزيز إلى الشاب الطويل:

" بعضنا ".

" الساعة الآن العاشرة ".

" ولماذا لم تفتح منذ الصباح الباكر "؟

" هذا هو النظام ... زنزانة ... زنزانة ".

" نظام ... أي نظام "؟

" نظام السجن ".

" نظام يسري علينا فقط "؟ ...

صمت الرجل، وحملق فيهم بشيء من الضيق.

" هذا هو النظام ".

" نظامك أنت فقط ... الأدوار الأخرى تخرج في الصباح البـ ـاكر ... وقبل أن تأتي كنا مثل الآخرين ".

" ستخرجون زنزانة ... زنزانة ".

" وننتظر ثلاث، أو أربع، أو خمس ساعات لنقضي حاجتنا ".

" الجرادل موجودة في الحجرة ".

" الجرادل عند الصباح تكون ملآنة من استعمال الليل ".

" ليس عندي وقت أضيعه. تفضلوا دورة المياه ".

تقدم حلمي خطوتين ليقف إلى جوار عزيز. ثبت عينيه على وجـ ـه الحارس وقال:

" لا شيء يقنعك. لا رغبة المؤمن في أن يصلي، ولا حاجة الناس في أن تفك عسرها، ولا النظام الساري في بقية السـ ـجن. ألـ ـيس عنـ ـدك أولاد. اتق الله في أولادك يا شيخ " التفت إلى الوراء مشيرًا بيده.

" هيا بنا يا جماعة ".

خرجوا الواحد تلو الآخر من الزنزانة. وساروا عبر الطرقة ثم انحنوا إلى اليمين ليدخلوا دورة المياه. وقفوا الخمسة في صف واحد، خلعوا ستراتهم الطويلة الزرقاء، وانحنوا تحت المياه المتدفقة من الصنابير، تاركين رؤوسهم ووجوههم للذة المياه الباردة المنعشة.

أثناء الليل كانوا قد حزموا أمرهم. تحت جنح الظلام، بعد أن خيم السكون المطلق على العنبر الكبير، أخذوا يتبادلون الرأي في أصوات هامسة عبر شراعات الأبواب. لابد من إيقاف الحارس الجديد عن تنفيذ ما يريد منذ البداية. فهو لن يتوقف عند حد. وكل خطوة تتم دون معارضة ستشجعه على الخطوة التالية. وليكن السلاح والتصرف إزاءه بإجراء عنيف. سلاح سيحدث ارتباكًا شاملاً الأول الإضراب البطيء ... سلاح ليس فيه عصيان صريح يمكن إثباته، والتصرف إزاءه بإجراء عنيف. سلاح سيحدث ارتباكًا شاملاً في الدور كله. فإذا ما بقي نزلاء كل حجرة أطول مدة ممكنة في دورة المياه لن تعطي للحارس الجديد فرصة الانتهاء من أعمال اليوم، من فتح كل الزنازين، وتنظيفها، وتوزيع الأكل ثلاث مرات، وتوصيل المرضى حتى العيادة أو المستشفى، والنزول مع من يستحقون الزيارة إلى البهو السميك، وسياج من الأصوات الصارخة تصم الآذان. ولن يستطيع ضبط تمام الظهر والمساء.

في الصباح التالي عندما فتح الحارس عبد الغفار أول زنزانة، وجد نزلاءها يغطون في نوم عميق تحت غطاء البطاطين السمراء. فأخذ يوقظهم بالمناداة أول الأمر: " اصحى يا راجل إنت وهو ... دورة المياه ". ثم يهز أكتافهم، ويشد على أقدامهم شدًا رقيقًا، سرعان ما انقلب إلى نوع من العنف المتوتر، لينتهي به إلى وضع " بوز " حذائه الغليظ في ضلوع النائمين وظهورهم. أخيرًا استيقظوا وتمطعوا، ووقفوا في الحجرة،

وحملوا الجرادل خارج الحجرة، وساروا عبر الطرقة في حركات بطيئة، كأنهم ما زالوا تحت تأثير النوم، ليختفوا داخ ل دورة المي اه. ث م س اد الصمت والسكون. انتظرهم الحارس خمس دقائق ليخرجوا، ولك ن ل م يظهر أحد منهم. اندفع في ضيق عبر الباب إلى دورة المياه، ليجد خمسة من الرجال يجلسون القرفصاء فوق الفجوات السوداء المستديرة المفتوحة في المساحة البيضاء، وقد مالت رؤوسهم إلى أسفل. تلفت بعيدًا عنهم في حياء وصاح:

" يالاًّ يا جدعان، حاتقعدوا طول النهار في دورة الميه ولا إي ه؟ " ظلوا صامتين، لا يتحركون، فتردد لحظة، ثم خرج مسرعًا م ن حي ث جاء، ليعود من جديد بعد مدة قليلة، وقد احمر وجهه من الغضب. في هذه المرة كان يحمل معه خيرزانة طويلة يلوح به ا ف ي اله واء مه ددًا " حاتخرجوا والا احنا حانقعد طول النهار نستناكم ". وق ف ح ائرًا ف ي المساحة الخالية بين صف الصنابير النحاسية اللامعة المثبتة في ماس ورة المياه الطويلة، وبين دورات المياه. أحسوا أن الرجل استولى عليه ن وع من الارتباك. فهو لا يستطيع أن يعاملهم مثل المساجين العاديين، ويتحرج في أن يخرجهم من حيث يجلسون. وهو لم يستخدم أية ألفاظ نابية، وكأنه يشعر في قرارة نفسه أن هذا شيء لا يجوز معهم. وقف ص امتًا تتلف ت عيناه حوله في حركة مستمرة، وتأبى أن تلتقي بالعيون المصوبة أمامه ا في صف واحد مستقر، وكأنها لم تلاحظ وجوده. دار حول نفسه، وخرج يتمتم بألفاظ غير مفهومة، فندت منهم ضحكة مكتومة.

بعد قليل قاموا الواحد تلو الآخر من جلستهم، ورفعوا الس راويل، واتجهوا ناحية صنابير المياه ليغتسلوا بحركات بطيئة مستمتعة، وكأنه ما زال أمامهم بقية النهار. انحنوا بظهورهم العارية تحت المياه المتدفقة، ثم

ارتدوا السترة الزرقاء الخشنة فوق أجسادهم المبللة، واتجهوا ناحية الباب. كانوا قد اتفقوا على ألا يسير أحد منهم بمفرده حتى لا يقع فريسة سـ هلة لأي إجراء قد يتبع معه، دون أن يشعر الآخرون. فوجئوا بعد أن سـ اروا خطوات قليلة فوق البلاط المبلل متجهين إلى زنزانتهم، بالخيزرانة الرفيعة تنهال فوق أكتافهم، ورؤوسهم، بضربات متلاحقة، لاسعة، تصـ فر فـ ي الهواء. التفتوا خلفهم في حركة سريعة مترابطة كأنهم أجزاء جسم واحد، تتحكم فيه إرادة واحدة، ليواجهوا الرجل الهائج كالثور. انهالـ ت علـ يهم الضربات من جديد، فوقفوا جامدين في نصف دائرة كالتماثيل، عيونهم لا تطرف، وشفاههم لا تنطق بشيء. ارتفع ذراع الرجل المرة تلو المرة في اندفاع مجنون، ثم توقفت العصي المرفوعة في الهواء فجأة، كأن يدًا خفية أمسكت بها، قبل أن تسقط فوق رؤوسـ هم مـ ن جديـ د. التقـ ت عينـ اه الصغيرتان الحمراوتان بالعيون الثابتة تلتف حوله في نصف دائرة. سـ اد الصمت المطبق في العنبر الكبير وتجمع المساجين في أثـ وابهم الزرقـ اء صفًا وراء صف، ودورًا فوق دور، حتى الدور العلوي الأخير، مثل كتل من المتفرجين حول حلبة من المتصارعين.

أسقط الحارس ذراعه المرفوعة، وألقى بالخيزرانـ ة جانبـ ًا. دارت عيناه على المسجونين الملتفين حوله، وارتفعت إلى أعلى في حركة بطيئة على الجموع المحتشدة صفًا فوق صف في العنبر الكبير. أحس بالهزيمـ ة تطبق عليه في صمت رهيب، والعيون تشهد ما لم تشهده من قبل: عبـ د الغفار يُهزم أمام الجميع.

تحرك الجمع الصغير كأنه يستيقظ من حلم عميق. استداروا الواحد تلو الآخر، وساروا ببطء عبر الطرقة، ودلفوا داخل زنزانـ اتهم واحـ دًا،

واحدًا، حتى اختفوا عن الأنظار. بقيت الجموع الجامدة تحملق في سكون كالمشاهدين في مسرح كبير، لم يدركوا انتهاء الفصل الأخير.

خفض عبد الغفار رأسه الأشيب لحظة طويلة، ثم رفع عينيه إلـ ى الصفوف المتراصة. شيء ما في نظرته لم يعد كما كان، شيء ما انت ـاب التحدي القديم، والثبات المعهود، والثقة بالنفس التي لا تلين. ذبذبة خفيف ـة تكاد لا ترى، ولكنها موجودة. ومضة من الخوف رفيعة كالشعرة، ولكنها تلمع خاطفة في العينين الصغيرتين. صاح في صوت أجش:

" كل واحد حجرته ".

ارتفعت همهمة خفيفة، وانكسر الجمود. تدفق المسـ جونون نحـ و حجراتهم في أمواج هامسة ولكن مشيتهم لم تعد تسيطر عليهـ ا تشـ نجات الذعر القديم، وحركاتهم فيها بطء كالعصيان الوليد، كـ أنهم يريـ دون أن يقولوا شيئًا، ولكنهم مترددون.

انتفض عبد الغفار كالذي داهمه تيار من الهـ واء البـ ارد. اتجـ ه بخطوات ثقيلة نحو صف الزنازين. أغلق باب الزنزانة الأولى وفتح باب الثانية. أطل على الداخل وقال في صوت خفيض:

" دورة المياه " ... تردد لحظة ليضيف " بسرعة ".

كانت الساعة قد قاربت على الواحدة ظهرًا عندما فتح عبد الغفـ ار باب الزنزانة السابعة. فوجئ بجرس الغذاء يرن في الحوش. مـ ا زالـ ت أمامه ثلاثون زنزانة لم تفتح بعد، وقد جاء ميعاد توزيع غـ ذاء الظهـ ر. أغلق الزنزانة السابعة بسرعة، وهرول ناحية السلم العريض وهو يصيح:

" نوبتجية الغذاء ".

جاءه عشرة من المسجونين يجرون بأقدامهم الحافية. هبطوا معـ ه السلم. عادوا بعد ربع ساعة، يحملون في كل يد جـ ردلاً مسـ تطيلاً مـ ن

العدس الأصفر السائل، يتصاعد منه البخار. سار عبد الغفار أمام صد ف الزنازين المغلقة، يفتح أبوابها واحدًا واحدًا ويقول:

" الغذاء ".

عند كل زنزانة كان يخرج أحد المسد اجين ومعه " قيـ راوانتين " معدنيتين يقوم أحد المسجونين بملئها من جردل العدس الساخن، مسد تعيناً بمغرفة كبيرة، ذات يد طويلة، ثم يغلق الباب من جديد. وصل عبد الغفار عند الباب السابع وفتحه وهو يقول:

" غذاء ".

فلم يخرج أحد.

" غذاء ".

تقدم عزيز وهو يقول:

" لا نريد الغذاء ".

" لماذا "؟

" لم نذهب إلى دورة المياه حتى الآن. فكيف تريد منا أن نأكل. فضلاً عن أن عدم خروجنا إلى دورة المياه مخالف للنظام ".

" زملاؤكم هم السبب لأنهم يتباطئون ".

" بل أنت السبب، لأنك تفتح زنزانة زنزانة ".

" هل تريدون الغذاء أو لا "؟

" لن نستلم الغذاء قبل أن نذهب إلى دورة المياه. لم نغتسل، ولم نقض حاجتنا، ولم نفرغ جردل الفضلات، ولم ننظف الحجرة حتى الآن، وكل هذا مخالف للنظام. وإذا حضر أحد الضباط سيدرك أنك عاجز عن تنظيم الدور ".

حملق فيه عبد الغفار دون أن يتكلم، ثم أغلق الباب وانتقل إلى الغرفة المجاورة. فتح الباب وقال:

" غذاء ".

لم يرد أحد. فأعاد من جديد:

" غذاء ".

برز أحد المسجونين عند الباب وقال:

" لا نريد الغذاء ".

" لماذا "؟

" لأننا لم نخرج إلى دورة المياه حتى الآن ".

أغلق الباب. عرف الآن ماذا سيحدث في كل زنزانة من التسع والعشرين زنزانة الباقية. ولكن لابد أن يفتحها جميعًا، وأن يسمع منها جميعًا نفس الكلمات " لا نريد الغذاء. لم نذهب إلى دورة المياه " فهذا هو النظام. ولابد أن ينفذ النظام. فللغذاء قدسيته في السجون، وهم ليسوا مضربين عن الطعام. إنهم يقولون فقط " نريد أن نذهب إلى دورة المياه أولاً ". أحس بالحيرة الشديدة. لم ينته حتى الآن إلا من ست زنزانات لا سبع. وما زال أمامه ثلاثون زنزانة. وهو لم ينته من تنظيف الحجر، ولم يتمكن من توزيع الغذاء. ثم حادثة الصباح عندما ضربهم بالخيزرانة. وقفوا أمامه في ثبات ولم يجروا كالآخرين. رآهم العنبر كله نصف دائرة من الرجال، رؤوسهم مرفوعة، وعيونهم لا تخاف. أطلقوا شحنة من الكهرباء سرت في العنبر، في صفوف الرجال المتراصة صفًا وراء صف، ودائرة فوق دائرة. خلقوا شيئًا جديدًا في الجو، شيئًا له خطورته. كل ذلك لأنه لم يفتح عليهم في الصباح. أين سينتهي الأمر؟ وماذا يمكن

أن يفعل؟ أيلجأ للرؤساء؟ ولكن كيف؟ وفي أول يوم، وفي مسألة تافهة كهذه؟ وعبد الغفار بالذات الرجل ذو السمعة المخيفة. سيهزأ به الجميع.

جلس على الدكة الرمادية يفكر. ماذا يستطيع أن يفعل الآن؟ نادى على أحد المسجونين " النوبتجية " وقال:

" هؤلاء القوم. أتعرفهم جيدًا "؟

" نعم ".

" من يحركهم "؟

" لا نعلم بالضبط ".

" من هو أقواهم نفوذًا "؟

" لا نعلم. إنهم يقومون بكل شيء سويًا ".

" ماذا تقصد ".

" يتفقون على كل شيء، ويتصرفون كرجل واحد، ويقتسمون نقودهم، وغذاءهم، ودخانهم، وشايهم، وكل شيء عندهم ".

" ألا يوجد من يستطيع التفاهم معه "؟

" عندهم شخص يسمونه مندوب الإدارة ".

" مندوب الإدارة "؟

" نعم ".

" وماذا يفعل مندوب الإدارة "؟

" يتكلم باسمهم مع الإدارة ".

" ومن هو "؟

" يدعى الدكتور عزيز ".

" دكتور "؟

" نعم هو طبيب ".

" ما رقم زنزانته "؟

" ٥٣ ".

قام من الدكة الرمادية التي يجلس عليها، سحب المفتاح الكبير من الدائرة الصغيرة الحديدية في حزام الجلد العريض المثبت على وسطه، وتوجه بخطى وئيدة، ثقيلة، عبر الطرقة، يتبعه جمع صغير من " النوبتجية " التفوا حوله بفضول مستطلع، وأخذوا يسيرون خلفه ليروا ماذا سيحدث. أدخل المفتاح في باب الزنزانة وفتحه. فوجئ بهم يجلسون في دائرة حول مربع مرسوم بالجير الأبيض على الأرض الأسفلتية السوداء، يتطلعون بعيون مستغرقة إلى كتل صغيرة مبعثرة فوق الرقعة. لحظة فتح الباب كان حلمي يرفع إحدى القطع في يده، لينقلها من مكان إلى مكان. فوجئوا بالباب يفتح، وبالحارس يقف أمامهم، ومن حوله جمع صغير من المسجونين بملابسهم الزرقاء، يطلون من فوق ظهره إلى داخل الحجرة.

نقل حلمي القطعة في هدوء، ثم وقف على قدميه، وقال بصوته العميق:

" أهلاً وسهلاً. اتفضل يا عم عبد الغفار ".

لم يرد عليه الحارس. كانت عيناه مسمرتين على الخطوط البيضاء والقطع الصغيرة المتناثرة فوقه. قال:

" ما هذا "؟

" شطرنج يا عم عبد الغفار ". انحنى حلمي، والتقط الحصان الأبيض، والأسود، والملك الأبيض، وبعض العساكر. مد يده بإحدى القطع إلى الحارس، واستطرد " لقد أوشك هذا الملك على نهايته مثل كل الملوك". ابتسم في وجه الحارس فلمعت أسنانه البيضاء القوية في الوجه الأسمر، وانتفض شعاع في العينين الصغيرتين.

" انظر رأس هذا الحصان كم هي منحوتة بدقة. أتعرف كيف صنعنا القطع "؟

بدت على الرجل علامات الحيرة. تردد لحظة ثم سأل:

" كيف "؟

" من خبز الضباط ".

" خبز الضباط "؟

" نعم. لأنه أبيض ".

" وكيف تحصلون عليه "

" من أحد الحراس "؟

" تدفعون له شيئاً بالطبع ". لمع في عينيه بريق من الخبث.

" لا ... هو صديق ".

" تسرقون إذن "؟

ندت ابتسامة سريعة ساخرة على وجوه الرجال. وقف الباقون على أقدامهم، والتفوا حول الحارس. قال الشاب الطويل في شيء من الحدة:

" وهذا الدقيق الأبيض. ألا يسرق من غذاء المساجين "؟

صمت الحارس العجوز لحظة، كأنه يبحث عن رد، ثم قال:

" ولكن هذا الشطرنج ممنوع ".

انحنى عزيز فوق الرقعة، وجمع القطع في منديل كبير من القماش الأبيض الخشن، ثم لفها، وتقدم من الحارس، وهو يمد الصرة الصغيرة إليه.

" خذها. وأثبتها في محضر تفتيش ".

حملق فيه الحارس وعلت وجهه حمرة خفيفة، تدل على الغيظ. دق شيء كالجرس الصغير في عقل عزيز. هذا الجسم العريض والوجه

المتورد ... النوع الذي يصاب بضغط الدم. كأنه يتمنى له المرض. هـ ذه الحياة توقظ فينا الشر. أحس بالمرارة تصعد في صدره. لماذا تعمل خلايا عقله على الدوام؟ لماذا لا تكف عن تسجيل الأشياء حتى يرتاح؟.

انتزعه سؤال الرجل من أفكاره.

" ما اسمك يا مسجون "؟

تقابلت العيون في منتصف الطريق في صدام صامت.

" اسمي ... اسمي الدكتور عزيز ".

" تعال معي ".

" إلى أين "؟

" لماذا تسأل؟ أتخاف؟ "

هز عزيز كتفيه وقال:

" هيا بنا " التفت إلى حلمي وقال:

" أتأتي معنا "؟

" لا مانع. بعد إذن الشاويش ".

صمت عبد الغفار لحظة، ثم أدار ظهره إليهم، وخاطب المسجونين الملتفين حول الباب:

" ماذا جاء بكم إلى هنا؟ كل واحد في شغله ".

خرجا من الزنزانة. أفسح لهما عبد الغفار الطريق، ثم أغلق البـ ـاب خلفهما. أمسك الشاب بقضبان الحديد ورفع وجهه إلى الشـ ـراعة، يتـ ـابع الجمع الصغير حتى اختفوا عن الأنظار. ثم أسقط نفسه على قدميه. التفت إلى الاثنين الباقين معه وقال:

" وما رأيكما "؟

التفت أحدهما إليه في هدوء. مرت أصابعه النحيلة عبر شعره الأشيب ثم قال:

" الشباب " ... تنهد كالنادم على شيء تذكره ... دائمًا قلق. لماذا تستعجل الأمور؟ سنعرف بعد قليل ".

في الخارج جلس عبد الغفار على الدكة الخشبية. فك حزامه من حول وسطه وانحنى ليرخي أربطة الحذاء الغليظ. ثم قال:

" إلى متى ستستمرون هكذا؟ ... ستجلبون لأنفسكم المشاكل "

قال حلمي:

" أية مشاكل "؟

" سأبلغ الإدارة عما تفعلون ".

تدخل عزيز، وهو يرمق الرجل بنظرة فاحصة.

" سمعنا أن عبد الغفار لا يلجأ إلى الإدارة أبدًا. إنه يحل وحده كل المشاكل ".

صمت الحارس لحظات ثم قال:

" ستجلبون لأنفسكم المشاكل، أنا أحذركم من العصيان ".

" العصيان؟ أين هو العصيان؟ إننا ننفذ ما تطلبه. وقد اعتديت على زملاء لنا دون مبرر ".

جرت عيناه هنا وهناك، كأنهما تتفاديان لقاء عيونهما.

قال حلمي:

الرجل لا يعتدي على إنسان مقيد. فهذا هو الجبن بعينه.

ارتفعت نبرات صوته في غضب.

" ماذا تقصد؟ ... أتشتمني؟ ... أنا لا أسمح لأحد بذلك ... ستندم على ما قلت ".

" أنا لا أشتم. أنت في سن والدي، ومن الصعيد، تفهم معنى الشهامة. كيف تضرب من لا يستطيع أن يرد عليك "؟

حملق فيهما بعينيه الصغيرتين، وكست الحمرة وجهه العريض. بلع ريقه كأن شيئًا توقف في بلعومه، ولمح عزيز في عنقه تفاحة آدم تقفز إلى أعلى، ثم تسقط.

قال في صوت أجش، كأنه يخرج بصعوبة:

" ستجلبون لأنفسكم المشاكل. سترسلون للتأديب وستجلدون ".

اقترب منه عزيز وقال:

" يا عم عبد الغفار. لقد تعبت من الوقوف، أتسمح لي بالجلوس "؟

غمغم في صوت خفيض:

" اجلس ".

جلس عزيز على الدكة إلى جواره. وسحب حلمي مقعدًا صغيرًا مربعًا وجلس عليه. تطلعت إليهم بعض الوجوه من الدور الأعلى، ثم اختفت في صمت.

استمر عزيز:

" يا عم عبد الغفار. لا تهددنا بالتأديب وبالجلد. أنت لا تعرفنا وربما ستفهمنا أكثر فيما بعد. نحن لا نريد المشاكل، ولا نريد أن نسبب لك المتاعب. ولكننا لا نخاف الجلد، ولا التأديب. فقد جربنا كل شيء، ولم يعد هناك ما نخشاه. لن تستطيعوا أن ترسلونا جميعًا إلى التأديب، ولا أن تجلدونا جميعًا. فنحن هنا ٤٠٠ مسجون. ولن يؤثر فينا جلد واحد، أو اثنين أو عشرة أو عشرين. ولكنا دعنا من هذا الحديث. ما الذي بيننا وبينك؟ هل أسأنا إليك في شيء؟ ... هل بيننا ثأر؟ هل جرحنا شعورك، أو عاملناك بقلة احترام؟ ... "

صمت الحارس قليلاً، وهو يتطلع إلى الجدار المقابل، ثم التفت إلى عزيز وقال:

" إنكم لا تتصرفون مثل المسجونين الآخرين ".

" ولكننا لسنا مثل الآخرين ... فكيف تريد أن نتصرف مـ ثلهم ... لكن دعني أكلمك بصراحة ... قبل أن تأتي إلى هنا كنت في التأديب ... اليد الباطشة التي تؤدب ... فأرسل في طلبك الرجل البـ دين ... وطلـ ب منك أن تتولى دور ٦ ... دور السياسيين. أفهمـ ك أننـ ا مشـ اغبون ... متمردون على السلطة ... لا يؤمن جانبنا ... خبثاء لا أخـ لاق لنـ ا ... أليس كذلك؟ "

صمت عبد الغفار ولم يجب. فاستطرد حلمي:

" طلب منك أن تؤدبنا ... أن تفرض نظامًا صارمًا ... أن تغلـ ق الأبواب ... وتصادر الممنوعات ... أن تكون قاسيًا شديدًا ... وأفهمـ ك أنه سيحميك من كل العواقب ... كما كان يفعل دائمًا ... أليس كذلك "؟

زم الحارس شفتيه، كأنه لا يريد أن ينطق، وكأن شيئًا مـ ا يخافـ ه يعجزه عن الكلام. فتدخل عزيز في صوت هادئ:

" أنت إذن البادئ بالاعتداء ... تريد أن تحول حياتنا إلى مزيد من العذاب ... أن تغلق علينا الأبواب طوال النهار ... أن تمنع عنا أن نمشي قليلاً في العنبر ... أن نتحدث إلى بعضنا ... أن نتسلى مع الآخرين ... أن نغتسل في دورة المياه عندما نريد ... لماذا؟ ... ولحساب من ...؟ "

تلفت حوله كأنه يبحث عن مهرب ثم قال:

" هذا هو النظام " ...

" نظام ... أي نظام؟ ولماذا يطبق علينا فقط؟ ... لماذا ينتقل تجار الحشيش، والدخان، والأعراض، في السجن كما يريدون ... ولماذا يبيـ ع

الرجل البدين غذاء المساجين؟ ... ولماذا لا يوقف تجارة الأفيون؟ ... أنت رجل مؤمن ... أجب علي ... أهذا يرضي ربنا ...؟ "

" ما لي وكل هذا ... "؟

" ألست أنت الذي تحدثت عن النظام ... أين هو النظام "؟

" أنا أنفذه حيث أوجد. أنا أنفذ الأوامر ".

" لا تستطيع أن تنفذ الأوامر ... ستحدث ارتباكًا متزايدًا كل يوم ألم تر كيف أن أغلب الحجرات لم تذهب إلى دورة المياه حتى الآن، ولم يتم تنظيفها، ولا تفريغ جرادل البول ... ولا توزيع الغذاء، وإذا حضر أحد الضباط الآن ماذا ستقول له؟ سيؤنبك على الفوضى الموجودة، ولن تستطيع أن ترد عليه ... هل ستقول له من أول يوم أنك عجزت عن تنفيذ ما هو مطلوب منك "؟

تردد الرجل كأنه يفكر. بلع ريقه من جديد ثم التفت إلى عزيز وقال:

" ماذا تريد إذن "؟ ...

" لدينا فكرة " ...

" ما هي "؟

" أوامرك ستنفذ جميعًا ... ولكن في الظاهر ... بحيث تكون محميًا تمامًا ".

" في الظاهر ... كيف؟ ... لا أوافق على هذا ... أنا لست رجلاً غشاشًا ".

" يا عم عبد الغفار انتظر قليلاً ... أنت ترى أشياء كثيرة لا ترضي رجلاً مؤمنًا مثلك ... ومع ذلك تغض عنها الطرف ... نحن لن نفعل أي شيء لا توافق عليه ... فقط اترك الأبواب مفتوحة ... واترك الناس

يروحون ويجيئون ... سنضع اثنين أو ثلاث منا يقفون عند أول العنبر.
وإذا ظهر أحد من الضباط، سندخل في الحجر وتغلق الأبواب ".

" سيعرفون كل هذا. الجواسيس في العنبر كثيرون ".

" أنت تعرف أنهم أيضًا لا يريدون المشاكل. وأغلب من في الإدارة لا يهمهم الأمر في كثير أو قليل، ما عدا الرجل البدين. سيغضون الطرف عن كل شيء، طالما أن لا شيء يثبت رسميًا ".

" والممنوعات "؟

ابتسم حلمي وقال:

" مثل "؟

" الشاي، والدخان، والشطرنج، والورق، والأقلام، والكتب ".

" هل رأيت شيئًا منها "؟

" رأيت الشطرنج ".

" بسيطة ... الشاي، والدخان، والشطرنج، لن نخفيها منك ولكن قبل أن يصل أحد إلى الدور ستكون قد اختفت تمامًا. أما باقي الأشياء فلن تراها أبدًا ".

" كيف؟ " ...

" ليست لها وجود ".

حملق فيهم الرجل كأنه لم يفهم.

ضحكا بصوت مرح ...

" كيف؟ " ...

قال عزيز:

" ثق أنك لن تراها أبدًا. هذا وعد منا ... وعد رجال ... هل اتفقنا"؟

صمت من جديد مترددًا.

استطرد حلمي:

" نحن مثل أولادك يا عم عبد الغفار ... وأنت مثل والدنا وسترى أن كل شيء سيكون كما تريد. لماذا لا تجربنا ".

قام واقفًا، فوقفا معه، وانتظرا حتى يرد.

" سنجرب ... هيا بنا إلى الحجرة ".

سارا أمامه إلى الحجرة. فتح الباب فدلفا إلى الداخل. توقف لحظة عند فتحة الباب. ثم قال:

" أين الشطرنج "؟

أخرج الشاب الطويل السرة البيضاء من تحت البطانية ومد يده بها.

ابتسم الرجل لأول مرة ثم قال:

" أكملوا لعبتكم " ثم أغلق الباب.

* * *

تنهد وهو يجلس فوق البطانية. أخذت الأصوات تعلو في العنبر الكبير حتى أصبحت مثل طنين خلية النحل امتدت إليها يد تثير فيها الاضطراب الغاضب. لماذا تأخر عبد الغفار. اللحظات تجر نفسها بأقدام الزمن البطيئة. ما الذي ذكره بأيام عبد الغفار الأولى؟ حياة الزنزانة أغلبها ذكريات. هكذا دخل الرجل في عالم جديد لم يكن يعرفه من قبل. فمنذ اللحظة الأولى كانوا قد قرروا أن يكسروا شوكته، خوفًا من أن يبطش بهم. لا بد أن يشعروه باستحالة ما يريد ... ولا بد أن يوقف عند حده. بعد ذلك كل شيء يحل بالتدريج.

يومًا بعد يوم، دار الصراع الصامت بينه وبينهم. لم يكن من السهل أن يغير من طبعه. ولم يكن من الممكن أن يقبلوا أسلوبه. حياتهم في

الزنازين صراع للبقاء، للحفاظ على الجسم، على الصحة، عل ى العق ل، على روابط مع العالم الخارجي. خمس دقائق في الشمس أفضد ل م ن لا شيء، وصحيفة مرة في الأسبوع قد تحمل إليهم خبرًا هامًا، وقلم يكتب ون به يذكى قدرة الفكر. كانت هذه الأشياء بعيدة عن مدارك الرجل العجوز. ولكن بالتدريج، يومًا بعد يوم، أحس أنهم ليسوا مث ل الآخ رين، ليس وا مجرمين. ويومًا بعد يوم تعود على وجوده وسطهم، فأخذ يتحدث معه م عن أشياء كثيرة. واكتشف باندهاش أن هؤلاء الرجال الذين ملئوا آذان ه بتحذيرات ضدهم، أقرب إلى قلبه من كل الذين يعرفهم.

وهكذا انتهى به الأمر إلى وضع غريب لم يكن قد تصور إمك ان حدوثه. فأصبح يتولى بنفسه إخفاء ممنوعاتهم. كان يقول لهم: " لن يفتشوا حجرتي. فالحراس زملائي. لذلك يمكنكم أن تتركوا كل ش يء عن دي. نضرب عصفورين بحجر. فلكم ما تريدون. ولي ألا تضبط الإدارة أي ة مخالفة في الدور الذي أصبحت مسئولاً عنه ".

كان يريد أن يحتفظ بسمعته في السجن. الرج ل الق وي ال ذي لا يستطيع أحد أن يقف أمامه. أدرك أن السبيل الوحيد هو أن يص ل إل ى اتفاق معهم، يحافظ به على المظاهر اللازمة. وقاده هذا الاتفاق إلى أشياء أخرى – فقد كان يقضي اثنتي عشرة ساعة معهم يوميً ا، يش ارك ف ي أحاديثهم، ويأكل معهم، ويرى حياتهم عن قرب.

وقف عزيز وأخذ يذرع الحجر جيئة وذهابًا. أحس بالضيق. لم اذا تأخر هذا اليوم بالذات؟ ألا يعلم أنه سيخرج للمستشفى؟ تطلع إلى قطع ة السماء الصافية. يبدو أن اليوم سيكون جميلاً. سمع المفت اح ي دور ف ي الباب.

التفت خلفه ليرى وجه عبد الغفار يطل عليه بابتسامة.

" صباح الخير. جاهز من الفجر طبعًا "؟

" صباح النور. لماذا تأخرت يا عم عبد الغفار "؟

" تأخرت. لم أتأخر. الساعة السادسة صباحًا، فتحت عليك أول واحد ... الصبر طيب ... يبدو أنك مستعجل ".

" هيئ لي أن الساعة قاربت على الثامنة ".

ابتسم الحارس من جديد وقال:

" أسرع إلى دورة المياه، قبل أن أفتح على الآخرين ".

تناول الفوطة وقطعة من الصابون المعطر، وجرى حتى دورة المياه. خلع ملابسه، وضعها على جدار منخفض يفصل بين دورتين. انحنى بجسده العاري تحت الصنبور وترك المياه الباردة تتدفق بقوة. أحس بأنفاسه تتوقف لحظة من البرد، ثم انتظمت، وجرى الدم الساخن تحت جلده. اليوم يشعر بنوع من التوتر، والصابونة تفلت من بين أصابعه، المرة بعد المرة، كأن رعشة أصابتها. جفف جسمه بسرعة، ثم ارتدى ملابسه الجديدة: الفانلة الناصعة البياض، بقماشها الرفيع، المنسوج من فتلة القطن تبدو كالحرير، ما زال يلتصق به مربع صغير من الورق المذهب يحمل اسم المصنع، وورقة أخرى بيضاوية تحمل السعر. نزعهما من فوق القماش، ثم السروال، والسترة ذات الياقة المستديرة التي تغلق عند العنق. سحب الجورب الكحلي الطويل فوق قدميه، ثم دسهما في الحذاء الأسود اللامع، يكاد يلمح وجهه منعكسًا فوق سطح الجلد. حمل ملابسه القديمة على كتفه وجرى حتى الزنزانة. سمع الأبواب تفتح بصرير المفاتيح المزعج، وأخذت الأشباح الزرقاء تتدفق منها كالكائنات المنبعثة من تحت الأرض.

دخل الزنزانة، ورد الباب خلفه. دس ملابسه المخلوعة في السدرة البيضاء، ووضع الصابونة فوق النافذة، ثم علق الفوطة المبللة على دوبارة مثبتة بين الباب والنافذة حتى تجف. جلس فوق البطانية يمشط شعره، وينتظر. أحس بالقلق الدفين في صدره، وبالرعشة الخفيفة في أصابعه. كانت أمعاؤه تنقبض، وتنبسط، وسمع صوت زغولة تندفع تحت عضلات البطن: نقطة الضعف في جسده، كلما توترت أعصابه تحركت أمعاؤه لتطرد ما فيها.

أخذ يمشي من جديد في الزنزانة. ترى هل سيقبلونه في المستشفى؟ الأوامر مشددة الآن، والعيون تترقب. ورجال يلبسون السترات الطويلة، والمسدس مثبت تحت الإبط، يتحركون بهدوء في كل مكان، ورجال آخرون بأحذيتهم الغليظة، في ردهات المستشفى الطويلة. فالجو ينذر بالانفجار، والمظاهرات الصاخبة تتدلع في الشوارع، والرصاص ينطلق من فوهات البنادق فتنثني السيقان لتستقر الأجساد الشابة فوق الأسفلت. والعيون تحملق في السماء الزرقاء ولا تراه، وتحت الكتف تتجمع البركة الحمراء.

وفي ميدان عابدين الفسيح يتجمع العسكر، وداخل الأبنية المترامية يدور الهمس، وتعقد الاجتماعات. يروح ويجيء الرجال المطربشون بخطوات ناعمة فوق البساط السميك، وتطل عليهم الصور المعلقة فوق الجدران في صمت. العيون الجامدة، واللحى المستديرة الكثيفة، والسيوف الطويلة في أغمادها، وصف النياشين فوق الصدر. وفي الليل تدور الكئوس المذهبة، وتلمسها الشفاه، وترتفع الضحكات الناعمة كالفحيح المكبوت، وينسدل الشعر الأسود أو الأشقر فوق السرير. ويطل على كل

ذلك شاب عجوز بعينين من المكر والغباء، ويتأرجح بين موجات الضحك الصاخب، والغضب الممطوط.

وفي الزنازين الضيقة كانوا يعرفون كل ذلك. فمصيرهم معلق بما يدور في الخارج، وتصرفاتهم داخل السجن تحكمها معرفة الأحداث، والخطابات التي يهربونها عبر الأسوار تحمل رأيهم في الموقف إلى الأصدقاء، إلى عائلاتهم إلى الصحف، إلى أعضاء التنظيم، إلى الذين يعرفونهم في ميدان السياسة، إلى أعضاء البرلمان. وفي كل مساء تعد الخطابات المكتوبة على ورق الأرز الرفيع في لفائف صغيرة مستطيلة، يمكن إخفاؤها في طيات الملابس، وتحت الجراب، أو في كعب حذاء، أو داخل الفم في القناة الممتدة بين الصدغ والضروس، أو حتى في الشرج.

ومعرفة الموقف يحتاج إلى معلومات. والمعلومات موجودة ولكنها تحتاج إلى تجميع. ولذلك في كل صباح كانوا ينتشرون في السجن الكبير. فمصادر الأخبار كثيرة. الجرائد المهربة عبر القضبان، الضباط، والحراس الذين يخرجون كل مساء ليعودوا في الصباح، أطباء المستشفى، والممرضون، المسجونون الذين يتلقون زيارة الأهالي، أو يخرجون لحضور تحقيق، أو جلسة محكمة، المرحلون من سجون أخرى، أو المقبوض عليهم حديثًا، الخطابات التي تتسلل إليهم من الخارج. كلها معلومات يجب أن تجمع.

ومع مرور الأيام أصبحت عندهم خبرة. كيف تفتح المناقشة بسرعة لتستخرج منها ما تريد. فهنا في السجن قد لا تستطيع أن تقف طويلاً مع من تريد. عرفوا المصادر الأساسية للأخبار، وعرفوا كيف يضمنوا سيلاً من الرسائل والجرائد، أو يخلقوا علاقات وثيقة في كل أرجاء السجن، ويقيموا جهازًا دقيقًا لتصب كل الأخبار في اللجنة القيادية، واللجنة القيادية

تجتمع كل يوم في زنزانة مختلفة، أحياناً في الصباح وأحياناً في المساء، تضع الأخبار أمامها مثل رقعة من الشطرنج تربط بينها وتبدل وتحلل.

ولذلك كان عزيز يعلم ما يدور في شوارع المدينة وبيوتها، فجنود الإنجليز ما زالوا عند القنال. وصدام عنيف وشيك الوقوع.

توقف عن السير ... خيل إليه أن صوتاً يناديه، يرن عالياً فوق طنين العنبر ... اندفع من الباب، ومال فوق الدرابزين. رأى أحد الحراس يقف عند الباب الحديدي المطل على الحوش من الدور الأول، وإلى جانبه أحد المسجونين، يحمل ورقة طويلة في يده. سمع الصوت يردد مرة أخرى: مستشفى القصر العيني: محمد محمد عرفة، علي مصطفى الشوربجي، عزيز ... التفت إلى يمينه فرأى عم عبد الغفار يلوح إليه. أحس بيد تستقر فوق كتفه، فأدار عينيه ناحيتها ليرى وجه حلمي المبتسم.

" هه ... ستخرج اليوم "؟

" يبدو هكذا ".

" وسترى السماء، والناس في الشوارع "؟

" نعم ".

" والقصر العيني؟ ربما قابلت بعض زملائك. كم سنة مرت منذ أن كنت هناك "؟

" ثلاث سنوات ".

" ألا تحن إلى المهنة "؟

" أحياناً ينتابني حنين جارف، ولكن ليس لدي الوقت للتفكير في ذلك".

" ونادية، هل تعلم أنك ستخرج اليوم "؟

" نعم ".

" إذن ستحضر لمقابلتك. ومعها ابنك ".

" طبعًا ".

" أنت محظوظ ".

ضحك عزيز في سعادة. فضحك معه حلمي بصوته العميق الرنان ثم استطرد:

" ستحاول أن تبقى هناك. أليس كذلك "؟

" نعم ".

مد ذراعيه حول كتفي عزيز وعانقه. ثم شد على يده عدة مـ رات كأنه يريد ألا يتركها.

" لا داعي لأن تسلم على الآخرين. يستحسن أن تذهب بهدوء حتى لا تلفت الأنظار. العيون موجودة، ولا نريد أن يستنتج أحد أنك سـ تحاول دخول المستشفى ".

" سيد على الأقل. أريد أن أسلم عليه ".

رأى عبد الغفار يلوح إليه من جديد يستعجله، فزعق بصوت عال " سأحضر حالاً ". وصلا إلى زنزانة في آخر الطرقة. كان يقـ ف أمامهـ ا رجل نحيل، أسمر، أشيب الشعر قليلاً، انشغل بالتطلع إلى البيوت المحيطة بسور السجن وبعض الفتيات الواقفات فوق الأسـ طح يتبـ ادلن أحاديـ ث الصباح، وينشرن قطع الغسيل الملونة.

دفع حلمي باب الزنزانة بقدمه. كان سيد يجلس على الأرض مسندًا ظهره على الجدار ورافعًا ركبتيه ليسند عليها كراسة خضراء، رفيعة كان يكتب شيئًا فيها. أحس بدخولهما، فرفع رأسه وابتسم عندما رأى عزيز.

" يا سلام على العريس. ما هذه الأناقة؟. طبعًا يا دكتور ستقابل الست اليوم " قالها وبريق دافئ يطل من عينيه العسليتين. قام من جلسته وتقدم نحوهما.

" جئت أسلم عليك ".

" ربما دخلت المستشفى "؟

" نعم ".

مد يده وعانقه عناقًا طويلاً، ثم قال:

" ستكون لك وحشة إذا ما تركتنا ".

" نتقابل في الخارج إن شاء الله ".

أدار عزيز ظهره لينصرف. لم يكن يريد أن يبقى أكثر من ذلك. كان يكره الوداع ويفضل أن يتفاداه. سمع صوت سيد ينطق في هدوء.

" عزيز ".

استدار من جديد:

" نعم ".

" كن على حذر ".

ساد الصمت لحظة، وتقابلت عيونهما في رسالة خفية. ثم استدار عزيز وخرج من الباب.

* * *

اللوري المفتوح كان ينتظره خارج بوابة السجن الضخمة. أمسك طرف الصندوق المفتوح بيديه المكبلتين، ووضع قدمًا واحدة على الحافة الخلفية ثم رفع جسده بدفعة قوية من ذراعيه، جعلته يصعد إلى أعلى، ويدور، ليستقر جالسًا فوق ظهر اللوري. لم يكن الصندوق مزودًا بمقعد فوقف على قدميه، وتقدم حتى أصبح وراء كابينة السائق تمامًا. اثنان من

الشرطة في ثيابهما السوداء، وقفا على جانبيه ملتصقين به. أحس بشعور من الاختناق المفاجئ ولكنه صمت. إذا ما طلب منهم ا أن يبتع دا الآن سيثير حفيظتهم.

اللوري يسير بسرعة عبر شوارع المدينة. كل شيء يبدو له غريبًا، وجديدًا، وساخرًا. قباب الجوامع تلمع في ضوء الصد باح ببريد ق ن دي، ومآذنها ترتفع رشيقة في السماء الصافية. والترام العتيق يته ادى عبد ر شارع محمد على ... رنت في أذنه أصداء الصد اجات النحاسد ية، ورأى الكوديا ذا الوجه الرفيع الشاحب يتأرجح في ضوء الكلوبد ات الزرق اء، وساقًا عارية بيضاء تنثني، وترتفع، وتضرب في الأرض، وتهتز بد بض ساخن، ونداءً مستترًا في العيون الكحيلة. ذكريات السنين البعيدة. انحذ ى اللوري فجأة فوق قضبان الترام ثم استقر في سيره من جديد د ... ت رك جسده ووجهه للريح المنعش، يعبث بهما، وأحس بلمسة الهواء عند عنقه، وصدره، وتحت إبطيه.

أمام مطعم الفول وقف رجل بذراعين عاريتين يغطيهما شعر أسود كثيف، يسقط أقراص الطعمية الخضراء في إناء مستدير، يغلي بالزيد ت الأسود. شم الرائحة القوية في أنفه تعود به إلى سد طح الحيد اة. الند اس يتزاحمون في الشوارع، والمقاهي، وعربات الترام، والحوانيت والأرصفة ونوافذ البيوت، يبدون نصف نيام، وملل اليوم الجديد على وجوههم. أخد ذ يبحث وسط الزحام عن وجه يعرفه كالعائد إلى بلاده من سد فر طويد ل، تنتقل عيناه بسرعة خاطفة لا تكاد تستقر في بحثها المحموم. أحس بدوار في رأسه، فالتفت أمامه إلى الطريق تنهبه عجلات اللوري، وتقترب لحظة بعد لحظة إلى حيث يريد. أخذ يعد الثواني على صوت الإطارات تد دور فوق الأسفلت بوقع منتظم. وصلوا إلى العتبة، ودار اللوري حول الميدان

الفسيح. لمح الساعة الكبيرة ومكتب البريد. كم من السنين مرت منذ تلك الليلة البعيدة. داروا حول الصينية الكبيرة ثم انطلقوا في شارع عبد العزيز. ترنح أحد العسكر. مال عليه بثقل جسمه، وضغط فوق قدمه بحذائه الغليظ. ظل صامتًا كأن شيئًا لم يحدث. التحمل أصبح جزءًا طبيعيًا من الحياة. تطلع إلى السماء، ورأى سحابة رفيعة تنساب فوق الزرقة الصافية. سكن قلبه المتوتر لحظة، ثم استأنف سباقه تحت الضلوع. ميدان الأزهر وشارع البستان. تصور في ذهنه بحر من الزهور ترقص تحت لمسات الريح. ترى ماذا كان منظر المكان في قديم الزمان؟

اللوري يسير الآن عبر شوارع هادئة نظيفة، تحت الأشجار، وبين البيوت الأنيقة. فجأة خرجوا من شارع ضيق إلى جوار النيل. مياهه أخذت تميل إلى السمرة. بشائر الفيضان. على بعد خطوات من هذا المكان يوجد بيتهم. ترى ماذا تفعل أمه الآن؟ تجلس على كنبة في الصالة وتطرز مفرشًا للشاي – وتفكر. لم يقل لها أنه خارج اليوم إلى المستشفى. إنه لا يريد أن تراه والقيود حول يديه. ستحزن، وتخفي حزنها أمامه لتعود إلى البيت، وتبكي وحدها في الظلام. هي دائمًا هكذا. لا تظهر شعورها أمام الآخرين. شب وكبر وأصبح مثلها قلبه يموج، ولكن لا شيء يبدو على وجهه سوى نظرة من عينيه، أو ابتسامة خاطفة، أو حركة قابضة في الفم لا يلاحظها إلا من يعرفونه جيدًا.

الأوراق فوق الأشجار العملاقة تبرق في الشمس. أمام عينيه يمتد المبنى الأبيض مثل الدب الكبير يرقد على حافة المياه. قضى ربع عمره في ردهاته وعنابره. انحنى اللوري فوق الجسر الصغير، وانطلق عبر الباب الخارجي كأنه سيسحق الحشد الملتف حوله. صرخ أحد الرجال بصوت غاضب وهو يسند بيديه امرأة عجوز، كادت أن تقع على

الأرض. جاءه صوت السائق وسط هدير المحرك " بهائم "، وسار اللوري مسرعًا كأنه يقترب من آخر السباق. صرخت الفرامل، وتوقفوا فجأة أمام مدخل الاستقبال، وقد أمسكوا في الكابينة بأيديهم حتى لا يقعوا من فوق السطح.

قفز أحد العساكر من فوق الصندوق، وتبعه عزيز، ثم الشرطي الآخر. أحاطوا به كأنهما يسدان عليه المنافذ. سار الجمع الصغير، يتقدمهم الضابط الشاب يطل على الناس بإهمال متعال، وفي فمه سيجارة تشتعل. صعدوا السلم الغارق في نصف ظلام، ثم باب، ثم طرقة ضيقة، ثم باب آخر ليخرجوا إلى الطرقة العريضة الطويلة ينساب عبرها أنهار من الناس. الفضول يطل من العيون والرؤوس تتلفت في حذر، لتتابع الثوب الأزرق، وقيود الحديد، والشرطة بلباسهم الأسود، والبنادق، والضابط يقود الموكب مثل جنرال صغير. لمح وجوهًا يعرفها. أستاذ العظام الذي تتلمذ عليه. الوجه الوسيم الحليق تبدو عليه الراحة والاطمئنان، وخيوط الشيب الفضية في الشعر الغزير. نظر إليه، وندت منه ابتسامة هادئة، مشجعة، فرد عليه الابتسامة، وأحس بالدفء يسير إلى قلبه. هذا هو بيته، وناسه الذين عرفوه. مرت أمامه وجوه أخرى فأشاحت عنه، أو تجاهلت وجوده، أو تظاهرت بأنها لا تعرفه، أو انشغلت عنه سارحة في عالمها الخاص، وهي تسير عبر الطرقة الطويلة. وهذه المرأة بلباسها الأبيض وقوامها اللدن الطويل، وعينين كبركتين من العسل، كانت فتاة في ذلك الوقت، والآن أصبحت حكيمة تسير بصرامة وجد من عنبر إلى عنبر، فوجئت به أمامها، ففغرت فاهها وقالت في صوت خافت " د. عزيز ". زمجر أحد العسكر: " ابتعدي يا ست " فخطت خطوة إلى الوراء، كالتي لسعتها النار. تلفت وراءه بعد خطوات، فلمحها واقفة وسط

الطرقة، تتابع سير الموكب في اهتمام. هزت رأسها من بعيـد، ولوحـت بحركة خفيفة مستترة من يدها.

توقف الضابط عن السير وخاطب عزيز:

" إلى أين "؟

" إلى قسم الجراحة ".

" أقسام الجراحة كثيرة ".

" نذهب إلى أقرب قسم ".

" أعرف أنا ".

" إذن دلنا على الطريق ".

صعدوا السلم إلى الدور الأول، ثم الثاني، وساروا بضعة خطوات، ثم انحنوا إلى اليمين. الأحذية الثقيلة تدك الأرض بضجيج عال. كم يكره هذا الصوت فوق أرض المستشفى.

كانت الردهة مزدحمة بعشرات من الطلبة تجمعوا حـول سـبورة سوداء، كتب عليها بالطباشير الأبيض، في أحرف كبيرة واضـحة، قـرأ كلمة " امتحان " فأحس بقلبه يسقط. كان قد اختار هذا القسم بالذات، لأنـه يعرف أطباءه. سمع الضابط يقول:

" ماذا يحدث هنا؟ لماذا جئت بي إلى هذا الزحام "؟

" يبدو أن هناك امتحانات ".

" وما العمل الآن "؟

" نبحث عن الأطباء في الداخل ".

التفت الضابط إلى الشرطيين وقال: " انتبها ".

ساروا إلى حجرة الغيار الداخلية. دفـع البـاب المـوارب بيديـه المكبلتين، ورن صوت الحديد وهو يصطدم بالباب السميك.

كان ضوء النهار ينساب ساطعًا عبر النوافذ العريضة على المائ دة المستطيلة، حيث رقد أحد المرضى. رجل عجوز، نحيل، مث ل العصا ة الجافة، رفع جلبابه كاشفاً عن ساقيه وبطنه. كان جرح مستطيل يلمع كخط من المشابك المعدنية، ويمتد من الضلوع على اليمين حتى السرة. وقف ت إحدى الممرضات خلف " ترابيزة الغيار ". بينم ا م ال الطبيب ب ف وق المريض. رأى عزيز أصابعه القصيرة المفرطحة تضغط عل ى ج انبي الجرح، باحثة عن أثر للصديد، ومنطقة الألم. رفع رأسه عن دما س مع صوت الباب يفتح. فوجئ بمنظر عزيز يقف في الفتحة، مرتد ديًا لباسً ا أزرق والقيود الحديدية حول معصميه، بينما أحاطت ب ه كتل ة س وداء، تعلوها ثلاثة وجوه للضابط والشرطيين. شحب وجهه، وارتعشت شد فتاه قليلاً وهو يهمس:

" د. عزيز!!؟ ".

" نعم أنا. كيف حالك يا دكتور حازم "؟

" الحمد لله ".

ساد الصمت في الحجرة، وتطلعت العيون إلى الوج وه تفحصها. أحس عزيز بشيء ثقيل في الجو، أثقل من القيود.

قال الضابط:

" هه ماذا تنتظر "؟

كاد أن يرد عليه " لننصرف " ثم تذكر لماذا جاء. لابد أن يتحم ل، أن يضغط على كبريائه.

" يا دكتور حازم. أنا جئت للكشف. يب دو أن هن اك ش يئًا ف ي الأمعاء".

تطلعت إليه العيون في صمت. رأى الوجه الأبيض، والبشرة الوردية يسري فيها الشحوب من جديد. تحركت الشفتان الحمراوتان كشفتي الأنثى، ومن فوقها الشارب الأصفر الرفيع. عادت إليهما الرعشة من جديد. قال:

" هذا ليس من اختصاصي "؟

ساد جو من الانتظار في الحجرة. لمح العجوز الراقد فوق المنضدة ينظر إليه بعينين صغيرتين التفت حولها غضون الزمن.

تدخل الضابط بشيء من الضيق.

" كيف يا دكتور؟ من يكشف عليه إذن؟ ".

" أستاذ القسم "؟

" وأين أستاذ القسم "؟

" سيحضر حالاً. انتظروا في الخارج. سيحضر حالاً ".

دار عزيز بعينيه حول الحجرة لتستقر على وجه الدكتور حازم، فوجده مطرقًا إلى الأرض، كأنه يتفادى النظر إليه. قال باقتضاب:

" متشكر ".

شق طريقه بين الشرطيين الواقفين عند الباب وخرج. تبعه الضابط. ساروا عبر الفناء الصغير بين حشد من الطلبة، انهمكوا في حديث بأصوات متوترة، تخللتها الضحكات العصبية. سمع أحدهم يقول:

" أخشى أن تقع " قرعتي " على حالة ورم في المخ. قضيت الليلة كلها أذكر هذا الجزء، ولكنني أشعر وكأنني نسيت كل ما قرأته ".

لمح وجه شاب يتطلع إليه كأنه يريد أن يقول: " أنا أعرف ما بك " فابتسم ناحيته.

قال الضابط:

" لمن تبتسم "؟

" لنفسي ".

" أحذرك من الاتصال بأحد. وإلا عدت بك إلى حيث جئت بـ دون كشف ".

" لم أتحدث إلى أحد ".

" لا داعي للابتسامات إذن. أين نحن ذاهبون الآن؟ لقد زهقت ".

" أقترح أن أنتظر مجيء الأستاذ عند الشرفة. نستطيع أن نراه وهو يدخل من الباب ".

دلفوا من النافذة العريضة إلى الشرفة. مال فوق الحـ اجز، ومـ لأ صدره بهواء الصباح. أمامه ينساب النيل عريضًا بين الضـ فتين. رأى " الجزيرة " بأشجارها الخضراء تتمايل عند الأفق في حركة بطيئة.

اقترب منه أحد الشرطة وهمس في أذنه:

" ما عليك يا دكتور. هو دائمًا هكذا ... كنا نود أن نفعل لك شيئًا ".

" شكرًا. كلها مسائل بسيطة لا تهم. أمعك كبريت "؟

مد عزيز أصابعه، وأخذ يحركها في جيب سترته حتى أخرج علبة سجائر. أخذها الشرطي، ووضع سيجارة بين شفتي عزيز، وأشـ علها، ثـ م أعاد العلبة إلى جيبه. نفث سحابة من الدخان في استمتاع، وتأملها وهـ ي تتناثر. ترك نفسه تسبح كالسحابة الخفيفة في جو الصباح. بقوا هكذا دون كلام. كان الضابط يتطلع إليه بفضول، وكأنه يدرسه، ويريد أن يفتح معه حديثًا، ولكنه ظل يحملق في المياه المنسابة أمام عينيه، وأطفال يمرحـ ون في ثيابهم الملونة، تحمل الريح أصواتهم الصافية من بعيد.

أحسوا بحركة غير عادية بين الطلبة. فتلفتوا وراءهم. كان رجـ ل قصير القامة يتقدم من باب القسم سائرًا بخطـ وة سـ ريعة عبـ ر الفنـ اء

الصغير. عرفه عزيز من جبهته العالية البيضاء، تلتقي عند د منتصف ف الرأس بشعر أكرت مقصوص، والفك العريض القوي، وعينين تطل منهما شقاوة ضاحكة. أسرع نحوه يتبعه الضابط والجنديان. انحنى إلى اليم ين، ثم إلى اليسار، ليدخل حجرته الخاصة، فساروا وراءه حتى باب الحجـ رة المفتوح. وجدوه يجلس خلف المكتب، وقد وضع في فمه سيجارًا سـ ميكًا، وتأهب ليشعله بعود من علبة الثقاب الصغيرة. أحس الرجل بحركة عنـ د الباب، فرفع عينيه، ليجد عزيزًا واقفًا في الفتحة، وإلى جواره الضـ ابط، ومن خلفه الشرطيان. لم تبد عليه علامات الانـ دهاش، ولكـ ن قسـ ماته تجمدت قليلاً بشكل يكاد يكون غير محسوس، كأنه رأى شيئًا لم يعجبـ ه. قام من جلسته، ودار حول مكتبه ثم تقدم نحو عزيز. مد يده إليه وسـ لم. أحس عزيز بقبضته الحارة القوية تلتف حول أصابعه. قال وهو يضحك:

" دائمًا في المصائب أنت. ماذا جاء بك اليوم يا عزيز "؟

" جئت أعرض نفسي على الأطباء ".

" لماذا. مريض؟ ... أنت؟ لا يمكن " ندت منه ضـ حكة قصـ يرة مرحة. ثم التفت إلى الضابط وقال:

" تفضل يا حضرة الضابط اجلس. سأتولى الكشف عليـ ه بنفسـ ي. كان أحد طلابي المفضلين ... يعرف كيف يستخدم مخه. ألن ترفعوا عنه قيود الحديد "؟

تردد الضابط قليلاً، ووقف كأنه لا يعرف ماذا يقول. تجهـ م وجـ ه الأستاذ من جديد، وظهرت عليه صرامة مفاجئة.

" يا حضرة الضابط. ارفعوا عنه القيود الحديدية. فأنا لا أستطيع أن اكشف عليه هكذا. أين سيذهب منكم. الحجرة مغلقة " تقدم نحـ و البـ اب وأغلقه " وأنتم ثلاثة رجال مسلحون ".

ارتبك الضابط، واحمر وجهه الأبيض الحليق قليلاً. أشار إلى أحد الشرطيين.

" فك له الحديد ".

أسند الشرطي بندقيته على الجدار، تقدم نحو عزيز وأمسك بيده، وأخذ يدير المفتاح الصغير في الثقب الطويل، على اليمين ثم على اليسار. أحس عزيز بيديه خفيفتين، وبالثقل يرتفع عن معصميه، فأخذ يدلكهما بأصابعه ليزيل عنهما شعورًا بالألم الخفيف.

شده الأستاذ من ذراعه، وقاده إلى سرير الكشف تغطيه ملاءة بيضاء. شم عزيز رائحة الطباق الجيد تختلط بالكولونيا. تلفت حوله إلى جدران الحجرة، وصورة ملونة لحكماء بابل يعالجون أحد المرضى بالعقاقير. كم من المرات دخل هذه الحجرة في الماضي. أحس بقلبه خفيفًا.

أخرج الأستاذ علبة سجائر إنجليزية من جيبه. قدم سيجارة للضابط، ثم التفت إلى عزيز وقال:

" سيجارة يا عزيز ".

" شكرًا. بعد الكشف سآخذ منك السيجارة ".

خلع سترته، وعلقها فوق الشماعة في ركن الحجرة. فك أزرار البنطلون، وأخرج قدميه من الحذاء، ثم نام فوق السرير. تقدم منه الأستاذ. لمح الشرطيين يقفان عند الباب كتمثالين من السواد، وقد أسند كل منهما ساعده على فوهة البندقية.

رأى وجه الأستاذ يطل من فوقه، وقد اشتعلت عيناه ببريقهما الضاحك، وارتفعا ركنا فمه في ابتسامة خفيفة، فيها سخرية صامتة.

قال:

" ماذا بك "؟

" أشعر بدوار، وغثيان في الصباح، وتتتابني أزمات شديدة من الألم، تتحول أحياناً إلى مغص ".

" منذ متى "؟

" منذ ستة شهور تقريبًا ".

" وقبل ذلك "؟

" لا شيء ".

" والألم والمغص أين تشعر بهما "؟

" هنا ". أشار بيده أسفل الضلوع في الجهة اليمنى.

" ألا تشكو من شيء آخر "؟

" الإمساك المستمر ".

" ألم تلاحظ تغييرًا في لون عينيك أو وجهك "؟

" لا أرى عيني أو وجهي ".

صمت الأستاذ في لحظة اندهاش خاطفة، ثم استطرد:

" هه. ولون البول "؟

" طبيعي ".

" هل هناك أنوع معينة من الأكل تتعبك "؟

" لا ".

" ولا الأكل الدسم، أو البيض، أو اللبن ".

" أكلنا لا يخرج عن الفول والعدس والعسل الأسود. العسل الأسود يتعبني ويسبب لي غازات ".

" هه " ضحك وقال " رجيم يعني. اكشف عن بطنك ".

أحس بأصابعه القصيرة السميكة تنغرس برفق في جـ دار الـ بطن. تطلع إلى الوجه المنكب عليه في جدية واستغراق، وتتبع النقط السـ وداء الصغيرة تسبح في صفاء المقلتين. فوجئ به يغمز له بغمزة خفيفة تكاد لا ترى، وهو يغرس أصابعه أسفل الضلوع على يمين البطن.

" أتشعر بشيء هنا، عندما أضغط بأصابعي "؟

" نعم شيء من الألم ".

" صفه ".

" كالدمل الدفين ".

" حسناً. قم وارتدِ ملابسك ". عاد إلـ ى المكتـ ب وجلـ س. أشـ عل سيجارة ونفث سحابات كثيفة زرقاء من الدخان إلى أعلى. ثم قـ دم علبـ ة السجائر عبر المكتب إلى عزيز.

" خذ سيجارتك " ناوله السيجارة، وأشعلها له بولاعة فضية صغيرة ثم أشار له بالجلوس إلى جوار الضابط. ضغط على الجرس خلف مقعده، وبعد قليل فتح الباب فكاد أحد الشرطة ينكفئ على وجهه. ظهرت ممرضة صغيرة الحجم والسن في فتحة الباب، وقالت في همس يكاد لا يسمع:

" نعم ".

" اطلبي من الدكتور علاء أن يحضر إلى هنا. واطلبي من السـ ت الحكيمة إذن دخول ".

اختفت الممرضة، مغلقة الباب وراءها، وهي تلقي بنظرات مرعوبة على الجمع الصغير في الحجرة. مال إلى الوراء بركبتيه. وضـ ع سـ اقاً فوق ساق وأخذ يشد على سيجارته بأنفاس متتابعة سـ ريعة حتـ ى لفتـ ه سحابات الدخان.

فتح الباب من جديد وظهر طبيب شاب يرتدي معطفاً أبيض وينسدل شعره كثيفاً فوق جبهته. قال الأستاذ:

" صباح الخير يا دكتور علاء ".

" صباح الخير يا أفندم ".

ألقى الشاب نظرة سريعة على الموجودين.

" أتعرف الدكتور عزيز "؟

" لم أتشرف بعد ".

قام عزيز من جلسته وسلم عليه.

قال الأستاذ:

" الدكتور علاء نائب القسم ". عاد عزيز إلى جلسته. استطرد الأستاذ موجهًا كلامه إلى الدكتور علاء:

" أين الدكتور حازم؟. لم أره اليوم ".

" في الكشك يا أفندم ".

" اطلب منه أن يسرع. هل حالات الامتحان جاهزة "؟

" جاهزة يا أفندم ".

موجهًا كلامه إلى عزيز:

" أتذكر الدكتور حازم "؟

" نعم. هو زميلي، من نفس الدفعة ".

" ألم تقابله اليوم "؟

" نعم قابلته ".

" وهل كشف عليك "؟

" لا ".

" لماذا "؟

" قال أن الكشف على المسجونين مثلي من اختصاص أستاذ القسم فقط ".

مط الأستاذ شفتيه في حركة استهزاء خاطفة، وسكت. دخلت الحكيمة: امرأة متوسطة الطول تميل إلى السمنة، وتلمع عيناها السوداوتان ببريق ذكي قالت:

" صباح الخير يا أفندم ".

" صباح الخير يا ست زينب. هل معك إذن الدخول "؟

" نعم ".

" يا دكتور علاء. اكتب إذن دخول للدكتور عزيز. اشتباه التهاب مزمن بالمرارة. يعمل له تحليل بول وبراز ودم، وأشعة على المرارة بدون صبغة وبالصبغة " ملتفتًا إلى الحكيمة " هات الإذن لأمضيه ". أخرج قلمه من جيب السترة، ووقع بحركة دائرية استعراضية، فيها شيء من التحدي، كأنه يحسم أمره، أو يريد أن يقول " ها أنذا قد مضيت، ماذا ستفعلون "؟

التقت عينا الأستاذ بعيني عزيز عبر الحجرة. قال في مرح: " باب النجار مخلع يا دكتور عزيز. ولابد من الترميم. سنحاول أن نصلح ما أفسده الدهر ".

صمت عزيز لحظة، ثم قام من جلسته. التقت عيونهما من جديد. نطق عزيز بصوت هادئ.

" متشكر ".

مد يده وسلم على الأستاذ، ثم على الدكتور علاء.

ابتعد الشرطيان عن الباب حتى يمر. سمع الضابط يقول " السلام عليكم " من ورائه. خرج إلى الطرقة وانتظر حتى يلحق به الحراس.

كانوا قد نسوا أنفسهم في هذا الانتقال السريع من جو السجن، وسيارة النقل، والمسجون المكبل بالحديد يدفعونه أمامهم كالمساق في سوق المواشي إلى الحجرة والأستاذ، والحديث، وعزيز الذي تحول فجأة إلى زميل بين زملائه.

كم يبدو بعيدًا ذلك اليوم الذي توجه فيه مع الحرس إلى المستشفى ترى أين ذهب الناس الذين قابلهم في هذا اليوم. الأستاذ، والدكتور حازم والدكتور علاء، والست زينب الحكيمة؟

جلس فوق الدكة الخشبية ينتظر فتح باب الزنزانة. في ذلك الصباح كان قد اتفق مع محمد على لقاء الآخرين. فلا بد من التشاور. شيء ما في الجو ينبئ بالتغيير. والتغيير يجب أن يدرس حتى يستعدوا له.

سمع صوت المزلاج يجري في حلقات الحديد. فالتفت ناحيته ينتظر تسرب الضوء قويًا إلى عينيه فأغمضها نصف إغماضة. سمع صوت محمد يقول:

" صباح الخير ".

" صباح الخير يا محمد ".

" هات حاجاتك وتعال معي ".

تناول المنشفة والصابون وخرج. سار بخطوات مسرعة عبر الحوش الصغير، يستعجل اللقاء. دخل إلى دورة المياه فوجدهم ينتظرون: ثلاثة أصبح هو رابعهم.

كانوا قد تسللوا إليها الواحد خلف الآخر. أطل محمد برأسه من الباب وقال بابتسامة:

" اكتمل العدد "؟

رد حلمي وعيناه تبرقان:

" نعم ... ولكن خذ بالك ".

" لا تخف ... نحن ثلاثة نراقب المداخل ".

" أواثق أنت منهم "؟

" تمامًا ... هم أصدقائي. سأترككم الآن " اختفى خلف الستارة الخشبية المقامة في المدخل.

أسند عماد ظهره على عمود من الخشب. فقد لحمًا كثيرًا، وعظامه العريضة أصبحت بارزة. عيناه غائرتان زائغتان تطلان عليك كأنهما تنظران إلى الداخل، كأن طبقة متجمدة تكونت فوق سطحهما.

قال عزيز " كيف حالك يا عماد "؟

" أحسن. ولكن هناك شيء يؤرقني ".

" ماذا يا عماد "؟

" أعالج بالصدمات الكهربائية ".

" لا تقلق. علاج معتاد في حالتك ".

" وما هي حالتي "؟

" تعب عصبي بسيط. كاد أن يحدث لي نفس الشيء ".

" أحس أنني أصبحت شخصين ".

" كلنا هكذا. شخصية تتصرف، وأخرى تراقب. أليس كذلك يا حلمي "؟

" بالضبط. شعور غريب ".

دار عماد بعينيه على وجوههم.

" ولكنني أسمع أصواتًا تكلمني. العصافير، والجدران، وكل الأشياء الصامتة ".

" أضاف عزيز:

" وأنا كذلك. أتحدث مع الذباب ".

" ولكنني قلق ".

تدخل سيد:

" لماذا "؟

" أخشى أن أقول ما ينبغي ألا أقوله أثناء الصدمات ".

" أمسك حلمي بذراعه مشجعًا، والتفت إلى عزيز وهو يغمز بعينيه:

" هل هذا ممكن "؟

" مستحيل. لأنه يعي كل شيء ".

سرح عماد لحظة، ثم نطق في بطء كأنه يفكر بصوت عال:

" ولكنني أشعر أحياناً أنني فاقد الوعي ".

أسرع عزيز قائلاً:

" المسألة مسألة إرادة. ونحن نعرف إرادتك " التف ت إل يهم كأن ه يطلب التأييد، فهزوا رؤوسهم موافقين.

قال حلمي:

" دعنا الآن من هذا. نحن نثق فيك ولا نخشى شيئاً. ل يس أمامن ا وقت كثير. ما رأيكم في الموقف "؟

فرك سيد جبهته بأصابعه.

" أرى أنه أحسن ".

سأل عزيز:

" تأخرت المحاكمة ".

" وماذا يعني هذا "؟

" أنها لم تعد سهلة ".

" وما هو الجديد "؟

" الضغط عليهم يزداد، ويعملون حساب موقفنا في المحاكمة ".

قال عزيز:

" هذا هو استنتاجي أيضًا ".

أطرق حلمي على الأرض وقال:

" إذا كان هذا صحيحًا فقد أنقذنا ".

تدخل عماد:

" إلى حين ".

سمعوا صوت خطوات تقترب، ثم ابتعدت من جديد. كتموا أنفاسهم في صمت. همس حلمي بعد قليل:

" ينبغي أن ننتهي بسرعة. ربما أفلتنا من المحاكمة السريعة والإجراءات الاستثنائية. ولكنهم لن يتركونا ".

قال عزيز بصوتٍ نبراته غريبة:

" على الأقل أفلتنا من الشنق. وأنت بالذات يا حلمي "؟

" أنا بالذات؟ لماذا؟ "

ضحك سيد وقال:

" أفقدت وعيك الطبقي "؟

قطب حلمي جبينه كأنه يحاول أن يفهم. ثم انفرجت أساريره عن ابتسامة خفيفة، كأنه أدرك ما خفي عليه.

" فهمت. أنا العامل ".

ساد الوجوم مرة أخرى كأن الخوف ما زال يحلق. واقتربت أصابع سيد من عنقه في حركة لا إرادية. تبعها عزيز بعينيه فأنزل سيد يده بسرعة.

قال عماد:

" وماذا بعد؟ يجب أن نفكر فيما هو آت ".

أجاب عزيز في شيء من التردد:

" لا فائدة من التفكير. لا نعرف شيئًا، ويجب أن ننتظر ".

تدخل عماد:

" ولكن الآخرين لا شك أنهم يفكرون، ويقلقون مثلنا ".

" علينا أن نتصل بهم وأن نطمئنهم قدر استطاعتنا. سأتفق مع محمد".

سمعوا خطوات تقترب. كتموا أنفاسهم من جديد. أطل محمد برأسه وقال في صوت مرح:

" انتهى الاجتماع؟ إذا لم ينته سأنهيه أنا، إلا إذا كنتم تريدون دون أن أنضم إليكم، وأشارككم إحدى الزنازين. أخرجوا واحدًا واحدًا. حلمي ثم عماد، ثم سيد، ثم عزيز ".

أحس عزيز أنه يميزه عن الباقين. يريد أن يتركه طليق الجدران مدة أطول. دورة المياه أوسع من الزنزانة، وفيها إحساس بالتغيير، وبالباب المفتوح. تسلل حلمي إلى الخارج، ثم تبعه عماد بعد قليل. بقي سيد واقفًا مع عزيز.

" يا عزيز كيف حالك "؟

" الحمد لله ".

" ألم تتعب من الحبس الانفرادي "؟

" في الأول. ثم تعودت ".

" سمعت خبرًا يهمك ".

" ماذا "؟

رمقه سيد بنظرة سريعة نفاذة.

" نادية خرجت من السجن ".

أخذ عزيز نفسًا عميقًا. ثم سأل في صوت تسللت إليه بحة خفيفة:

" كيف علمت "؟

" من زوجتي. زارتها في البيت ".

" وأين رأيت زوجتك "؟

" لم أرها. هربت إلي خطابًا مع أحد الحراس ".

ساد الصمت ... أحس عزيز بقلبه يخفق، وبعيني سـ يد تسـ تقران على وجهه.

" قالت أن طفلك كان معها ".

ابتسم عزيز وأشرق وجهه. أحس بشيء كالأصابع الصغيرة تلتـ ف حول يده. نظر إلى كفه بحركة لا إرادية.

" وقالت أنه جميل ".

" كل هذا في الخطاب "؟

" إي والله ".

" تريد أن تطمئنني "؟

" لا. هذا هو ما كتبته بالفعل ".

" ونادية "؟

" لم تقل عنها شيئًا سوى أنها على ما يرام ".

" ألم تطلب نادية منها أن تكتب شيئًا في الخطاب "؟

" مثل "؟

" أن تسلم علي. أو أن ترسل بعضًا من أخبارها ".

" لا. ربما لم تعلم أن زوجتي ستكتب إلـ يّ. فأنـ ا الـ ذي أرسـ لت الحارس ".

" ربما. كيف وقعت على هذا الحارس "؟

" رجل من بلدنا ".

أطل عليهما محمد برأسه في شيء من الغضب.

" عظيم ... عظيم ... يا لليقظة. مستغرقان في الحديث إلى درجة أنكما لم تسمعا قدومي. سيكون مصيري مظلمًا إن شاء الله. اخرج يا سي سيد ".

ضغط سيد على يد عزيز، ثم أسرع بالخروج. بقي عزيز وحده نادية خرجت ... نادية خرجت. رآها تسير كالعصي اللدن فوق أرض خضراء بعينيها السوداوتين، وثوبها الأبيض، وأمامها طفله يجري بخطوات صغيرة متعثرة. طارت أفكاره في لحظة إليها، لماذا لم تبعث إليه برسالة أو كلمة ... لماذا؟ ... لماذا؟ ...

* * *

منذ يومين وهو لا يستطيع أن يطرد صورتها من ذهنه. انهار برنامجه اليومي تمامًا ... يبقى مستلقيًا على السرير بالنهار، ويتقلب من جانب إلى جانب طوال الليل. يراها حانية قريبة منه في بعض الأوقات، تحدثه وتنظر في عينيه في استغراق عميق، وتفتح ذراعيها، فيضع رأسه فوق صدرها، ويغيب خلف جفونه المغلقة، يستكشف من جديد تفاصيل وجهها، وملمس شعرها الناعم. جسدها العاري يرقد إلى جواره كالعنبر الحي في ضوء الصباح. ولكنها تهرب منه في أغلب الأوقات، توليه ظهرها، وتتفادى نظراته، وتبتعد، وتختفي خلف الغيوم، فيشعر بالألم العميق الثقيل يتكرر تحت ضلوعه. أرهقه البحث المستمر عن لقاء معها في الخيال، والتساؤل المستمر عما حدث، ويحدث. أحس بنفسه واهنة، منطفئة، لا يستطيع الحراك. لم يعد يأكل أو ينام، أو يتحرك في المساحة

الضيقة التي تعود أن يملأها بحياة كاملة طوال النهار وساعات من الليل. شيء كالدودة النهمة تأكل في داخله. دودة تروح وتجيء، تختفي وتظهر، تنهش، وتستريح، ولكنها موجودة تحيا في أحشائه، ولا تغادرها ليل نهار. فقد رغبته في الحياة، فهي تمتص حيويته وقواه المختزنة، وتزحف عليه مقلقة معذبة، ليصبح كالمريض طرحته العلة أرضًا. لماذا لم تكتب؟ ... لماذا لم تقل شيئًا ... كيف تخرج وتتركه هكذا؟ كل شيء أصبح الآن مظلمًا، باردًا فاقد اللون. الحياة تنساب بالتدريج ... إنه يمشي إلى نهاية محتومة ... وكل شيء ينهار.

كان محمد يتردد عليه بين الحين والآخر ... لم يعد يتبادل معه الحديث ... كلمتان مقتضبتان. ولكنه أدرك أنه يتفادى الكلام ... يرمقه بنظرة متسائلة، سريعة، ثم ينصرف، ويغلق الباب. ولكن في هذا الصباح وقف أمامه كأنه حزم أمره على شيء ما ... انتظر عزيز حتى ينصرف، ولكنه بقي واقفًا أمامه، لا يريد أن يغادر الحجرة. اقترب منه وقال في صوت هادئ:

" ما بك "؟

" لا شيء ".

" هناك شيء ... لماذا تصمت "؟

" لا شيء. أقول لك ... لا شيء ".

" بل هناك شيء ما ... تكلم ... لا فائدة من السكوت ".

صمت عزيز وتردد لحظات ... بدا عليه أنه يريد أن يتكلم ...

" يا دكتور عزيز ... حالك لا يعجبني ".

" أنا قلق ".

" لماذا "؟

" على عائلتي ".

" ولم هذا القلق المفاجئ "؟

" لا أدري ".

" بل تدري ... ولكنك لا تريد أن تفصح عما في نفسك. افتح صدرك لي ".

تردد من جديد ... ثم قال:

" أريد ورقة، وقلمًا ".

" وماذا ستفعل بهما "؟

" سأكتب خطابًا ".

" ثم ماذا "؟

" سأرسله ".

" كيف "؟

" بوسيلة ما ".

نظر إليه في عتاب:

" ألا تثق في "؟

بل أثق

" إذن أعطني الخطاب. سأحضر إليك ما تريد بعد الظهر ".

لمعت أسنانه في الوجه الأسمر، ثم استدار وخرج بسرعة، مغلقًا الباب وراءه.

وقف عزيز وسط الحجرة حائرًا. أحس فجأة بشيء كالإشراق يغمر كيانه. قفز في الهواء، ودار حول نفسه بخطوات راقصة. ما له كان حزينًا؟ الدنيا بخير. سيكتب إليها رسالة طويلة، وسترد عليه برسالة

أطول. جلس على السرير واضعًا وجهه بين كفيه، مستغرقًا، يسبق الزمن بخيال اشتعل كعود من ثقاب في الليل.

أخذ يقرأ السطور قبل أن تصل إليه " حبيبي عزيز، كم من الأيام والليالي مرت بعد أن خرجت من السجن، وأنا أفكر فيك، وفي وسيلة لكي أتصل بك. أنت بعيد، ولكنك في كل لحظة كالطيف ... في كياني ... جزء مني منفصل، ولكنه لا ينفصل. أحبك وأنتظرك ... ".

السطور تنهمر على الورقة، الواحدة بعد الأخرى، مسرعة، متدفقة في كلمات متشابكة الحروف، متصلة الحلقات، تحكي، وتحكي شوقًا لا ينضب، حبًا قديمًا متجددًا، رسالة تستمر بعد أن ينتهي الورق، وتسطر آخر الكلمات، والزمن يمر دون أن يشعر.

أفاق على أصوات تصيح من الخارج، فنفض رأسه كالمستيقظ من حلم بعيد. نهض من السرير ووقف يمد ذراعيه فوق رأسه ويثني ظهره إلى الوراء. سحب إحدى البطاطين المطوية بعناية عند طرف المرتبة ... فرشها على الأرض ورقد على ظهره فوقها. أخذ يبعد ساقيه، ويقربهما في حركة منتظمة، كفكي مقص. واحد ... اثنان ... واحد ... اثنان. أحس بالحياة تسري في جسده من جديد.

* * *

استيقظت كل حواسه فجأة. دفء الربيع يزحف على الدنيا. يشعر به وهو يجلس على المقعد الأسيوطي بجوار النافذة المطلة على الشرفة العريضة الممتدة بطول عنبر المستشفى. يلمح شريط النيل الأسمر، ومساحات خضراء في الحدائق، والكازينو بمقاعده، وشماسيه الملونة تنام في اطمئنان هادئ بجوار المياه. وسيدة تقرأ كتابًا وتعرض ذراعيها العاريتين للشمس، وطفلاً يجري كالأرنب الصغير وسط الزهور.

إنه كالعائد من مرض طويل، من النسيان خلف الجدران، من القبور، والأشباح تجري بين القبور، من الأيام الرمادية الغائمة، لا تفترق عن بعضها، ينتابه شعور كالنهم العارم لكل أشياء الحياة.

قضى الأيام الأولى يرتب حجرته. أرسل في طلب كل ما يريده من البيت، لا يحده سوى شعور دفين بالإثم إزاء الذين تركهم وراءه يعانون، وبقايا التقشف الذي فرضته السنون، كعزوف المتعبد عن متع الحياة. فرش سريره بالملاءة الناصعة البياض، ووضع مفرشًا رقيقًا منسوجًا بالألوان فوق المنضدة المستديرة، وزهرية يملأها بالورود الندية من حديقة المستشفى، تحملها إليه الحكيمة مع ابتسامة الصباح، وراديو بجوار السرير، صندوقًا من الخشب البني، وقرصًا أحمر يدور حوله مؤشر رفيع كالشعرة البيضاء، وعينًا خضراء تضيء في الليل. وفوق الحوض، على رف من زجاج، وتحت المرآة، استقرت فرشاة أسنان جديدة، وعلبة بلاستيك بها صابون، ومعجون حلاقة تفوح منه رائحة اللافندر، وعدة الحلاقة، ومشطًا شفافًا، وزجاجة كولونيا انتصبت في رشاقة عند طرف الرف.

خلع البدلة الزرقاء الأنيقة التي كان قد فصلها خصيصًا لهذا اليوم. بدت له غريبة، وكريهة، وسط ثياب الآخرين. حتى جلاليب المرضى مريحة للعينين. إنه يريد أن يبعد عن نفسه كل ما يذكره بحياة الزنازين. دخل الحمام المجاور لحجرته في اليوم الأول، وترك رذاذ المياه الساخنة تسيل فوق جسده. أخذ يدعك جلده، المرة تلو المرة، بالصابون، واللوف، كأنه يزيل عنه آثارًا تراكمت، ورائحة مميزة كالهواء الراكد في غرفة للحيوانات. ارتدى بيجامة، وخرج يستنشق الهواء، والبخار المتصاعد من ثنايا الملابس، وكأنه ولد من جديد.

منذ لحظة دخوله المستشفى هرب منه النوم. كان يقضي الليل كله جالسًا على المقعد، أو راقدًا فوق السرير، يدير قرص الراديو، يلتقط المحطات، وكأنه يريد أن يجوب العالم كله في رحلة لا تنتهي، يبحث، ويستكشف، ويتنقل، ويسمع كالمحموم، حتى الصباح. الحجرة الصغيرة تتسع، وتتسع، لتحتوي الدنيا كلها، أركانها المحدودة تصطدم بالأحداث، وأمواجها الخفية تنقله حيث يريد في حرية بدت له مطلقة، لا تحدها حدود. أحس بنشوة طاغية كالخارج من القمقم إلى العالم الفسيح. كانت الساعات تمر دون أن يشعر بها، دون أن يعتريه تعب أو ملل.

صوت مذيع القاهرة يعلن نتائج الانتخابات. الوفد يكتسح، والموقف ينبئ بأشياء. آسيا تنتفض وتواجه الأعداء. ساعة " بيج بن " تدق في لندن، وتذكره بحجرة المكتب في بيتهم، والكتب، وقلق الشباب.

كان يستلقي فوق السرير، ونسمة الصيف الخفيفة تنساب من النافذة المفتوحة، وصوت الكمان ينساب في صفاء الليل. ويشعر أنه يريد أن يبقى هكذا إلى الأبد، يغرق نفسه في أعماق النغم، ويسحب أنفاسًا من سيجارته المشتعلة بين الأصابع، ويترك أفكاره تسبح كما تريد.

كانت أمه ترسل إليه طعامه في كل يوم. عمود من الألومنيوم تضع فيه أطعمته المفضلة. يشعر كلما فتحه، ونظر في محتوياته، وكأنها تفرغ يوميًا شحنة جديدة من حبها وحرمانها. جهد مدروس حتى لا ينقصه أي شيء. الخس الأخضر ترقد أوراقه نظيفة، لامعة، بعضها فوق بعض في انتظام دقيق، وحلقات الطماطم، والخيار، نزعت عنها قشرتها الخارجية، وعصير الليمون المثلج في " ترمس " زاهي الألوان، وشرائح من اللحم، وفوطة بيضاء، وأطباق وأكواب، وموقد صغير يدفئ عليه الأطعمة، ويصنع به أقداحًا من الشاي، والقهوة.

كان يجلس أمام المائدة يأكل، ويرتشف في استمتاع بطيء، وكأنه يأكل لأول مرة، ويحيا أشياء الحياة الصغيرة من جديد. يشعر بآدميته مع قطع الخبز الأبيض، وأدوات الأكل، وطعمه، ورائحته، وألوانه.

شيء واحد فقط كان يذكره بالسجن. الضابط الجالس في الشرفة أمام النافذة يرمقه من طرف خفي، ولا يدعه يفلت من أنظاره. والشرطيان المنتصبان عند مداخل الحجرة، أحدهما عند الباب، والآخر عند النافذة.

في الأيام الأولى حالت حريته الجديدة دون أن يشعر بوجودهما. ولكن بالتدريج أخذ يضيق بوجود تلك العيون التي تتظاهر بعد الالتفات إليه، بينما تراقب بدقة كل حركة يؤتيها عندما يأكل، أو ينام، أو يغير ملابسه، أو يسترخي في المقعد المريح مغلقًا عينيه. كان يحس بشيء كالظل الثقيل، يحاول أن يزيحه بعيدًا عن أفكاره، ولكنه لا يلبث أن يعود. كانوا يتتبعون كل خطواته، وكأن سلاسل رفيعة غير مرئية تربطه إليهم. حاول أن يبعد عن نفسه هذا الشعور دون أن ينجح. فلم يكن بينه وبينهم أي حواجز، تترك له ركنًا خاصًا في حياته، يملكه هو وحده. فأحس أن باب الزنزانة المغلق رحمة في بعض الأحيان.

كان ينجح لساعات طويلة في نسيان الرجال الثلاثة، وملابسهم السوداء، وبنادقهم الطويلة، والمسدس الراقد في جراب من الجلد يرتديه الضابط في زهو ملموس. ولكن كان يكفي سماع سعال خافت، أو صوت كعب البندقية يحتك بالأرض، أو تثاؤب ثقيل، أو رؤية بوز الحذاء الغليظ يبرز من خلف الباب، أو يد تمسك بطرف النافذة، أو نظرة عين تصطدم بعينيه ثم تهرب في شيء من الارتباك، كان يكفي أي شيء من هذا ليتذكر أن حريته الجديدة ليست إلا وهمًا.

ولكنه كان يخفي كل ذلك، ويتظاهر بأنه لا يحس بوجودهم. فلابد أن تبدو تصرفاته عادية، هادئة، لا تشوبها أدنى عصبية، إذا أراد أن يحقق تلك الفكرة التي استولت عليه، وسيطرت على خياله، وملكت كل لحظة من لحظات يقظته، واخترقت ستار النوم لتنفذ إلى أحلامه طوال الشهر الماضي، منذ لقائه مع الدكتور فؤاد.

حضرت إليه " أم السعد " في اليوم الثاني لمجيئه. دخلت عليه في الحجرة تحمل العمود، والراديو الصغير تحت إبطها. فتح الباب، فالتفت ناحيتها ليراها تقف أمامه. لم يعرف ماذا حدث. وجد ذراعين قويتين تحيطان به، ودموعًا ساخنة تسيل على وجهه، وشعرها الخشن عند أذنه. ابتعدت عنه قليلاً حتى تراه فوقف ليتطلع إلى الوجه الأسمر بملامحه القوية، وجسدًا مربعًا بنته سنين العمل، ويدين عريضتين عرفت كيف تحمل الأثقال، وتعجن الخبز، وتغسل الملابس، وتدعك بلاط الأرض بصابون وفرشاة.

قالت:

" يا سي عزيز " واختنق صوتها بالدموع.

" يا أم السعد. اجلسي ".

أجلسها على مقعد بجواره، وأخذ يتطلع في وجه الفلاحة الأسمر القوي الملامح، ونظرة الطيبة في عينيها، وخطوط الشيب التي أخذت تتخلل شعرها الطويل المرفوع تحت المنديل، والوشم الكبير الأسود على ذراعها اليمنى.

" كيف حالك ... وكيف حال الأولاد "؟

" طيبون ... بخير ... ويهدونك السلام ".

تذكر بشيء من الرضى الخفي أنه كان قد أجرى لها عملية توسيع في عنق الرحم منذ سنين، فأنجبت بعد العملية. كان يحس وكأنه شارك في صنع أولادها. هذه المرأة التي كانت لا تعرف القراءة والكتابة تعمل دون كلل، وتقتر على نفسها لتعلم أولادها. كانت عزيزة عليه، قريبة إلى قلبه.

قالت:

" البيت ليس بيتاً منذ أن تركتنا يا سي عزيز " أنا ووالدتك نجلس أحياناً وحدنا في الليل. نتذكرك ونتحدث عنك، فنبكي ".

" لا داعي للبكاء. فأنا بخير كما ترين. وستفرج قريبًا إن شاء الله ".

" إن شاء الله يا رب " قامت من جلستها. توجهت إلى العمود وفتحته " سأحضر لك الطعام بنفسي ".

أخرجت مشعلاً صغيرًا من صندوق الكارتون المربع الذي كانت تحمله، ووضعته فوق المنضدة، وفكت أواني الألومنيوم الواحدة تلو الأخرى من العمود، وتهيأت لوضع واحدة منها فوق المشعل، ولكنهما فوجئا بالضابط يدخل من الشرفة.

" ماذا تفعلين يا ست "؟

قالت:

" سأعد له الطعام ".

" ممنوع. يكفي أننا تركناك تحضرين الطعام. انصرفي ".

وقفت حائرة، تنتقل عيناها بسرعة بين وجه الضابط، ووجه عزيز. ثم استقرت نظرتها على عزيز كأنها تنتظر منه إشارة.

قال:

" انصرفي يا أم السعد. قولي لهم في البيت أنني أنتظر زيارتهم ".

تنهدت وقالت:

" ألديك ملابس تريد غسلها "؟

ناولها سرة من الدولاب الأبيض وقال:

" خذي. لا تنسي موضوع الزيـ ـارة. وأحضـ ـري معـ ـك الطاولـ ـة الصغيرة الموجودة في حجرتي. مع السلامة ".

" سأعود باكرًا مع الأكل. السلام عليكم ".

ألقت نظرة أخيرة غاضبة على الضابط. ثم خرجت من الباب تتمتم بألفاظ غير مفهومة. تلفت الضابط بعينيه حول الحجرة ثم خرج ثانيًا إلـ ـى الشرفة. وقف عزيز صامتًا كأنه لا يعرف ماذا يفعل، ثـ ـم اقتـ ـرب مـ ـن المنضدة، وأشعل الموقد الصغير بعود ثقاب من تحت الوعاء الموضـ ـوع فوقه.

* * *

كانت الحراسة تتغير ثلاث مرات في اليوم. وكان ثلاثـ ـة ضـ ـباط يتناوبون في القيام بالمهمة يوميًا. لم تكن بين عزيز وبينهم علاقـ ـة مـ ـا. كانوا يعاملونه بحذر شديد، ويراقبونه بدقة، ولا يبادلونه الحديث إلا فـ ـي حدود التحيات العادية عند الحضور أو الانصراف، وكأنهم يخشون الكلام معه، أو يخضعون لأوامر مشددة ينفذونها بكل دقة. ولكن ساعات الملـ ـل الطويلة في انتظار نهاية نوبة حراستهم، وعنصر التعود الذي قضى على ساعات الحدة الأولى، والعلاقات الطبيعية التي لابد أن تنشأ بـ ـين النـ ـاس الذين توجدهم الظروف في مكان واحد، كانت لابد أن تقضـ ـي بالتـ ـدريج على الحواجز القائمة بينهم وبينه. كان يلمح في عيونهم بين الحين والآخر نظرة تكاد أن تقول " أنت شاب مثلنا. ما الذي قادك إلى هذا المصير "؟

أثناء النهار، وإلى ساعة متأخرة من الليل، كان يتوافد على حجرته سيل لا ينقطع من الزوار. أطباء من المستشفى، وبعض الذين عملوا معه هنا منذ سنوات، تدفعهم الرغبة في التعبير عن عواطفهم، أو مجرد الفضول والسعي إلى رؤية ذلك الطبيب المعتقل، كظاهرة تستحق أن ترى، أو التضامن التلقائي مع من يبدو مضطهدًا من السلطة.

حاول الحراس أول الأمر أن يمنعوهم من الدخول، ولكن الإلحاح المستمر، ومعاطف الأطباء البيضاء التي كانت تبث الاحترام، وتعطي عذرًا " شرعيًا " لوجودهم في الحجرة إذا ما فاجأهم أحد المفتشين، ونظرات الممرضات الحانية في اتجاه الضباط، وتعليقاتهن الساخرة كلما تعرض لهن أحد الحراس، قضت على كل مقاومة، وانتهت بالاستسلام الكامل للضباط والشرطة أمام التيار الجارف.

كان عزيز في تلك الأيام يعيش أيامًا لا تنسى، وكأن مئات الخيوط الرفيعة تنسج في الخفاء لتربطه بالحياة من جديد. كانت الأحاديث اليومية التي يتبادلها مع الناس تعيد ألوانًا زاهية إلى الزمن الذي يعيشه وتذيب طبقات الحجر الرمادي التي تراكمت حول قلبه، وتجعل الدماء تجري ساخنة في العروق والأصابع، وملامح الوجه، وتضيء مقلة العينين ببريق جديد، وتقود خطواته المتعثرة نحو العودة إلى أحاسيس الحياة العادية.

في ذلك الصباح كان يجلس على الشرفة، يطل بعينيه إلى الأفق الأزرق البعيد. كان يشعر بتوتر دفين يسري في كل كيانه، ويحول دون استمتاعه بالصفاء المبكر في اليوم الوليد، وأشعة الشمس تلمع فوق الأشجار، ومساحات الحشيش الأخضر. لماذا لم تأت نادية لزيارته؟ لماذا تأخرت؟ ألا تدرك الشوق العارم الذي استولي عليه؟ إن خيالها يعذبه منذ أن جاء إلى هنا، يرى خطوط جسدها السخي تتمايل في ثنايا الملابس،

والعينين الضاحكتين، ويلمح الغمازات في وجهها الرقيق تظهر مع البسمة وتختفي.

على بعد خطوات منه كان يقف الضابط، وقد خلع غطاء رأسه، ووضعه على المقعد الصغير بجواره، وأخذ يسرح هو أيضًا في الأفق البعيد.

اقترب منه عزيز، فأدار رأسه ناحيته عندما أحس بخطوات تقترب منه.

قال عزيز:

" صباح الخير ".

ابتسم وقال:

" صباح النور ".

" ما رأيك في دور من الطاولة "؟

تردد لحظة ثم قال:

" لا مانع ".

دخل عزيز إلى الحجرة وعاد وفي يده صندوق الطاولة الصغير المرصع بالصدف، وعلبة سجائر، وولاعة. وضع الطاولة فوق المنضدة الصغيرة وبجوارها السجائر والولاعة. تناول الضابط غطاء رأسه من المقعد ثم تردد كأنه يبحث عن شيء، قال عزيز:

" هاته سأضعه في الحجرة ". اختفى عبر النافذة، ثم عاد من جديد. لمح الشرطي يتطلع إليهما في ارتياح، وكأنه أحس أن الأشياء ستسير منذ الآن سيرًا طبيعيًا خاليًا من توتر الأيام الأولى، وجد عزيز الضابط وقد سحب كرسيه إلى جوار المنضدة، وجلس عليه ينتظر.

جلس عزيز وفتح الطاولة. رأى وجه الضـ ـابط الأسـ ـمر وعينيـ ـه الهادئتين، وشفتين غليظتين منفرجتين قليلاً عن صف من الأسنان البيضاء المنتظمة. ناوله حبة زهر وقال:

" تفضل الدور عليك ".

رن صوت الزهر يسقط فوق الخشب، ويصطدم بحاجز الصـ ـندوق مالا برأسيهما، يحملقان في النقط السوداء الدقيقة، وتحركت يداهما تلـ ـتقط القطع المستديرة، وتحركها عبر الصندوق الصغير. بعد قليل بـ ـدا علـ ـى عزيز أنه استغرق في اللعب تمامًا، وكأن مصيره معلـ ـق علـ ـى حبتـ ـي الزهر، تروح وتجيء في المساحة الصغيرة بينهما. ولكن نقطة ما صغيرة محمومة أحس بها في مقدمة مخه تحت الجمجمة تلتقط الأشياء، وتخزنها، وكأنها تحتفظ بها لوقت آخر، نقطة كنواة الذرة تجتذب إليها الإلكترونـ ـات الدقيقة، لتدور حولها، ثم تدور، وتدور، وتدور.

مال عزيز إلى الوراء مسندًا ظهره إلى الوسادة وقال:

" ما رأيك ... نكتفي بهذا القدر؟ ... لقد هزمتني شر هزيمة ".

ضحك الضابط في سرور:

" نكتفي ... فقد تعبت أنا أيضًا ".

أغلق عزيز الطاولة. رفع عينيه إلى الشمس فوجدها وقد صـ ـعدت في السماء، لتختفي وراء جناح المستشفى المجاور لعنبرهم. فكر ... اليوم كاد أن ينتصف ولم تأت الزيارة حتى الآن. أشياء كثيـ ـرة معلقـ ـة علـ ـى الزيارة. أحس بنفسه عاجزًا، كالذبابة في نسيج العنكبوت. تذكر السـ ـاعة في معصمه ... شيء آخر لم يتعود عليه بعـ ـد ... نظـ ـر إلـ ـى الـ ـدائرة البيضاء والمؤشرين المصبوغين بخضرة خفيفة. الساعة الثانيـ ـة عشـ ـرة والربع. التفت إلى الضابط.

" ما رأيك في فنجان من القهوة؟ سأصنعها بنفسي. وستقول لم أذق قهوة مثلها من قبل ".

ضحك الضابط وقال:

" لا مانع إذن ".

اختفى عزيز داخل الحجرة، وعاد بعد قليل يحمل صينية بيضاء، رسمت عليها زهور دقيقة ملونة، وقد وضع عليها قدحين من القهوة يتصاعد منهما البخار.

أخذ الضابط رشفة من القهوة وقال:

" فعلاً قهوة ممتازة ".

لمح عزيز الشرطي يتطلع إلى أقداح القهوة فقال:

" بعد إذنك. أتسمح للشرطي بأن يصنع شايًا له ولزميله؟ ".

تردد الضابط، ثم قال في شيء من الضيق، وكأنه يوافق من باب الإحراج.

" لا مانع. ولكن دون أن أراهما ".

فكر عزيز. " أصبحنا شريكين في الإثم. خطوة مفيدة " دخل ثانية عبر النافذة وأشار بيده إلى الشرطي. نظر إليه ببلاهة كأنه لم يفهم. فقال له:

" يا شاويش. أدوات الشاي هنا في هذا الدولاب الصغير. اصنع شايًا لك ولزميلك ".

بدا على الشرطي كأنه لم يفهمه. فأعاد كلامه من جديد.

" ادخل، وأصنع شايًا لك ولزميلك. حضرة الضابط موافق ".

عبر الرجل النافذة إلى الحجرة. نظر حوله في شيء من الحيرة. أدرك عزيز أنه يبحث عن مكان يضع فيه بندقيته. فقال له:

" لا تتركها هنا. أعطها لزميلك. هذا أفضل، حتى إذا جاء مفتش لا يضبطك وقد تركت سلاحك ".

" شكرًا ".

نظر إليه الرجل بشيء من الاندهاش. ثم توجه إلى باب الحجرة وفتحها. سمع عزيز أصوات الشرطيين يتحدثان، ثم عاد الأول تاركًا الباب مفتوحًا.

قال عزيز:

" أدوات الشاي في هذا الدولاب، وها هو الموقد، والكبريت ".

غادر الحجرة إلى الشرفة، فوجد الضابط وقد وقف، وأخذ يقترب في سكون من النافذة. ابتسم عزيز وقال:

" لا تقلق ".

بدت عليه علامات الحرج وقال في اقتضاب:

" لست قلقًا ".

ساد الصمت بينهما. خطوة أخرى في الاتجاه المطلوب. سأله عزيز:

" من أية بلدة أنت "؟

قال:

" من محلة مرحوم الغربية ".

" غربية. أنا من الغربية أيضًا. إذن فنحن بلديات ".

" أهلاً وسهلاً ".

" كم عمرك "؟

" ثمانية وعشرون سنة ".

" هذا هو سني بالضبط ".

" متى تخرجت من الكلية يا دكتور "؟

" منذ ست سنوات ".

" هل عملت هنا في المستشفى "؟

" نعم لمدة سنتين ".

" لاحظت أن الكثيرين هنا يعرفونك ".

" بحكم عملي بينهم ".

صمت، ورمق عزيزًا بنظرة سريعة، ثم استطرد:

" ألست متزوجًا "؟

" متزوج، ولي طفل صغير ".

" منذ متى لم تر أسرتك "؟

" منذ مدة، ولكنني منتظر زيارة ".

" كيف تتحمل أن تكون بعيدًا عنهم هكذا؟ أنا متزوج، ولي طفلان. ولا أتصور أن أنفصل عن أسرتي أبدًا ".

" ومع ذلك قد تضطر يومًا إلى الانفصال عنها ".

" كيف "؟

" كأن ترسل في مهمة إلى أقاصي الصعيد مثلاً، فتترك أولادك هنا حيث المدارس، والشقة المريحة ".

تجهم وجهه، كمن سمع خبرًا مزعجًا.

" ومع ذلك لا أتصور هذا الفراق ".

" الإنسان يتعود كل شيء، وإلا ما استطاع أن يعيش في هذا العالم بينما لا يدري ماذا يمكن أن يحدث له بعد ساعة، أو حتى بعد دقيقة. الحياة ليست فيها أمان، ولا استقرار ".

" إذن على كل منا أن يبحث عن الأمان والاستقرار لنفسه ".

" كثرة البحث عنهما يولد الجبن، وعندئذ يكون الثمن غاليًا، فقد تضحي بكل شيء من أجلهما: الصراحة، الرأي الحر، حتى الشرف ".

" وأنت. ألا يهمك أن تعيش مستقرًا. أن تضمن مستقبلك؟ "

" يهمني ألا أعيش في وهم ".

" وهم. لماذا تسميه وهمًا "؟؟

" ألا تعيش في البلد، ألست من الريف؟ أين هو الاستقرار، والطمأنينة التي يتمتع به سكان قريتك مثلاً؟ "

" وما شأني أنا بهذا "؟

" الأمر لا يهمك إذن "؟؟

" لا. ليست مسئوليتي أن أبحث عن الآخرين ".

" لكل منا نظرته للأمور ".

" أتريد أن تقول أنك دخلت السجن من أجل الآخرين ".

" ماذا تريد أن أجيب؟ ليس هكذا بالضبط. دخلت السجن من أجل نفسي. ولكن نفسي ترتاح، عندما أفكر في الآخرين ".

" ولماذا لا تفكر في أسرتك "؟

" أفكر فيها، وأفكر فيما هو أوسع منها ".

" وماذا استفدت من كل ذلك، سوى ضياع مستقبلك "؟

" كل منا في الحياة يعشق شيئًا. بعضنا يعشق جمع المال، وبعضنا يفني نفسه من أجل الفن، أو الكتابة أو العلم. وأغلبنا يكدح طول العمر حتى يعيش، دون أن يعرف لماذا. هكذا هي الحياة ".

" وما الفائدة من وجودك في السجن. أصبحت عاجزًا عن كل شيء".

" مسألة ليست بيدي ".

" بيدك أن تخرج إذا أردت ".

" كيف "؟

" تتعهد بأن تكف عما أنت فيه ".

" وما الذي أنا فيه؟. هل تعلم؟ "

" أنت تخطئ في حق البلد، وإلا لما حبسوك ".

" أتريد أنت أن تقول أنك راض عما يدور في بلدنا "؟

صمت كأنه يفضل ألا يجيب ثم قال:

" يقولون عنك أنك خطير "؟

" وأنني ربما حاولت الهروب. أليس كذلك "؟

أخذ نفسًا طويلاً، وبدا عليه شيء من الاندهاش.

" لماذا تصمت. ألم يقولوا لك هذا "؟

" نعم حذروني منك ".

" وما رأيك أنت "؟

" لا أعرف. الاحتمال موجود ".

" إذن لا فائدة من أن أنفي وجوده. ولكنني أستطيع أن أقول شيئًا واحدًا. ماذا "؟

" إنني إذا أردت أن أهرب. فلن ينجح أحد في منعي ".

شحب وجه الضابط قليلاً، ومد يده إلى جيب سترته. أخرج علبة السجائر وفتحها. قدمها إلى عزيز بيد ترتعش قليلاً، كأنه يستجدي رضاه. ثم سأل:

" لماذا تتكلم هكذا "؟

" لأنني أراك قلقًا. تفكر في استقرارك أكثر من اللازم، فتفسد علينا بعض متعتنا ".

" أنت شخص غريب يا دكتور. تتحدث عن المتعة، وأنت في هذا الوضع ".

" عندما يفقد الإنسان الكثير، يعرف معنى المتعة. فأنا أستمتع الآن بكل شيء، بأقل الأشياء. هذا النيل الأسمر "، أشار بيده. " وجلستنا هنا في الهواء، وحديثنا، والسيجارة، وفنجان القهوة " أشعر بنشوة عندما أنظر للسماء المفتوحة دون قضبان، وأتحدث مع الأطباء، والممرضات، والمرضى ".

نزل بجسمه في المقعد ومد ساقيه أمامه. بدا عليه كمن سرح بذهنه في شيء يشغله. مرت الدقائق دون أن يتكلم أحد منهما. ثم رفع عينيه إلى وجه عزيز وقال:

" يا دكتور عزيز، جعلتني أفكر في أشياء لم أفكر فيها من قبل ".

* * *

شبح الحارس ينتصب عند الشرفة، أسود في ضوء القمر المستدير، والعين الخضراء تضيء في الظلام، ورأس السيجارة تشتعل قرب أصابعه. لماذا لم تأت للزيارة؟ اليوم خطا خطوة أخرى نحو الهدف. ولكن هذا الضابط الشاب كيف سيعذر به. يجب أن يكون كالسكين الحاد ... يقطع ويحدد. سمع صوت أقدام في الخارج، ونقرة خفيفة على الباب. فنادى بصوت عال ليخترق الباب السميك:

" تفضل ادخل ".

فتح الباب ببطء، فتسلل ضوء الطرقة إلى داخل الحجرة وظهر معطف أبيض عبر الفتحة. أضيئت الحجرة، ففرك عينيه من شدة الضوء المفاجئ. قام جالسًا من رقدته ليجد الدكتور علاء يقف عند طرف السرير.

" مساء الخير يا دكتور عزيز. أكنت نائمًا "؟

" لا على الإطلاق. كنت أستمع إلى الراديو في الظلام. أهلاً بك ".

" كيف حالك "؟

" على ما يرام ".

" هل عملت لك التحاليل ".

" لا ".

" ولا الأشعة "؟

" لم تعمل بعد "؟

" غريبة ... لماذا تأخروا هكذا؟ سألفت نظر الست الحكيمة ".

ابتسم عزيز نصف ابتسامة. فلمح الدكتور علاء يحملق فيه بنظرة فيها تساؤل. شيء ما في هذا الشاب يعجبه. الوجه المفتوح، والنظرات المباشرة من عينيه العسليتين، ونوع من الاعتداد بالنفس دون تكلف.

" لماذا تبتسم "؟

" أراك تعاملني كمريض ".

" ألست مريضًا "؟

" مريض بالطبع، ولكن ليس كما تظن ".

" لم نشخص حالتك بالضبط. ولذلك كان بودي أن نستعجل التحاليل والأشعة ".

" لا داعي للاستعجال ".

قطب جبينه في شيء من الحيرة.

" كيف؟ أنا لا أفهم ماذا تقصد ".

" أكثر ما احتاج إليه هي فترة من الراحة ".

" مم "؟

" من السجن ".

قطب جبينه من جديد ثم قال:

" آه. فهمت. إذن سنؤخر كل الإجراءات إلى أقصى حد ممكن ".

" شكرًا ".

تبادلا الابتسامات عبر مساحة السرير البيضاء.

قال الدكتور علاء:

" أتريد شيئًا آخر "؟

" لا ينقصني شيء ".

تلكأ لحظة أمام السرير ثم تساءل:

" متأكد "؟

" نعم متأكد. وأشكرك كثيرًا على اهتمامك ".

هز الدكتور علاء كتفيه كأنه يريد أن يقول ... لم أفعل شيئًا يـ ذكر ... ثم استطرد:

" سأتركك الآن لأكمل مروري على المرضى ".

تردد عزيز لحظة ثم قال:

" بمناسبة المرور، كنت أريد أن أقترح عليك شيئًا ".

" ماذا "؟

" إذا احتاج أحد المرضى إلى شيء أثناء الليل يمك نهم أن يلجئ وا إلي، بدلاً من إيقاظك. فأنا لا أنام إلا قليلاً "؟

" لا بالعكس. سأكون سعيدًا إذا قمت بأي عمل هنا ".

" ألن يقلقك هذا؟ "

" اتفقنا. سأبلغ السهرانة بذلك ".

تحرك نحو الباب. تلفت إلى عزيز قبل أن يخرج وقال:

" أطفئ عليك النور "؟

" لو سمحت ".

" إذن تصبح على خير ".

غرقت الحجرة في الظلام، وأخذت العين الخضراء تومض من جديد. انقلب على جنبه، وقد انتابه شعور من الرضى. الليلة خطا خطوة أخرى نحو الهدف.

* * *

شيء ما يقول له أن اليوم سيكون يومًا غير عادي. استيقظ في الصباح الباكر مع أشعات الضوء الأولى تنساب من النافذة المفتوحة. قفز من السرير وقلبه يدق. لمح خيال الشرطي خلف الضلفة المغلقة جالسًا على كرسي. اقترب من الغرفة، وهو يمشي على قدميه العاريتين، حتى لا يحدث صوتًا. أطل برأسه، فوجده وقد استغرق في سبات عميق، تاركًا بندقيته مسنودة إلى جواره على الجدار. عاد أدراجه وأشعل الموقد. ملأ إناء صغيرًا بالمياه، ووضعه فوق الموقد، ثم توجه نحو الباب، وفتحه في حذر. وجد الشرطي الآخر وقد نام هو أيضًا على مقعد بجوار الباب، مسندًا ظهره على الجدار. مر أمامه، وتوجه إلى حجرة الأستاذ المجاور لحجرته. كان بابها مفتوحًا. على الكنبة رقد الضابط وقد خلع غطاء رأسه، وحزامه، ووضعهما على مقعد من الخيزران قريبًا منه، حتى يستطيع أن يرتديهما بسرعة إذا لزم الأمر. كان يدخن سيجارة، ويحملق في السقف. دخل عليه وقال:

" صباح الخير ".

قفز من رقدته، واستدار، فوجد عزيزًا داخل الحجرة. قطب جبينه وقال:

" ما الذي أيقظك "؟

" نور النهار المنساب من النافذة المفتوحة. لم أك ن أع رف أن ك استلمت نوبتجية الليل. ولذلك نمت مبكرًا ".

ارتدى الضابط حزامه، وتوجه نحو الباب. خرج إلى الطرقة، فوجد الشرطي نائمًا على مقعده. هز كتفه وقال في صوت غاضب:

" استيقظ يا حيوان: استيقظ ".

فتح الرجل عينيه ليجد الضابط واقفًا أمامه. انتصب ف ي ذع ر، فوقعت بندقيته محدثة صوتًا عاليًا وهي ترتطم بالأرض.

" أتنام في الحراسة؟ سأحولك للتحقيق ".

صمت الشرطي وتطلع إليه بنظرة فيها تضرع.

" لا مؤاخذة يا أفندم. أنا لم أكن نائمًا. أغلقت عيني فقط ".

" تغلق عينيك في الحراسة؟! وما فائدة وجودك؟! سأحولك للتحقيق".

" سماح هذه المرة يا أفندم. لن تتكرر. أقسم ب أولادي أنه ا ل ن تتكرر".

عاد الضابط إلى حجرة الأستاذ ليجد عزيزًا جالسًا عل ى الكنب ة، يدخن سيجارة. التفت إليه عزيز بابتسامة مرحة، فبادله بتقطيبه غاض بة كأنه لم يرها. قال عزيز متجاهلاً ما حدث:

" ماذا دهاك هذا الصباح "؟

" لا شيء ".

" لماذا التكشيرة إذن "؟

" نوبتجية الليل متعبة ".

" أهذا هو السبب "؟

" نعم بالطبع. لا توجد أسباب أخرى ".

" أم لأنك وجدت الحارس نائمًا "؟

بدا عليه الارتباك.

" لماذا لا تجيب "؟

" نعم، هذا هو السبب ".

" ولماذا تهتم بالأمر كل هذا الاهتمام "؟

" سؤال لا يحتاج إلى إجابة على ما أظن ".

" بل يحتاج. ألانك تخشى من هروبي "؟

" لماذا تعود إلى هذا الموضوع "؟

أحس عزيز برعشة في قلبه. ترى هل أخطأه التوفيق؟ أكان من الأفضل أن يبقى في حجرته، وألا يثير مثل هذه الزوبعة؟ على أية حال لا مجال للتراجع الآن. لابد من أن يستمر في خطته وإلا آثار شكوكه.

" لأنني أراك متوترًا بدون داعٍ ".

" لست متوترًا. وإنما النظام هو النظام ".

" دعك من النظام. هل تتصور أنهما سيبقيان مستيقظين طوال الليل"؟

" ولم لا؟ فهذا هو المفروض ".

" المفروض شيء. وما يحدث بالفعل شيء آخر. هل تعلم أنني عندما استيقظت، كان الشرطي الآخر نائمًا أيضًا "؟

قفز إلى قدميه، وهمَّ بالخروج من الحجرة فنادى عليه عزيز:

" لا فائدة مما ستفعل الآن. فقد نبهه زميله لا شك ".

تردد لحظة ثم جلس من جديد:

" سأسألك سؤالاً: أكنت مستيقظًا طوال الليل بالأمس "؟

" طبعًا ".

" كم كانت الساعة؟ "

" لا أعرف. تركت ساعتي إلى جوار السرير. كنت أستمع إلى بعض فقرات من الموسيقا الأندلسية، ثم أحسست أنني أريد أن أتحدث مع أحد فخرجت من الحجرة، ولكني وجدتك نائمًا، فمررت على حجرة الحكيمة السهرانة، وجلست معها قليلاً ثم عدت. كان معي أحد الحراس ورآك وأنت نائم ".

تبادلا النظرات. ضحك الضابط ضحكة قصيرة كأنه يريد أن يخفي حرجه ثم قال:

" أصحيح كل ما قلته لي "؟

صمت عزيز لحظة ثم قال:

" لا ليس صحيحًا. ولكنني متأكد أنك تنام. وثبت لي أنني على حق فأنت لم تنف شيئًا مما قلت. ولكن دعنا من كل ذلك. المهم ألا يراكم أحد على هذه الحال. والمسألة بسيطة. أغلق باب العنبر الخارجي. فإذا حضر أحد للتفتيش لابد من أن يقرع الباب. وقبل أن تذهب الشغالة لفتحه يمكنها أن تنبه أحد الحراس ".

ألقى الضابط نحوه بنظرة فاحصة.

" وماذا يهمك أنت في الأمر "؟

" لا شيء، سوى أن أقضي فترتي هذه دون منغصات. وإذا لم يعجبك كلامي فالأمر بسيط. لا تنم، ولا تترك الحارسين ينامان ".

خفض عينيه إلى قدميه، كأنه يريد أن يطمئن على لمعان حذائه، وركن إلى الصمت.

استطرد عزيز:

" فلنتسلى بشيء آخر، سأشرب الشاي الآن. أتشاركني فيه "؟

" شكرًا. لا داعي للتعب ".

" لا تعب على الإطلاق. دعني أقول لك شيئًا. طالما أن الأقدار قد جمعت بيننا فلنقضِ هذه الفترة على أحسن ما يرام. أنا أعتبر نفسي في أجازة وأريد أن أستمتع بها. فما اعتراضك على ذلك؟ سأذهب الآن لإعداد الشاي ".

خرج عزيز مارًا أمام الحارس، ودخل إلى حجرته. سكب كمية من الماء الساخنة في كوب، ووضعه على الحوض. أسقط فرشاة الحلاقة في الماء الساخنة، ثم وضع شريطًا من معجون الصابون على وجهه. وقف أمام المرآة وأخذ يدندن بأغنية قديمة. أحس بقلبه يرفرف تحت الضلوع، وبسعادة عارمة تغمر كيانه. أدار مفتاح الراديو، وأخذ يحرك الفرشاة فوق وجهه بنشاط.

* * *

كانت الساعة قد قاربت الحادية عشرة عندما لمح الباب يفتح ببطء، كأن شخصًا ما يتردد في الدخول. جلس على السرير، والتفت ناحيته. برزت يد صغيرة من الفجوة المفتوحة، وأخذت اليد تمر فوق الجدار، كأنها تتحسس الطريق. شعر بصدره يتوقف عن التنفس، وهو يتابع بعينيه، اليد، ثم الذراع، ثم الكتف. وجد نفسه يحملق في الرأس الصغيرة تحيطها خصلات الشعر المستديرة، وعينين سوداوتين يطل منهما بريق كالنور.

توقفت الدنيا لحظة، ودق قلبه عدة دقات متتالية كأنه سيقفز خارج الضلوع. خطا الطفل خطوتين داخل الحجرة، ثم توقف، وأخذ يحملق فيه بعينيه الواسعتين، كأنه أمام شخص غريب يريد أن يدرسه قبل أن يقدم

عليه. مد عزيز يده إليه وقال بصوت رن في أذنيه كما لو كان صوت شخص آخر.

" يوسف. ألا تعرفني "؟

ظل الطفل بجوار الباب يتطلع إليه في فضول هادئ. ردد مرة أخرى وهو يخرج المقاطع بصعوبة كأن شيئًا ما يسد حلقه.

" يوسف. ألا تعرفني "؟

لم يتحرك الطفل. دار بعينيه حول الحجرة بنظرة خاطفة سريعة كأنه يبحث عن شيء، ثم عاد يحملق أمامه من جديد. أحس عزيز برغبة عارمة في أن يقدم عليه ويضمه إلى صدره، ولكنه تمالك نفسه. كان قلبه يرقص بمزيج غريب من الفرحة الطاغية، والقلق العميق.

لمح الشرطي يطل من النافذة المفتوحة بعينين فيهما بريق لم يره من قبل.

قال للطفل:

" أتبحث عن شيء "؟

نظر إليه بعينين متسائلتين ثم قال:

" أريد أن أشرب ".

قام من فوق السرير ومد أصابعه المرتعشة إلى كوب من البلاستيك المزركش. دار حول السرير مارًا بجوار الطفل، دون أن يلمسه. ملأ الكوب بالماء. أحس بالجفاف في حلقه، وبلسانه كقطعة من الخشب خلف أسنانه. عاد أدراجه إلى الطفل ببطء، وكأنه يخشى من أي حركة تجعله يطير بعيدًا ويختفي. امتدت إليه اليد الصغيرة، وأمسكت بالكوب. تعثرت أصابعه حولها لحظة، ومالت المياه على جنب، فسقطت منها قطرات على الأرض.

قال عزيز وقد استعاد صوته الطبيعي.

" على مهلك، حتى لا تتسكب. اشرب ".

اختفى الوجه الصغير داخل الكوب، وقطع الصمت ذلك الصوت المميز لطفل يشرب الماء. ظهر الوجه الصغير من جديد يلتقط أنفاسه من الفم المفتوح، كالغريق يخرج من تحت الأمواج. ضحك عزيز ضحكة منسابة طويلة مفعمة بالسعادة، فرنت ضحكات الطفل تعلو في الهواء طبقات من الصفاء.

سمع صوت أصابع تقرع على الباب، فالتفت إليه ليجد الضابط واقفًا في الفتحة، وعلى وجهه ابتسامة عريضة. قال:

" أتعارفتما "؟

" نعم كنا في سبيلنا إلى ذلك ".

" عندك زيارة ".

" من "؟

" زوجتك والطفل " مشيرًا إليه: " يوسف أظن. تعرفنا في الخارج".

" أين هي "؟

" في الحجرة المجاورة. تفضل ".

مد عزيز يده إلى الطفل فأحس بيده تسكن في كفه كالعصفور، خرجا سويًا. مرا بين الضابط والحارس المنتصب أمام الباب وانحنيا إلى اليمين. وجد عزيز نفسه واقفًا في مدخل الحجرة. كانت جالسة على الكنبة تميل برأسها ناحية النافذة، كأن شيئًا ما في الخارج لفت نظرها. رأى أصابعها، تنقر بعصبية على مسند الكنبة، وذراعًا ملفوفة تطل من الثوب الأبيض. أحست بدخولهما فالتفتت ناحيتهما. ندت منها شهقة خفيفة كالفرحة الممزوجة بالعذاب.

" عزيز ... أنت "؟

وقف صامتًا لا يعرف ماذا يفعل، عاجزًا عن الحركة، قلبه يجري كالحصان الجامع، ونبضه يقفز فوق الصدغين. الأشياء تتم في آلية غريبة. مريضة تطل من نافذة العنبر المجاور، وتمشط شعرها. عصفور يقفز قفزات صغيرة من مكان إلى مكان على حاجز الشرفة، ينتفض كأن شيئًا يلسع قدميه. وهذه المرأة تقف أمامه نحيلة ملفوفة في ثوبها الأبيض تنتظر، وبريق دافئ، يطل من عينيها، ودمعة عند أطراف الرموش السوداء أبت أن تسقط.

أحس بيد الطفل تفلت من بين أصابعه. انطلق ناحيتها، ولف ذراعه حول ردفها مسندًا رأسه على سطح الثوب الناعم. أخذ يتطلع إلى وجه عزيز. العينان هما هما، والنظرة واحدة. كم يحب هذه العيون. أحس كأن الزمن توقف لحظة أن دخل من الباب.

قالت:

" عزيز " اقتربت منه حتى كاد يلمسها. وضع يده على ذراعها. مال على وجهها، وتعثرت شفتاه على خدها في لمسة خاطفة. جاءته رائحة النرجس كالنسمة الخفيفة. كان يريد أن يضع وجهه فوق وجهها، أن يلف ذراعيه حول جسدها، أن يضمها إليه، ولكنه أحس بالعيون تراقبه، وبسدود تحجز عواطفه، وكأن السنين الماضية أقامت جدرانًا خفية في نفسه.

أمسكت بيده، وأجلسته إلى جوارها.

" عزيز. كيف أنت؟ طمئنني ".

ابتسم وقال:

" على أحسن حال كما ترين ".

" والإضراب؟. ألم يؤثر فيك "؟

" على الإطلاق. لقد استعدت قوتي تمامًا ".

لمست أصابعها يده كالفراشة العابرة. أحس بأطرافها الدافئة. سد كتا كأنهما يبحثان عن الكلام. لمح صدرها الناهد يعلو ويه بط ف ي انفع ال مكتوم. جاءه صوت الطفل يكسر التوتر برنينه الصافي، فالتفت إليه ليجد العينين تنظران إليه في جديه مركزة.

" ماما اسمه إيه الرجل ده "؟. ارتفع الإصبع الصغير يشير إليه.

" هذا بابا يا بني. ألا تعرفه "؟

" أهذا بابا الذي حدثتيني عنه "؟

ارتبكت قليلاً ثم قالت في هدوء:

" نعم هو. ألن تعطيه قبلة "؟

حملقت فيه العينان الواسعتان. هم يمد يده إلي ه ث م غي ر رأي ه. يستحسن أن ينتظر. سيتعود عليه بالتدريج.

" ماما أنا عايز شيكولاتة. فين الشيكولاتة اللي أنت جبتيها "؟

أخرجت علبة كبيرة ملفوفة بشريط من الحرير الأحمر، وناولته إلى عزيز.

" أحضرت لك بعض الشيكولاتة. فأنا أعرف أنك تحبها " ض حكت وقالت:

" كنت تقول لي دائمًا. أشياء حملتها معي من الطفولة " تطلع إل ى وجهها المشرق. تملكته رغبة في أن يقبل لقاء الشفتين الممتلئت ين عن د الركن. أحس بشيء يجذب العلبة من بين يديه، فالتفت ليجد الطفل واقفً ا بجواره. وضع يده فوق الرأس الصغيرة وسرت سعادة غامرة في كيان ه. لم يحاول أن يبتعد عنه هذه المرة. فك الشريط الأحمر من حول العلب ة،

وفتحها بأناة. حملقت العيون في صفوف الشيكولاتة الملفوفة بعناية في الورق الملون. وضع العلبة بين يدي الطفل، فانفرجت شفتاه عن أسنان بيضاء صغيرة كاللآلئ.

" أعط لوالدتك الأول ".

حمل الطفل العلبة الكبيرة، وهي تهتز كأنها قد تقع في أية لحظة، وتوقف أمام أمه. مالت إلى الأمام تتطلع إلى المحتويات في اهتمام مقصود، كأنها تشعر بعيني عزيز على وجهها، وتحاول أن تتفاداهما. ترى هل ما زالت جميلة في نظره؟ مدت أصابعها إلى شعرها تتحسس خصلاته. الشيب أخذ يزحف مثل خيوط من الفضة.

عاد الطفل أدراجه يحمل العلبة الكبيرة. مد عزيز يده وتناول قطعة من الحلوى. قال الطفل:

" كمان واحدة ".

فأخذ الثانية. أجلسه بجانبه وقال:

" كل أنت ".

تلفت ثانية إلى نادية، فوجدها تفحصه باهتمام. أحس بالدماء تجري في أحشائه. لا وقت للتفكير في هذا الآن.

تذكر وجود الضابط فقال للطفل:

" اعزم على حضرة الضابط يا يوسف ".

انطلق كالسهم يحمل العلبة، وكاد أن يقع على الأرض بها، فمد الضابط ذراعيه حوله وقال مبتسمًا:

" حاسب على نفسك يا يوسف ".

" خذ شيكولاتة ".

" متشكر يا سيدي " مد يده وأخذ قطعة ملفوفة من العلبة.

" كمان واحدة ".

" لا متشكر " نظر ناحية نادية وعزيز ثم قال:

" سأخرج إلى الشرفة قليلاً. أريد أن أستنشق الهواء " تردد لحظة ثم قال:

" مدة الزيارة نصف ساعة. لا داعي للاستعجال. خذا راحتكما ".

خرج من الحجرة وتركهما. أصبحا وحدهما الآن. خيم الصمت عليهما من جديد. قال الطفل:

" ماما العبي معايا ".

" ليس الآن يا يوسف. اتركنا نتكلم. اجلس على الكنبة هنا أو اخرج إلى الشرفة ولكن لا تبتعد عنا ".

فتح عزيز النافذة المطلة على الشرفة. لمح شبحًا أسود يقف على بعد خطوتين حاملاً بندقيته. خرج الطفل ثم توقف عندما رأى الشرطي، وأخذ يتطلع إليه في اهتمام.

عاد عزيز وجلس على الكنبة مقتربًا من نادية. فأحس فخذها دافئًا إلى جواره. سرى في جسده تيار كالصدمة. أصبح وجهه قريبًا منها الآن وعيناه في عينيها. ترى لماذا تغيرت؟ لم تعد كما كانت. شيء ما أفتقده فيها. لماذا؟ ربما تعبت من كثرة الانتظار. أحس بالشك ينخر في صدره كالحشرة السوداء.

" نادية. لماذا تأخرتي في الزيارة "؟

" تلكئوا في إعطائي التصريح. أنت تعرف أساليبهم ".

" أعرفها. ألم يحاولوا شيئًا معك "؟

" حاولوا مع غيري. يبدو أنهم يعرفون من منا يمكن أن يسـ تجيب. لماذا تنظر إلي هكذا؟ " قالتها بشيء من العصبية. رأى أصابعها تشد على ثوبها، وتثنيه.

" بعد كل هذا الغياب، لا تريدين أن أنظر إليك ".

" وماذا رأيت "؟

" الشيب زحف قليلاً ولكنك جميلة، أجمل من أي وقت مضى ".

أشرق وجهها كنور الصباح، وارتعشت شفتاها قليلاً عند الأركـ ان. قبلها، وأحس بالرعشة تحت شفتيه، تعلقت أنفاسها لحظة. ثم قالت:

" أنا أحبك يا عزيز. ولم أحب أحدًا غيرك ".

اضطرب قلبه بشعور من السعادة حاد كالسكين. قالت:

" أتريد أن تعرف شيئًا آخر "؟

" لا ... لا هذا يكفيني ".

قالت:

" والدتك ووالدك يقبلانك ".

" لماذا لم يحضرا "؟

" والدتك مريضة ".

قال في قلق:

" بم "؟

" شيء بسيط ... لا تقلق ... ارتفاع في الحرارة ... ستحضر بعد يومين أو ثلاثة مع أحد الأطباء، لأنهـ م لا يعطـ ون تصـ ريحًا إلا كـ ل أسبوعين ".

" ووالدي ".

" فضل أن يحضر معها. قال لي. هذه الزيارة لك ".

تردد لحظة ثم قال:

" نادية. أريد أن أحدثك عن شيء ".

رفعت عينيها إليه في تساؤل قلق.

" ماذا "؟

" أريد أن أعود إلى حيث جئت ".

قطبت جبينها في حركة يعرفها ثم قالت:

" لم أفهمك ".

" أريد أن أهرب من هنا ".

رأى صدرها يعلو، ويتوقف لحظة. سمع صوت نفس عميق.

" ما رأيك "؟

" أليس هناك خطر عليك "؟

" لا ... لا تخافي ... سآخذ احتياطاتي ".

" كيف "؟

" اتركي الأمر لي ... لا وقت للتفاصيل ".

صمتت لحظة. مدت يدها إليه، وضغطت على أصابعه. رأى عينيها الصامتتين، وابتسامتها تشرق بين الشفتين.

" ماذا أستطيع أن أفعل "؟

يا ألله ... كم يحب هذه المرأة ... لا يوجد مثلها ... قوية ... كالسلك المشدود في أغوار الأنوثة.

" انتبهي إليّ جيدًا ... بعد يومين سيبدأ شهر رمضان. اتفقي معهم في البيت على زيادة كميات الأكل ... كذلك اطلبي من أم السعد أن تحضر معها في المرات القادمة مخللات، وحلويات، وأن تتفنن في أنواع الأكل. أرسلوا معها ملابسي، سروالاً وقميصًا وحذاءً وجوربًا ... وكذلك

السماعة، ومعطف الأطباء الأبيض. عليها أن تحضر الملابس إلى هنـ ـا. أما المعطف الأبيض والسماعة فلتتركهما عند حكيمة القسم، الست زينب. لقد اتفقت معها على أن تتسلمها في بيت الحكيمات يـ ـوم السـ ـبت القـ ـادم الساعة السادسة مساء. اطلبي من أم السعد أن تتوجه بهما إلى هناك فـ ـي الميعاد بالضبط ".

سكت كأنه يفكر.

" وماذا "؟

أحتاج إلى منزل أختفي فيـ ـه، وسـ ـيارة تنتظرنـ ـي فـ ـي حـ ـوش المستشفى".

صمتت كأنها تفكر في الأمر ثم قالت:

" من تقترح "؟

" لا أعرف. أغلب أصدقائي في السجن. أما الباقون فلا أعرف إلى ما صاروا ".

" أنا أيضًا. ليس في ذهني أحد الآن ".

" تحدثي مع والدي ".

بدا عليها التردد فسألها:

" لماذا تترددين "؟

" ألن ينزعج "؟

" طبعًا، ولكن لابد من أن أطرق كل الأبـ ـواب ". ابتسـ ـم ناحيتهـ ـا مشجعًا.

" أتريد شيئًا آخر "؟

" لا ... لا شيء مؤقتًا. سأنتظر زيارة الوالدين لأعرف ماذا فعلتم. أعيدي ما قلته ".

" خمسة أشياء. لقد حفظتها. موضوع الأكل، والملابس، والمعطف، والسماعة للست زينب يوم السبت الساعة السادسـ ـة مسـ ـاء، والسـ ـيارة، والمنزل ".

" يستحسن أن يكون المنزل خارج القاهرة إن أمكن، وفـ ـي مدينـ ـة كبيرة حتى لا يلحظ الناس أنني غريب ".

" سنحاول. ولكنني لا أرى حتى الآن كيف سنحل هذه المشاكل ".

" عندما نبدأ سنجد الحلول ... حلولاً لم نكن نتوقعها ".

" أنت دائمًا متفائل ".

" هكذا علمتني الأيام. حياة الإنسان المطارد تعتمد على حلول تتولد في لحظة ... وعلى الناس ".

" عزيز ".

" نعم ".

" أنا أحبك ".

رنت ضحكاته عاليًا.

" وما علاقة هذا بما نقول " مر بأصابعه على شعرها في حنـ ـان. " وأنا أحبك أيضًا. أشعر أننا اقتربنا من جديد في لحظـ ـات قصـ ـيرة كـ ـان شعوري غريبًا عندما دخلت علي هذا الصباح، كـ ـأنني أراك لأول مـ ـرة، وكأنني أحتاج إلى وقت طويل لكي آتي إليك من جديد ".

" طالما أن الحب موجود فلا خوف من أي شيء ".

أحس بشيء يسد الضوء عند النافذة. التفت ليجد الضابط وقد أمسك يوسف بيده ووقف إلى جواره.

" بابا. معاه مسدس. أنا عايز مسدس ".

قفز قلبه لسماع الكلمة " بابا ". ضغط على نفسه ليخفي اضطرابه.

" سأشتري لك مسدسًا في المرة القادمة "، صمت لحظة ثم استطرد " ولكن ألا تفضل شيئًا آخر ... ألوان مثلاً "؟

قالت نادية:

" إنه يرسم أشياء جميلة. أليس كذلك يا يوسف "؟

" أيوه. بارسم قطة ... وفيل أبو زلومة ".

" سأشتري لك ألوانًا إذن ".

تدخل الضابط:

" آسف، ولكن يجب إنهاء الزيارة ".

" لقد انتهينا بالفعل ".

مال ناحية الطفل، ومر بشفتيه فوق خده الناعم.

همست نادية في الأذن الصغيرة:

" قبل بابا ".

اقترب ناحيته ببطء. أحس بالشفتين تلتصقان بوجهه، وسمع صوت مصمصة خفيفة. أصبح كالطائر في دنيا السعادة. نسى كل شيء إلا تلك القبلة، والطفل يتطلع إليه في هدوء.

قالت نادية ضاحكة:

" أنسيتني ... أم ماذا "؟

التفت ناحيتها وقال مبتسمًا:

" لحظة صغيرة فقط " اقترب منها. جاءته رائحة النرجس. حملق في وجهها لحظات كأنه يريد أن يطبع تفاصيله في ذهنه. أحس بلمسة خاطفة على وجهه، وبيدها تمسك بأصابعه، كأنها لا تريد أن تتركها، افترقا. مدت يدها إلى الضابط وقالت:

" أشكرك ".

أمسك الطفل بأحد أصابعها. نظر خلفه إلى عزيز في تردد، ثم تبع سيره بجوار أمه في سكون. خرجا من الباب مسرعين كأنهما يهربان من لحظة الفراق. بقي عزيز في الحجرة. تطلع الضابط إلى وجهه، فاستدار وأخذ يحملق في النافذة المفتوحة.

* * *

إنه يتحرك الآن بحرية عبر ردهات المستشفى وعنابرها. فقد تعود حراسه على ذلك، بل أصبحوا يجدون في التجول المستمر بالأقسام المختلفة، وفي المقابلات التي تتم مع عدد كبير من الأطباء، والممرضات، والمرضى، والأحاديث المتبادلة التي يستمعون إليها، والترحاب الحار الذي يجدونه حيثما ذهبوا، تسلية تعوضهم عن ساعات الانتظار المملة التي كانوا يقضونها وقوفًا أمام باب الحجرة في الأيام الأولى لمجيئهم في مهمتهم الجديدة. انغمسوا في حياة المستشفى، وحركتها الدائبة ليل نهار، ونبضها السريع الذي لا يتوقف، وأحداثها المتجددة في كل لحظة، وعجلة العمل التي تدور دون انقطاع داخل المبنى الضخم المترامي الأطراف، والأفراح والمآسي، والأعمار التي تستسلم بين أصابع الموت الباردة، والأعمار التي تولد مع كل طفل جديد.

كان عزيز يسهر الليالي على أسرة المرضى، يضمد الجراح، ويكشف بسماعته على الصدور العارية، وينقر بأصابعه الرفيعة على بطون الراقدين في استسلام هادئ. ألقى بنفسه في حمى العمل وكأنه نسي كل شيء، نسي حياته الماضية، وأشباح حياته الآتية، والمصير الذي ما زال يضيق الخناق حوله. فمنذ الصباح الباكر حتى ساعة متأخرة من الليل، بل وأحيانًا حتى الصباح الذي يليه كان يروح ويجيء. ومع كل عمل جديد يتكفل به زاد اعتماد الأطباء عليه. فقد جعلته قدرته على

التحمل واهتمامه الهادئ بكل مشكلة تثور . محورًا يدور حوله نظام القسم.

ومع الأيام أخذ يحضر بعض العمليات. يرتدي القميص المفتوح، والبنطلون الأبيض، و " كزلك " من المطاط الأسود، ويقف أمام صنبور المياه يدعك يديه، وذراعيه، بالفرشاة والصابون، ثم يرتدي " المريلة " المعقمة، و" الجوانتي " وقناعًا من الشاش، ليقف تحت ضوء الكشافات القوية، وسط الآخرين، يتتبع المشرط اللامع يشق طريقه بين الأنسجة، تاركًا وراءه خطوطًا رفيعة من الدم الأحمر، ويرى الأصابع تبحث عن طريق بين الأحشاء، فيدخل مرة أخرى في عالم تركه منذ سنين طويلة.

وبالتدريج انقلبت العلاقة بينه وبين الحراس. فبعد أن كان أسيرًا لهم، أصبح هو الذي يحدد الأشياء، ويقودهم حيثما يريد. لم يكن من الممكن الآن أن يعاملوه حسب الأوامر. هنا عادت الأوضاع إلى طبيعتها. فقوانين الحياة أقوى من القوانين المكتوبة. والعلاقات بين الناس لها لوائحها الخاصة، تنهار أمامها لوائح الفقهاء. كيانهم هنا مستمد من كيانه ومكانتهم هنا تنبع من مكانته. وحب الناس لهم مستمد من المشاعر التي أحاطت به أينما ذهب. واحترام الناس لهم يعطى بالقدر الذي يحسنون معاملته.

ولكن، رغم الساعات الزاخرة المفعمة بأحاسيس العودة إلى الأشياء التي كانت قد ضاعت: شمس الصباح تشرق هناك عند جبال المقطم وتغرب خلف الجزيرة الخضراء، وألحان الراديو تنساب مع نسمة الليل، وضحكات الشباب بمعاطفهم البيضاء، وعيون المرضى تتحرك مع خطواته عبر العنبر، ورائحة العطر فوق تموجات الجسد، ونداء الشفاه السخية، والعيون تسأل وتجيب، والزهور تنحني في إناء من الفخار،

وقرص السماعة بمعدنه البارد بين أصابعه، وعواميد الصحف، وأصداء المعارك في الميادين الفسيحة، ورجال يجلسون في حجرته في الليالي الدافئة يتحدثون، ويسمعون، ويستريحون من عناء اليوم الطويل، ونساء يرسلون حنانًا صامتًا من تحت الأهداب، رغم كل هذا كان يعيش بشعور غريب، وكأنه جزء من كل هذا، ومنفصل عنه في نفس الوقت. يحيا هذه الساعات بكل كيانه المتعطش إلى الارتواء بالحياة، ويحياها بشعور الراحل الذي يستعد للرحيل.

لقد حزم أمره تمامًا الآن. حزمه وهو مدرك لكل الاحتمالات. والاحتمالات لا تخيفه. بل هي تشعل خياله. تملكته رغبة جامحة في التحدي، في أن يوجه ضربة للذين سجنوه، للذين تصوروا أنه سيستسلم. الاحتمالات لا تخيفه، ولكنها تجعله أكثر حرصًا. فكل شيء ينبغي أن يدرس بدقة. كل التفاصيل مهمة مهما بدت صغيرة. عقله يعمل في انتظام هادئ. ينغمس في حياة المستشفى ولا ينغمس. كل ذرة من الفكر، من الإحساس، من الخبرة، من الغريزة يشحذها استعدادًا للحظة الحاسمة. يتحرك هنا وهناك ويتحدث، ويضحك، ويأكل، ويلعب أدوار الشطرنج، ويغرس الحقنة في الوريد، ويرى استدارة النهد تحت الثوب، ويلقي بالزهر الأبيض في استغراق عميق. وفي نفس الوقت يعيد في ذهنه الخطوات القادمة مرة، ومرتين، وعشر مرات ومائة مرة. ينام ولا ينام. فالنوم تصور مستمر، أحلام لا تنقطع، تدبير في الخيال.

كان يعيش بشعور غريب. وكأنه لم يعد له عقل واحد. فهناك العقل الذي يتحرك فوق السطح، وينشغل بما يدور حوله، بالحياة اليومية التي انهمك فيها. ولكن هناك في الجزء الخلفي من الرأس عقل آخر يرسم خطة الهروب.

وهذا العقل الآخر هو عقله الحقيقي. هو الذي يمثل ماضيه ومستقبله، وكل الأشياء التي أصبحت جزءًا من كيانه، كل الأشياء التي أصبحت جزءًا من كيانه، كل الأشياء التي أصبحت " عزيزًا ".

والعقل الآخر هو الذي يفكر الآن. عندما أحضرت إليه أم السعد الملابس التي كان قد طلبها، لم يكن قد اتضح له تمامًا ماذا يجب أن يفعل بها. فالفكرة كانت جنيناً. ولكنه كان يتصرف الآن بذلك النوع من العبقرية اللماحة التي تستولي على الإنسان أحياناً في اللحظات الحاسمة من حياته والتي تتولد عن مزيج مركب من التفكير المنطقي، والغريزة السريعة التي نسميها وحي الخاطر. كان أمامه أحد احتمالين. إما أن يحتفظ بها ليرتديها وقت الفرار، وهذه الفكرة هي التي بدت طبيعية أول الأمر. ولكنه لم يشعر إزاءها بذلك الاقتناع الذي يحسم الأمور ويريح. فارتداء الملابس لا بد أن يأخذ بعض الوقت، وربما احتاج الأمر إلى التصرف في ظرف بضع ثواني. فضلاً عن أن أمره قد يكتشف لمجرد تنبه الضابط، أو أحد الحراس إلى تغير مفاجئ في ملابسه، يؤكد المخاوف التي تنتابهم بين الحين والآخر، رغم حالة الطمأنينة التي أخذت تسيطر عليهم بالتدريج.

إذن لا بد من تدبير آخر. هكذا قرر في ليلة من تلك الليالي التي كان يقضيها جالسًا على الشرفة في ضوء القمر. وفي الصباح الباكر، بعد أن حلق ذقنه واغتسل، ومسح على وجهه ورقبته، وتحت إبطيه بقطرات من ماء الكولونيا، خلع ملابس النوم، وارتدى سروالاً رماديًا، وقميصًا أبيض، وجوربًا، وحذاءً، وخرج من باب حجرته متجهًا إلى غرفة الأستاذ المجاور ليتبادل تحيات الصباح مع الضابط.

دخل عليه فوجده جالسًا على الكنبة، يرتشف كوبًا صغيرًا من الشاي الساخن. التفت إلى الباب فتسمرت عيناه لحظة على السروال الذي

كان يرتديه عزيز، ثم انخفضت إلى الحذاء، لترتفع من جديد إلى القميص الأبيض الناصع. قال عزيز:

" صباح الخير ".

عاد إلى ارتشاف الشاي كأنه لم يلاحظ شيئًا.

جلس عزيز إلى جواره، وأخذ يتابع كوب الشاي يروح ويجيء بين أصابعه وشفتيه.

" ألن تشرب كوبًا من الشاي يا دكتور "؟

" ذكرتني والله. سأقوم لأشعل الموقد وأضع عليه البراد ".

" لا داعي. الشاي جاهز " نادى بصوت عال.

" يا أومباشا بيومي ".

" جاء أحد الحراس، ووقف في فتحة الباب.

" أطلب من الشغالة كوبًا من الشاي للدكتور " انصرف الرجل. عاد الصمت إلى الحجرة كأنهما ما زالا نصف نائمين. قال الضابط:

" أين أنت ذاهب اليوم "؟

" لا أعرف. ربما بقيت هنا ".

" لماذا ارتديت ملابسك إذن؟ " أحس عزيـ ـز بشـ ـيء مـ ـن عـ ـدم الاكتراث المصطنع في سؤاله.

" سئمت ملابس النوم ".

" أليس أفضل من ملابس السجن ".

" طبعًا. ولكن عندي شعور العائد إلى الحياة. أريد أن أمارسها فـ ـي كل تفاصيلها. حتى الإحساس بالحذاء والقميص. عندما كنت أعـ ـيش فـ ـي بيتنا كنت أكره البقاء بملابس النوم، حتى أيام الأجازات، فمتـ ـى أسـ ـتيقظ كنت أخلعها، وأرتدي البنطلون والقميص ".

سكت الضابط كأنه سرح في شيء آخر، وانشغل عزيز بالنظر إلى طرف حذائه اللامع، ثم التفت إلى الضابط من جديد.

" قضينا ليلة لطيفة بالأمس. أليس كذلك "؟

" نعم. من أين تعرفت على مجموعة الأطباء هذه "؟

" من هنا. من المستشفى ".

" ولكن بدا عليهم وكأنهم يعرفونك من زمن طويل ".

" أبدًا. تعرفت عليهم هنا أثناء تجولاتي في الأقسام. وهناك اثنان منهم يعملان في الاستقبال. قابلتهما في ليلة الحوادث ".

" أوصلت حتى الاستقبال "؟

" نعم. كل يوم سبت أذهب إلى الاستقبال لأساعد في حوادث القسم " اتفقت مع الضابط زميلك، وهو يصحبني إلى هناك، ويبقى معي ساعتين أو ثلاث ثم نعود ".

" اليوزباشي عمران "؟

" نعم ".

" والطبيبة. من أين عرفتها "؟

التفت عزيز إليه وابتسم:

" لماذا تسأل عن الطبيبة "؟؟

ضحك وقال:

" قوامها ممشوق، وعيناها جميلتان. أليس كذلك "؟

" معك حق ".

" ورأيتك مهتمًا بها ".

" فعلاً. هذا شيء طبيعي ".

" لماذا "؟

" لأنها جذابة، وأنا محروم من الأنثى ".

" أنت تتحدث بصراحة غريبة دائمًا يا دكتور عزيز "؟

" الحقيقة تريح، وترتفع بالإنسان ".

" الحقيقة ثمنها فادح. في أغلب الأحيان ".

" ولكنها مريحة، ونورها ساطع ".؟

سكت لحظة ثم استطرد:

" هربت مني. لم تقل لي كيف تعرفت على الطبيبة ".

" دخلت علي في الحجرة ذات صباح. وقالت: أنت الدكتور عزيز أليس كذلك؟ لقد سمعت عنك الكثير، وأردت أن أتعرف عليك وأن أتحدث معك. ومنذ ذلك اليوم تتردد علي بين الحين والآخر، تجلس إلى جوار النافذة ونتكلم. فيها شيء ".

" ماذا "؟

" تريد أن تصنع شيئًا بحياتها ".

صمت الضابط من جديد.

" حفلة الأمس. من الذي نظمها "؟

" هي ".

" بأية مناسبة "؟

" بدون مناسبة. قالت أنها تريد أن أقضي ساعات من السعادة فاتفقت مع زملائها الأطباء. وساهم كل منهم بمبلغ، ثم تولت هي الترتيبات ".

" كانت مجموعة ظريفة. وفتحوا موضوعات كثيرة ".

ضحك عزيز:

" لم يراعوا وجود الحكومة أليس كذلك "؟

ارتبك الضابط قليلاً ثم ابتسم وقال:

" الواقع أنهم كانوا في غاية الجرأة ".

" إذا كانت الجرأة قد وصلت إلى الأطباء. فعلى هذا العهد السلام ".

" أواثق أنت "؟

" ألا تشعر أن أيام الملك معدودة؟ أننا نعيش على فوهة بركان. هل رأيت أحدًا لا يهاجمه؟ من الذي يدافع عنه سوى حفنة ضئيلة مكروهة ".

" أفضل أن نعود إلى الطبيبة. هل تسمح لي أن أسألك سؤالاً خاصًّا؟ أشعر أننا أصبحنا كالأصدقاء. وهذا يشجعني ".

" اسأل ما شئت ".

" رأيتك مهتمًّا بالطبيبة "؟

" ماذا يشغلك في هذا الموضوع "؟

" وزوجتك "؟

" آه. فهمت ".

سكت عزيز لحظة ثم استطرد:

" لا توجد امرأة يمكن أن تحل محل زوجتي ".

بدت على الضابط علامات الارتياح.

" عندما رأيتك معها، ومع طفلك، أحسست بأن أسرتكم جميلة ".

" أنت تخاف علينا إذن "؟

" بصراحة. أخاف عليك من الطبيبة ".

" لماذا "؟

" أشعر أنها مهتمة بك. وأن علاقتكما تقوى بسرعة ".

" وما العيب في هذا ".

بدا عليه شيء من الارتباك. وبقى صامتًا كأنه لا يعرف ماذا يقول.

استطرد عزيز:

" أنا إنسان. أحتاج إلى هـ ذه اللحظ ات، إلـ ى عواط ف الأنث ى وجسدها".

" وزوجتك "؟

" مضى علي ثلاث سنوات في السجن ".

" ولكنك تراها الآن ".

" رأيتها مرة واحدة هنا بينما أرى في كل يوم عشرات من النساء. وعشت ألف ليلة أنام على بطني فوق الأسد فلت لأسـ كت الـ نهم الـ ذي يعتصرني عندما أفكر في نعومة جلدها ".

" أنا لا أفهمك. كيف تخطر لك مثل هذه الأفكار ".

" طبعًا. وكيف تفهمني ... الأفضل أن نغير الموضوع ".

" ساد الصمت بينهما. أخذ الضابط يشد على طرف كمه بأصـ ابع متوترة. التفت إليه عزيز بابتسامة خفيفة وقال:

" ما علينا. ماذا سنفعل اليوم "؟

" كما تشاء ".

" دعاني بعض الأطباء لتناول الغذاء في بيت النواب. هـ ل عنـ دك مانع "؟

" لا. ولكن ألن يضايقك وجـ ود الحـ رس؟ فـ لا بـ د أن نصـ حب الجنديين".

" لن يضايقني في شيء، بل بالعكس. فوجودكم معي ضروري حتى لا تحدث إشكالات. فالتفتيش كثر هذه الأيام. النظام متوتر " قالها في شيء من السخرية.

أحس بالجوع فقام من جلسته.

" سأتناول طعام الإفطار. تفضل معي ".

" متشكر. سبقتك ".

عاد عزيز إلى حجرته تاركًا الضابط. هناك شيء تغير اليوم. هذا الكلام عن اصطحاب الحرس. كان قد تعود أن يتجول معه وحده، وأن يترك الحرس في مكان قريب. لابد أن هناك ما أثار حذره. حكاية الملابس التي ارتداها. غريزة الحارس تحركت فيه. الاحتياط مطلوب. يجب أن يتفادى إثارة شكوكه، وأن يخطو إلى الأمام بخطوات بطيئة غير محسوسة. الاستعجال يمكن أن يفسد كل شيء.

وضع على الموقد طاسة صغيرة، وأسقط فيها قطعة من الزبد، ثم فتح فوقها ثلاث بيضات. ارتفعت في الحجرة رائحة لذيذة، وصوت فقاعات تنفجر فوق النار. أضاف الملح والفلفل، ثم أخرج الخبز من علبة مستديرة، ووضعه على المائدة القابعة في ركن الحجرة. أطفأ الموقد، ووضع الطاسة على المائدة أمامه. أخذ يأكل وهو يفكر.

اليوم سيذهب إلى بيت النواب. سيمشي عبر الطرقة الطويلة ويصعد السلم إلى الدور الأخير ثم يمشي مسافة أخرى في الطرقة الطويلة، وينحني إلى اليسار، ليدخل من باب بيت الامتياز. لقد عاش هنا ما يقرب من سنتين وعرف كل تفاصيل المستشفى الكبير. والآن يجب أن يعيد دراسته – لا شيء يترك للصدفة. لقد اختار هذا الطريق للهروب لعدة أسباب. عند الخروج من باب القسم لا بد من أن يتفادى المشي طويلاً في نفس الدور، لأن الحرس يمكن أن يراه وهو يسير في الطرقة. لا بد من الاختفاء عن الأنظار بسرعة. وهناك سبيلان. إما النزول أو الصعود. الصعود أفضل لأن تفكيرهم الطبيعي سيتجه أولاً للبحث عنه في الدور الأرضي. ثم الخروج عن طريق بيت الامتياز، حيث تقف سيارات

الأطباء. ينبغي أن يتفق مع نادية حتى توضع على السيارة إشارة الهلال الأحمر. إذا وقفت السيارة قريبة من الباب سيخرج منه مباشرة إلى السيارة دون أن يلمحه أحد. وإذا اختار الباب الأيمن ستكون السيارة مختبئة خلف المبنى بحيث لا يراها أحد من الحراس. يستحسن أن يعطي لنادية رسمًا لمبنى الإدارة بأبوابها، والمكان المحدد لوقوف السيارة، حتى لا يحدث أي خطأ.

زيارة اليوم إلى بيت النواب ستكون بمثابة " البروفة ". سيدرس الطريق جيدًا، فربما اكتشف بعض العقبات. وسيحسب كم من الوقت تستغرقها المسافة من باب الحجرة إلى بيت الامتياز على الأقدام. المشي أفضل، فالجري ربما لفت الأنظار. لا بد أن يبدو كل شيء طبيعي للمارة أثناء الهروب. ترى ماذا فعلت نادية في موضوع السيارة والمكان؟

قام من جلسته. غسل يديه، ثم نادى على شغالة كانت تمسح على النافذة بحركات بطيئة وتحملق بفضول داخل حجرته.

" يا ست فاطمة. صباح الخير. هل يمكن أن تنظفي هذه الأواني "؟

ابتسمت ناحيته وتقدمت عبر النافذة وهي تقول:

" صباح النور يا دكتور. عيني الاثنين ".

ضحك وقال:

" تسلم عينيك ".

أدار الراديو، وتناول الكتاب الموضوع بجوار السرير. جلس على المقعد وأخذ يقلب صفحاته.

* * *

تعودوا الآن على رؤيته بملابسه العادية. أحس أنها لم تعد تثير شكوكهم. قوة العادة – أحد العوامل التي ينبغي أن يعتمد عليها. المسافة

بين باب حجرته وبيت الامتياز تستغرق سبعين ثانية إذا سار ببطء. إذا أسرع الخطى إذن يمكنه أن يختفي داخل بيت الامتياز في أقل من دقيقة. إنه ينتظر الآن زيارة نادية الثانية ليستكمل بقية الخطة. لم يبق على شهر رمضان سوى خمسة أيام. لقد اختار شهر رمضان بالذات لعدة أسباب. فالحرس في شهر رمضان سيكون متعبًا من الصيام، وستنخفض درجة يقظتهم. وصيامه سيخلق نوعًا من التعاطف بينهم وبينه. ربما كان أحسن وقت للهروب بعد مدفع الإفطار بدقائق. سيكون الحراس منهمكين في الأكل بعد جوع طويل، ولن يلتفت إليه أحد. كما أن المستشفى والشوارع ستكون خالية من المارة. وفي هذا الوقت ينشغل رجال الشرطة في المستشفى عمومًا بتناول طعامهم. فهناك عدد كبير منهم داخل مباني المستشفى وفي الحوش. إنه ليس المعتقل الوحيد بل هناك عشرات. ولكل معتقل حرسه الخاص. ويوجد عدد منهم في العنبر المجاور فضلاً عن وجود نقطة بوليس قريبة من الاستقبال. يجب أن يعمل حساب كل هذا. لذا اختار أن يخرج من بيت الامتياز، من الباب الجانبي الأيمن بعيدًا عن نقطة البوليس التي يقع مكانها أمام الباب الأيسر.

على كل حال سيرى كل ذلك على الطبيعة عندما يبدأ شهر رمضان ربما لامه البعض لاختيار هذا الشهر. ولكنه لا يستطيع أن يفكر في مث ل هذه الاعتبارات. المهم هو توفير أحسن الظروف للنجـ ـاح. ولكـ ـن شـ ـيئًا واحدًا أخذ يقلقه ويعذب ضميره. الضابط والحراس. لقد قويت علاقته بهذه الوردية بالذات. لقد عاملوه بإنسانية كبيرة. وأحس بعواطفهم نحوه. وقـ ـد علم من الضابط الشاب أن نوبتجيتهم خلال شهر رمضان سـ تكون مـ ـن الثالثة بعد الظهر حتى الحادية عشرة مساءً. وإذا اختار ميعاد الإفطار فلا بد أن الجزاء سيقع عليهم بالذات. كاد أن يفكر في تغيير خطط ـه، وأن يهرب في ميعاد آخر. ولكنه أحس أن الانسياق وراء العاطفة، مهما كانت دوافعه، قد يؤدي إلى ضياع كل شيء. في لحظة من اللحظات أوشـ ـك أن يتحدث إلى الضابط بصراحة وأن ينبه ـه. ولكنـ ـه أدرك أن مثـ ـل هـ ـذا التصرف لن يكون سوى نوع من الحماقة الشديدة. جلس على مقعده فـ ـي ظلام الليل بعد أن جاءته هذه الأفكار وابتسم لسذاجته. غريب هذا المزيج من العنف والطيبة التي تتميز بها حياة أمثاله. لاحظها في زملائه، وأدرك أنها يمكن أن تكون نقطة ضعف.

لا تكون ساذجًا يا عزيز. لا تكون مجنونًا. أتريد أن تفاتح الضابط؟ أنه إنسان طيب. ولكنه سيبلغهم بما ستقوله له لا محالة. وستضـ ـيع كـ ـل شيء. لا مجال للعواطف الآن. لقد اتخذت القرار. فامش فيه حتى النهاية دون تردد.

دخل الضابط على حجرته في الصباح الباكر قال له " صباح الخير" وعلى وجهه ابتسامة عريضة.

جلس عزيز القرفصاء على السرير وفرك عينيه. قال له " صـ ـباح النور " ماذا أتى بك هكذا في الصباح الباكر؟ ".

" لدي أخبار لك ".

" أخبار سارة طبعًا، وإلا لما فكرت في أن توقظني مبكرًا ".

" سارة جدًا على ما أظن ".

" تكلم إذن بسرعة. قال لي ماذا تخفي في جعبتك ".

" زيارة ".

" ممن "؟؟

" من زوجتك ".

" اليوم "؟

" نعم اليوم ".

قفز من السرير كمن لدغته نحلة.

" الآن "؟

" لا في المساء، زيارة غير رسمية ".

قطب جبينه متسائلاً:

" زيارة رتبتها أنا ".

" أنت تحيرني ".

" اتصلت بمنزلكم تليفونيًا. وطلبت منها أن تزورك اليوم في المساء. وسمحت لنفسي بأن أقول لها أن هذا بناء على رغبتك أنت، واتفقت مع زميلي بأن نتبادل النوبتجية ".

" لم كل هذا "؟

ابتسم في غموض وسكت:

" لم تجب على سؤالي ".

" أردت أن أسعدك. ليس إلا ".

" هذا هو أحد الأسباب فقط. ما علينا. فأنا شاكر لك على ما فعلت".

" هيا لا تضيع الوقت، فأنا جوعان. ولقد اشتريت بعض المأكولات، وأريد منك أن تتولى تدفئتها على موقدك " أخرج لفة بها علب مختلفة. فتحها عزيز فوجد بداخلها كمية من البيض والطعمية والفول المدمس بقشرته البنية اللون، ومخللات، وطحينة. ضحك عزيز وقال:

" حاضر يا حضرة الضابط. الأكل سيكون جاهزًا في لمح البصر".

احمر وجهه قليلاً وقال بنبرات فيها احتجاج:

" لا تؤاخذني. لم أقصد أي شيء ".

" غريب أنت. خذ المسائل ببساطة. أنا أمزح معك فقط. أنا سعيد اليوم، ومسرور لأننا سنتناول الإفطار سويًا. اجلس هنا وأرح بالك من التفكير. وبعد ثوانٍ ستكون الوليمة جاهزة. أنا أشعر بجوع لم أعرف مثله من قبل. لقد فتحت شهيتي للحياة أيها الصديق. أتعرف أن أقرب الناس إلى بعضهما أحيانًا هما المسجون وحارسه. إنهما ضحايا ظلم واحد. وأبناء تجربة واحدة. وجهان لعملة واحدة ".

* * *

إنه يجلس الآن في حجرته وينتظرها. كان متوترًا طوال النهار يكاد لا يطيق أن يحدثه أحد. ولكن كلما اقترب موعد قدومها استولى عليه هدوء غريب. كأن لقاءهما شيء مقرر منذ زمن بعيد، شيء كالمصير الذي لا بد أن يقع. جسمان يدوران في الفضاء وعبر الزمن تجذبهما قوة مغناطيسية لا تقاوم. أحس بنفسه كالمسافر منذ زمن طويل، تابع النهر من مصبه وسط الأدغال الموحشة واقترب الآن من شاطئ البحر، حيث يصب كل شيء في هدوء. إنه يشعر أنها ستأتي لا محالة. فلا يوجد شيء يستطيع أن يحول دون هذا اللقاء، ولا تدبير قادر على إقامة حاجز بينهما.

أشعل سيجارته في الظلام وتطلع عبر النافذة المفتوحة. رأى شد بح الحارس يقف بعيدًا عن طرف الشرفة. والضوء الكهربائي ينسد اب مد ن الحجرة المجاورة حيث يجلس الضابط.

فرغ من سيجارته وقام ليضيء اللمبة الصغيرة الموضوعة بجد وار سريره. ألقى نظرة سريعة حول الحجرة ليطمئن على منظره ا، ونقد ل الزهرية المستطيلة، تطل منها رؤوس الورد الأحمر، إلى وسط المائد دة. سمع نقرًا خفيفًا على الباب فأحس بضربات قلبه تنتفض تحت الضد لوع. فتح الباب. كان الضابط يقف في نصف الظلام وإلى جواره نادية. أشرق وجهه بابتسامة خاطفة وقال:

" الزيارة ".

همس عزيز في صوت تخللته بحة خفيفة.

" تفضلا ".

" ادخلي أنت يا سيدتي. سأمكث أنا في الحجرة المجاورة ".

دخلت نادية إلى الحجرة في شيء من التردد كأنها لا تصد دق مد ا يجري، وظلت واقفة بجوار المقعد، تستند يدها على ظهره. مال الضد ابط على أذن عزيز وهمس:

" أمامكما وقت طويل، فلا داعي للاستعجال. لقد أغلقنا باب القسد م حتى لا يفاجئنا أحد. فكن مطمئنًا " انسحب مغلقًا الباب وراءه.

وقف عزيز كأنه لا يعرف ماذا يفعل. أخذ يد نادية، وقادهد ا نحد و المقعد المنزوي في ركن الحجرة، أغلق النافذة في هد دوء تاركًا ا فجد وة

صغيرة حتى يدخل منها الهواء، ثم جلس إلى جوارها. كان صدرها يعلو ويهبط بانفعال مكتوم قال:

" نادية. إنني لا أصدق أنك تجلسين هكذا إلى جواري "!!

" وأنا. أشعر أنني في حلم سيتبدد بعد لحظات ".

مد يده وأمسك بيدها. أحس بأصابعها باردة كـ الثلج. وضـ ع يـ ده الأخرى حولها وأخذ يدلكها في رقة.

قالت:

" كيف أمكن ترتيب هذه الزيارة "؟

" الضابط رتبها ".

سألت كأنها ترتاب في الأمر.

" لفتة إنسانية؟ ".

تنهدت ثم استطردت. في شيء من التوتر:

" انتابني قلق عميق منذ أن علمت أنني سأحضر إليك الليلة. ومـ ا زالت المخاوف تطاردني ".

" مم " ؟

" لا أعلم. مخاوف غامضة. ربما لأنني أخشى أن يفاجئونا هنا ".

" دعيك من هذه المخاوف. يجب ألا نفكر فيها الآن. لنعش لحظات اللقاء ".

" حبيبي. أنا أحبك. أشعر بالضياع بدونك. كأنني لست إنسانة كاملة في غيبتك. كالآلة أتحرك بغير قلب " تدفقت منها الكلمات دافئة هامسـ ة، وأحس بأنفاسها على وجهه. ضغط على يدها.

" وأنا يا نادية. الفراق يعذبني ".

مال برأسه ليقبل كفها المفتوح، فأحس بالسخونة تجري تحت شفتيه. اعتدل في جلسته وقال:

" نادية ".

" حبيبي ".

" أين تركت يوسف "؟

" عند والدتك ".

" ألم تسألك أين أنت ذاهبة "؟

" لا، إنها لا تسأل ".

" وكيف حالها "؟

" تنتظرك ".

" ويوسف "؟

" طفل رائع. هادئ ومفعم بالحنان، كأنه يواسـ يني عـ ن غيابـ لك. يحتضنني في الليل، ويقبلني في الصباح، ويرعاني بلفتات صغيرة لا تـ نم عن طفولته، وكأنه كبر قبل الأوان. عندما أعود متعبة من الخارج يقول: " ماما. أنت زعلانة ". ويجلس إلى جانبي، ويثرثر كأنه يريد أن يخفـ ف عني. وينظر إلي بطرف عينيه كأنه يريد أن يطمئن علـ ي. ويمـ د يـ ده الصغيرة يربت على ذراعي ويقول: " تعالي جنبي علشان تسـ تريحي ". فأشعر أن كل همومي تبخرت. وكأنك لم تتركني وحدي، بـ ل منحتـ ي جزءًا من نفسك ".

مد عزيز ذراعه حول كتفيها. رفعت وجهها إليـ ه وقبلتـ ه. أحـ س بينبوع دافئ ينتفض في أعماقه. أخذ نفسًا طويلاً وقال:

" نادية. حبيبتي. أريد أن أسألك عن بعض الأشياء ".

وضعت رأسها على كتفه وقالت:

" اسأل ".

" لا أستطيع أن أسأل وأنت هكذا ".

اعتدلت في جلستها، ونظرت إليه بعينين واسعتين من العتاب.

" ماذا فعلت في المشروع الذي حدثتك عنه "؟

حملقت أمامها لحظة كأنها تستجمع أفكارها.

" تم جزء كبير من الترتيبات. والدك اتصل بأحد أصد دقائه. وقـ د وافق الرجل على أن يوفر لك سيارة تحملك إلى بور سعيد. وسيصـ حبك بنفسه إلى هناك. كما أنه سيأويك في منزله ".

" كم أنا سعيد بهذه الأخبار!! الحظ معي كالعادة ".

" لو سمعك الناس لابتسموا. الحظ معك! مسـ جون وتقـ ول الحـ ظ معك".

" أنا الذي اخترت هذه الحياة ".

" أنا أعلم هذا يا عزيز. ولكنني أخاف عليك ".

" لا تخافي. لن يحدث شيء. دعي هذا القلق جانبًا ليس هذا وقتـ ـه. أنا أحتاج إليك، وبدونك لن أستطيع أن أفعل شيئًا ".

" أنا معك، يا عزيز. أنت تعلم هذا ".

" حسناً. بقيت بعض التفاصيل المهمة. أين ستقف سيارته "؟

" قال أنه يفضل عدم الدخول إلى المستشفى. وهذا أضمن له ولـ ك فإذا لاحظ أحد وجود السيارة أثناء هروبك، ربما استطاعوا أن يتتبع وك وأن يصلوا إلى مكانك ".

صمت لحظة طويلة كأنه يفكر.

" إذن لا بد من تدبير سيارة أخرى. ثم تركهـ ا للانتق ـال إلـ ى سيارته عند مكان معين. وهذه مشكلة ".

" ماذا ستفعل إذن "؟

" لا أعرف الآن. سأفكر في الأمر فيما بعد " ولكن لننتهي الآن من الجزء الخاص بصديقنا هذا؟ من هو؟ "

" الأستاذ عطية مبارك ".

" عضو البرلمان "؟

" نعم هو. هل تعرفه "؟

" أسمع عنه ".

صمت من جديد كأنه يقطع الحديث. قال ملتقطاً الخيط من جديد:

" لقد قررت أن أفضل وقت للهرب بعد ساعة الإفط ـار. مـ دفع الإفطار ينطلق الساعة السابعة مساء. سأتحرك من هنا بعـ د السـ ـاعة السابعة بثلاث أو أربع دقائق. المسافة حتى السيارة التـ ـي سـ تنتظرني داخل المستشفي تستغرق دقيقة ونصف. أقترح أن ينتظرني هـ و فـ ي الشارع العريض المتفرع من شارع القصر العيني عند كلية التجـ ـارة. المسافة من المستشفى حتى هناك بالسيارة لن تستغرق أكثر من دقيقـ ـة ونصف. سأصل إليه خلال سبع أو عشر دقائق بعد مـ دفع الإفطـ ـار.

والأفضل إذن أن ينتظرني بسيارته ابتداءً من الساعة السابعة. عليك أن تقومي برسم المكان على ورقة صغيرة، وأن تحددى مكـ ـان وقـ ـوف السيارة، على أن تعطي نسخة له، ونسخة لي، حتى لا يحدث أي خطأ. من المهم أيضًا أن يتجول بسيارته مرة أو مرتين حول المكان المحدد ليتأكد من أنه مناسب تمامًا. فإذا لاحظ أي شيء عليك أن تبلغيني به.

" وكيف ستحدد اليوم "؟

" الست زينب حكيمة القسم ستتصل بك تليفونيًا وسـ ـتقول أنـ ـي منتظر أخبارًا سارة يوم كذا ".

" وماذا ستفعل إذا نجحت خططك "؟

" من الأفضل أن أغادر القطر لمدة من الزمن. وصديقنا يستطيع أن يساعدني في هذا. ربما كان من المناسب أن تفاتحيـ ـه فـ ـي هـ ـذا الاحتمال وأن تردي علي ".

" لن أراك إذن "؟

مد يده، وربت على رأسها في حركة سريعة.

" سنلتقي يا نادية، سنلتقي ".

" عزيز ".

" نعم ".

" سألحق بك إذا سافرت ".

" هذا ما أتمناه، بل أحلم به، لا بد أن نعيش سويًا ولـ ـو بعـ ـض الوقت ".

ساد الصمت عميقًا مثقلاً بمسحة من الحزن. اقتربت نادية منه والتصقت به كأنها تبحث عن الطمأنينة. مد يده وأدار وجهها ناحيته. لمح بريق عينيها في الضوء الخافت، فقبلهما الواحدة ثم الأخرى، مرر بشفتيه على أنفها واستقر بهما على فمها. أغلق عينيه باحثًا عن النسيان سمعا صوت حذاء يحتك بالأرض في الخارج، فانتفضا، وابتعدا عن بعضهما بحركة سريعة قلقة. عاد السكون مرة أخرى.

قالت:

" لم يبق سوى أن أقوم أنا بباقي الترتيبات ".

" وما هي "؟

" الترتيبات الخاصة بالخروج من الحجرة. وإعداد السيارة الثانية".

" وهل فكرت فيها "؟

" إلى حد ما ".

" لماذا لا تحدثني عنها "؟

" تعبت الآن. أريد أن أنسى الموضوع. وأعود إليه فيما بعد. لنتحدث عن أشياء أخرى. ما أخبار البلد "؟

" هناك شيء ما في الجو، شيء ينذر بالتغيير. لم يعد من الممكن أن تستمر الأمور هكذا. الشعب كله يتحرك. الإضرابات تتوالى وسط العمل، والمعارضة تشتد في البرلمان والجامعات لا تكف عن التحرك ... ألا تقرأ الصحف؟ ".

" أقرأها بانتظام ".

" وما رأيك "؟

" لهجة جديدة لم نعهدها من قبل. ولكن ما أخبار التنظيم "؟

" ستصلك رسالة مطولة بعد باكر. فيها تلخيص كامل لكل النشاط. قامت من جلستها وقالت:

" أريد أن أرى حجرتك ".

أمسكت بيده وأخذت تخطو به دوء في المساحة الصغيرة للحجرة، تنتقل بعينيها من الراديو، إلى السرير، إلى ملابسه المعلقة على الشماعة إلى أدواته على الرف فوق الحوض، تلمسها بين الحين والحين بأطراف أصابعها كأنها تريد أن تحمل معها ذكريات كل ما فيها. توقفت فجأة وسط الحجرة. أمسكت بيديه ومالت نحوه بجسدها. أحس بشفتيها تبحث عن شفتيه. أحاطته بذراعيها والتصقت به. فقد الإحساس بكل شيء سوى موجات الدفء تهتز عبر ثوبها. همست في أذنه:

" حبيبي. أريدك ".

ظل صامتاً. ماذا يقول؟

رددت:

" حبيبي. أريدك. ألا تريدني "؟

" بل أريدك أكثر من أي شيء آخر ".

" ماذا تنتظر إذن "؟

" هنا يا نادية " ؟!

" ولم لا. ثلاث سنوات، يا عزيز وأنا أنتظرك. أريد أن أعطيك نفسي. أريد أن أذيب شقاءك، أن أروي ظمأك بحبي ".

أحس بها تقوده برفق إلى السرير. خلعت حذاءها بحركة سريعة رشيقة، واستلقت بنعومة مرنة على ظهرها ... رأى عينيها الواسعتين تنظران إليه بحنان غريب، كالأم تنظر إلى ابنها. جذبته إليها. التفت بذراعيها حوله، وقبلته مرة بعد مرة ... أخذت تهمس في أذنه بكلمات حارة لم يعد يميزها. فتدفق فيض في داخله كأن سدًا من الحجارة يذوب وينهار. سمعها تقول:

" حبيبي. أحبك. أريدك. خذني إليك يا عزيز، خذني إليك ".

أصبح كالزورق النشوان محمولاً فوق تموجات جسدها. الأمواج ترتفع به عالية، وجسده لم يعد له ثقل بل لم يعد له وجود. إنه يتلاشى ويضيع وينصهر، كأنه ينفذ إلى أعمق الأعماق بحثًا عن سر العطاء سر الحياة، يخال إليه في لحظة أنه وصل إلى قمة الفناء، فيكتشف أن بعد القمة قمة أخرى يتوق إليها بكل خلاياه النابضة.

همست في أذنه بصوت ضائع مبحوح.

حبيبي. أريد ... أريد منك طفلاً.

* * *

الأيام تمر بسرعة، تكاد لا تبدأ حتى تنتهي، ما إن يقبض عليها حتى تفلت منه دون أن يدري بسريان الزمن. ما زال يبحث عن مصدر للسيارة الأخرى. إذا لم يوفق انهار كل شيء. خطرت في ذهنه فكرة منذ يومين. أخذ يقلبها طوال النهار والليل. ولكن الآن لا بد من حسم الأمر.

الدكتور علاء. لماذا لا يفاتحه في الموضوع؟ ربما رفض أن يعاونه في الهروب ... ولكن عزيز واثق تمام الثقة أنه لن يفشي سره. شيء ما في نظرة عينيه، في الوجه المفتوح، في المشية يغرس فيه هذا اليقين.

إذن فليفاتحه في الأمر. حياته علمته أن يعتمد على الناس. أن يشك ولكن أن يثق أيضًا في قلب الإنسان. إنه يمر على المرضى مرتين في اليوم: في الساعة الحادية عشرة صباحًا، وحوالي السادسة مساءً. أفضل. ستكون لديه الفرصة ليتحدث إليه في هدوء، دون أن يقلقهما أحد.

حاول أن ينام بعد الغداء دون جدوى. فكل شيء ربما يتوقف على لقاء اليوم. أخذ يتقلب على السرير، ويمشي في الحجرة، ثم يعود إلى السرير ثانيًا. حتى الموسيقا لم تستطع أن تجذب اهتمامه، وارتفعت كومة أعقاب السجائر في المنفضة الموضوعة بجواره.

وفي لحظة كادت أن تطرف فيها عيناه سمع طرقًا خفيفًا على الباب. التفت ناحيته، فوجد الدكتور علاء يقف في الفجوة المفتوحة، وقد ارتدى ملابسه البيضاء الناصعة، وتدلت من حول عنقه السماعة السوداء الطويلة. كانت تبدو على وجهه نضارة مشرقة. كأنه ارتاح طويلاً، وتشع منه رائحة الصابون والكولونيا. سأل وهو يبتسم:

" هل تسمح لي بالدخول "؟؟

" أهلا بك. كنت أنتظرك في الواقع ".

تقدم خطوتين داخل الحجرة، ووقف عند قدم السرير، مسندًا إحدى ساقيه على المرتبة.

" خير إن شاء الله ".

" خير ".

" أريد أن أستشيرك في شيء ".

نظر إلى عزيز في شيء من التساؤل. أنزل ساقه من على السرير، وجلس على المقعد.

" ها أنذا أنتظر ".

" هناك مسألة تشغلني ".

صمت الدكتور علاء منتظرًا.

" لا أعرف كم من السنين سأبقى هكذا معتقلاً. وأضيق أحيانًا من الاستسلام لهذا المصير ".

" أليست هناك نهاية للحكم الذي صدر ضدك "؟

" هناك نهاية على الورق. ولكن بعد انتهاء المدة كثيرًا ما نعتقل ".

" وماذا يمكنك عمله "؟

" لا أعرف. ولكنني أفكر في بعض الأشياء ".

" لماذا لا ترفع مظلمة "؟

" مظلمة "؟

" نعم نوع من الالتماس، تعد فيه الحكومة بأن توقف نشاطك. أعتقد أنهم قد ينظرون في مثل هذا الالتماس ".

" طبعًا. ولكن هل تعتقد أن مثل هذا التصرف سيليق بإنسان له مبدأ؟ ".

قطب جبينه وبدا عليه شيء من الارتباك.

" ولم لا؟ بعض الخداع لتخرج، ثم عليك أن تفعل ما تشاء. ما فائدة وجودك في السجن؟ "

" الإنسان يسجن. ولكن النموذج يعيش قويًا مقنعًا ".

" ربما. أنا لا أعرف كثيرًا عن هذه الأمور. ولكنني أشعر بالأسف عندما أراك هكذا حبيس الجدران. وهل لـ ديك حـ ـل آخـ ـر إذن، غيـ ـر الاستسلام لمصيرك "؟

" نعم ".

" ماذا "؟

" أن أهرب ".

تجمدت أساريره، وحملق في عزيز كأنه لا يصدق ما سمعته أذناه. ساد الصمت في الحجرة الصغيرة، لا يقطعه سوى نقاط من المياه تسـ ـقط في بطء من الصنبور. واحدة، اثنتان، ثلاث ... وجد عزيز نفسه يعـ ـدها بنوع من التسجيل الآلي، كأن ذهنه يعمل بعيدًا عنه.

" ألا تخشى مما قد يقع لك؟ هل فكرت في العواقب جيدًا "؟

" أخشى. ولكن رغبتي في الخروج من هذه الحياة أقوى ".

" وأين ستذهب "؟

" يمكن عمل الترتيبات اللازمة ".

صمت الدكتور علاء كأنه يَزِن الأمر. ثم سأل:

" ولماذا تحدثني عن هذا "؟

" لأنني في حاجة إلى مساعدتك ".

شحب لونه قليلاً. وأخذ نفسًا عميقًا كالذي يحمل ثقلاً فوق صدره.

" مساعدتي. وماذا أستطيع أن أفعل "؟

" هل أنت مستعد أولاً "؟

بدا عليه التردد الشديد. أخذت أصابعه تلتف، وتنفك من حول مسند المقعد. رآها عزيز بيضاء طويلة متوترة.

" ما الذي تطلبه مني "؟

" أن تنتظرني داخل حوش المستشفى بسيارتك. وأن تحملني خارج المستشفى، وتتركني في مكان قريب من هنا ".

" وإذا ضبطنا "؟

" أنت تعرف الإجابة على هذا السؤال. ولكنني لن أركب سيارتك إذا أحسست أن أحدًا قد لاحظني وأنا أهرب ".

سكت من جديد. حركات وجهه، وعيناه المسمرتان على نقطة ما خلف رأس عزيز، تنم عن الصراع الذي يدور في أعماقه.

التفت إلى عزيز بابتسامة بدت واهنة أول الأمر، ثم أخذت تشرق على وجهه في قوة. فجأة انفجر ضاحكًا.

" لا مؤاخذة – يا دكتور عزيز أنت مجنون. ويبدو أن جنونك سينتقل إلي. لو كان أحد سواك قد عرض علي مثل هذا الأمر ... ولكن أنت ... لا أعرف ... شيء ما يجعلك قريبًا إلى قلبي ... أو ربما يشعر الإنسان أحيانًا أنه يريد أن يفعل شيئًا خارقًا للعادة. هذه الحياة التي نحياها ... تبدو لي " تردد كأنه يبحث عن كلمات يعبر بها عما يشعر ... " تبدو لي جافة ... رمادية اللون ... باردة أحيانًا " ابتسم من جديد. " ربما أنني أبحث عن إحساس بالجدة ... عن شيء قوي يحرك الأعماق. لا أعلم ... لم أفكر في هذه الأشياء كثيرًا. ولكن لديك القدرة في أن تخرج الناس من حياتهم العادية ".

ظل عزيز صامتًا. لم يكن يعرف ما يقول، وكأنه لا يوجد ما يقال. قام من فوق السرير. اقترب من الدكتور علاء وأمسك بذراعه. ضغط عليها بقوة.

" إذن أنت موافق "؟

" موافق ".

التقت عيناهما في نظرة طويلة جادة. ثم فجأة انفجرت ضـ حكاتهما عالية ترن في الحجرة الصغيرة بأصداء مرحة، وتنسـ ـاب مـ ـن النافـ ذة المفتوحة مع نسمات المساء، في موجات متتالية ارتدت عند جدار العنبـ ـر المواجه. أطل الضابط برأسه من الباب.

" ماذا بكما "؟

التفت عزيز إليه، وأشار له بالدخول.

" اقترب يا حضرة الضابط. ألا تريد أن تسمع آخر نكتة؟ احكِ له يا دكتور علاء. احكِ له ".

* * *

الساعة الآن السابعة إلا عشر دقائق. وقف وسط الحجرة يلقي نظرة أخيرة ليطمئن على كل شيء. مائدة الطعام معدة استعدادًا لمدفع الإفطار. أطباق صغيرة متعددة بألوانها الزاهية، يتصاعد منها البخـ ـار، ورائحـ ـة الطعام الجيد. أحضر إليه أحد الحراس كمية من الخيار المملح، واللفـ ـت. قال: " زوجتي تجيد صنع المخللات، وأصرت على أن آخذ كميـ ـة معـ ـي حتى تفتح شهيتك للطعام " أحس بطعنة خفيفة تحت الضلوع. سيغدر بهذا الرجل وبطيبته. ماذا سيقول عنه فيما بعد؟ رأى صورته حليـ ـق الـ ـرأس يطل من خلف القضبان إلى أطفاله. تملكته قشعريرة خفيفة فطرد الصورة من ذهنه.

الآن زال عنه كل توتر. يتحرك بهدوء كامل كأنه يعد وليمة لبعض الأصدقاء. لم يعد يربط بين الموقف وبين نفسه، كأنه مجـ ـرد متفـ ـرج لا صلة له بالأحداث. وضع إناءً صغيرًا من الفول فوق الموقد، وأشعل النار تحته. أخذ ينظر من طرف عينه ناحية الشرفة. الحارسان يجلسان حـ ـول البطانية، وقد وضعا أطباق الطعام والفجل، والبصل الأخضـ ـر، وتـ ـلالاً

صغيرة من الخبز أمامهما. اختارا المكان بحيث يمكنهما رؤيت ه داخ ل الحجرة. تقدم ناحية الدولاب، وفتحه كأنه يبحث عن شيء بداخله، ثم ترك إحدى الضلفتين مفتوحة، وكأنه نسى أن يغلقها، تعود أن يتركها هكذا بين الحين والآخر في ميعاد الإفطار، بحيث يصبح هذا الفاصل الخشبي الذي يختبئ وراءه أمرًا معتادًا لا يلفت الأنظار. أدار قرص الراديو بحيث يعلو صوته، ويغطي على حركاته داخل الحجرة. ثم فتح صنبور المياه حت ى يصدر عنه خرير مسموع: صوت يعطي إحساسًا بأنه يوجد شخص ف ي الحجرة. تناول طبقًا كبيرًا من البقلاوة، وانتقل إلى الحج رة المج اورة. وجد الضابط يجلس على المقعد، ويدخن سيجارة. لم يكن صائمًا. وض ع البقلاوة أمامه على المائدة. إنه يحب الحلويات ولن يقاوم إغراءها. ستمر خمس دقائق على الأقل حتى يفرغ منها. وق ت ك افٍ ليك ون خ ارج المستشفى إذا ما فكر الضابط في أن يطمئن على وجوده. نظر في ساعته. وقال: " بقيت دقيقة واحدة على المدفع. عن إذنك ".

" تفضل. وشكرًا على البقلاوة ".

" بالهناء والشفاء ".

علت في صدره ابتسامة داخلية باردة واهنة. عاد إلى حجرته ترن في أذنيه نغمات أذان الصلاة تذكر جوامع القلعة عند غ روب الش مس. انطلق المدفع في الراديو بصوت كالرعد البعيد. س حب المقع د عل ى الأرض بصرير مسموع، وجلس على المائدة. دس إصبعه في طبق الفول وتناول لقمتين. ثم قام في هدوء وخرج من الحجرة يمشي بخطى س ريعة متزنة. اخترق باب العنبر، وسار عبر الطرقة الطويلة حت ى أول س لم. نظرة سريعة وراءه. الطرقة خالية تمامًا. صعد السلم بقفزات مندفعة، ولم يشعر إلا وقد وصل إلى الدور العلوي. اتجه ناحية بي ت الامتي از. رأى

طبيبًا يسير أمامه بمعطفه الأبيض ... الدكتور منير ... خفق قلبه. أسرع حتى أصبح إلى جواره. أخرج سيجارة وقال:

" يا دكتور من فضلك. أمعك شعلة "؟.

" أهلا دكتور عزيز. أين أنت ذاهب "؟

" إلى بيت النواب. مدعو من بعض الأصدقاء على الإفطار " ...

ناوله علبة كبريت.

" ضعها معك. لدي علبة أخرى ".

" أشكرك ".

أشعل سيجارته ونفث منها خيطًا من الدخان. كانا قد وصلا إلى بيت الامتياز. فانحنى ناحية اليسار واخترق الباب. وهو يقول:

" عن إذنك ".

لم يعد قادرًا على تملك خطواته. الآن يكاد أن يعدو وهو يسير عبر ردهات المنزل. نزل درجات السلم على الناحية اليمنى بوثبات سريعة. وقف عند الباب المطل على الحوش، وألقى نظرات خاطفة حوله. السيارة تقف ملاصقة للباب. رأى وجه الدكتور علاء الشاحب. دار حول السيارة وفتح الباب، ثم جلس إلى جواره. دار المحرك وانطلقت السيارة عبر الحوش الخالي تمامًا. مد يده إلى المقعد الخلفي وتناول المعطف الأبيض. ارتداه بحركات سريعة ووضع السماعة حول عنقه. عبرت السيارة الباب الخارجي. عند الكشك الخشبي جلس رجلان أمام دكة صغيرة يأكلان لم يرفع أحدهما عينه ليلتفت إلى السيارة المسرعة.

وضع عزيز ذراعه على المقعد المجاور خلف ظهر الدكتور علاء وقال:

" كل شيء على ما يرام. اهدأ الآن وخفض سرعتك. لا نريد أن نرتكب حادثة ".

ظلا صامتين حتى وصلا إلى جوار كلية التجارة، فتوقفت السيارة. مد عزيز يده. تشابكت الأيدي بقوة لحظة طويلة. فتح الباب وخرج. أطل برأسه من النافذة. وقال:

" أشكرك. وإلى اللقاء ".

الظلام الدامس الثقيل يلفه كالغطاء المحكم، ويغلق كل المنافذ، حتى فتحات أنفه، كأن شيئًا ما يضغط عليها فيسدها. فرغم الجهد الشاق الذي يبذله، حتى ترتفع عضلات بطنه وتنخفض، وحتى يعلو صدره ويهبط، ما زال يشعر أن الهواء لا يدخل ولا يخرج من جسمه مع كل شهيق وزفير، كالذي يحاول أن يستنشق سائلاً ثقيلاً.

ورغم أنه يدور بعينيه حول الحجرة باحثًا عن بصيص من النور يساعده على أن يلمح الأشياء المعهودة التي يعرفها جيدًا لأنه رآها مئات المرات، فإنه ما زال عاجزًا عن رؤية أي شيء.

ورغم أنه مد ذراعه هنا وهناك باحثًا بأصابعه عن كتلة يلمسها، ويتعلق بها، فإنه ما زال يقبض على الفراغ. جسده يرقد فوق السرير مثل جسد يزحف عليه شلل بطيء، فتنحدر حواسه الواحدة بعد الأخرى.

الظلام الكثيف يلفه كالكفن، كالذي دفن حيًا في قبو عميق. أحس بصرخة مذعورة محبوسة في حلقه كالذي يزحف عليه الموت ويراه بعينيه.

وفجأة ارتفع في السكون صوت يغني. لم تكن هذه أول مرة يسمع فيها هذا الصوت. فهو مألوف لديه، يستطيع أن يميزه من بين كل الأصوات فعندما تختفي أضواء النهار وتنتهي، وعندما يسقط الليل الأسود

فوق رؤوسهم حاملاً معه ذلك السكون المطلق الذي يشبه الفناء كانوا يتكورون تحت الأغطية الناحلة، كالجنين في بطن أمه، باحثين عن الدفء، وينسحبون إلى عالم من نسيج الخيال، كدودة القز تنسج خيوطًا من الحرير حول نفسها.

ولكن الصوت الذي يخترق الكوة الضيقة عند أعلى الباب، ينساب كالنهر عبر السرداب الطويل الممتد بين صفين من الزنازين، ويقف عند كل باب من الأبواب الغليظة، ليقرعه بنداء لا يقاوم، يصل إلى الآذان كالبروجي القوي الحزين، يبدد خيوط الاستسلام التي تلفهم بنسيجها اليومي المستمر، ويتسلل إلى الأجساد المتكورة حول نفسها، تلوذ بالفرار بعيدًا، مثل حيوان مريض يريد ألا يرى.

الصوت كالبروجي، ولكنه ليس كالبروجي تمامًا. إنه يجبرك على أن تسمعه، ولكن بإرادتك الحرة، بالأشياء التي يوقظها في داخلك، بتلك الشحنة العنيفة العذبة التي تولد مع كل موجة صوت تصلك في الظلام.

إنه يجعلك تتقلب على ظهرك، وتفرد جسدك المتكور، وتمد ذراعيك وساقيك، وتخرج رأسك من تحت الغطاء كالدودة التي تبحث عن غذائها وتفتح عينيك لترى الأشياء في الظلام، والذي لم يعد ظلامًا، فهذا شعاع ما يصل إليك من مكان ما لا تعرفه، وتوسع فتحات أنفك حتى آخرها لتستنشق هواءً نقيًا يأتيك ربما من تحت عقب الباب أو من النافذة الصغيرة في السقف.

إنه يجعلك تبتسم.

وقد مرت السنون تلهث الواحدة خلف الأخرى، مرت خمس وعشرون سنة. وعزيز الآن يعرف أشياء كثيرة ينسى بعضها أحيانًا

ويتذكر بعضها أحياناً أخرى. ولكن شيئاً واحدًا لا يفارقه أبدًا. هـ و ذلـ ك الصوت الحلو القوي يغني في الظلام.

* * *